2020
2.1.2020

ميودراك بولاتوفيتش

رجال بأربعة أصابع

ترجمة: د.وليد السباعي

رواية



ميودراك بولاتوفيتش

رجال بأربع أصابع

ترجمة: د. وليد السباعي

عنوان الكتـاب: **رجال بأربع أصابع**

اسـم المؤلـف: **ميودراك بولاتوفيتش**

اسـم المترجـم: **د. وليد السباعي**

الموضـــوع: **روايـة**

عدد الصفحات: **518 ص**

القيـــاس: **14.5 × 21.5 سم**

الطبعـة الأولى: **1000 / 2018 م - 1439 هـ**

ISBN: 978-9933-580-95-7

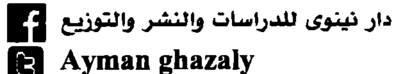


سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: **+963 11 2314511**

هاتـف: **+963 11 2326985**

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org



العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

العنوان الأصلي للكتاب:

MIODRAG BULATOVIĆ

LJUDI SA ČETRI PRSTA

تنويه:

صدرت هذه الرواية حينما كانت يوغسلافيا جمهورية فيدرالية مكوّنة من ست جمهوريات قبل انفصالها، وقبل انهيار المعسكر الشيوعي. وهذه هي الترجمة الأولى إلى اللغة العربية وعن اللغة الأم مباشرة.

المترجم

المحتويات

الإهداء

إلى ميلوش ماركوفيتش، السينائي، الـذي اعـترف لي بكــل شيء، بــدون ذرة خجــل أو كراهيــة تجــاه أي إنسان، أهدي هذه الأحداث المغـامرة، المكتوبـة بكــل اليد اليمنى.

مقدّمة

«يا وطني. اسمك لم يعد يهمني، فهيا نصفي حساباتنا. خذ كل ما أعطيتني. أعيد لك اسمي أولاً، فحررني من قدرك وظلامك. لقد غدوت ضدك أيها الشامخ بدون قلب، إنساناً هامشياً مدموغاً بالدجل والغيبية، ينخر بداخلك، فيا وطني اللعنة، يا تفاحة حمراء كبيرة وناضجة، دع الدودة تخرج منك، وابق شامخاً لتنمو وتكبر وتصبح أجمل تفاحة في هذا الكون.»

«قدرٌ تقول؟! أجل قدر، لكنه خنزيري. ففي البداية تحب وطنك، وتجاهد من أجله. تنزف وتفخر بدمك النازف. لكن الوطن الغالي يلفظك على مزبلة غريبة، نازفاً مثخناً بالجراح والدموع. فأين المعين ولا شيء سوى الليل والغربان. فتقول محشرجاً: يا وطني الوحيد لا تسمح لهم أن يبصقوا ابنك.. لكنهم يطردونك من فوق المزبلة مشفوعاً بعواء الكلاب وأبشع النعوت، كما لفظوني قبل نيف وعشرين من السنوات. فتحزن باطراد لمسقط رأسك، للكنائس والمقابر والأغاني باللغة الأم. وتغدو نازحاً غريباً تائهاً لا تتبين شرقك من غربك، فتتبع أناساً يستحيل عليك حبهم، لأنهم أدركوا اتجاههم، وعرفوا جهات العالم والتوجه الصحيح، وامتلكوا بيتاً وصليباً معلقاً في مكان ما بداخله.

فتحاول وأنت منهك تجرّ أسمالك مساعدة الوطن. تناجيه: ليس هكذا أيها الفقير.. بل هكذا.. يا أختي التي أضاعت شرفها، يا وطني الكبير بدون قلب. لكن وطننا مثل كل الأوطان لا يسمع ذلك ولا يراه، ولا يهمه كل ما

عنكب حول عينيك من تجاعيد، وكل ما احتـواك مـن الوسـاخة والعفونـة. فتنحني وتتقلص وتنزف مثلي حتى الموت.

وتستفيق محشرجاً ذات ليلة لتصرخ: يا وطني، يا بغياً بدون قلب لا تشبع. ثم تنتصب لتحبك الانتقـام وأنـت متجمـد، جـائع، قاتـل، شـارب دمـاء. فتحرق، كغول لاجئ هارب، كل ما تبقى من وطن أبيك بعـد كـل كوارثـه، وتخنق بيديك قلبك المعذب، وتنقضّ على أرواح غريبة، عـلى رأسـك الفقـير المشتاق حتى الجنون من لوعة الوحدة والهجران.»



الفصل الأول
من نجم إلى خنزير

- ١ -

قُذِفَ ماركوفيتش «مارك» بيديه الموثقتين خلف ظهره ككيس مملوء بالحقارة في إحدى زوايا السيارة الصالون، بين جسدين آدميين قويين. وكانت أكتاف الخاطفين وأكواعهم تنغرز في أضلاعه ووركيه على وقع اهتزاز السيارة المهددة بالتفسخ لدى كل عطفة، واضطرابها في حفر الطريق القروي الضيق الصاعد في الجبل باتجاه السماء. ولو لم تكن عيناه معصوبتين لشاهد أول الخاطفين، المدعو بركلو، قد وضع في حجره كيساً من القنب المبلول وخيطاً ومقصاً. كانت يدا بركلو المليئتان بالدمامل المتحجرة، الرطبتان المالحتان، تضغطان فم مارك وفكيه، وتسحبان لسانه، في كل مرة يحاول فيها أن يتفوه - وهو مرهق ومحشور حتى الانفجار - ليقول لهم إنه يتألم، وإن رقبته المليئة بالسحجات المدماة قد تقوست، وإن عينيه ستخرجان من محجريهما، وإنه سيتقيأ جوفه للخارج إذا لم يتوقفوا عن ضغطه وحزمه.

ولكن مارك لم يعد يملك القوة ليصيح أو يستنجد. كان يئن فقط، وهو يسمع هدير محرك السيارة المصفوعة بماء ذلك المطر البافاري[1] البارد. أما الرجل الثاني تومو دازلينا، فقد قال: إنهم - ثلاثتهم - لا يخفون الحقيقة حينما يصرحون بأنهم نهاراً عمال أغراب يحفرون ممرات السكك الحديدية في

---

1 - نسبة إلى بافاريا إحدى مقاطعات ألمانيا.

ميونيخ، وليلاً أوستاشي[1]. وأنهم سيذبحونه قبل الفجر إذا لم يهدأ ويستكين ويخضع لأوامرهم في اختطاف الناس واغتيالهم، لحسابهم وحساب أسيادهم، وأوامر الحاكم الذي لا يخطئ.

أما أنطون فوريتيتش، وهو الرجل الثالث، فقد كان ينشق بصوت غليظ، يمأمئ، وهو يدوس بجزمته حنجرة مارك وأضلاعه. أضاف بركلو أن كل شخص يوغسلافي آخر ليس كاثوليكياً، وكل من يؤيد تلك الدولة البلقانية اليوغسلافية المكونة بذوق صربي[2]، بل أن أي شخص آخر مهما كان لون جواز سفره، حتى ولو كان ألمانياً، يرفض مساعدة الحركة الصليبية التحررية للأوستاشي في الجزء الغربي من العالم، سيلاقي نفس مصير مارك، مهما طال الزمن. كانت السيارة تصعد الجبل، والريح تضرب النوافذ من طرف حاملة معها عواء الكلاب والصقيع.

هدأ الخاطفون، فاحتلته قشعريرة. بَدوا وكأن النعاس يغالبهم. أما السائق فكان يلعن ويشتم صقيع نيسان، ومريم العذراء، والأغصان العائقة لحركة ماسحتي المطر على زجاج السيارة.

كان عواء الكلاب مكبلاً بالصقيع، وهو يتلاشى خلفهم.

---

1 – رجال منظمة إرهابية خرفاتية كانت أيام الحرب مع هتلر، حينما احتل يوغسلافيا. هرب معظم أعضائها إلى أوروبا الغربية وأمريكا وكونوا منظمة إرهابية هي امتداد للأولى مهمتها التحريض وقلب نظام الحكم بها في ذلك الإرهاب بأنواعه. – المترجم –

2 – شاع خطأ استعمال لفظ كرواتيا والصحيح هو خرفاتيا والخرفاتيون. – المترجم –
تتكون جمهورية يوغوسلافيا الفدرالية من ست جمهوريات هي: صربيا، خرفاتيا، مكدونيا، الجبل الأسود، بوسنا، سلوفينيا. وهناك حساسيات زائدة بين الصرب الأرثوذوكس والخرفات الكاثوليك منذ أيام الحرب. – المترجم –

- ٢ -

تذكر مارك - وهو على هذه الحال - شاندور كولار، المجرم المشوق، بارز الوجنتين، ذا العينين الشريرتين الذكيتين، والشعر الأشقر الأملس، واليدين الطويلتين بصورة لا طبيعية، اللتين كانتا تركزان السيجار الهافاني في إحدى زوايا فمه أحياناً، وأحياناً تمشطان شعره بمشط من البلاتين، وأحياناً تنسلان الساعة القديمة من جيب صغير على صدارته. تعارفا على بعضهما في الفناء الطويل لمستودع القطع في زر ندورف، بعد مشاجرة دامية كمعركة، خرج منها اللاجئون السياسيون والهاربون[1] المجريون والبولنديون منتصرين، وأمثالهم من اليوغسلافيين والتشيكوسلوفاكيين مهزومين.

قال كولار وهو يعانق مارك: «لو أنك لم تسحبني إلى اليمين لقلع عيني ذلك الروماني النتن!».

«لهذا قلع عين البولندي».

«وما لزوم العين للبولندي؟!».

أجابه مارك وهو يشاركه الضحك: «معك حق. حتى العين الواحدة كثيرة عليه!».

---

1 - سيرد هذا التعبير بكثرة في الرواية، وهو ترجمة لكلمة Emigrant وتعني المهاجرين أو النازحين. لكن الكاتب يقصد بها أولئك الذين هجروا أوطانهم دونما عودة لأسباب سياسية أو إجرامية.. لذا ترجمت هنا بهذا الشكل: اللاجئون السياسيون والهاربون. - المترجم-

كان المغدور في الثلاثين من عمره، ذو تقاطيع عضلية، مغموراً بالدم والطين، جاثماً على ركبتيه. كان بولندياً حتماً، حمل على صفحة يده المفرودة أمامه عينه المقلوعة. ولم يكن مارك قد رأى من قبل عيناً في كف. كانت عيناً صغيرة ميتة بدون أي معنى، عين لاجئ سياسي غريب. قال كولار: «إذاً أنت ماركوفيتش.. ميلوش ماركوفيتش». وابتسم عن أسنان بيضاء حادة كأسنان الكلب «يسرني أن أدعوك مارك. أسهل وأقصر. موافق؟».

«موافق».

«أنت شجاع يا مارك. ألا تلاحظ أنني أعرف عنك كل شيء؟».

«وأنا لا أعرف عنك شيئاً سوى أن الاسم والكنية مجريان.» قال مارك وهو يمسح عن كمية الطين والدم. وأضاف: «أتصورك في بعض الأحيان آتياً من مكان غريب وبعيد. تأتي ببعض الرجال وتسلمهم، ثم تقود غيرهم.. تتاجر بالرجال. حينما تصل تنتصب حولك معركة دامية كما حصل اليوم. تختفي بذكاء، وتتركنا نصفي الحساب ونحن نازفون ومنهكون. يقولون إنك من سوبوتيتسا[1]، وإنك تملك خمس لغات أم، وإن أحداً حتى الآن لم يتمكن من خداعك».

أجابه: «إنني من أولئك الذين يدفعون في النهاية».

كانا يغتسلان ويسرحان شعرهما في مرحاض عمومي. وتمعن مارك برهة في المرآة، بوجهه الملتهب المنتفخ، وعينيه الواسعتين المنحرفتين من طرفيهما، وحاجبيه الكثيفين. كان على جسده سروال داخلي مستعار صلّبته الملوحة والعرق، لم يذق طعم الغسيل منذ أسابيع، وسترة ضيقة من الجلد

1 – مدينة في يوغسلافيا، صربيا، معظم سكانها مجريون.

الصناعي الرخيص، وبنطال جينز، وكنزة سوداء بياقة مرتفعة للعنق، وساعة طيار. كان يرتجف من البرد ويسعل. وكان كولار يدمدم بأغان يرددها للحظة بلغة روسية وللحظة بلغة مجرية. يتلفت حذراً واعياً لكل ما حوله. عموماً لم يخف عن مارك النقود، ولا السكين، ولا المسدس الصغير البّرام الموضوع داخل غلاف جلدي تحت إبطه الأيسر. وكان مارك يغبطه على بزته الأنيقة، وجزمته المصنوعة من جلد الثعبان، وتصرفاته البوهيمية.

سار مارك وراء كولار يتبعه، يتشمم من حواليه، محترساً أن يتقدم ولو خطوة واحدة أمامه، أو أن يصدر حركة يد واحدة مختلفة عنه. لقد بات واضحاً لديه أنه سيتبع ذلك المجرى، أنه سيصبح الغوريلا[1] التي تحميه، الحارس، العبد، أي شيء يريده ذلك الشيطان ذو العينين المعدنيتين. وقد بدا من أحاديثهما، وكل ما كان يتفاخران به، أن كولار أيضاً كان يخطط للشيء نفسه. أخبره كولار أن المعركة ستستمر. وبأن الرومانيين واليوغسلاف والتشيكيين يريدون ردَّ الاعتبار حتى لو تعاركوا لمنتصف الليل، للغد، للأبد. سمعا صوت صفارات الشرطة وعواء كلاب البوليس وموسيقى بلقانية منبعثة من الترانزستور، وقتها كان ملك الجمال كولار يلامس الكدمات على وجهه، وهو يدمدم ذاكراً سوبوتيتسا ويوغسلافيا، التي كلما تذكرها انتابه شعور بالإقياء يملؤه. أما مارك فكان يسير بجانبه، والأكثر من خلفه، كأنه أصبح غوريلاه فعلاً.

«مارك، هذه ليست زرندورف، الماخور العفن بالنسبة لك!».

«أعلم يا قائدي أنها ليست كذلك».

1 - الغوريلا: اصطلاح يطلقه المجرمون على مرافقيهم وحماتهم. - المترجم -

«لِمَ تضيع وقتك إذاً مع هؤلاء القتلة آكلي لحوم البشر؟».

«لأنني مريض». قالها مارك، وهو يشعر بوخز الهواء البارد وزخ المطر المتجمد على جفنيه ووجهه «قالوا لي إنها الرئة أيها اليوغسلافي. الماء في الرئة. من الصعب إخراجه. الماء في كل مكان، على الأرض، في السماء، وفي داخلك. لهذا لا تفكر في الغد ما دمت مبللاً هكذا، ولا في الهدف الذي تقصده». «وأين تعذبت كل هذا العذاب؟».

«النمسا. حيث الضباب لا ينتهي، فهو لا يكاد يرتفع حتى يهبط ثانية على اللاجئين السياسيين والهاربين».

«الآن أصبحت معافى كما أرى».

«لقد رأيت بأم عينك كيف انقضُّ - وأشرّح!».

«بعبقرية. كأن الماء لم يكن بداخلك قط. لا أتمنى تذوق طعم يمناك!».

قال مارك بلهجة الحسرة والتمني «فما بالك لو أصبحت مرافقاً حامياً، تابعاً لأحد!».

«كيف الحال مع الوثائق؟».

«دست بجزمتي جواز السفر مرتين». قالها وهو يبتسم ويحمر وجهه، بينما كان كولار يقضم بأسنانه طرف شاربه المصفّر من التدخين. أضاف: «أول مرة في ترايسن كيرشن - النمسا. في ذلك الجواز المتعفن كان اسمي يوفو بابيتش. مواليد موستار - يوغسلافيا.. طلبت اللجوء السياسي، كما فعلت هنا. لكنهم لم يعطوني إياه.. لم أستطع أن أثبت لهم أنني أرغب في حرية الغرب النمساوية التي هربت من أجلها. أظنهم يا معلمي يفضلون

الآخرين هناك، أولئك الذين هربوا من المشانق الحمراء وهم يصيحون: تعيش الحرية... يعيش الغرب».

«لماذا لم تكذب؟».

«قلت لهم على رسلكم! أية مشانق هذه التي تتحدثون عنها؟. وأضفت بأنهم لم يعودوا يشنقون الناس ولا في الأفلام. فقالوا: عَمَّ تبحث إذاً في الغرب أيها اليوغسلافي؟. فأجبتهم أنني أريد ببساطة البقاء في هذا الطرف. سألوني: كم؟. قلت بعض الوقت. قالوا هل نستطيع أن نكتب أنك تريد البقاء حتى خراب الشيوعية وزوالها؟ أو حتى تنهار وتتعفن من تلقاء نفسها؟. قلت سأبقى حتى أستطيع إتمام بعض الأمور الشخصية والهامة، التي لا أستطيع إتمامها وأنا في يوغسلافيا بسبب طبيعتها الخاصة. أراد أحدهم أن يصفعني، وقال إنني غير واضح. أجبته بأنه هو الآخر ضبابيّ. ثار وأزبد، وتلفن عدة مرات وهو يحدجني بنظراته ويعود لقصة المشانق الحمراء. أخيراً وضع يديه فوق كتفي وشدني للأعلى، عندها ابتدأت أسرقه. سرقت منه حافظة النقود وساعة جيب وغليون. وعندما خرجت أعدتها له. ولحظتها فهم لأي نظام سياسي أميل، لأي مشانق. وقد حملت لمدة طويلة بعدها ساعة الجيب تلك. «كيف جئت إلى هنا؟».

«هرّبني أحدهم بعربة قمامة، وسلمني وهو يقول لهم: مجذوم آخر من الشرق!. وهنا رميت أيضاً جواز سفري الأحمر الثاني. بموجبه كنت أدعى توميسلاف بادورينا، ولا زلت مسجلاً بهذا الاسم هنا في سجلاتهم. لكنك لو قتلتني لما عرفت مسقط رأسي في ذلك الجواز. الشيء الوحيد المؤكد أن صورتي وضعت بدقة بدل صورة توميسلاف هذا، بحيث لا يخطر لهم على

بال أن توميسلاف الحقيقي قد غرق في نهر الدانوب قرب فينا داخل كيس مملوء بالبلاط».

«وهل أذلّوك هنا أيضاً؟».

«من يعلم ما كان سيحصل لو لم أحدثهم عن الغثيان الذي يصيبني حال رؤيتي للون الأحمر، وعن أحلامي بالمشانق. كنت أتظاهر بالرجفان. كتبوا كل شيء، وعملوا تحرياتهم. ولو أن المعتوهين فطنوا لجربوا بطريقة كشف الألوان».

«مفهوم. إذاً أنت ضد نظام الحكم هناك؟».

«يا معلمي، الإنسان الذي قضى عمره في السرقة والاختطاف والعنف، وقضى سنوات كثيرة في السجون، هو ضد كل أنظمة الحكم وليس ضد أحدها فقط. وهو لا يعمل إلا من أجل جلده وحريته التي يسلبونه إياها. أما بالنسبة للأوطان والحكومات فإنني ضدها كلها ما عدا تلك التي هربت منها.. لا - ي - ف - هـ - م - و - ن. كيف أفسرها لهم؟!».

«لكنك لن تحصل على اللجوء السياسي ما لم تفسرها».

«لا يوجد لجوء!؟ إلى جهنم. لكنهم لن ينتزعوا مني أي تفسير آخر».

«مارك. يجب أن تعترف بملاحقة الحكومة لك هناك، لأنها لو لم تفعل لما كنت هنا!».

«عذبتُ أنا الحكومة أكثر مما لاحقتني. فهي لم تكن لتلاحظني لو أنني لم أبصق دائماً على كل شيء تحترمه هي وشعبها ويعتبرانه غالياً ومقدساً».

«مارك، أي نوع من الناس أنت؟!».

«آخر مستوى» قالها بهدوء وصلابة، وهو يحاول حبس الدمع.

«ما يعذبني ويشوي كالجمر أعماقي هو أنني بآثامي وطريقة حياتي جلبت العار لأولئك البسطاء، هناك في الجنوب[1].

«في زرندورف، أقصد في الغرب عامة، يجب أن تشتم وتلعن كل ما هو سلافي[2]، أي قرباطي. وإلا لن يكون هناك لجوء سياسي ولا خبز».

«إنهم قرباط أكثر منا».

«لو علموا بما أخبرتني، وبمن تقارنهم، لأعادوك فوراً للجنوب، كأي مجرم. حتى تهترئ في سجون بلدك الشريف يوغسلافيا».

«يا قائدي، تفهم وضعي على الأقل. قليل علي أن أكون ضد دولة واحدة».

«اخرس. سيعيدونك».

«سأذهب من تلقاء نفسي، لكن بعد أن أنتقم».

«يبدو أن الجميع أخطؤوا بحقك!».

«آه.. كم أعشق إشعال النيران..».

«أخبروني أنك تقدمت بطلب هجرة إلى كندا».

«كنت مضطراً لقول شيء ما». قالها وهما يعبران أربعة رجال يسحبون بولندياً من الباب وقد حملوا عينه ملفوفة بجريدة للسياسيين والهاربين. وأضاف «في الحقيقة لا أريد الخروج من ألمانيا». عندها احتضنه كولار برقه، فأحس مارك أن قلبه يمتلئ بالدم والثقة.

---

1 - يقصد يوغسلافيا.

2 - السلافيون أو السلوفينيون: الشعوب التي استوطنت دول أوروبا الشرقية. - المترجم -

تابع: «وبالإضافة لكل الأسباب سأذكر أبي الذي لم يعد إلينا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية من مخيم التعذيب أوسنا بروغ[1]. سمعت أنه حي، وأنه يتفسخ ببطء هنا، في مكان ما من ألمانيا. لقد أخطأ كثيراً. إنه المسؤول عن وضعي الآن، مسؤول لأنني لن أصبح سوياً أبداً، مسؤول لأنني هنا. يجب أن أصفي حساباتي معه».

«دعه يتفسخ!».

«وما سبب وجودك اليوم هنا؟».

«أبحث عن غوريلا قوي، مطيع، وفيّ. صديق، رفيق يحميني، سمّه ما تشاء. أشعر بالقرف حينما أسير وحيداً دون أحد بجانبي أو خلف ظهري. أخطف النقود عادة وأهرب. ثم أعيش العبث حتى الجنون، أستبيح كل ما في طريقي. لا أعلم ما أنا فاعل بكل تلك الأشياء. لهذا أريد شراء أحد الشباب اليوغسلاف، رجل بساقين كالغزال ويد كالساطور!».

«لست مضطراً لشرائه».

«هل تقصد أنه أوكي؟!».

«أوكي طبعاً» قالها هامساً، وهو ينظر إلى ملك الجمال الخبيث وكله أمل، بينما كان كولار يراقبه بطرف عينه. «يلزمك غوريلا يوغسلافي، ويلزمني أخ أكبر، رفيق درب يأخذ بيدي في دروب الحياة».

«دروب ألمانيا» قال كولار وهو يضحك، ذلك المتأنق بآخر موضة، الناعم كحد الشفرة، وهو يشير بسبابته «سأقودك خلال ألمانيا.. خلال النمسا..».

---

1 - أوسنابروغ: أكبر مخيم تعذيب في ألمانيا الهتلرية. -المترجم-

«عرفت من أول لحظة أنك ستشتريني، عفواً ستأخذني.» «سأكون ملكه» قلتها في داخلي وانتظرت أن تقترب مني، واقتربت مني بالطريقة التي تخيلتها تماماً. حاسة سادسة. يقولون إن اللاجئ السياسي يموت بدون الحاسة السادسة. لقد أصبح واضحاً لدي عدم انقيادي لأولئك المجرمين الذين أتوا إلى هنا مرات عدة واشتروا بعض الرجال. لقد استغربوا كيف أنني لا زلت حراً، لا يملكني أحد، غير مبيع حتى الآن. لقد جسّ الأول عضلاتي وركبتي. وجسّ الثاني خصيتي وضغط ظهري، وسألني كيف حال الكلى. ثم وضع الأول على ظهري صندوقاً ثقله مئة كيلو غرام، وفتح فمي وعاين أسناني كالحصان. كان الرجلان جنوبيين، من البلقان. وكل ما كان يهمهما بضاعة آدمية رخيصة».

«ألم تتعرف على بوز رجل مخابرات شرقي جاء يتسقط الأخبار بين أولئك اللاجئين السياسيين والهاربين، المؤكدين دائماً بأنهم قد شنقوا في أوطانهم من أرجلهم وليط بهم؟»؟

«شككت بأمر أحدهم. كان يجيد كل اللغات السلوفينية، إضافة للمجرية والرومانية، ويلم بشيء من الألبانية أيضاً. لقد أكد أنه في مكان ما من البلقان، كان عامل منجم. وأكد بأنه لم يستطيع إثبات مواهبه في يوغسلافيا! وأبرز حكماً كُتب عليه: بسبب العمل ضد الشعب والحكومة ومصالحها تقرر الحكم عليه بالسجن مع الأشغال خمس سنوات. وقال إنه هرب من غياهب السجن نفسه، وجاء تحت جنح الليل إلى زرندروف بالتحديد».

«عندما يقف اللاجئ السياسي ليهاجم ويلعن، اهرب. وعندما يقف ليمدح، اهرب. أما إذا سكت منتظراً أن تبدأ أنت، فاهرب أيضاً، كلهم محرضون».

«سأهرب..» قالها وأخذ موقعه المحدد.

«سمعت أن الحب يضنيك!».

«نعم يا قائدي. اسمها يانوش نوفاك. ذات وجه منمش، خرنوبية الشعر، تشيكية الأصل. رمت بها الأرواح الشريرة مثلي إلى زرندورف وقذفتها في أحضاني».

«لا يستحسن لرجل له صنعتنا وأخلاقنا، للاجئ عموماً، أن يحب. ستضعف قدرته على السرقة، وتقل صلابة قلبه لكسر الأقفال. سيهرب بفتور، وتدمع عيناه. سيكتب رسائل، وينتظر أجوبة. سيذهب إلى السينما ليشاهد نفسه وحبيبته على الشاشة. قد يتخاذل، والأسوأ من ذلك يا مارك ستبدأ يداه بالرجفان».

«أتمنعني عن هذه العلاقة؟».

«لم أقل ذلك» وأضاف بعد برهة: «وأين هي ذات الوجه المنمش، خرنوبية الشعر؟».

«فقدتها منذ سبعة أيام» قالها، وشعر لأول مرة مذ قابل سيدة بأنه سيرتجف فيما لو استمر بالحديث عنها «قالت إنها ذاهبة إلى نورنبرغ للعمل عند إحداهن».

«لنقتسمها. حتى لا تتعذب!».

سكت مارك. احتله حياء وعذاب وغضب. لحظتها كان المجري ينظر شذراً إلى بعض العابرين المغنين بالرومانية، وقال: «لا تركض وراء العاهرة ولا وراء الحافلة في حياتك، كلاهما سيأتي غيرها. احفظ رجليك للهرب، لاجئ أنت!». ولو أن أياً كان قد تفوه عن يانوشا بما قاله كولار لسحب

مارك من كم قميصه السكين فوراً. أحس المجري بغضب عبده فأحجم عن الكلام وراح يراقب المخرج والرؤوس الضبابية التي تحركت من خلفه. كانت تفوح منه روائح عطور غالية، وكان يقفز في سيره. بينما سار مارك بجانبه تارة ومن خلفه تارة أخرى كأغلى غوريلا ممكنة.

«ما هذا الصراخ يا مارك؟ . أحدهم بقيت خصيتاه في زرندورف!».

«وبأي لغة يستغيثون يا قائدي؟»

«انتهى. لم يعد لديه خصيتان!».

«قبل عدة أيام مات سبعة منهم في معركة! رأيت كل شيء. كانت المزبلة مليئة بهم. أما الثامن فقد كان سلوفاكياً، اسمه ليبكا. سحبه التشيكيون إلى المرحاض، وظلوا يطعمونه الصابون حتى فطس بين أيديهم. كان ليبكا لصاً بديعاً ظريفاً قوياً. إنها لخسارة فعلاً»

«يتبعنا بعضهم. إنهم يفكون أزرارهم وصداراتهم ويمدون ألسنتهم!».

«أتمنى ألا يكونوا تشيكيين وألا يحملوا الصابون!».

«مارك. يجب أن نذهب إلى الشارع إنهم تشيكيون».

«قدني أيها المعلم. إنني حذر فلا تبال».

«ألديك بزة أفضل مما تلبس؟».

«لا يا حضرة القائد».

«سألبسك وأنعلك!».

«هذا آخر ما أفكر به».

«ماذا تملك إضافة للسكين والقبضة الحديدية المدببة؟».

«لا شيء» قالها بثقة وهو يمد يديه أمام كولار ويعد أصابعه. فقال كولار وهو يغمز بعينه «اتبعني إذاً مثلك من أحب».

«واللجوء السياسي الذي وعِدتُ به؟».

«سأعطيك إياه» قال كولار وهو يضحك. وفي الشارع سأل التشيكيين لماذا لا يحملون الصابون. «أفجر بزرندورف وجواسيسها كلهم، خصوصاً الأوروبيين الشرقيين. وليفجر الكلب بأمهاتهم. أما فيما يتعلق بالهوية وجواز السفر فلدي منهما قدر ما تريد، بدون أية مساعدة!».

«ولأي جنسية سأنتمي ؟!».

«بما أنك تشبه المرسومين على أيقونات الكنائس، كن يونانياً».

قال كولار وهو يريه جواز سفر يونانياً «ستدعى يانيس دورسو لفترة وجيزة. لا تنس أنك من سالونيك تتاجر بالقرون والفراء، فأنت تشبهها، يالربكم الجنوبي كم تتشابهون. حتى إننا غير مضطرين لتغيير الصورة اليوم!».

«يا قائدي. مهيأ أنا لكل شيء» قال مارك بثقة، وهو يتقدم بجانب المجري.

«لا لكل شيء. تهيأ فقط لما آمرك به!».

«سيكون يانس دورسو مطيعاً وديعاً وفياً مثل الشامبانزي!».

استدارا وراقبا المدخل. مرت بجانبهما سيارة إسعاف وسيارة صالون بوليسية. سمعا أغاني وشتائم بعدة لغات أوروبية شرقية، عواء كلاب وسعالاً. وفسر كولار الأمر بأنهم يأتون بأشخاص جدد من مكان ما وأنه

إذا استطاع الحكم بناء على الردح والشتائم فمعناه وجود عدد أكبر من الروس والأوكرانيين والمجريين بينهم».

«سيدي لن أسأل ممَ سأعيش».

«عرضت علي يديك وأصابعك وركبتيك. ستعيش منها. ثم من المعرفة وليس من الحب».

«يخيل إلي أن الشخص الذي حادثته قبل وقوع المعركة، عند المدخل، شخص معروف».

«إنه يوغسلافي، صربي، اسمه اريتش. يحوم هنا ليلاً ونهاراً، يبحث، يعرض ويشتري الرجال. يعد الآتين الجدد بثلاثة مواسم في كاليفورنيا، بنبع نفط صغير في تكساس، بحظيرة خيول عربية. وما عليك إلا وضع بصمتك فقط. وحينما يضع الأغبياء فقراء النفس الأوروبيون الشرقيون إمضاءهم على قسائمه، التي لا يمكن لبشر أن يفسرها، يحملهم محشورين على السفن، مثل الجلود أو الأحذية، يصدرهم لفيتنام، أنغولا، موزامبيق. يقول لهم: يمكن للجائع منكم أو الشاذ جنسياً، أن يختار ما بين فيتنامي مشوي على الفحم أو برتغالي من كفينيا مقلي. فيتبعه أولئك الذين يحبون النكات السوداء أكثر من الحياة. وكل من تبعه لم يعد حياً إلى هنا. ولكي يتميز عن غيره من التجار، يعرض لحماً طازجاً من الرجال الأوروبيين الشرقيين. ويصطحب بدل المرافقين غوريلاً حقيقية، يعتز بها ويهدد».

«والحائمون هناك حول الجسر، أصحاب العيون الملتهبة، أينتظرون أيضاً لاجئين جدداً؟».

«ثلاثة أشهر وأنت تتعفن هنا، ألم يقتربوا منك؟».

«كنت أحترس من الجميع وأهرب».

«مارك. لو أنك لم تنقذ عيني لما حدثتك بشيء».

«لكن العين هي العين!».

«صاحب الرأس الكبير هناك، الذي يتمطى، اسمه ناستاس. معروف في عالم الإجرام وتحت الأرض بلقت تابير. يؤكد أنه من تساريتاس، لكنه كاذب. ففي تلك المجموعة لم يوجد حتى الآن أي رجل بلغاري. يتفاخر بأنه خلال الحرب العالمية الثانية في ألمانيا، وبعد الحرب، قد قتل في يوغسلافيا واليونان ثمانمئة رجل. ويضيف وهو يمسح دموعه بأنه قد أحرق مئات الألمان لحساب المرحوم قبل أوانه أدولف هتلر وامبراطور بلغاريا بوريس. ولا تظن أنها دموع الندم على أولئك الذين خنقهم بمخالبه المشعرة، بل لأنه لا يستطيع الاستمرار بعمله هناك في الجنوب حتى اليوم. ولا أحد يصدق بأن النازيين الجدد في بادتولز، يحبونه كبلغاري، وأنه لا يخرج من معسكراتهم. لكن الصحيح أنه ممول للعديد من المنظمات الإرهابية بمواد بشرية طازجة. لهذا تراه يحوم عند الحدود وهو ينتظر مهاجرين جدداً. ولا يمكن لمدينة زرندورف أن تتخيل نفسها بدونه. فهو يقود اللاجئين السياسيين والهاربين من هنا لبحيرة بودنس واعداً إياهم بالاستجمام. يتركهم هناك ويهرب لمحطات جديدة، يصطاد رجالاً آخرين. على شاطئ البحيرة يتم تدريب الرجال. يدربونهم على احتلال وارسو وبودابست وغيرها ويعطونهم عن كل قفزة بالمظلة ماركاً ألمانيا واحداً، وللكسر في العمود الفقري أو الساق يعطونهم وثيقة. أما البلغاري فلا يأخذ على الرأس الواحد كثيراً».

«وأولئك الثلاثة، حاملو الحقائب الدبلوماسية؟».

«الأول سلوفاكي، اسمه فرباسكي. يعرض عليهم مزارع قهوة في البرازيل، غابات وجبالاً في كندا، قصب سكر دومينيكاني. وما عليهم سوى وضع إمضائهم أو بصمة الإبهام. يكرر فرباسكي: سنسرق ونبيع الألماس وأسياخ الذهب الإفريقي الجنوبي، سنهرب المخدرات والأسلحة من ممر جبل طارق، سنمون الإيرلنديين بالمتفجرات الجهنمية!. أما الثاني فهو بولندي، اسمه بورسكي. يتعالى على فرباسكي وهو يقول: ضعوا إمضاءكم لدي وستصبح بحار الجنوب وجزر المرجان والنخيل واللؤلؤ ملككم. ضعوا إمضاءكم وستصبح مارسيليا وداكار وصراع الثيران ونوادي القمار على طول قناة باناما ملككم. أما يوخاس المجري فيعدهم: إذا وقعتم هنا وتبعتموني سيصبح المستقبل السعيد لكم. حياتكم ملككم وليست ملكهم! هنا في الغرب كله قطاع خاص وليس لـ (لا أحد) مثلما هو هناك، في المواخير التي هربتم منها بالوقت المناسب!. كل من يتبع يوخاس ويكون موفور النشاط سيملك سيارة أمريكية، نادي قمار كاملاً، ملايين حسب الطلب. يغير يوخاس الذي يدعوكم للاكتتاب عنده سياراته الخاصة أسبوعياً، البزات يومياً، والنساء كل ساعة!. في الغرب تقدح النقود وليس الكلمات والوعود التي لم يحققوها لكم! في هذا الجانب الغربي للنجمة الحديدية لا ملكية عامة للشعب، لا شيء عام وشعبي، بل كله خاص، ملك أشخاص. فأنت حينما تولد تولد خاصاً، والداك خاصان، أولادك خاصون، زوجتك خاصة، تعيش على هواك الخاص! وعندما تموت فإن موتك خاص، وغيابك يصيب عائلتك فقط، فيما إذا كنت تملك عائلة، ولا يصيب الشعب أو العموم!.. وهكذا يا مارك، يخدع الثلاثة الجميع سواء

أكانوا روساً أو مجريين أو بولنديين أو بلغاراً أو رومانيين أو يوغسلافاً. والحقيقة أن الجميع يحبون المال، يحبون الشيء الـ - خ - ا - ص. إنهم مصروعون، يشترون ويبيعون ويسمسرون بالناس. أما عن رواج تجارتهم فحدث ولا حرج، مثل القرون الوسطى».

«سألتك عن ذاك الأصلع ذي الرأس البيضوي، والأذن المشقوقة، والفكين البارزين. يشبه بولبا. لاحظت أنه الوحيد الذي لا يتكلم عن السيارات ومزارع القهوة والألماس!».

«إنه روسي، اسمه يرمولاي تيموفيتش كوزنيكوف، يدلله الألمان فيسمونه إيفانوشكا، أما نحن الباقين فنسميه باشوشكا، وهو يقول لنا: يا طيوري!. إنه الوحيد الذي أشعر تجاهه بالاحترام من بين أولئك السماسرة باللحم البشري. وذلك لأننا متشابهان قليلاً: كلانا يحب الفتيان الشجعان، ذوي الأيدي الماهرة والأرجل السريعة، خصوصاً من أصبح الإجرام والقوة وقساوة القلب عادة لديهم واحتلت غريزة الهدم والتدمير قلوبهم وعقولهم. ولا يعد يرمولاي أولئك الفقراء المعتوهين الضائعين الهاربين من الشرق بمزارع أستراليا والكنغور، الكنغور الخاص، ولا بذهب ألاسكا، ولا بقصور الحريم في دمشق وبيروت واستمبول. يرمولاي ليس كهؤلاء الثلاثة المتبارزين اللاهثين. ولم نسمع حتى الآن أنه أغرى بالوعود أحداً من اللاجئين السياسيين ثم باعه لأصحاب مناجم الذهب في إفريقيا الجنوبية، ولا لدكتاتوري أمريكا اللاتينية، ولا لأصحاب السفن والأساطيل والمهربين الذين يرمون لكلاب البحر وحيتانه من فوق سطح السفينة كل بحار وعبد لا يطيع. هذا الروسي لا يهدد بجيش من المرتزقة فهو وحده جيش مرتزقة.

يرمولاي ليس بلوخا[1]. لأنه دائماً كما تراه وتسمعه الآن، يتمشى في المخيم، ويصيح بصوت كالرعد: أيكم يهوى الذبح؟ أيكم يعشق تدمير سفارات الشيوعيين وقنصلياتهم ومكاتبهم؟ أيكم يود أن ينسف في الهواء جسورهم وتماثيلهم وسكك الحديد والمباني وكل شيء هام ومقدس لديهم، هناك في الطرف الآخر؟. أسألكم: من منكم يود تدمير كل شيء وأي شيء بدون فرق ولا اعتبار لمن هو وما هو؟ من منكم إذاً يريد سكب الذعر، وزرع الدمار والموت؟ فمن كان يملك خصيتين حتى ركبتيه فليتقدم، وليخفي عني إذا أراد اسمه الحقيقي ويسجل اسماً آخر! لكن، ليكن معلوماً لديكم: من أقبّله في جبينه كرفيق درب وصديق، كأخ في المحنة، فسوف تكون بانتظاره مغامرات رجولية مثيرة، أحياناً نقود ونساء، وعلى الأغلب حزن سلوفيني لا يشفى، مرض، رصاصة هناك مكان قبلته وسممته إلى الأبد. حينما يتحدث إيفانوشكا يغيب أولئك الثلاثة عن الأنظار».

«لو أنني لم أتبعك يا سيدي لكنت تبعته هو».

«أأعجبتك القبلة الروسية لهذه الدرجة، أقصد الرصاصة في الجبين»؟

«يرمولاي ليس بلوخا، هذا ما تقوله وما أحسه. يرمولاي حزين ويريد الانتقام. لا يكذب يرمولاي، ولا يخون جنوده ورفاقه».

«انظر كم من التعساء يتوجهون نحوه ويحنون له جباههم ليقبلها. تصور نفسك وأنت تركع أمامه، إذا استطعت أن تتصور، اتبعه، كان يعيش في يوغسلافيا قبل الحرب، وسوف يحبك».

---

1 - بولخا أو بلوخا تعني بالمجرية ذبابة. - المترجم -

«لكنني تبعتك أنت وانتهى!».

«لندع إيفانوشكا الكبير يدمر بدوننا».

«ليدمر يا سيدي، ليدمر!».

«سندمر نحن أيضاً لكن بطرق أخرى».

«المهم أن يُكسر ويُحطم ويُدمر!».

مر بجانبهما رجل كهل، ثمل، قوي البنية، طويل القامة. كان كل ما عليه - عدا القبعة الأكرانية - بافارياً. ينتشر منه لون أخضر كالقرباط الجنوبيين. التمع على ياقته صليب معقوف فوقه مريم العذراء. عيناه كبيرتان، منحرفتان داميتان، تعكسان نظرة زجاجية، فبدا كمتعصب ديني مريض بالصرعة. شارباه بغير اتزان، كثيفان قرويان، معقوفان للأسفل. كان يترنح. ولولا غوريلياته لوقع. كانوا ثلاثة، وضح من معالمهم وأبوازهم أنهم من جنوب البلقان. كان يمشي خطوتين ثم يتوقف مترنحاً كأعمى يوازن رأسه ويضبط شكل جسمه العام. كانت يده اليمنى بدون إبهام، واليسرى مليئة بحروق عميقة وقديمة. تساعده غوريلياته ثانية ليتمكن من السير. وقد بدا لمارك فوراً أن هذا الرجل الخيالي، ذا الأنف المحطم والحاجبين المعقودين، هو رجل مهم.

قال كولار: «أما هذا الرجل الأكرايني[1]، الملقب برجل الله، فإن اسمه الحقيقي بوغدان بوندارينكو، إذا صح هذا الاسم!. بدونه لا يمكن لأحد أن يتصور مدينة ميونيخ، ولا جمهورية ألمانيا الاتحادية، بل ولا الكرة

---

1 - نسبة إلى أكرانيا إحدى الجمهوريات السوفيتية سابقاً. - المترجم

الأرضية نفسها. بدونه لن تكون الأرض عجيبة ومضحكة. واحترس أن تقف يوماً في طريقه المؤدي للسماوات. لأن كل ما عمله في حياته العاصفة كان على صلة بالإيمان. على الجبهة الأكرانية قالوا إن الألمان كفار. وكانت هذه الكلمة كافية لبوندارنكو، ليفرغ أمام رئيسه المباشر كيساً مملوءاً برؤوس شباب ألمان. لقد سمم الدم الإنساني لكل الأزمنة وأحرقه. وكانوا في حال عدم توفر الكحول والفودكا يسقونه البنزين ليهدأ. كان ذلك في الوقت الذي ابتدأ يرتجف به كمريض بالملاريا، وهو يناجي ربه بصوت عال. ومن خلال الإشراك والكفر والحقارة التي يسميها بعضهم الحرب، فَجَرَ حتى الجنون بالدم البشري. كان يسكر بشراهة مفرطة على معدة وكبد خاويين، فتضرب الخمرة برأسه، ويناجي إلهاً لا يسمع. حتى همس له صديقه وإلهه الضعيف بأن أعضاء الجيش الأحمر الروسي هم كفار ملحدون. لهذا استسلم بوندارنكو في اليوم التالي للكتيبة الألمانية المدرعة ٨٢. دربوه على سلاح الدبابات، وأعطوه رشاشاً، فحصد الكثير من المجندين الروس المشركين، وكل أعضاء كتيبة أولدبورن منهم. ذلك أن الدم الأخوي أملح وأشد مرارة. وحينما وصل بوندارنكو ثانية أمام موسكو، التي كانت تحترق، طلب موعداً آخر مع الإله. أراد أن يفاوضه حول وقف إطلاق النار، واتفاقية الصلح البشري. لكن الإله لم يحضر. فقال له الألمان: لا تضيع الأمل. وكان الألمان وقتها يتراجعون صوب الغرب. وبانسحابه، أحرق بوندارنكو قرى كاملة في روسيا وبولندا، حتى تضيء النار الطرق أمامه أكثر، تلك الطرق العارجة دائماً تجاه السموات. أما الكتيبة المدرعة ٨٢ فلم تعد موجودة. وفي إحدى الليالي على الحدود الألمانية الهولندية، همست له فراسته المستقبلية ناصحة ألا يهرب ثانية، بل أن يقيم

ويبدأ. رأى نيران هولندا في الطرف الآخر، فبكى، مثلما كان يبكي في صباه حينما كان راعياً وتابعاً لكاهن. ناجى ربه، ودعاه لاجتماع يبحث مصير أرواح المهاجرين اللاجئين القرباط، ومصير الرئات المثقوبة التي تصفّر، ومصير الأرجل الدامية أو المقطوعة التي لم يعد بمقدورها حمل الرؤوس الدائخة. لكن الإله الأرثوذكسي لم يكن عادلاً ولم يحضر الاجتماع. وجاءت الريح الهولندية المثلجة بالمطر. برد بوندارنكو وتخشب، وظن أنه سيموت. تخيل أكرانيا وهو ينام في سرير غريب ويهمس: سأذهب إليك يا إلهي الملتحف بنار هولندية. ولكي يشكر ربه، تزوج من عجوز شُفي في فراشها. كانت بدون رجلين ونصف مؤخرة. كانت تقول إن القنابل الأمريكية الكافرة قد شوهتها. وكانت تبكي، وتعانق بوندارنكو. أما زوجها فقد اخترقه الرصاص الكافر في كل صدره، حتى جعله كالمصفاة. كانت تذرف الدمع، واستمرت تذرفه حتى ستالين غراد. وإذا صدقت ألسنة السوء فإن بوندارنكو ساعدها لتموت، وورث معمل البيرة، فباعه رأساً، متعللاً بحب الإله والفودكا أكثر. وحينما أصبح دون غاية ولا هدف مهني معين، قامر وسكر بالمبلغ كله، وخسره. كانت أكثر تبرعاته لكنائس الأرثوذوكس في ألمانيا، ولبعض الجمعيات المعنية بنشر الدين المسيحي. وقد أخذ مشوهو الحرب والعميان والطرشان، بقدر ما أخذه المنتقمون الأكرانيون اللاجئون الهاربون المرتزقة. فأيقن بوندارنكو أن ما تبقى لن يعوله طويلاً. وكان يخاف عصا الذل والتسول. كان ذلك في الفترة التي أصبحت فيها النسب السكانية متساوية، إذ جاء على كل رأس ألماني، لاجئ سياسي وهارب من الشرق! لذا وظّف بوندارنكو كل قرش تبقى له في اللحم البشري الحي. اشترى خمسين لاجئاً متعباً منهاراً ومغامراً ومطروداً، وكوّن جيش مرتزقة،

سماه جيش المعذبين. وكانت مهمة هؤلاء الجنود البحث واصطياد المهاجرين البائسين الجدد. ثم حشرهم على السفن المبحرة لأستراليا ونيوزلندة ومدغشقر. وقد أطل بهذا الجيش عدة مرات على الشرق. ووّد تحت راية الصليب أن يعود لفتح قريته. هرب بعض الجنود واستسلم بعضهم، وقضى هو على الباقين. ولا يوجد بين كل اللاجئين من هو أذكى وأشطر من بوندارنكو. فكلما تلاشت عصابة كوّن غيرها. وعندما أصبح عدد اللاجئين أقل، صاروا يدعونه بأسماء أخرى. وأصبحت النسبة ثلاثة ألمان أو نمساويين مقابل سلوفيني أو مجري أو روماني واحد. وكثر تجار اللحم الآدمي. لهذا يصاب بوندارنكو بالغثيان حال سماعه برجل معروض للبيع. ولم يعد يناجي ربه، خصوصاً أمامنا نحن المتجرين معه. فقد بات يخاف من تقلص المسافة بيننا، وصار يخفي أحلامه السماوية، ويريد قتل يرمولاي. وحينما يعقد صفقة يحمّل الرجال فوراً على قطارات ذاهبة إلى البرتغال، حتى كوّن فرقة كاملة من الروس وحدهم هناك.

«إنه يشبه المجريين يا سيدي. لقد سُجنت مع شخص مثله في ليوبن - النمسا».

«وأي إنسان لم يسجن مع مجري! السجون مليئة بهم. أما مشافي الأمراض العقلية فحدث ولا حرج!».

«أعلم أنه لا لص ماهر كالمجري، ولا محطم أقفال كالمجري، ولا صديق أوفى منه. المجري يعني باختصار: الأخ، والسكير، والرفيق، والبوهيمي».

«المجريون ذباب مثل الآخرين». امتقع كولار فجأة، وهو يراهم يحملون بوندارنكو.

«رأيتهم كيف يكون».

«لشعورهم بالنقص والضياع».

«إذاً أنا مجري».

«كم من الأصدقاء خنت؟».

«لا أحد حتى الآن».

«إذاً لست مجرياً!».

«جزاء الخونة رصاص حجري في الجبين».

«بلوخا! ذباب!».

ضحك كولار، وارتسمت حول عينيه الشريرتين دائرة من الأخاديد. كان وجهه أخضر، من الزمهرير والصقيع، وهو يراهم يحملون بوندارنكو.

«لشد ما خانني الناس يا سيدي. لم يكن بينهم مجريون قط. كانوا أفضل الأصدقاء. أولئك الذين كنت أنقضّ على السكين من أجلهم. فيكتور أريتونوفيتش مثلاً، لو لم يكن ولم تكن خيانته، لما تسكعت وضعتُ كل تلك المدة في النمسا، ولم أكن لأسجن في لينز، ولم أكن لأوجد في معسكر ترايسن كرشن، مريضاً ومسحوقاً، ولم أكن لأوجد الآن في هذه المدينة الملعونة المقرفة زرندورف».

«لا تذكر اسم فيكتور أمامي. كنا نقوم بعملياتنا معاً في وقت سابق. وأذكر رجال بوندارنكو حينما لاحقونا».

«وأين يمكن أن يكون فيكتور الآن؟!».

«أظنه لا زال حياً. هذا كل شيء».

كانا في منتصف الطريق بين زرندورف ونورنبرغ. «سيدي ألستَ مثله؟».

«تذكر. أنا مجري! وبهذا أكون قد قلت لك كل شيء. ليس للمجري قلب، فمن أين سيأتيني أنا؟ ليست له روح لأنهم اغتصبوا روحه! لا يعرف المجري من هو ولا من أين أتى. إنه يعرف فقط ما هو. ولا يمكن أن يتحدث معه إلا المجري مثله. يتنفس المجري من زعانفه، كما أنه لم يفقد ذنبه بعد. المجري جبان، لهذا تراه يغني حتى يكسر الحزن والعذاب اللذين يسكنانه. عندما يبكي، عندما يذرف وينزف، فاعلم أنه جائع، وأنه يريد أن يأكل على حساب غيره، ولا شيء آخر. لا يوجد مجري مثقف فكلهم دمويون. حينما يذبحك، وينتزع قلبك يكون عندئذ يفكر أنه يدافع عن نفسه. فالمجري الذي لا يعيش من السرقة والاحتيال والخيانة ليس مجرياً حقاً وإنما خليطاً من أشياء أخرى. ابن زنى!».

«وكيف سأعيش مع مجري غول بهذا الشكل؟» قال مارك وهو يضحك.

«ستأكل لحماً دامياً نصف مشوي، وتشرب كحولاً قوياً رجولياً، أو ما تصل له يداك. ستركب مثلي نساء ألمانيات غاليات الثمن ومجنونات. ستلبس على آخر موضة كأي جنتلمان حقيقي. سيكون راتبك دسماً بشرط أن لا توفر منه شيئاً. ولا تدعني أسمعك تتكلم ثانية عن الأخوة والصداقة، لأنه لا يمكن أن يكون للمجري صديق ولا أخ».

«نكتة مجرية حلوة» قال مارك متمعناً بكولار الذي يقضم شاربه «ستدمع عيناي قبل الأوان!».

كانا قد ابتعدا عن زرندورف في مكان ما من بافاريا. كانا يلتهمان النقانق البولندية والجبنة القشقوان البلغارية ولحم دجاج نصف مشوي، وهما

يجرعان الخمر طيلة اليوم: عرق ثم بيرة، بيرة ثم عرق. هكذا احتفلا بالبداية. كان كولار ممتناً من صبر عبده وجلادته. شربا وعربدا طيلة الليل دون أن يعلما وجهة يذهبان إليها، ولا أحداً يقصدانه. فاجأهما الصباح وهما في أحد القطارات القديمة بين قريتين. كان قطاراً مكتظاً بالعمال الأجانب. ابتعدا عنهم وهما يصيحان: «الثوم». عموماً لم يكن لدى العمال ما يستحق السرقة. كانا يقفزان كالجراد من قاطرة إلى قاطرة. وكان الجنود المرهقون الملوثون بالطين، المتهالكون والسكارى نائمين أو يتقيؤون. مثّلا حالة السكر الشديد. كانا يقعان فوق أحزمة الجنود الشباب وأغراضهم وأسلحتهم وأجسامهم ويحررونهم من محافظ النقود والساعات والأقلام. واستطاعا بصعوبة الهرب من الضباط وعمال السكة الحديدية، فتوجها من القطارات إلى الباصات يتشممان كالثعالب، ويمشيان وراء الشخص الفاخر اللباس من المسافرين. كان المجري أحذق في انتقاء الضحايا. همس لمارك أنه بإمكانهما العيش كما في الجنة بفضل سخف الألمان وشرود عقولهم. كان يرسله أولاً ويفرد يديه وجانبي معطفه الطويلين يموهه ويعينه على الحركة. وكان مارك ينقضّ، ينشل، يسرق ويكوم المسروقات في صدره، بينما يضع المجري رجله أمام الداخل والخارج ليعثره. كانت هذه نقطته في العرض، قائلاً: «عفواً، معذرة». ثم ينقضان معاً ليرفعا الضحية عن الأرض وهما ينفضان عنها الغبار والطين. عندها يجب أن يعملا بأيديهما وأرجلهما، ساحبين من الضحية كل ما لديها، ليملأا جيوبهما بأشياء كثيرة مختلفة. كان لكولار فلسفته الخاصة: «كل شيء ليس لك، سواء أكان له أم لهم أم لها، خذه. اهرب قبل أن تستطيع الضحية المسحوبة بمغنطيس من الاقتراب إليك. منديله هو منديلك خذه منه. أنفك اللاجئ أفضل وأهم من أنفه

الألماني الوقح». كانت عينا كولار تبرقان كعيون مرضى الصرعة وهو يتسكع ويسرق بطريقة ساحرة عاملاً بيديه ببراعة، شاحناً صوته بالحشرجة: «لو استطعت لنزعت كل شيء عن أجسادهم، وتركتهم عراة ليبردوا، وتصيبهم ذات الرئة، ويذهبوا إلى جهنم الحمراء».

تذكر مارك اسم المدينة الراقدة على شاطئ البحيرة إنها سترانبرغ. وكانا قد وصلا من باتسكنيك، حيث لعبا البوكر ليومين وليلتين متتاليتين مع أناس من وطنهم وبعض الإيطاليين، وخسرا كل ما سرقاه واغتصباه على طول الشاطئ إضافة للمبلغ الكبير الذي أعطاهما إياه اليوغسلافي سابلياك ذو العين الواحدة، كحق شهري في الإتاوة المفروضة عليه بالتحديد. كانت السماء تمطر، وهما بدون معاطف ولا قفازات، فقد خسراها هي الأخرى عند الصقلّي. سارا وراء المشيعين لجنازة. كانا يراقبان المتجمهرين، ويتخذان مواقع مناسبة. أعادا كل ما فعلاه في كرين سول حينما جلب البكاء لهما الطعام وساعات ذهبية وقلائد ومجوهرات ومبلغاً يتجاوز الـ ١٠٠٠ مارك ألماني نقداً.

همس كولار من خلال أسنانه: «الميت غني يا مارك. تعزف له ثلاث فرق موسيقية» كان مارك يرتجف أمام كولار ككلب مسعور، منتظراً أوامر سيده. قال كولار: «لا بد أن اسمه وولف، فبجانب البحيرة كل ثالث مولود يسمونه وولف» قالها وداعب مارك في مؤخرة رأسه المبلل، ودفعه للأمام برفق: «بعد عدة ثوان انقضّ على وولف».

«مفهوم يا سيدي».

«لا تدع على أجسادهم إلّا الخرق السوداء والحزن والدموع، وخذ كل ما تبقى. كل ما تبقى هو لنا» قالها الشيطان المجري، وقد اكتسبت عيناه

ذلك اللمعان المعدني، وهو يراقبهم يخرجون الصندوق المذهب وفيه جثة وولف «لا تخف يا مارك إنني أعثرهم، أدفعهم، أموّه، فانطلق».

انقض مارك على أكثر الناس حزناً، انحشر بينهم، ووقف يندب. حتى تحول بكاؤه الكاذب الجاف إلى بكاء دامع حقيقي أثّر في المجري نفسه. رفعوا غطاء الصندوق، ليتمكن الجمع والعائلة والكهان وكل العالم الكاثوليكي من وداع وولف للمرة الأخيرة.

«الآن!» قالها كولار كأنها خارجة من أسنان المشط. انحنى مارك المثخن بالدمع، المبلل بالمطر، ليقبل الميت من جبينه ووجنتيه وذقنه الشمعية.

«كنت عاملاً عنده، عاملاً فقيراً احتواني». كان ينشج وينتزع الميدالية الذهبية من صدر الميت والخاتم الثمين من اصبعه. «من لنا نحن الفقراء من بعده؟ من سيرعى أطفال الفقراء اليونانيين من بعده؟!».

فيما بعد قال لكولار إنه حزين لأنهم لم يضعوا في جيب الميت حافظة نقوده أيضاً. «قلبي ينفطر على كل ألماني يدعوه الرب الجميل والمشترك إليه في الأعلى قبل وقته». كانت تلك نصيحة كولار لمارك فيما إذا سئل لماذا تذرف كل هذا الدمع وأنت إنسان غريب؟. وأضاف: «يقتلنا الألمان بالعمل الآن كما أبادونا أيام الحرب. لهذا يحملون اليوم آثامنا ويسمحون لنا أن نفجر بهم. تصور ما كنا فاعلين بدونهم؟!».

لم يسأله أحد، ولم يلاحظه أحد. تسلل بين الموسيقيين والأطفال والسيّاح عند انتهاء مراسم الدفن، انسل إلى الحديقة، ومنها إلى خمارة. سار خلفه كولار يضيء بعينيه كثعلب. في المرحاض أخرجا كل المسروقات وفرداها على الأرض الإسمنتية وعينا مارك لا تزالان مليئتين بالدمع. قال: «إنني

أبكي على وولف!». لحظتها، كان المجري يعد ويصنف الأشياء: وثائق، هويات، شموعاً، رخص قيادة، شيكات، قلائد ذهبية، قبعة رجالية، وكثيراً من الماركات. «أول شخص أناصفه هو أنت!» قال كولار وهو يعانق «ماركاً»، ويقبله من جبينه، ساحباً سيفون المرحاض: «وأصدقك القول إن أحداً لم يلاحظك، ولا أنا، حينما سرقت من الساحر ذلك الشريط».

«انتظر يا سيدي لأتقن اللعبة، لأعرف طباعهم وأكتشف ما يخبئون، عندها سأسلخهم!». قسم المجري الغنائم، وتعجب حينما أعاد له مارك الصرة المليئة بالعقود والقلائد والبروش مع النقود. رفع حاجبيه «ماذا تريد يا مارك؟».

«خذ كل شيء، واترك لي ما أشتري به قطعة خبز فقط، صحن حساء حاراً، الباقي خذه أنت. حتى الطعام كثير علي».

«فسّر!».

«اللصوص أشكال».

«أنت لا تملك حق التفلسف».

«تتلخص فلسفتي بالتعاسة والشقاء. حينما أكون معذباً لا أفكر بالنقود، وهذا لا يعني أنني لا أحب سرقتها، بالعكس! لكنني أعطي كل شيء لمن يكون برفقتي، أو للفتاة التي لا أستطيع العيش بدونها كما لا يستطيع الإنسان العيش بدون الهواء».

«وهل يمكنك الاستمرار طويلاً هكذا؟».

«لا أعلم. تشغلني الآن أمور أهمّ وضعتها أمام نفسي».

«إذاً لك المبدأ ولي النقود؟».

«ليكن هكذا لفترة».

«حصلت على صيد ثمين في زرندورف» قال كولار كأنه يكلم نفسه، وصعد إلى قطار أثينا السريع، المكتظ بالعمال الأجانب الذين كانوا يغنون بكل لغات شبه جزيرة البلقان.

«ما يهمني هو النقود فقط. فأنا أتعذب حينما لا أراها تسيل من جيوبي»!

أحب كولار أن يرى براعة عبده في لعبة علب الكبريت. أرسله بين العمال الأجانب، وهو يراقبه من طرف، ويرى كيف يخبئ مارك الكرة القصبية الصغيرة تحت أظافره، وبين أصابعه المتجمدة، وهو يكرر: «أين هي؟ من يحزر ويربح.. أين هي الآن؟». وتابع العمال الأجانب أصابع الساحر بصعوبة، وهو يسحب الأموال منهم، ماركات ألمانية، شلنكات نمساوية، كرونات تشيكية، فالوقت هو عيد الفصح حينما يعود العمال الأغراب لأوطانهم وبيوتهم. أجبرهم أن يكشفوا عن أسنانهم ومدخراتهم وقبضاتهم، وهو يلاعبهم ويغشهم. أما كولار فكان يحفظ خط العودة والمخرج. ولم يعد العمال الأجانب يغنون. أثنى كولار على عبده وهما يهربان من قطار أثينا السريع وقال: «كن مع البروليتاريين هادئاً ووديعاً حتى لا ينقضوا عليك ويفقؤوا عينيك وكبدك!».

أظهر المجري مثاقبه، وبدأ في القطار الذاهب للنمسا ويوغسلافيا لعبة سرعان ما تسري كالعدوى: زوج - فرد. تعالت الشتائم البلقانية والضحك وأوراق النقد، وهو يتظاهر بالتعاسة كأنه خسر، فيعلق بشتيمة. وبدون أن يوقف اللعب كان كولار - وفيما بعد مارك - يجس دون أن

يلاحظه أحد، مسدسه البرام القصير تحت إبطه، المحشو بالرصاص، والسكين في أحد كميه، والقفازين المليئين بالشفرات المخبأة تحت المعطف. وكان العمال الأجانب يبقون بدون النقود التي حملوها إلى يوغسلافيا أو اليونان أو تركيا لأولادهم. ضربوهما بالعظام وعلب الكونسروة الفارغة وزجاجات البيرة.

«تصرفاتكم وقحة أيها البروليتاريون» قال كولار ذلك وهو يعطي مارك إشارة الهروب وتبديل المقطورة. هربا طويلاً في الظلام. ووصلا بعد أن عبرا النمسا إلى مدينة راندورف. كانت يوغسلافيا في الطرف الآخر. وكان المجري يعرف كل المقاهي على الحدود، وكل العاهرات والخمارات. وقد سببت رؤية الحدود رجفة عند مارك إذ كان يتذكر فوراً فيكتور والقطار اليوناني الذي هرب به خارج بلده لأول مرة.

اجتمع كولار على الحدود مع أحدهم، قبل أن يبدأ العديد من الرجال بحمل ما أحضراه. وأيقن مارك أن المجري أتى من خلال الجبل إلى هنا حاملاً وإياه الألغام والقنابل والمسدسات والمتفجرات. عاد المجري من الطرف الآخر مسروراً، مليء الجيوب والصدر بالنقود.

وصاح قبل أن يستوضحه مارك: «ما أفعله أنا، ساتش، الرجل وليس البولخا، يجب ألا يعرفه أحد، ولا الشيطان نفسه. لهذا لا تحلم يا مارك بمعرفة ما نحمله إلى هنا كل يوم، وما الذي نكسبه من وراء ذلك، ومن هم المعتوهون الذين نتاجر معهم. وسوف يكون مصيرك أبشع من فيكتور إذا تفوهت!».

«حدثني يا سيدي أي شيء عن فيكتور لأشعر بالدفء!».

«كان نشيطاً وجيداً لبعض الوقت. وكان أكثر ما يعجبني به انحطاطه وتحرره تماماً من الأخلاق. عقله، والثلج المخزون في أعصابه ومخه. لم يكن يملك - مثلك - أية مبادئ. كان يحب النقود، وكان مهيأ للقتل للحصول عليها. كان يعشق النقود، واعترف لي أنه مغرم بها عصبياً وغريزياً. كان يغش ويسرق ويكسر الأقفال، ويحمل كل ما تحمله الآن. ولم يكن يعرف كيف يتوقف. كان يطيعني، لذا فكرت بالاحتفاظ به طويلاً. لكنه تغير فجأة وهو يحاول خداعي. حاول أن يسرق مني براءة اختراعاتي. بولخا. لم يكن يعرف أنني كولار، واحد فقط في هذا العالم، وأن كل من يقف ضدي، أو لا يكون معي، سينتهي مفروماً كلحم الأرانب. ربطته وبعته. حتى إنني حصلت على سعر مناسب له. تصور! ثم سمعت أنه هرب من أسياده الجدد، لكن مشوهاً وتعيساً للأبد. وعلمت أنه لا زال حياً، وأنه يريد الانتقام مني.. يريد رأسي، ومع رأسي النقود.. بولخا.».

«ألم يحدثك كيف خانني على الحدود؟».

«لا».

«ألم يذكر الحقيبة المليئة بالحشيش؟».

«لا».

«ولا الدولارات؟ أقصد بعض كسور الدولارات؟».

«لا تفكر أنك الوحيد الذي خانه، لقد أراد أن يلعب بي أيضاً!».

من الحدود كانا يسيران على الأقدام غالباً. ينزلان في فيلاخ، وهناك يفجران حتى القرف بامرأة اسمها هيلغا، ذات ثديين كبيرين، ومؤخرة بارزة. وبرغم كل ذلك المجون والفجور بمختلف الصور والأشكال حتى

ضياع الوعي، كان المنام يستعصي على مارك، يعذبه الشعور بأنه قريب من الحدود، حدود بلده السابق يوغسلافيا التي كان يشعر بها قريبة من يده، مرئية برغم الظلام وانعدام الضوء. قال كولار وهو يضاجع هيلغا بشكل مقرف: «صنعتي أيتها الذبابة، أن أموّلهم بالرصاص، أن أسلّح الناس، وبعدها فليحرق بعضهم بيوت بعض، ومزارعهم. مهمتي أن أعطيهم القبضات الحديدية المدببة، السكاكين ذات الرؤوس المسمومة، وبعدها ليقلع بعضهم عيون بعض، ويفقؤوا قلوبهم، ليقصّ بعضهم أنوف بعض، ليقتلع بعضهم ألسنة بعضهم الآخر. مهمتي أن أعطيهم ما لا يملكون: ديناميتاً، قنابل بلاستيكية، آلات جهنمية، أكثر ما يمكن من الفوهات والرصاص. أنا مع الأتراك واليونانيين في قبرص، مع الإرهابيين المدعين للصليبية ومع أعدائهم. مع الفلسطينيين والإسرائيليين. مع الألبانيين والأكراد، مع القرباط، مع الشياطين. المهم أن يشتروا مني أنا المجري، وليس من البولنديين. مهمتي أن أوصل لهم، أن أحمل لهم وحدي - إذا لم يكن لي ثقة بأحد - ما يستطيعون به أن يحرقوا العالم. فلينمحق الكون وتنمحي القرى والمدن وكوبا وأمريكا. ليشتعل هذا العالم الأناني الوضيع الذي جرح ثم رمى مجرياً خارج جذوره. سأبيعهم بسعر أقل إذا وعدوني أنهم سيحرقون موسكو، سيدمرون الغابات، لتصبح المدن رماداً تذروه الرياح من الباسفيك حتى الأطلسي. من سيغشكم ومن سيسرقكم إن لم أكن أنا، شاتس، المتألم الوحيد في هذا العالم النتن، الإنسان الفرد والمذبوح بدون أحد ولا معين على وجه هذه الكرة الأرضية الشاذة. مهمتي أن اقتص وانتقم، أن أحرّض حائطين أو خزانتين في غرفة واحدة، أخوين في بيت واحد، عينين في سحنة واحدة. سأموت وأنا أبيع وأشتري وأتاجر.».

بصق بين ساقيها وهو ينهض، وقال إنها مسألة مبدأ، بينما كانت تكدّس النقود في جواربها. كان الوقت صباحاً، رفسها كولار، وهو يعاتبها لعدم إحضارها زميلتها إيريكا. قالت إنها لم تعد تثق بها، وإنها أصبحت جاسوسة للأمن. عانقها كولار، وابتسم، وهمس لها عن تجارة رابحة في القريب العاجل مع إرهابيين مجريين وسلوفاكيين، وأنه رغم ثقته بها يجب أن تُستبدل بفتاة جديدة. سألته ما نوعها. أجابها «أن تكون فتحتها أضيق منك، حتى لو كانت عاهرة الشرق كله». اهتزّ ثدياها الكبيران، وهي تكرر بأنه من الصعب إيجاد فتاة مثل إيريكا في هذه المنطقة. تذكر مارك بأنه رأى مخنثاً بالاسم نفسه، بباروكة شعر شقراء وثوب ماكسي أخضر، وهو يتمشى بجانب المعسكر في ترايسن كيرشن. وكان يغش اللاجئين الأوروبيين الشرقيين. ودعتها هيلغا، كانت عيناها مليئتين بالدموع وهي تقول إنها قد تكون المرة الأخيرة التي تراهما فيها. بعدئذ كانا ينتظران قطار البلقان السريع، على الحدود بين يوغسلافيا والنمسا. كان الخوف والرهبة يملآن جوف مارك، فيتلفت وراءه دائماً وهو موقن أنه قد ترك خلفه بلاده التي هجرها وخانها دون سبب وجيه. فيتوق لعناق اليوغسلاف واليونانيين الذاهبين إلى ألمانيا كعمال أغراب جدد. بينما يسير كولار وراءه، يشجعه ويستذكره ما حفظ. مدّ مارك يديه للهجوم لا للعناق، فقال كولار:

«انتظر حتى يهدؤوا، حتى يتعودوا على الغربة، وحينما يغالبهم النعاس، اسرقهم. اسرق هذه المواشي البلقانية، خذ ألبستهم إذا ناموا، وارم أحذيتهم من نافذة القطار، حتى يعرفوا جيداً أين هم ذاهبون وأين وصلوا، حتى يعرفوا بأي ماخور هم!».

«هل أجرؤ على التفريق بين اليونانيين والأتراك واليوغسلاف؟».

«ما يهمني هو النقود. ألا تذكر أنني شرحت لك حينما كنا في القطار الذاهب إلى انكول شتاد، بأن رأس العامل الأجنبي لا يساوي أكثر من عشرة ماركات مبوّل عليها؟».

«وإذا لم يملكها؟».

«إذا امتلك ماركاً واحداً خذه منه، اغتصبه منه! ثم ادفعه من نافذة القطار وهو يسير. هذا هو سعر البروليتاري البلقاني الواحد، الراغب بالعمل في ألمانيا الغربية! وإذا لم تجد معه ولا هذا المارك الواحد، ارمه أيضاً خارج القطار حينما يكون بأقصى سرعته، حتى تكتب الصحف غداً أن التراجيديا اليونانية لا تزال مستمرة في ميونيخ».

- ٣ -

سلبا كل ما أمكنهما من نقود العمال وأشيائهم، وسقيا لحم الخنزير والجبنة البيضاء التي التهماها بعرق يوناني. فجأة، وفي القطار الذاهب إلى ركن سبورك، في ممر الدرجة الأولى، شاهد كولار، ومن بعده مارك، شاباً ذا رأس متطاول، ووجه وديع، وأذنين شفافتين، وشعر خرنوبي أجعد. كان شكله يوحي بالرقة والضعف، وهو يدخن السيجار، وقد وضع يديه في جيوب سترته، وتظاهر أنه يتجاهلهما.

«يا إلهي إنه نيكو ماراش» قال كولار وهو يضحك.

«يا إلهنا..».

كان الشاب ينظر من خلال النافذة إلى الليل في الخارج. احتقن وجهه وصدغاه بالدم، وضغطت يده على شيء في جيبه. راقب كولار كل حركاته. وكانت مهمة مارك أن يقف في الطرف الآخر، ليراقب المخرج. قال كولار:

«نيكو. أراك تحدق بي كالبقرة في عجل ميت!».

«أنا لست نيكو!».

«إذاً نحن لا نعرف بعضنا؟».

«لم أقل إننا لم نتقابل مطلقاً. إنها القطارات!».

«هل تعلم أن هذا القطار الذي يسحبنا سريع؟ وأن الليل أسود؟ وأنك قبل أن تسحب ما في جيبك ستطير من القطار برأسك قبل قدميك؟».

«نعم القطار سريع وأسود.».

«لماذا لا تخفض خياشيمك للأرض إذاً؟».

«أنا لست نيكو!».

«نيكو، تعلم أنني حينما أمزح أكون أشد ضراوة مما لو غضبت» قال المجري وهو يسحب نفساً من سيجاره الهافاني: «لا وقت لدينا. القطار يسرع والليل ليس أبدياً.».

«كثيرون اسمهم نيكو..» قال الشاب كأنه يكلم نفسه، وهو ينظر إلى الخطوط على الزجاج: «يوغسلافيا والبحر الادرياتيكي مليئان بهم».

«ولكن نيكو ماراش واحد، يعرفه كل جحر وكل جيب من يوغسلافيا حتى إيطاليا!».

«خطأ».

«أرني يدك اليمنى!» قال كولار وقد توترت العضلات حول فمه: «ليراها ذلك الرجل».

«لا تخفه».

«أرني!».

مدَّ يده اليمنى، كانت أصابعها الطويلة المعتنى بها بدون إبهام. قال: «هناك سوء تفاهم على الأغلب. القطارات مليئة بذوي الأصابع الأربعة».

«نيكو، كلانا يعرف من ومتى ولماذا وكيف قُصَّ إصبعك» وأضاف: «حتى لا نخيف الرجل. إنه بريء، لم يدخل المعمعة، ولم يفهم النكتة بعد. تهمه أصابعه بقدر ما تهمه عيناه، ويمكن أكثر. والأنكى من ذلك أنه يمكن أن يحصل له ما حصل لك».

«نسيت الكثير مما حصل لي فيما مضى. ابتدأت النسيان من إبهامي المقصوص، وغفرت لكل من أساء إليَّ، ولو لم أفعل ذلك لكانت حياتي عذاباً لا يطاق».

«ألا تذكر كيف أخذتك ووضعتك في ترايسن كيرشن - النمسا، عندما كنت مريضاً ومهملاً ومهجوراً؟ هناك حيث طلبت اللجوء السياسي، ورميت جواز سفرك اليوغسلافي الأحمر، الذي كان باسم برانكو نونيتش إذا لم تخني الذاكرة!».

«لا أذكر».

«كم شكرتني لأنني لم أذكر لهم ما فعلته بالمكدوني، حينما رميته في تلك الليلة الحالكة والباردة من نافذة القطار الذاهب إلى بروناو، ذلك العامل

الأجنبي، الأب لخمسة أطفال في البوسنا، من أجل معطف عتيق وعشرة ماركات».

«في حياتي لم أرَ مكدونياً حياً!».

«ألم أخرس من أجل كل الاختطافات، وسرقات السيارات وبيعها؟ وتزوير الورقة من فئة مئة المارك، أنت وسلانو السلوفيني من انكول شتاد؟. نيكو، كله مكتوب ومحفوظ، ولن يتبخر شيء بالتقادم. سكتُّ حتى الآن كسمكة، وكنت أنتظر.».

«المحطة التالية هي ركن سبورغ. أنا مستعجل».

«إذا لم تتذكر سرقتنا وبيعنا لأيقونات الكنائس اليونانية، وعربدتنا حتى الفجر في بار بابالو، فسأرميك من النافذة!».

«وقتها كنت حليق الرأس» قال وهو ينظر إلى الظلام خلال النافذة «وقتها لم يكن لك شاربان، ولا تلك الندبة على خدك. كنت مرحاً، وكنا نسميك هون المجنون، وكان ذلك يعجبك. ليلتها سكرت وعربدت ودفعت بسخاء وأنت تصر على لقبك الجديد، الذي صار يلزمك بأشياء كثيرة».

«تعترف إذاً أنك مدين لي؟».

«في بار بابالو اعترفت لك ثلاث مرات بأنك خلصتني من حبل المشنقة، وإذا كنت لا تذكر ذلك فأنت حقيقة هون المجنون».

«نيكو. لا يوجد قطار في ألمانيا لم أبحث بداخله عنك!».

اعترف نيكو أنه يعمل لحسابه الخاص منذ سنة، وأن وضعه جيد. كان يتفاخر بميونخ ويشتم فرانكفورت. وأكد أنه لا يرغب أن يكون تابعاً لأحد. عندها ضغط كولار بشدة كتفي نيكو، ثم ربت عليهما.

«كم من الوقت سأخضع لك؟».

«سنحرث ألمانيا طولاً وعرضاً» قال كولار، وهو يتفحص كتفي نيكو وزنديه «يجب أن ننهي بعض الأعمال، أنا مفلس، بعثرت كل ما أملك يميناً وشمالاً، وأقيم بناءً. تعرف أنت هون المجنون جيداً!».

«أتكفي سنة واحدة؟».

«تكفي».

«أأكون حراً بعدها؟».

«ستكون» قالها كولار، واضعاً فيها شحنة ثقة، وهو يرتب له باقته وربطة العنق: «تعتمد الأمور عليك وعلى أصابعك التسعة».

«إذاً حتى لا نضيع الوقت» تنفس نيكو مرتاحاً، وهو يسحب نفساً من سيجاره الهافاني «إنها ركن سبورغ. لا شك أنك تعرف الأصول، يجب أن تستريح الضحايا وتهدأ أولاً!».

«وماذا تقترح لهذه الليلة؟».

«نيكو. أعطني أولاً كل ما معك».

«خذ!».

كان مارك يراقب المخرج، وقد ابتدأ المسافرون بإطفاء الأنوار في مقصوراتهم استعداداً للنوم. قضم كولار بأسنانه طرف شاربه المصفرّ من التدخين، وأخرج من جيوب نيكو وصدره كل محتوياتها. كان القطار ينهب المسافات.

«سيلزمني المسدس لهذه الليلة» قال نيكو.

«أترك لك القفازات. تعودت عليهم. والجو بارد».

تنهد نيكو قائلاً: «هدأ المسافرون».

«كونا نسوراً بلقانية هذه الليلة». وفسر لهما كولار كيفية العمل حينما يكونان اثنين. حتى أصبح واضحاً لهما من وكيف ينقضّ، من يحرس المخارج، من يهرب أولاً، ومن يلكم الألمان الناعسين اللكمة القاضية «سأكون في قاطرة المطعم، وسوف أفكر بكما».

كان نيكو ماراش نسراً أمهر من الجميع، أمهر من فيكتور نفسه. كان من أكثر اللصوص الذين عمل معهم مارك وفاء. انقض، أفرغ الجيوب ونهب الكثير. وكانا قد تعارفا، وتوطدت صداقتهما في أحد القطارات الذاهبة إلى كاسل، سابقاً، بعد معركة دامية مع المسافرين وعمال السكة الحديدية. ولم يعرف كولار أي شيء عن هذا فيما بعد.

كان مارك ونيكو يهاجمان المخازن، والدكاكين، والمجمعات الاستهلاكية، والخمارات، ويسلبان من الجراسين، من الضيوف والزبائن، من الجباة في الباصات والحافلات، ومن العابرين. وكان كولار يسير خلفهما، تلتمع عيناه الزجاجيتان وهو يشجعهما ويوجههما. قادهما إلى هامبورغ، إلى ملاهي باولي، دفع عنهما كل المصاريف، وطلب أن يحققرا ويمعنا في تعذيب الجراسين. فجروا، وعربدوا، وضربوا كل القوادين. كان كولار يسرق من البحارة والعاهرات.

في تلك الأيام بكى نيكو وقال: «يا سيدي. لا أستطيع الاستمرار».

«وما الذي لا تستطيعه؟».

«لا أستطيع شيئاً» قال نيكو وقد سكن عينيه الذعر والظلام: «لا أستطيع شيئاً».

«أتعلم ما ينتظرك؟».

صفعه كولار طيلة الطريق في القطار الذاهب إلى أوسان بروك.

«أتريد جائزة، أم راتباً تقاعدياً، أم وساماً؟».

«يا سيدي. أعلم أن ما ينتظرني هو الموت فقط» همس الشاب وهو يرتجف: «الموت قريب كم أتمناه!».

«وما رأيك لو أرسلناك إلى الجبل؟ أتعلم أنهم غاضبون منك هناك؟ أنت من النادرين الذين هربوا من بين أيديهم. لهذا يقرئونك السلام، ويرجونك أن تزورهم».

«افعل بي ما تريد، ولا ترسلني إلى هناك!».

«ألديك شيء ضدهم؟..».

«سيدي. ليس لدي أي شيء ضد أي أحد، لقد غفرت للجميع كل شيء، ولهم. أريد أن أموت بهدوء فقط».

«مت عندهم في الجبل والهواء الطلق إذاً».

«أتوسل إليك ألا تكون نهايتي في الجبل».

«نيكو. إذا لم أبعك لهم، أتعلم كم ينتظرك من السجن مع الأشغال؟ يبحثون عنك في كل دولة ألمانيا. مذكرات القبض بحقك تدوخ في النمسا ويوغسلافيا وغيرها».

«سيدي. سلمني للبوليس. اختر أنت الدولة. لقد أخطأت في جميعها بالتساوي. دعني أتفسخ في ظلام السجون ككلب مسعور!! ولا ترسلني إلى الجبل».

«وماذا بعد؟» قال كولار، وهو يتفحص أبواب القطار.

«سيدي، اتركني - حينما تشاء - لأبكي» قال نيكو، وصالب يديه بأصابعه التسعة: «قيدني، اجلدني، اقتلني، اقتل الإله داخلي، كما فعلت معي في مدينة آسن. تمتع أنت يا سيدي، قامر، عاشر أحلى النساء، إِخص من تريد، وحينما تعود مليئاً بالفرح والحكايات سأغسل رجليك لتستريح، سأقبلهما، ستجدني كالمولود من جديد. بعدها سأستمر بحيوية أكثر، بنار أضرم من ذي قبل».

«مع الدموع؟».

«سأسرق!».

«ستهرب مني ثانية!».

«إذا لم تصدقني فاربطني ككلب، إن كان ذلك يعجبك كما في السابق وعذبني كما عذبت ذلك السلوفيني الذي حاول خداعك، لا أمنعك عن شيء. فقط لا تذكر الجبل. أقسم لك سوف ا - س - ت - م - ر».

«وهل تملك شيئاً لتقسم به؟!».

«إذا لم تصدقني فسأوقع لك تفويضاً بقطع الإبهام الأيسر. وإن لم يكن الإمضاء كافياً فسأصرح بذلك أمام من تريد. فامسكني من إصبعي. بهاتين اليدين قد أصبح أفضل. لا ترسلني إلى هناك. اتركني أتنفس لتعود إليّ أفكاري، ليهدأ قلبي وأعصابي، وسوف أحمل لك كل شيء مضاعفاً».

«وماذا بعد؟» قال كولار وهو يتجه إلى الباب المتجمد. وأضاف: «قلة حياء لم تُشاهد!».

«أريد أن أقابل مارك بين فترة وأخرى».

«وما نوع الصداقة بينكما؟».

«عادية. سرقنا وهربنا سوياً. لحقني أحد الجزائريين مرة، وكادت سكينه تصلني. ولولا وجود مارك لفتح خاصرتي. ولم تتسن لي مساعدته ولا مرة».

«ستكونان معزولين عن بعضكما لفترة». أمرهما كولار، وتابعوا الطريق من دورتموند باتجاه الجنوب. وأضاف: «بعدها ستكونان معاً!».

اتصل كولار عدة مرات هاتفياً من محطة فرانكفورت. قضم شاربه، وأشفع كلماته بحركات يديه. ولمس بسبابته الندبة على خده. بينما وقف ثلاثة رجال آخرين مع نيكو ومارك وقد لبسوا بلوزات جلدية وبنطلونات من الجينز. حذرهما أحدهم من التفوه ولو بحرف ريثما يخرج الرئيس من كابينة الهاتف. كان نيكو شارد النظرات، يرتجف.

سار نيكو ومارك وكولار إلى محطة التكسي، وكان الرجال الثلاثة خلفهم. جلس كولار بجانب السائق، وسحب فوراً ورقة من فئة مئة المارك. وجلس نيكو ومارك على المقعد الخلفي بينما أشار كولار للسائق بالورقة النقدية نحو الاتجاه المطلوب، وسارت من خلفهم سيارة أخرى تقل الرجال الثلاثة، حتى وصلوا إلى أطراف المدينة.

«نيكو. ما كان يجب أن تهرب مني وقتها» قال كولار، وهو يشير للسائق على الاتجاه المطلوب، في شارع ضيق معتم.

«يهرب اللاجئ منا للنهاية» قال نيكو هامساً. «وحينها يتوقف عن الهرب تضيع إنسانيته، يصبح لا شيء!».

«مثلك أنت الآن يا نيكو، لا شيء!».

«مثلي الآن لا شيء».

«نيكو. ما هي رغبتك الأخيرة؟».

«لو أستطيع أن أخبر هذا الذي بجانبي لمن ستبيعني؟ لأخبره أين سأموت. وأخيراً فأنني أشعر بشديد الأسف لأنني لا أستطيع بيعك كما تبيعني».

«نيكو. البكاء غير مستحب أمام الألمان!».

وقفت السيارة، ودفع كولار وترجل وهو ينظر إلى أعلى: «يا للشيطان، إنها تمطر» قال وهو يغمز السائق لينتظر. توجه نحو نيكو: «ستبكي في الجبل قدر ما تحب».

«لقد انتهيت، سواء بكيت أم لا».

أعطى كولار إشارة للسيارة التي وصلت لتوها بجانبهم، ليطفئ سائقها النور. ثم أرسل صفيراً بشكل متفق عليه. تقدمت منهم سيارة أوبل قديمة خرجت من الظلام.

«وداعاً يا إخوتي» قال نيكو بهدوء، وحاول أن يعانق مارك وكولار.

ترجل بعض الرجال بمعاطف جلدية من سيارة الأوبل. وضع كولار يده على رأس مارك، وحرفه نحو اليمين كي لا يرى ما يحدث. انطلقت سيارة الأوبل دون إشعال أضوائها، وبداخلها نيكو ماراش، وابتلعها الظلام.

«مسكين نيكو. لم ينفع العلاج معه» قال كولار وهو يتنهد. انتظر حتى غابت سيارة الأوبل في آخر العطفة. عادا إلى التكسي. «كم مرة نصحته أن يسمعني ويفهمني ويطيعني، وأن لا يحاول العمل بمفرده دون استشارتي».

وصلا مركز المدينة. كان مارك في شبه ذهول، حتى إنه لم يعد يملك القوة ليتفوه. أضاف كولار «بمناسبة موت نيكو قبل أوانه، سنقضي بقية الليل مع عاهرات على الموتورات!».

كانت سيارة المرسيدس خلفهما تقل الرجال الثلاثة.

- ٤ -

استغرقا في الطريق من فرانكفورت إلى ميونخ أسبوعاً كاملاً، ومن ميونخ إلى ديسلدورف أسبوعين. كان كولار يتحاشى الطرق العامة وهو يسرق الحانات جانب شتوتغارت، والاستراحات جانب كولن. قال: «القطار أبدي، القطار مثل الإنسان المدافع عن نفسه» وربت على كتف مارك، الذي حمل خزنة حديدية ثقلها أربعون كيلو غراماً سرقاها من دكان قروية. وأضاف: «حينما يتوقف كل شيء فإن الإنسان والقطار يركضان. يمكنك في القطار أن تفعل ما تريد، القطار بيت، ولحسن الحظ بيت غريب!».

حمل مارك الحقيبة الدبلوماسية التي كانت لنيكو، مليئة بالماركات والمجوهرات والساعات. وحينما توقف المجري عن فلسفته، قال مارك: «القطار مثل الإخوة!» فجاءته لكمة في أسنانه.

قال كولار يحاكم الأمور: «القطار مثل الإنسان، لا يمكن إيقافهما. في هذه العجيبة الأكبر من كل العجائب، يمكنك أن تفعل ومسموح لك بكل شيء».

أصبحت مدينة كوبلنز وراءهما. كان كولار ينادي على الجراسين بطريقة وقحة قائلاً: «أيها المعتوهون، المنحرفون، المفجور بكم من أقفيتكم وأفواهكم، إخوتي الألمان» كان يطلب مشروبات كحولية قوية، ويدفع مضاعفاً. ثم طرد المسافرين من قاطرة غير المدخنين، ووقف يهدر: «كان عمري عشر سنوات حينما سمعت وحفظت وأنا يتيم بدون أم ولا أب ولا قريب، بأن هذه الأرض شريرة، متوحشة وحقيرة. بأن الإنسان في القطار يكون أعلى بمتر ونصف المتر فوق الأرض، وأن هذا بالضبط ما يجعله أعلى من الرصيف، وهذا هو المهم. ومن حينها عرفت كيف تنطلق القطارات من بلدتي تجاه الشمال، لبراتي سلافا وبودابست، ومنها إلى أبعد. ثم من بلدتي للجنوب، لبلغراد وأثينا. كنت أودع القطارات وأتابعها بعيون الشوق، وأنا قابع في بيوت الإصلاحية أو بيوت الأيتام. «سأركب فوقك أيتها القطارات» كانت روحي تصيح بهذه الكلمات. «حينما سأصبح على سروجكم المزركشة لن أترك لجامكم من يدي وسأفعل بكم ما سوف يسمعه الناس ليشتهر بعيداً في كل المدن والأصقاع» وكانت القطارات تتكاثر. وبإمكانك أن تتصور كيف كانت أحزاني تنمو، ورغباتي في الانتقام تتوالد، وشوقي للعالم يكبر. كنت قد دخلت الثالثة عشرة من عمري، حينما سرقت أول عجلة. أصبحت وقتها أعلى بمتر عن الأرض، وهذا هو المهم. أصبحت أسابق القطارات. وكنت أتعثر دائماً وأقع، فأغرق في دموعي وغبار مدينتي. كان سائقو القطارات يطلقون صافراتها بينما يرمي المسافرون

لي جرائدهم، وعلب الكونسروة الفارغة، وبعض التفاح. يلوحون لي بأيديهم. والآن أصبح واضحاً لي بأن تلك الصافرات والأيدي الملوحة كانت تدعوني إليها، لأعلو عن الأرض إلى فوق، وبأنها أرادت انتشالي من حقارة بلدتي لأخطو في هذا العالم. ومرت السنون. وكثرت القطارات أكثر حتى صعدت عليها. والآن، فإن كل قطارات العالم ملكي مثلما أنا ملكها».

وصلا إلى شتوتغارت. انتظرهما ستيفان في المحطة. كان هيئة بشرية قصيرة، ضخمة وذابلة، شاباً في الثلاثين، بسالفين طويلين كثيفين وشعر أشيب، وأنف مكسور عدة مرات حتى أصبح مسطحاً إلى الأبد. كانت عيناه اللتان لم تشبعا من النوم حزينتين حتى الموت، وجفناه الملتهبان منتفخان. أما اليد اليمنى لهذا الملاكم السابق فقد كانت مشوهة، بدون إبهام، مثل يد نيكو ماراش. كان يخفيها ببراعة، بوضع الكف كله تحت إبطه الأيسر. كان صوته أجش ولثته مزرقة، وكانوا يلقبونه تيتسا بدلاً من اسمه الحقيقي ستيفان. كان دائم التلفت والقلق، وهو يكرر بأن أحد أعوانه من عصابته الجديدة، سيصل الآن حتماً بالقطار من بوبلينكن. لهذا لم يرغب بالانصراف من المحطة ولا الصعود بالتكسي. كان ينتظر القطار.

«منذ متى وأنت تخاف هكذا، يا حامل القفاز الذهبي بدورة بلغراد وكل صربيا؟» لم يجب، كان يراقب المكان، من مواقع قدميه حتى باب الخروج من المحطة. أخيراً توجه إلى المرحاض. وأخرج من صدره صرة وضع فيها الإتاوة الشهرية، ووجهه يمتقع. ابتدأ كولار يعدّ، حتى إذا انتهى، أودع النصف داخل حزامه ووراء ظهره، والباقي في جزمته، هناك بجانب إحدى السكاكين التي يحملها.

«كان اتفاقنا غير هذا يا صاحب الوزن الثقيل!».

«الحاجة تغير القوانين يا سيدي».

«ستيفان. أتريدني أن أصدق بأنك لم تستطع جمع أكثر من هذه العشرة آلاف مارك المبول عليها في شهر ونصف؟».

«ليست عشرة يا سيدي، أحد عشر».

«ستيفان. هذا لا يكفي ولا لشراء سيارة مرسيدس. تحت تصرفك كل شتوتغارت وضواحيها!».

«سيدي صارت المنطقة ضعيفة، تعود الشعب على السرقة والاختطاف والاحتيال. كان هناك الصقليون قبلنا، وبعدهم الفرنسيون. أما البلقانيون فحدث ولا حرج. لقد بحثوا وأخرجوا ما هو تحت الحجارة. ضعيفة هي المنطقة ومنهكة حتى العظم».

«ستيفان. أنت اخترتها» قال كولار، وقد تقلصت العضلات حول فمه. وهو يخبئ بشكل غريزي الندبة بالقفازات.

«رفضت هامبورغ بسبب الرطوبة، وكانت برلين بالنسبة لك بعيدة عن البلقان، وميونخ وسالزبورغ قريبتان جداً. قلت شتوتغارت، أعطوني شتوتغارت. والآن أراك تندب. أنت الوحيد الذي يعتب عليها، كثيرون غيرك يتمنونها».

«أنهب كل ما أستطيع، ومن المبلغ ترى أنني لا أكذب. ابتدأت شبكتي بالتفسخ والانهيار. يهرب اللصوص والقتلة الشباب، ولا فائدة ترتجى من الكهول الذين ابتدأت أيديهم وركبهم ترتجف، بل لا شيء سوى الضرر».

«أحد عشر ألفاً فقط؟».

«حتى هذا المبلغ جمعته بصعوبة».

«ستيفان. اعترف ولا تخف، كم وفرت لنفسك، لأيامك السوداء؟».

«لقد حانت أيامي السوداء».

«منذ متى يضنيك هذا العذاب؟».

«من الوقت الذي لم أعد أجرؤ به على لكم أي إنسان بقبضتي اليمنى، أو بالسكين. مذ أتيت إلى شتوتغارت».

«وهل يطاردك الدم إلى هذه الدرجة؟».

«شاتس. الدم واصل للجميع. الهروب مستحيل. وأول ما ينالك دمع الذين أشقيتهم للأبد ودمهم، بعدهما الفقر، ثم كل شيء!».

«قليل هو الهواء المنعش بهذا الوادي؟».

«قليل» قالها ستيفان بصعوبة، خائف النظرات، مهروس الوجنتين، ضيق الجبين.

«حتى الهواء قليل هنا. كل شيء قليل».

«ستيفان. قد تكون راغباً بالعمل لحسابك ولا تعرف كيف تزف النبأ لي؟!».

«أقسم لك يا سيدي إن ذلك لم يخطر على بالي».

«أراك تتعرق، وعيناك ترمشان كالمصاب بالرمد. ما بك؟».

«ستقودني بلاهتهم إلى القبر!».

«ما رأيك بالجبل؟ ستستريح قليلاً هناك، فمثل ذلك الهواء لا يوجد في مكان آخر. سأوصيهم بإعطائك طعاماً مغذياً إضافياً. كم سيسعدون برؤيتك!».

«أنهيت حساباتي معهم. وتعلم أنهم سامحوني بدمي، وكان لديهم أسبابهم لذبحي، لكنهم لم يفعلوا».

«ستيفان. المهم أن أسامح أنا!».

«يأتون كل يوم أحد ويأخذون نصيبهم».

«وهل نصيبهم أكبر من نصيبي؟».

«لا يطلبون الكثير، عدة آلاف أسبوعياً، المهم هو الانتظام».

«وهل يمكنك التعرف على المكان الذي اقتادوك إليه؟».

«لا. أذكر حظيرة خنازير فقط، الغابة، الريح والمطر المتجمد. حينما سلمتني لهم كانت ليلة مقمرة بالمصادفة. لا زلت أذكر تلك النجوم، ثم أظلم كل شيء. ولم نعد نرى النور لمدة طويلة».

«ستيفان. من يأتي منهم لأخذ المعلوم؟».

«يأتي شخص آخر في كل مرة. لقد تعودت عليهم، حتى إنني أصبحت أعرفهم بدون كلمة السر، بدون أية كلمة، بدون سلام، أخرج من صدري وأعطيهم».

«أيهددونك؟».

«حينما كنت عندهم قالوا إنهم سيقطعون يدي من المرفقين، سيقتلعون عيني وينتزعون أذني من جمجمتي إذا توقفت عن الدفع. تعرفهم أنت أكثر مني».

«أتعتقد أنهم ما زالوا يرأفون بسيدهم؟».

«مهما يكن فإن دمه سيكلفني رأسي. مجبر أنا على الدفع حتى النهاية. هكذا قالوا. وأنا لا أرى النهاية».

«وإذا خلصتك من كل هذا العذاب؟».

«لم أعد أصدق أحداً».

«إلا المجري يا ستيفان. أخرس أنا وأطرش».

«لكن الأسرار تنتشر من تلقاء نفسها. يؤكد الفلاحون على نهر الدانوب والدرينا بأن الدم المهدور لا بد أن يغلي. عندها ينتقم الإنسان. وهذا ما أخافه أكثر من النار نفسها».

«بقينا بدون نيكو ماراش. يلزمنا ثالث. تعال معنا. سندلك!».

«أعمال إرهابية؟».

«في البداية قطارات، مراكز بريد في القرى والضواحي، دكاكين ومخازن في المحطات، المنتجعات وحمامات المياه المعدنية، المشافي ورياض الأطفال والصيدليات. سيارات، محطات بنزين، بيوت، كالسابق، كما فعلنا في بافاريا والنمسا، حينما كنا نترك كل ما وراءنا قحطاً. حينما كنا نختطف أطفال العمال الأجانب وقططهم. ستسافر دائماً، تبدل ملابسك وأحذيتك، نساءك، علامات وجهك ولغتك. تلكم بضربات قاضية. يسراك هذه كافية لأي ألماني. وحينما لا تكون في القطارات سأودعك في أحد الكراجات، صاحبه من بلدنا، يوغسلافي محترم وصديق مخلص. لن تكون مضطراً لوقت دوام معين. سأطالبك بنشاط زائد بين وقت وآخر فقط».

«بشرط. أن لا تسبب لي أية مشاكل مع بارون الخنـازير، معهـم فـوق في الجبل».

«ستيفان. هذه مهمتي. تعلم أنهم لا يجرؤون على النطق أمامي لأنني إذا أغلقت صنبوري فسوف يغدون بدون دماء طازجة، أو لحـم آدمـي أوروبي شرقـي وسـلوفيني. سـيختنقون ببخـار الخنـازير، بعفـونتهم وظلامهـم وقدرهم».

«متى نبدأ؟».

«لقد بدأنا فعلاً. إننا نطير» هـدر المجـري وهـم داخـل القطـار. طلـب البفتيك التاتاري، النبيذ الإسباني والشوكولاتة. «كن بجانبي يا سـتيفان ولا يهمك. صدقني حتى العمى. ارهـب جـانبي كـما كنـت ترهـب أبويـك في الصغر، وكما ترتعد من أولئك الذين كانوا يرمونك على أرض الحلبـة نازفـاً وغائباً عن الوعي. احمل اقتل من أجلي. دمر لحـسابي واحفـظ لـسانك بـين أسنانك إذا لم ترغب أن يقطع».

بقيا لفترة في مدينة أولم. في مطعـم المحطـة تنـاولا عـشاء فـاخراً. وكـان كولار يدس في فم ستيفان لحماً نصف نيء، غير مشوي. ثـم اضـطره لأكـل موزة بقشرها مغمسة بدم دجاجة. كانا يتـذوقان بعـض الأطعمـة الفـاخرة بطرف اللسان فقط ثم يتقيآنها. انتاب الجراسين القرف، أمـا رئـيس المطعـم فقد أزبد وتقيأ.

كان ستيفان قد عـاين العديـد مـن براكـات العـمال الأجانـب ومعامـل الآجر. ركض وراء أحد الإيطاليين حتى نهر الدانوب. كان يطير في شوارع المدينة وهو يحمل رسائل الشيفرة من كولار، ويعود حاملاً أكيـاس الإتـاوة

مليئة بالنقود. عادت إليه الثقة، حتى إنه صرّح بذلك وهو يدخل تحت سقف المحطة حاملاً حقيبتين دبلوماسيتين مليئتين، والسيجار الهافاني بين أسنانه، وعلى كتفيه معطف من أغلى أنواع الموهير. أخذ كولار الغنائم، وأرسل صاحب الوزن الثقيل ليتدرب ثانية في أولم.

قال لمارك: «كما ترى، السماء تمطر نقوداً!».

«أرى!».

«اعلم أنك تعيش من خطايا الآخرين أفضل وأطول مما لو عملت، فالسرقة هي أولاً أشرف وأقل تعباً وعرقاً. لكن لا تفكر أبداً أنني سعيد. لست سعيداً. أنا لست إنساناً كاملاً، أنا ثلث إنسان فقط. تقول إنك تبحث عن أبيك، أنا أبحث عن أبوي. ستجد مجرمك اليوم أو غداً، وأنا لن أجد خادعيَّ أبداً. خلفني كما يقولون صربي ومجرية أو مجري مع رومانية، كله واحد، في ذلك الماخور المسمى يوغسلافيا. وحينما اختفى قاطفو الذرة المياومون في مزارع نهر الدانوب، افترقا. هذا فيما إذا كانا قد بقيا أصلاً مع بعضهما لأكثر من ليلة واحدة. سمياني اسكندر، وبالمجرية شاندور. أما الكنية كولار فتأتي مشتقة من اسم الملك كارجورجي، موحد السلوفينيين الجنوبيين وكل رعاع البلقان الآخرين. وقتها كانت تُعطى الكنية كولار لكل أبناء الزنى في تلك المنطقة. وقد عمدني وسجلني في الكنيسة الأرثوذكسية الأب آندرو ماسورا، الذي كان لوقت طويل خيال كل الراهبات في الدير الذي ترعرعت به لوقت ما. وكانت مومسه الخصوصية، كلارا اورسوليك، فاجعته الحقيقية. لقد شنق الأب آندرو ذو الأعضاء التناسلية الضخمة من تلك الأعضاء بسببها ودقت المسامير في خصيتيه.

ومنه تعلمت الغش والسرقة في ورق اللعب وتشمم كل ما يتعلق بالجنس النسائي. وعندما هدم الدير أخذني بعض اليهود. وحينما هربوا تركوني. فوجدت نفسي عند بعض عباد النار. اشتروا لي عجلة فابتدأ أول جنون لي. «سأجدكما يا أبي وأمي» كنت أقول وأنا أقود العجلة بسرعة. في سن الخامسة عشرة أصبحت أول طلائعي في المنطقة، ثم في الجمهورية كلها. بكيت حينما علقوا على عنقي الصغير الناعم إكليل الغار. لم أبكِ من السعادة والفخر لأنني الأول، بل لأن خادعيَّ، قاطفي الذرة، لم يكونا بجانبي، ليقبلاني في جبيني المغطى بحبات العرق، ويهنئاني. دربني المدعو لايوش، الشهير بالقواد، ثم زدنكو. ومنهما تعلمت أولى الكلمات بالألمانية والتشيكية. سافرت وحدي في كل أنحاء الجمهورية وأنا أبحث في كل كومة قمامة أو قمح، عليّ أجلب انتباه أبوي. أنا الطفل الصغير ذو الشعر الأشقر، بارز الوجنتين، على العجلة التي تطير. قالوا: لا يمكن إيقاف هذا الشيطان الصغير الأبيض، وإذا لم يقتل قبل وقته فسيصل إلى نهاية العالم جالباً العار لكل مدينتنا. واعتبرني لايوش وزدنكو عبقري العجلات وقالا إن الميداليات الذهبية التي تعطى لبطل العالم في ذلك السباق، لا بد أن تزين اتحاد اللعبة في مدينتنا. في إحدى الليالي توقف جنون العجلة لدي. كان ذلك حينما أيقنت أن اهتمام خادعي قاطفي الذرة لا يمكن استدعاؤه ولا بألقاب أكبر من تلك التي يتحدثون عنها. حطمت العجلة وأنا في السابعة عشرة، قبل الانطلاق إلى بودابست للمباراة. بصقت عليها ورميتها في نهر الدانوب. وقلت لزدنكو ولايوش إن الرياضة غائط لا أكثر. وكانا مجنونين بالانتصارات والأرقام القياسية، ذبابتين معتوهتين لا أكثر. بكيا طويلاً لأن ابن الزنى شاتس لم يعد يرغب أن يكون مع أحد. استسلمت للخداع

والاحتيال والسرقة والاختطاف «سأنتقم منكما يا خادعي» وابتدأت أسافر كالمعذبين. وقلت «سأصنع المعجزات ثم أموت، سأجعلكما تجرحان خدودكما ألماً علي، ستبكياني إلى الأبد». وهربت من هناك بعد مدة وجيزة. مررت بكل مخيمات الهاربين، وكل مراكز تجمعاتهم. وتطاول الجحيم. وقفت على قدمي بصعوبة. ذقت طعم الدم البشري، مالح طعمه وحلو، يسكر. إذا لحسته مرة تصبح دائم الشراهة لشربه ثانية. جننتني التجارة، خصوصاً تجارة اللحم البشري ومواده. وصار شراء وبيع الرجال اليوم عندي أسهل من إشعال هذه اللفافة».

كان ستيفان أشجع في ميونيخ. شرب واجتر بقدر ثلاثة، وحمل لسيده ما يحمله أربعة. قضوا الأسبوع كله انقضاضاً على المخازن ومحطات البنزين، والكراجات والفيلات حول نهرب إيسار واكتسبت العيون الملتهبة المنتفخة لمعاناً متوحشاً، والخدود والشفاه ما يشبه الورم. كان صدر ستيفان يصفر كأنه مثقوب بين أضلاعه.

«شاتس، اعترف أنني لا زلت كما كنت أيام مجدي» تمايل المجرم وهو يريها مخالب يده اليسرى.

«أسكران أنت؟» قال المجري وهو يطلب دوراً خامساً من المشروب: «لا أحد يبقى كما كان».

«هل أنتحر؟».

«انتحر».

كان الوقت ليلاً وليس في المحطة ما يشد الانتباه. اشتروا صحف اللاجئين السياسيين والهاربين جميعها، ثم اشتروا مجلة التايم، لا لقراءتها،

وإنما ليلوحوا بها للألمان وهم يعبرون الشوارع الممنوعة، ويشتمونهم بالإنجليزية.

كان آدم بانتظارهم عند شيلر على البار ثملاً. كان جندياً أمريكياً من أصل بولندي، كبيراً وضخماً مثل ستيفان، وجهه الحقود مليء بالنمش. كان يتحدث مع المجري بلغة هي خليط من التكساسية والروسية والتشيكية. وفهم مارك منه بعد تكرار أن الطرود الكبيرة هي عند ستاني سلاف، والأصغر عند أحد اللاجئين السياسيين البولنديين اسمه ويتولد، وأصغر الطرود وأهمها للمجري وجماعته قد أودعت تحتهم بعدة أمتار، في مرحاض شيلر. ودعوا الجندي الأمريكي دون كلام.

نزلوا إلى المراحيض وأغلقوا الأبواب. كان على الملاكم تغيير ملابسه وارتداء ملابس جندي أمريكي بمقاس آدم. لبس الجزمة، والقبعة، وحزاماً جلدياً تدلى من طرفه مسدس كولت. وأصبح ستيفان شبيهاً بالجندي ابن الزنى الآتي من الباما. وسار هكذا، دون أن يعلم لمن سلمه كولار بعد تبادل سلام قصير بالشيفرة. لم يكن الرجل الذئب الذي تسلم ستيفان ودفعه داخل المرسيدس ألمانياً لا بالشكل ولا بالكلام ولا بالحركات الشائنة من يديه ووركيه وركبتيه. عندها تذكر مارك ذلك المخنث المسمى ايريكا في ترايسن كيرشن.

ركب مارك وكولار سيارة مرسيدس بلون الجرذ، بعد أن وضعت عليها لوحة سيارة جيش أمريكية، أخذت من طرد آدم، وسارا وراء سيارة تاونس ١٧م قديمة، دون حمولة ظاهرة سوى الطين الذي غمر حديدها وزجاجها، ذات لوحة لبنانية. كانت كالعربة، بدون عادم، يتناوب على قيادتها عدة

أشـخاص عـرب، وأحيانـاً رجـل أبـيض عجـوز، بمعطـف فـرو ثمـين ونظارتين، يحمل بيديه الخرائط والصحف. وتنـاوب مـارك وكـولار قيـادة المرسيدس أيضاً. كانا يأخذان البنزين حينما تأخـذه التـاونس دون أن يخـرج من كلتا السيارتين أحد. وكـان واضـحاً أن الغربـاء يبحثـون بمـشقة عـن شارع، وبصورة أصعب عن بيت في ذلـك الـشارع. أكـد كـولار أنهـم قـد خُدعوا، وأنهم ضائعون، لكن يجب تركهم حتى يتعبوا أكثـر، ممـا سيـسهل اجتذابهم عند المساء إلى أطراف المدينة، وقـتلهم. أعاقـت الـسيارة القديمـة السير في الشوارع عدة مرات حتى انحرفت من شـارع ليوبولـد إلى اليمـين باتجاه الاوتوستراد الذاهب إلى نورنبرغ. كانت المرسيدس تتبعهم.

«مارك. تأكد من أن كل شيء على ما يرام؟» أمر كولار عبده الذي كـان يراقب جيداً، محاولاً أن لا تكون المسافة بـين الـسيارتين أكثـر مـن عـشرين متراً.

«كله مهيأ، المسدس الأوتوماتيكي والذخيرة».

«أتظن أنهم مسلحون جيداً؟».

«يجب أن نكون أسرع، هذا كل شيء».

«هل تأكدت أنهم لا يلاحظوننا؟».

«إنهم متعبون جداً يا سيدي».

«أتشعر بالرائحة الكريهة؟».

«رائحة جهنمية، ما الذي يفوح بهذا الشكل؟».

«هناك كروس لابن، أكبر مزبلة في ألمانيا. حيث يُحرق ويُطلق الرصاص دائماً. أغلق النافذة. انظر كيف يغلق القرود العرب النافذة أيضاً».

«ومن يطلق الرصاص؟!».

«هنا يقضي اللاجئون السياسيون والهاربون من أوطانهم بعضهم على بعض، هنا نذبح بعضنا، نخنق بعضنا، نسلخ جلود بعضنا. لقد غدت المزبلة ملتقى سائر أشرار الشرق الأوروبي وخصوصاً السلوفيني. هنا يصفّون حساباتهم القديمة ويفتحون حسابات جديدة. هذه المزبلة مسرح ميونيخ، لولاها لكانت بدون مسرح حقيقي. هنا يقتل الصربيون الخرفاتيين، والخرفاتيون الصربيين. يقتل الروس الأكرانيين، والأكرانيون الروس. يقتل الروس الألبانيين والبولنديين. يقتل السلوفاكيون التشيكيين، والتشيكيون السلوفاكيين. ويطلق المجريون على كل من تصل إليه أياديهم، مثل البلغار والألمان الشرقيين. هذه الرائحة الجهنمية العفنة هي رائحة أكباد رجال الشرق الأوروبي التي تحترق».

«ولماذا نتقاتل في هذا المكان بالضبط؟».

«لا تتكامل حياة اللاجئين السياسيين إلا بالطقوس، ولا تتكامل الطقوس والمعتقدات إلا بالزبالة!».

«وهل تنتظرنا هذه المزبلة يا سيدي؟».

«أنا بالتأكيد. حتى إنني سأشعر بالإهانة إذا قُتلت في مكان آخر أقل عظمة ومسرحية من هذا المكان. كأن هذه المزبلة قد خلقت للمجريين».

تجمع مارك في مقعده. كانت السماء تمطر. وكولار يغني، ومارك يتذكر نيكو ماراش.

توقفت التاونس في ساحة معدة لذلك، ولم يطفئ سائقها المحرك ولا الأضواء. نزل الرجال العرب منها، وشتموا المطر واتقوه بالحقائب

الدبلوماسية فوق رؤوسهم. ساروا إلى فوق باتجاه الفندق الصغير. ولم يترك السائق العجوز، الأشبه بقرد متعب، المقود من يده. كـان يـسدي نـصائحه لهم، دون أن يـشعر بتوقـف المرسـيدس ذات اللوحـات الأمريكيـة خلفـه، بأضواء مطفأة. وحينما أغلق باب الفنـدق خلـف الرجـال العـرب، زحـف كولار بسيارته لتحاذي التاونس من طرفها الأيسر، ثم خرج واضـعاً فوهـة المسدس على صدغ السائق. وكان مارك على الطرف الأيمن مشهراً مسدسه الأوتوماتيكي. رفع السائق يديه عن المقود، واستسلم للفوهتين.

«انطلق» قال مارك بعدما جلس بجانب السائق، وفوهـة مـسدسه عـلى أضلاعه الهرمة. وأضاف «اتبع المرسيدس».

كانت السماء تمطر بـشدة، وتجـري الـسيول مـن كـل الجهـات، حتـى لم تتمكن ماسحات المطر على سيارة التاونس من مسح السيل عـلى زجاجهـا. كان المجري سعيداً بهذا الصيد، فقاد المرسيدس بخفة وسهولة كأنها عجلة، وتوجه عائداً باتجاه ميونيخ. وقد بدت نـصف الـساعة تلـك لمـارك وكأنهـا الأبد نفسه. انعطف كـولار إلى اليمـين فجـأة، وخـرج للطريـق المـؤدي إلى أونس بروك، ثم انحرف يميناً بسرعة إلى شارع فاسبورغ، وكأن الجو صحو وليس ليلاً مرعباً مليئاً بالعواصف والسيول.

فاحت رائحة الدهن في سيارة التاونس ورائحة اللـوز والتـين، ممزوجـة برائحة عرق الأقدام والأحذية المصنوعة مـن جلـود عربيـة رخيـصة. كـان السائق مليء الوجه بالجراح القديمة، وقـد خـيط أنفـه عـدة مـرات سـابقاً، تنتشر منه رائحة البول والأمونياك المشوبة بنتن كالمومياء. يعلك لفافته ناظراً للأمام دون أن يجرؤ عـلى تغيـير موجـة الراديـو، المرسـل لـصوت برازيـت مشوب بأصوات نواقيس ورجال يغنون أغاني الجيش الأمريكي السابع مـن

القواعد القريبة. وقد اضطر مارك لتحذيره بضربه على أضلاعه بفوهة المسدس عدة مرات بمستوى القلب. وكان العجوز يجعد جبينه وحاجبيه المخيطين، فتبرز الأخاديد على الجبين أكثر. وصلوا بريم عن طريق كيرش ترادنيك. توقف كولار، وخرج مقترباً من التاونس. فتح له مارك الباب. كان وجه كولار مشرقاً، وقد تبعثر شعره على جبينه من الريح والمطر، وصارت التجاعيد حول عينيه رطبة وفرحة. غمز السائق العجوز ثم قال لمارك:

«هل تقتله؟».

«بعد قليل».

«اتبعني إذاً». صفق باب السيارة، حتى سمعت أصوات الجنود من كتيبة آدم.

كان الشارع الذي توقفوا به يطوف بالماء، فتوسل مارك إلى ربه أن ينهي هذا السباق الليلي المجنون بسرعة. وتصور كيف سيحكي كل ما حصل لنيكو ماراش وستيفان، فيما لو قدر له أن يراهما ثانية. أما حبيبته يانوشا فلن يقول لها شيئاً، لأنها ستبكي. ووالده؟ لا. لن يفهم شيئاً حتى لو قص عليه كل شيء بالتفصيل.

«ستقتلون نيكيتا العجوز الروسي الذي ليس له معين، والذي ذاق عقاب الرب والعباد؟» قال السائق وهو يمضغ لفافته.

«يمكنني هذه الليلة أن أقتل أبي!».

«سأقول لكم كل ما أعرف، بنيمايش[1]!».

---

1 - بالروسية تعني: أتفهم؟ - المترجم -

«أفهـم الروسـية. والآن انطلـق إلى الأمـام حتـى لا أفـرغ الرصـاص في رئتيك وكبدك».

«وهل أجرؤ على معرفة وجهتنا؟».

«هذا ليس شأني ولا شأنك!».

«التعب. النوم. الإرهاق. لا أستطيع أكثر».

«أطفئ الراديو!».

«السبب؟».

«تثير أعصابي ضحكات آدم. هل تعرف آدم؟».

«لا أعرف أ - ح - د - اً!».

«يرمولاي، فيكتور، بوندارنكو؟».

«لا بد أنهم رجال مهمون، فأسماؤهم لها رنـة، وأنـا سـائق فقـير فقـط. اسمي روسكي».

أودع سيارته جانب الحائط، وأخذ التاونس إلى فناء مظلـم مـليء بعـواء الكلاب والكراجات. ولم يستطع السـائق المرعـوب والمتعـب الخـروج مـن سيارته. فحمله ستيفان - الذي كان بانتظارهـم - وعصب عينيه، ثـم أوثـق كولار يديه بسلسلة حديدية أخذها من آدم، وزرعه فوق صندوق خـشبي. فتشه مارك، وسحب منه سكيناً بنابض، ومسدساً براماً، وقفـازين مليئـين بالشفرات. وشاهد مارك سيارات المرسيدس الخمس، التي اضطر سـتيفان لتغيـير أرقـام محركاتها وهياكلها ولوحاتها. كـان نيكيتـا جانـب سـيارته التاونس، تعتصر المياه من بنطاله وهو يرتجف. استل المجـري سـكيناً ومـرر رأسها المدبب فوق شفتي الرجل، ثم رسم خرائط حول حنجرته، وهدر:

«نيكيتا أين الذهب؟».

«لا أعرف».

«تفاخرت أمام هذا الشاب أنك تعرف».

«ليس مكان الذهب!».

«قل إذاً ما تعرفه، وإلا سنفرمك قطعاً ونرميك على كروس لابن».

«كروس لابن! ما هذا؟».

«مقبرة. مزبلة!».

«لا تتسرعوا».

«روسكي. أين الهيروويين؟».

«حشيش هذه المرة. مع الأسف» كانت نظرته شاردة، وصوته مسطحاً «ليست بضاعتي، أنا سائق فقط، نوع من البضاعة».

«روسكي، ونحن مثلك. أخبر العبيد فوراً عن مكان الحشيش».

«الباب. صادات الطين. العتبات. الأرضية المزدوجة».

ابتدأ مارك وستيفان باقتلاع أثاث السيارة وسقفها وجوانبها وأسلاكها. فتحا كل الثغرات المموهة، وسحبا تلك القطع المستطيلة الخضراء بشكل الشوكولاته. كانت رائحتها عفنة، نتنة. نظر المجري إليها، كانت كلها تحمل الرقم ٩٩٩.

«نيكيتا، ما وزن الحمولة؟».

«قدر ما أرادوا وقدر ما استطعنا تحميله».

«تقريباً!».

«خمسون كيلو غراماً».

«وأين حمّلتم البضاعة؟».

«بيروت. ما عدا الكمية التي وجدتموها في حقيبة الطعام فقد أخذتها من استمبول».

«ومن هم العرب؟».

«أنت كثير الأسئلة».

«ما أسماؤهم؟ من أين هم؟».

«لا أسماء لهم. يتفاهمون بالأصابع!».

«روسكي. إذا لم يعرفوا أسماءهم فهم يعرفون اسمك بدون شك».

«مـأموريتي أن أوصـل الأول إلى سـالونيك، وأن أتلقـى الثـاني مـن سكوبيا».

«وهل تظن أن البضاعة كلها ملكهم؟».

«لا يمكنك معهم معرفة أي شيء. أظن أنها ليست كلها ملكهم».

«وكيف عرفت ذلك؟».

«أظن ولا أعرف. لقد تلفنوا كثيراً، مـن كـل الأمكنـة التـي توقفـت أو انتظرت بها».

«وعمن كنتم تبحثون في ميونيخ؟».

«عنكما». قال وهو يضحك بمرارة، مظهراً أسنانه الذهبية.

«ألم تلاحظونا مطلقاً؟».

«أنا الآن لا ألاحظكم».

«ومن ترى إن لم تكن ترانا؟».

«العرب، وكيف يذبحونني».

كان ستيفان يستعمل المقص الكبير ببراعة وسرعة كأنه يملك أصابعه كلها. وكان مارك ينتزع، يمزق الجلد الصناعي في سقف السيارة، بينما يخرج ستيفان المستطيلات ويرتبها.

«نيكيتا. من ذبحك إلى هذا الحد؟».

«الألمان أولاً، حينما دخلوا من جينومير إلى مدينة كييف. قالوا: «روسكي هذا جزاؤك لأنك لم تستسلم فوراً. بعدها ذبحني جنود الجنرال فلاسوف عند ليوف وقالوا: تعال لنمهرك نحن أيضاً. ثم الألمان ثانية، في إحدى غابات تشيكوسلوفاكيا، وسألوني: إلى أين تهرب من روسيا؟ وبعدها، بعد الحرب، ذبحني واحد صقيلي وآخر يوغسلافي، ومنذ فترة العرب».

«ومن أين لك جواز السفر اللبناني هذا؟».

«حينما تكون أنا وتحفر داخل الخطر، يجب أن تملك وثائق مختلفة».

«وحظاً».

«الحظ شيء يخصك وحدك فلا أحد يسألك عنه».

«وأين الجوازات الباقية؟».

«التركي في الجزمة اليمنى، وفي اليسرى الأرجنتيني، وفي صدري أفضلهم الألماني».

«ولست نيكيتا في أي منهم كما أرى!».

«ولماذا أكون؟ من أدق خصوصياتك انتقاء الاسم الذي تريد».

«وماذا تحمل وتنقل أيضاً؟».

«ما يقرف الألمان غالباً، ثم ما يتحاشونه ولا يريدونه، أو ما لا يجرؤون عليه».

«وماذا إضافة للمخدرات؟».

«في أي قرية أجد حصاناً ميتاً، بقرة، كلباً، يصيح الألمان: روسكي. فتراني أنقضّ على الجثة كأنني قرباطي ولست روسكي».

«وهل يتهيأ لك شيء آخر أم جثث فقط؟».

«سلاح، من الأخف للأثقل. أحمله بسيارات عتيقة، سيارات صالون، شاحنات لحم كبيرة، حاملات النفط. أجهزة جهنمية، صحف اللاجئين السياسيين والهاربين ومنشوراتهم. أعرف كل الطرق من هنا إلى البلقان والشرق الأوسط. والأصعب من حمل الديناميت هو حمل المخطوفين داخل الأكياس».

كان مارك وستيفان يخرجان مبرد ماء السيارة. حطماه. قصا خزان البنزين، وتعجبا كيف يمكن أن يتسع هذا القعر المزدوج والجناح المزدوج لكل ذلك! كانت صادات الطين مليئة بذرات لها رائحة كريهة ملفوفة بالسولوفان.

«روسكي. خبأت هذا عنا!» صاح كولار فرحاً.

«لم تسألوني».

«سألناك».

«عن الذهب، كمحدثي النعمة».

«ألديك المزيد من ذرات الأفيون؟».

لم يعد الحديث مع نيكيتا ممكناً. كانت عيناه تسبلان مغمضتين، ويثقل لسانه. ألقاه كولار كطفل فوق كرسي سيارته المرسيدس، ثم جلس خلف المقود، مشرق الجبين، وأدار المحرك. جلس مارك بجانب السائق فوراً وهو متعرق يلهث. استدار ورأى كيف ينام العجوز. أصبح المجري بعجلتي سيارته الأماميتين على عتبة الكراج، حينما قفل ستيفان الباب وراءهم. ولم ينتظر كولار ليغلق الباب الخارجي بالمفتاح، بل راح يغني ويكسر ويشتم ويلعن.

قاد المجري السيارة أكثر من نصف ساعة، وكان المطر سلاسل تصل الأرض بالسماء. ولم يلاحظ مارك الشاخصة على مفترق الطرق، وهذا ما أعجب المجري. كأن مارك يراقب نيكيتا الفائح برائحة هرمة حامضة خاصة باللاجئين السياسيين والهاربين. وكانت النافذة الصغيرة مشرعة، لكن هذا لم يكن كافياً. ولم يستيقظ الروسي طيلة الطريق، ولا حينما أخرجوه من السيارة.

فتح كولار بابا بافارياً ضخماً، ونزل درجاً عريضاً. يتبعه مارك حاملاً الرجل الذي كان شخيره الدليل الوحيد على أنه ما زال حياً. لم يفتح الرجل عينيه إلا حينما أدخلاه الحمام. نزعا ثيابه، وأفرغا جيوبه، نفضا الجزمة. غسلاه وتفحصا أسنانه، ثم تمعنا طويلاً في فتحة مؤخرته. كان الجسد الهرم النحيف مليئاً بالجراح والندبات ومخلفات الحروق. رشا عليه بودرة أطفال، ولفاه بالمناشف. حمله المجري للسرير وقال: «روسكي، يمكنك أن تنام للأبد. آه لو أنني أستطيع ذلك».

«كم الساعة الآن؟».

«الثالثة بعد منتصف الليل. لماذا تسأل؟».

«لأنني لا أريد النوم للأبد. أكره كل ما هو أبدي. أهرب من هذه الأبدية الملعونة مذ وعيت لنفسي».

«لا يمكن الهروب كما ترى».

«يجب!».

«أكملت واجبك».

«لم أكمله».

شزره المجري، ومر بيده على رأسه المحمّر من الماء الساخن. كانت خصلات شعره لا تزال رطبة خلف أذنيه. سأله عما يجب أن يشرب بعد أن أصبح كله (أوكي).

«تقول إنها الثالثة بعد منتصف الليل».

«الرابعة!».

«وما الذي عملته طيلة ساعة؟».

«حلمت بالعرب وهم يذبحونك ويسلخونك».

«يجب أن أتم مهمتي للنهاية. سأنام عشرين ساعة، وهذا أقرب ما يكون للأبد. ومع الإفطار سنرى أين وكيف ننتظر سيارة أخرى مليئة أكثر من سيارتي».

«كأنها قافلة!».

«وأنا العاشر ضمنها».

«وهل مرَّ التسعة قبلك من هنا؟».

«بعضهم أزمع الانطلاق من بيروت ليذهب عن طريق إيطاليا وسويسرا إلى مدينة بريمن وهامبورغ، وبعضهم قد يعود بعد إفراغ الحمولة. ومن الصعب أن يمروا بدون دماء ورشاوى».

«روسكي، أي الأمكنة تجدونها الأصعب».

«نتنفس الصعداء حينما نخرج سالمين من يوغسلافيا وندخل النمسا».

«ولماذا تجزم أن السيارة الحادية عشرة هي الأكثر حمولة؟».

«يقودها ايفان ابراموف، رجلي. إنه الوحيد الذي أضع يدي في النار من أجله».

«وما هو الاتفاق؟».

«أن أنتظر، على الحدود النمساوية - الألمانية اعتباراً من منتصف هذا الليل. سيصل من سالزبورغ. فإذا كان في تلك المنطقة ما يثير الشبهة أو «زحمة» يتغير المكان ويصبح إحدى محطات شل للبنزين على طريق ميونخ».

«وما الذي سيعنيه عدم ظهوره؟».

«معناه أنه ميت، ولا شيء آخر. إنه قد ذهب إلى العالم الأبدي قبلي بعدة ساعات».

«وماذا بعد؟».

«لا شيء. فانيا لا يستسلم، يفضل الانتحار، يفضل أن يقذف نفسه برصاصة حجرية في الجبين أو بسكين في القلب على أن يرفع يديه مستسلماً».

«يلزمنا واحد من هذا الصنف!» همس المجري، وهو يلاحظ كيف تذرف عينا العجوز دمعهما «جيد فانيا، رائع مثل إله!».

«هل حارب فانيا في الجيش الأحمر أم في جيش فلاسوف؟».

«كان سيحارب في كل جيش لو أنه استطاع. حينما بدأت الحرب العالمية الأولى كان عمره خمس أو ست سنوات، وإليك ما يثبت أنه لم يخن أو يستسلم في حياته: لقد سار فانياً على قدميه المتجمدتين الملفوفتين بالجلد والخرق حتى وصل ألمانيا، مخترقاً جبال الأورال وكل تلك الحدود والمستنقعات والغابات!. واستمر يدمر ويحرق في ألمانيا مثلما فعل في روسيا وبولندا. ذبح الناس، ولم يرتو في حياته من الدم البشري. حتى اعتقدت الصحف وكتبت عن وجود غول يسيح في بافاريا. ولم يستطع أحد أن يتصور أن ذلك الغول مجرد فتى. وكم كان صوته محبباً وهو يطلب الخبز والماء من الفلاحين. حتى وصل زرندورف منتشياً وسكران من الدم، بدون أية وثائق. كان يغني دائماً، هكذا حدثوني، ومن حسن حظه أنه لم يذكر النار».

«نيكيتا، لم انتشلته من ذلك الوحل؟».

«أشفق قلبي عليه. كانت عيناه مثل عيني ابني الميت الكسي، قاذف الرشاش المشهور في معركة ستالين غراد. صاح: اقتلني يا نيكيتا. حينما انتشلته من المخيم، أطعمته وسقيته. ثم هل يمكن لمشوه مثلي أن يقتل ملك جمال مثله؟ وقد استغربت أولاً، ثم نهيته عن عادة الركوع أمامي. قال لي: مثلما أنت مخيط من الخارج أنا مخيط من الداخل يا نيكيتا، لهذا فمن الأفضل أن تقصر عذابي. لكنني لم أقصر عذابه كما ترون. أخذته معي، وغنى لي أغانٍ أورالية، وجعلني استمر في حياتي. أتفهم؟»

«والآن يجب أن تتركه؟».

«هرم أنا وضعيف، أضعف بكثير مما أبدو. تخونني رجلاي ويداي، وسوف تخونني ذاكرتي في القريب العاجل. أرتجف أحياناً حينما أقود. سأموت قريباً، وأرغب أن يسبل فانياً جفني ويصالب يدي فوق صدري بدل ابني الكسي. أرغب بواحد من ديانتي الأرثوذوكسية أن يودعني بكلمة لآخر مرة».

«وماذا لو دفنته بدل أن يدفنك؟».

«أرجو الرب وأرجوك: لا».

«أوكي نيكيتا، كله أوكي. لن نقتل فانيا ولن نقتلك. سنقتل الآخرين نحن الخمسة. موافق؟».

كأن رأس نيكيتا مرمياً إلى الخلف، وكأن رقبته المسطحة قد تهيأت للذبح، وعيناه مليئتان بالدموع. لم يسألوه أي شيء آخر. أسرع كولار ليكتب أن فانيا ابراموف ذو شعر أجعد أشقر، مثل الخروف السيبيري. وعينين مليئتين بدوائر وبقع بنية وأنف أورالي مسطح بفتحتين واسعتين. وسجل أن كل ما يفعله فانيا إنما يفعله بعنف وغلاظة وبأنه يشعر وراء مقوده وكأنه على سرج، وأن لديه جوازات السفر نفسها والسكاكين نفسها مثل نيكيتا، خصوصاً المسدس ماركة تومي كان. ذكّر مارك المجري، وهو يتابع كيف يهدأ العجوز، أن لا ينسى: بأن فانيا يسوق مرسيدس ديزل، وأنها بدون عادم، وأنه يفعل ذلك عمداً حتى يحرف انتباه رجال الجمارك والشرطة على الحدود التي يمر بها برائحة النفط وصوت المحرك. وأنه انطلق من بيروت وحيداً، وأنهم لم يزودوه برجل آخر في سالونيك مثلما زودوا نيكيتا.

صالب نيكيتا يديه على صدره وهو يشخر. بادره كولار وهو يخرج «روسكي، اللحم الذي طلبته للفطور، في الخامسة بعد الظهر، سيشوى كما رغبت من طرف واحد فقط».

جلس مارك يحرس العجوز والمسدس الأوتوماتيكي في حجره. لم يخدعه النوم سوى مرة واحدة فقط. فانتفض من مقعده ليرى أنه ليس مع نيكو ماراش في القطار. كان الوقت فجراً، وكان يوماً بافارياً كئيباً لا نهاية له، ضرب الهواء به أغصان شجر التفاح العارية الموجودة بين نافذتهم تحت السقف وبين الطريق. وكان بإمكانه رؤية العديد من طيور الوقواق التي حولتها الريح العاتية الباردة مع المطر إلى حدأ. لم يتحرك الروسي، ولم يمكن إيقاظه لا بضجة المحرك في الفناء، ولا بضربات المطارق على الحديد في الفسحة أمامه. تمشى مارك في الغرفة وهو يراقب الرأس الأبيض النائم. لم يكن جسد نيكيتا ليلاحظ تحت الغطاء. وتخيل مارك فانيا ويد العجوز التي من أجله يضعها في النار. جاء كولار في الخامسة تماماً، ورأى نيكيتا ومارك جالسين أمام الطاولة. كانت يد الروسي مبسوطة على خريطة مفرودة، ويد مارك على المسدس الأوتوماتيكي. رفعا الخريطة، وفردا الطعام على الطاولة ثم أكلوا ثلاثتهم - قال الروسي إنه لم يأكل لحماً أكثر دماً وأطيب من هذا اللحم في حياته. شرب شاياً بارداً بدون سكر، بينما شرب الاثنان نبيذاً بقصد الاحتفال. غيّر العجوز تعابير وجهه حينما كرر المجري أمامه مؤكداً بأنه سيحصد فانيا برصاصه. بينما تعالت صيحات الرجال بعنف في الطابق الأرضي. دخل ستيفان بلباس عسكري من الجيش الأمريكي السابع. كانت الثقة قد عادت إليه تماماً. وقدم الشوكولا والبسكويت والفواكه الجنوبية بيد قُصَّ إبهامها. غيّر تعابير وجهه، ودوزن صوته، وقال إنه سيغني حتى

نهاية الحياة، فلم يستوعب نيكيتا ذلك، وكان ينظر إليه من كل الجهات مستغرباً. وكان ستيفان قد وضع على خصره مسدساً ماركة «تومي كان» وآخر «كولت ثقيل ٣٨ سبتسيال» كمسدسات الضباط، داخل حافظة جلدية تدلت من خصره، وهو يغني. غمز بعينه وبوزه المنتفخين من الكحول والسعادة، تنشق من أنفه، لاكم الهواء بقبضتيه كأنه في حلبة، وابتدأ نيكيتا يتحدث عن فانيا وإخلاصه، بينما كان ستيفان يلوح بعصبية بيديه الغليظتين، حتى انحسرت عن رأسه القبعة، التي خبأ تحتها شعره الحليق على الطريقة الأمريكية. في التاسعة أشعلوا المحركات، وتوقفوا للحظة يستذكرون بعضهم ما حفظوا، ويتودعون.

جلس مارك وراء مقود المرسيدس بلوحات أمريكية، وبجانبه كولار. غنى ستيفان، ولم يكن الروسي على ما يرام. وأخرج رأسه من النافذة وتكلم مع كولار بصوت عال، وقال إن حاسته السادسة لا تخونه. فقال المجري: أية حاسة؟ قال العجوز: «سيعبر فانيا - الذي اعتبره مثل ابني - الحدود النمساوية الألمانية، وينتظرنا على الجهة الألمانية».

وصلوا الحدود قبل منتصف الليل. كانت السماء تمطر بغزارة وعنف، والريح تلفح بضراوة من الطرف النمساوي. أودع كولار ومارك المرسيدس جانب السيارة التي كانت تقل العجوز وستيفان وكان المجري يستمع لموسيقى جاز، بينما تابع الروسي مارك:

«سأقتلك يا روسكي إذا تبين أنك قد جعلتنا حميراً بانتظارنا هذا».

«لن تضطروا لذلك» قال العجوز من خلال نافذته: «لم يبق إلا القليل ليصل فانيا».

«حاستك السادسة ضعيفة أيها العجوز» قال مارك، وهو مهيأ لـدى أيـة إشارة من كولار، ليسحبه خارج السيارة، ويقوده إلى الغابة، ويخنقه. «يبـدو أن فانيا لا يوجد إلا في مخيلتك، فهيئ نفسك يا روسكي».

وصلت سيارة المرسيدس الـديزل، ذات الأضـواء الفرنـسية الـصفراء واللوحة اللبنانية. كان المطـر يهطـل بـشدة، والـساعة قـد جـاوزت الثالثـة والنصف بعد منتصف الليل. ولم يكن بالإمكان رؤية سائقها من شدة المطر. لم يبحث السائق عن أحد في الموقف، بل خرج من القافلة. حياه نيكيتا عـدة مرات بإشارات ضوئية، ثم زمر له. وتهيأ لكولار ومارك أن الـسيارة بـدون عادم ولا حمولة على الظهـر، قـد توقفـت لبرهـة. لكـنهما لم يـستطيعا تمييـز السائق، ولا تمييز الشخص الجالس إلى جانبه من شدة المطر.

«فانيا!» صاح العجوز وهـو يمـد رقبتـه: «فانيـا، ابنـي، وحيـدي قـف أرجوك».

أعطى سائق سيارة الديزل إشارة ضوئية يسرى، وحاول أن يتخلص من السيارة أمامه فلم يفلح. ومثله فعل سائق السيارة ذات اللوحـات الألمانيـة. عندها، عبر سائق الديزل عدة سيارات بسرعة جنونية من الطـرف الأيمـن دون أية إشارة.

«فانيا، قف لبرهة فقط. أنا مشوهك العجوز».

«روسكي. أمتأكد أنه هو؟» صاح المجري.

«فانيا أيها الرجال. فانيا» وضرب جبينه بقبضته «فانيا ألم أقل لكم؟».

«إما أنه رآك أو يهرب منك!».

«ليس وحده. هذا هو السبب» بكى العجوز وهو يضغط دواسة البنزين بقوة، حتى تحسر مارك على المحرك. وأضاف «إلحقوني».

«ستموت أيها المشوه العجوز إن لم توقفه» قال المجري، عندما ضغط مارك دواسة البنزين بعنف، وعبر الروسي بسرعة وصاح: «س - أ - ذ - ب - حـ - ك!».

لا بد أنه كان لدى فانيا الكفاية من الأسباب والبنزين لأنه لم يتوقف عند محطات شل للبنزين، لا الأولى ولا الثانية ولا الثالثة. عبثاً اقترب منه الروسي ومارك عدة مرات، وهما يرسلان له إشارات بالضوء والبوق. كانت سيارة الديزل تنهب المسافات وتفرض السرعة والسباق، حتى ظهرت بوادر الارتباك على كولار. كان ستيفان يغني. تلوى نيكيتا بسيارته كثعبان على سماء رطبة، غير عابئ بالمطر الأسود والسائقين الآخرين، حتى أضحت مطاردة مارك وكولار له بغاية الصعوبة والخطورة.

«انظر، يكاد نيكيتا يدرك فانيا» صاح المجري، وأمر مارك أن يهيء المسدس الأوتوماتيكي، وأن يطلق إذا اضطر الأمر نحو أي من السيارتين. قال «يا لربّه الروسي، إنه يعمل سداً!».

ولكي يتحاشى فانيا، خفف نيكيتا من سرعته، وهو ينحرف بهدوء مبتعداً حوالي المئة متر. فابتدأ يتزحلق على مرآة المطر، حتى انحرفت سيارته بشكل معاكس، لتصبح مواجهة لكل السيارات الآتية من الجهة الشرقية، واستقرت بعرض الطريق. ولم يستطع مارك وكولار، المغمورين بالماء والليل ككل السائقين الآخرين، أن يلاحظا أيهما فتح النار من الرشاش أولاً، أهو ستيفان أم فانيا. لعلع صوت الرصاص المتتابع الكثيف، وصوت

ارتطامه بالحديد، قبل أن يسمع صوت انقلاب سيارة نيكيتا المرسيدس على جنبها وهي تنفجر وتحترق.

لم يعر كولار ومارك أي انتباه لسيارة نيكيتا، ولا للسائقين الآخرين الذين قفزوا في هذا الفخ الدموي المجبول من الصفيح واللحم والدخان. كانا يبحثان عن المرسيدس ذات اللوحات اللبنانية. ولم يكن لفانيا أي أثر. ولا يعرف أحد غير الشيطان كيف اختفى بهذه السهولة. هذا ما قاله مارك من شدة غيظه للمجري المبلل بعرقه.

جلس مارك وراء المقود، وهدد كولار بالسكين الناس المتجمهرين الذين وقفوا يعيقون الطريق، وهم يشاهدون احتراق المرسيدس بلوحة جيش أمريكية. انسحبا من الجحيم الهائج بالدخان والماء قبل وصول الشرطة وسيارات الإسعاف بقليل. كان مارك مرتاح الجسد، عصبياً حتى الجنون، وبهذا الشكل قاد سيارته، حتى فغر فم كولار من التعجب والخوف. لحقا وعبرا كل السيارات التي كانت تسير على الأوتوستراد، أنزل كولار الزجاج، وصوب وهو يقول إنه سيطلق على أي كان، وعلى الجميع، إذا لم يرَ فانيا، وينتقم لجسد ستيفان المتفحم. فقاد مارك السيارة بجنون، وهو يشعر بالحنين إلى نيكيتا.

«ألا تظن أن الرجال العرب القرباط قد أخبروا فانيا كي لا يتوقف؟».

«ممكن لأن فانيا لا يخون!».

«ولماذا لا ي - خـ - و - ن؟».

«إنه يتعذب. أمثاله يفضلون القتل».

«لقد نحر عرابه، قتله، وهرب من الجميع بكل تلك الثروة!».

في ذلك الصباح دخل كولار ومارك مع الداخلين إلى ميونيخ. كانت سيارة المرسيدس مليئة بالأسلحة والسكاكين وخيطان القنب. أدخلاها في كراج لأحد معارف المجري. استقلا تكسي، واستبدلاه كل ساعة. ولم يكن سائقو التكسيات قد سمعوا بعد بحادثة الأوتوستراد. تلفن كولار لكل الجهات وكرر: «فانيا روسي... تصوروا» ووصف لهم سيارة الديزل، وحفّظهم رقم اللوحة اللبنانية. ولا بد أنهم أخبروه عن سماعهم لأول مرة باسم فانيا الروسي الأورالي، بدليل أنه صاح واحتقن وبصق عدة مرات في سماعة الهاتف، وضغط بشدة يعتصر الندبة على خده بغيظ حتى أدماها.

واحد فقط، تكلم المجري معه باحترام شديد، بل بخضوع. دون أن ينتبه لمارك الذي كان يسمع المخابرة كلها:

كولار: «كما تعلمون، إنه أول من استطاع الإفلات مني».

الصوت: «اسكندر، يكفيني منك ما حصل. تكفيني وعودك وكذبك».

كولار: «لدي شهود. أقسم لكم أن ما أقوله حقيقة. ستقرؤون الصحف».

الصوت بشدة وعنف: «اسكندر، إذا لم تحضر لي دين الشهرين الماضيين، حتى منتصف ليلة الغد، تعرف كيف وبماذا سأشوهك؟. والآن توقف عن التبجح الوقح بفانيا هذا».

عندها أيقن مارك أن للمجري أيضاً أسياداً فوق رأسه. وتذكر حكاية العجلة والعائلة، وحزن على كولار، وقال له وهما في الطريق: «سيدي أنا مستعد لقتل أي شخص يعكر صفوك، أو يقف ضدك، أو يهددك» لم يسمعه كولار. كان يبحث عن فانيا بنظرة شاردة محمومة، مهدداً بأنه سينتحر بعد

تناول الطعام والسكر والفعل الجنسي. وكان هناك وقت كاف حتى الظهيرة.

بدأا الشراب. وفي الحادية عشرة كانا ثملين، بحيث تعذر وقوفهما على أرجلهما بصلابة. ظهراً أوقفا تكسي أمام مجمع كاوف هوف، وجلسا على المقعد الخلفي. أرادا الذهاب إلى الحانة التي كانت مفضلة لدى هتلر. أحمرَّ السائق من النرفزة، وقال إنه لا يعرف المكان. غضباً منه، وأمراه أن يقود السيارة خلال شارع دشاور الطويل الرطب. فأكد السائق أنه لا يعرف هذا المكان أيضاً. كانا يشربان من الزجاجة. وصلا شارع فيدر، واستدلا بصعوبة على البيت العتيق الذي كان يقطن على سطحه كوستا كافران، المكدوني، بين وقت وآخر. كان السائق ينتظرهما.

حينما لم يكن كوستا في السجن، كان يعمل في إحدى محطات شل للبنزين. وكان يتلقى ويرسل الرسائل والتعليمات، ويتابع ليلاً سرقاته. وقد عرفه مارك منذ أيام ترايسن كيرشن في النمسا، كواحد من أمهر النشالين، حتى اشتهر بأنه يستطيع تمرير البيضة من تحت رجل جالس دون أن يشعر به. وكان طموح كوستا الدخول في إحدى عصابات كولار العاملة في القطارات. لكن المجري لم يضمه إليه لشكله القبيح، ورائحة العفونة المنبعثة من قدميه وروحه. مما اضطر كوستا للالتجاء إلى سابلياك ذي العين الواحدة، وهو يوغسلافي يعمل نادلاً في بوكينك. وكان كوستا وسابلياك قد قتلا في وقت سابق أعز أصدقائهما، مراد، العامل الأجنبي الآتي من الجبل الأسود في يوغسلافيا. وقد علم كولار أين وكيف ولماذا قتلاه؟ فابتدأ يهددهما ويبتزهما. كان سابلياك يدفع بشرف، وذلك بأن يسرق كل ما تصل

إليه يداه على طول ضفاف بحيرة ستارنبرغ ليدفع لكولار إتاوته بانتظام، سواء مباشرة أو عن طريق أحد الأصدقاء اليوغسلاف. أما كوستا فقد هرب متعللاً بمرض الربو، وأصابعه المشوهة بدون إبهام، والحنين لأبويه وقريته. وبما أن أخذ الإتاوة البالغة ٥٠٠٠ مارك شهرياً منه بات صعباً، فقد كان حتى برأي سابلياك قد آن وقت بيعه من جديد.

أراد كولار ومارك أن يفاجئا كوستا، وأن يخبراه بأنهما سيخرجان معاً للتجول بالتكسي. لكنه فاجأهما: كان باب غرفته موارباً. دخلا بدون طرق على الباب، وتجمدا. كان كوستا منبطحاً على الأرض يسبح في بحيرة من دمه لا تزال تتوسع، ولا زال رأسه معلقاً على جثته بخيط من جلده رفيع، وعيناه شاخصتان بالفأس على كرسي. كانت الخزانة مفتوحة، تبعثرت محتوياتها من الأشياء المسروقة والثياب العتيقة. دفع كولار بجزمته الرأس وهرب أولاً، يتبعه الغوريلا مارك، الخائف حتى الموت والغثيان. ولم يكن التكسي بانتظارهما. انتظرا ظهور جريدة ابندتسايتونغ وهما مستندان إلى الحائط أمام كلوكن شبيل وشاهدا تحت الصورة الوسخة على أول صفحة، الروسي وجسده المتفحم. وقرأا بعيونهما السكرى المتعبة: (حادث أليم أم حساب دموي على الطريق!؟) ثم كلمات ضخمة معبرة مثل: (لاجئان سياسيان هاربان، رصاص، جندي أمريكي بجواز سفر يوغسلافي مُلغى. الجرحى أكثر من السالمين. مطر جهنمي لا يذكر أحد مثله في بافاريا..).

حملا الجريدة وبكيا: كولار على فانيا وحمولته، ومارك على نيكو وستيفان والروسي، على جميع من التقى معهم بأعمال مشابهة ثم فقدهم إلى الأبد.

- ٥ -

يقع بار أوديسا في شارع غوته، قرب الحفرة المعلبة المسماة بار أنقرة. التي كانوا يسحبون منها ألماناً مشوهين وأتراكاً نازفين وجنوداً أمريكيين طُعنوا بزجاجات مكسورة. وكان صاحب بار أوديسا ومهرجه وراقصه رجلاً قصيراً ضعيفاً بشعر أجعد، اسمه أفروي فرومكين، في الستين من عمره. كان يقف أمام باب البار مستديراً بظهره لبار أنقرة، وهو يدعو الزبائن للدخول بلغات متعددة. ولم يكن يخفي لهجته الروسية حينما كان يغني:

«أوديسا أم البلدان وتاج الأشياء كلها..».

قفز كولار ومن خلفه مارك داخل بار أوديسا، بعد معركة الأتراك والأمريكان. ووقفا يرددان بلهجة شاعرية ما كان يحبه فرومكين «الحياة يا صديقي نكتة سخيفة». كانت يدا اليهودي العجوز ودموعه بانتظارهما. وصلهما أول كأس مجاناً من أجل الشعر، فبكيا حزناً على أوديسا الضائعة والجيدة. قبّلا فرومكين في جبينه، وعلى الطريقة البلقانية قبّلا كل الموجودين الذين صعب تمييزهم في كثافة الدخان، وأرسلا لكل منهم ثلاث كؤوس من الكحول على حسابهما.

«يعيش البلقان!» ردد السكارى من زوايا المغارة المعتمة: روس، رومانيون، بولنديون، أكرانيون، كل الذين جاؤوا إلى مواطنهم فرومكين ليدفئوا ليالي ميونيخ الشديدة البرودة. وأضافوا «ليحرسكم يوغوس رب المسيحيين الأرثوذوكس!».

وخوفاً من أن يكون الأتراك والأمريكان والبولنديون في أثرهما أمر كولار عبده مارك ليغلق الباب بالمفتاح، إتقاء للشر، ثم فرد يديه وهو يصرخ:

«أيها السادة اللاجئون السياسيون والفارون. أيها الوزراء والمستشارون. أيها القناصلة والسيناتورات. أيها الملوك والأباطرة. أيها الجنرالات بدون جيوش ولا مرافقين. أيها البارونات. إخوتنا في التعاسة. أنتم يا من كنتم رجالاً. أيها الأشقياء مثلنا بدون منقذ ولا مخرج ولا أمل. التهموا واشربوا بشراهة حتى الفجر، ثم تقاتلوا وافجروا ببعضكم البعض، وسوف يدفع إخوتكم اليوغسلاف الحساب كله».

«مرحى» صاح اللاجئون السياسيون والهاربون، وهم يرفعون أيديهم الهرمة يطلبون الفودكا البولندية، والعرق اليوغسلافي، والكحول الروماني، والبيرة الألمانية. وأضافوا «شكراً يا أولادنا الضائعين».

كان فرومكين يقف تحت ضوء خافت وهو لا يكاد يُرى، واضعاً الميكرفون تحت أنفه، وهو يقدم الوصلة التالية. خرجت الراقصات الأصغر منه بعدة سنوات فقط على المسرح المصنوع من اللينيليوم، ليرقصن ستربتيزاً جماعياً، وقد غطين أجسادهن بريش طاووس صناعي، وفراء رخيص خبأن به أماكن العيب في أجسادهن. كانت نهودهن قاحلة، تفضح طيات اللحم تحت الصرة كهولتهن. وهن يضحكن بصورة هجومية في الإغراء بوجه الضيوف الجدد، ويعطين الإشارات ويلوحن ويغمزن بما معناه: فيما بعد. وبإشارة من فرومكين هجمن، الواحدة على الأخرى، فانتعش اللاجئون السياسيون والهاربون، وطلبوا مشروباً مضاعفاً.

«لا يمكن رقص واحد اثنين كازاجوك هكذا..» قال فرومكين، وهو ينحني باحترام وراء عازف البيانو التتري. وأضاف: «أنابيلا. أنجليكا. انتبها». تعثرت النسوة البافاريات العجائز، وهجمن ووقعن. رفعهن فرومكين وعازف الأوكرديون وعازف الجاز الروماني. جمعت أنابيلا وأنجليكا قوتيهما وهما غارقتان حتى الإعياء بالعرق والأضواء الملونة التي كان يسلطها عليهن أحد الموسيقيين ببراعة وكان ذا بزة حمراء وبنطال أبيض، وعادتا إلى مواقعهما، وانتظرتا الأوامر وهما تضحكان بوجهي مارك وكولار اللذين جلسا أمام المسرح على طاولة المدير.

«الآن» قال فرومكين الواقف في العتمة وهو ينحني: «ألبا، ستيلا، روزا، الآن، كما علمتكن» وأعطى إشارة لعازف الأوكرديون، وللبافاري والسلوفاكي عازفا القربة والسكسفون. وأضاف «أيها الضيوف والإخوة الآن نقطة من بلادنا..!».

كانت الجوقة الموسيقية تزعق، فترقص النسوة العجائز، وتسمع تأوهات وحسرات الشوق والغربة، وصوت كسر الكؤوس وطقطقة الخشب المخلوع. فيضرب الروماني الجاز أقوى، ويقبل كيركز الكونترا باص، ويقطع الأكراني ذو العنق المعقوف أوتار المندولين.

صرخ فرومكين يهدي اليوغسلافيين عدة كؤوس من الكحول. ذكر اللاجئون السياسيون والهاربون بوخارست، وكييف. ذكروا الحياة الحزينة بدون معنى، بدون بيت، بدون نهر الفولغا، بدون ستيبا والخيول. انحنى فرومكين نحو أعز ضيوفه، وهو يمسك بيده منديله المدعوك على شفته المتدلية السفلى، وأنفه المليء. وكرر مثل كل مرة يأتيان بها ويشربان الخمر:

«أعزائي، رفاقي في المأساة، الحياة نكتة غبية جداً». وسرعان ما وصل لبوشكين، فردد قوله وهو يرفع إصبعه «افتحوا نافذة لأوروبا». وقال إنه شعر جميل يصلح للنوم. هطلت الدموع من عينيه العسليتين وأضاف «الآن حينما أصبحنا نعرف نكتة الحياة ستتحول إلى غوغول يا أولادي. واسمحوا لي أن يكون الكأس السادس على حسابي».

غنى اللاجئون السياسيون والهاربون، وبكوا. وصاحت الجوقة الموسيقية، وهزت العجائز مؤخراتهن على المسرح، تعانقن وتدللن كأنهن صغيرات وشاذات جنسياً. كان البافاري يسحب الأوكرديون وهو شارد ضائع ومتعرق في شرق فرومكين هذا. استغاث اللاجئون السياسيون والهاربون بالآلهة، كل بإلهه. وشكروا جميعاً إله اليوغسلاف لإرساله هذين اليوغسلافيين ليدفعا عنهم ثمن الشراب.

«ستختنق بالشعر يا فرومكين» قال كولار، وهو يحاول ثني فرومكين على صدره المليء بالبيرة ودم الأتراك. وأضاف: «أي بوشكين! وأي نادسون! وأي شعر جميل للنوم! وأي بطل لعصرنا هذا؟ أتعرف يا فومكا بأنك تعيش في زمن الكلاب؟ وأن ما يحيطك هو القرف نفسه؟ وهل تعرف ماذا ينتظرك قريباً؟».

«حفظت كل الشعر الذي سمعته حينما كنت صغيراً. حفظته يا أصدقائي كأنه صلاتنا، كأنه التوراة». كانت شفتاه تنقطان خليطاً من المخاط واللعاب. وأضاف «أتعرفان بأن التجار من عائلتي كانوا تجاراً صغاراً. كانوا يبيعون ريش البط والحديد القديم، اللمبات وزيت الكاز، الملح والدهان، لكنهم كانوا يعرفون الكثير من الأغاني على شاكلة أغنيتي

المفضلة «الحياة نكتة غبية جداً» والتي كما ترون تلاحقني حتى هنا في ميونيخ».

سكران وسعيد بمجيء أقرباء روحه إليه ثانية، سحب فرومكين خريطة من مكان ما، وأراهما غاليتسيا وجزر الكاربات وترانس سلفانيا، والقرية التي احتلتها إحدى فرق جيش المجر. أشار بإصبعه. ذكر كل ما اشتراه أقرباؤه هناك وكل ما باعوه: خاله دافيد نافتولي وأعمامه هورفيتز، يوسل، أزيك. أشار إلى المدن والقرى ما بين تلك المنطقة وكييف، في تلك القرى كان أقرباؤه القدامى رودينكي وكوتلياري وكوركيلي يشترون فراء الثعالب والنسانيس وجلود القندس، أو يحصلون عليها مقابل السكر والملح والقماش الذي أحضروه من أوديسا. وحينما لاحظ فرومكين أن كولار ومارك يتابعانه بصعوبة، عاد لوضع إصبعه على الخارطة وهو يبكي: كيشينوف ١٩٠٣. كانا يرددان وراءه الكلمات دون فهمها وهما يشربان ويتعجبان من دموعه. قال: «في كيشينوف ذبحوا أبي يعقوب رابين. وكسروا العمود الفقري لأخي هونو فمات معذباً. وفي الكوخ الحقير اغتصبوا أختي الصغيرة هافيلا. كنت في العاشرة، وكنا نبيع الصابون في سهول كولينكو حينما ربطوني بسلسلة الكلب ليلاً ونهاراً، وضربوني بالطين وروث البقر، وقالوا: «انبح أيها الكلب اليهودي». ولم ينس ذكر امبراطور روسيا، ولا الوزير الروماني، ولا أغنياء بولندا وبطارنتها، وأفران الغاز أيام الحرب. كما لم ينس الأتراك في أيام السلم هذه ولا بار أنقرة. وعزفت الجوقة الموسيقية نشازاً، ولم يقدم أحد نقاط برنامج جديد، بينما انهمكت العجائز بتقديم حركات خيالية بشكل آسيوي - تيرول. غنين وهززن بطونهن

المتدلية. ودق اللاجئون السياسيون والهاربون على الطاولات بأيديهم بشدة. وأكل بعضهم البلور. ثم صاح أحدهم: «الخمر والدم والوطن». بينما سحب البافاري ذو اللباس الملون الأوكرديون شارداً للأمام.

«وماذا بعد يا صديقي! هجمت عليَّ السنون وهذا الوسط، وفجرت الهموم برأسي الوحيد في هذا العالم. وأنا أشقى لأكون هنا وهناك وهنا. لقد كُتب عليَّ البكاء ما دمت في ميونيخ. وأقول إن إله اليهود الجديد انغولياس لا يخرج من عقلي، وإن أوديسا، وأعيدها للمرة الألف، هي تاج كل التيجان!».

كانت عينا فرومكين مليئتين بالظلام، وكان يرفع الخارطة للأعلى ويأمر البافاري أن يعزف تومبالا تومبالا توم بالالايكا. وكان الروماني والأكراني يضربان على الآلات بعنف. قُدمت الكأس العاشرة، فقفز فرومكين على المسرح وابتدأ يعزف، بينما كان عازف السكسفون منهمكاً بلحن آخر. ووقف عازفاً الكورنيت والأوكورديون يحدقان به. قبل عازف الكونترا باص فرومكين عندما كان يضبط صوته أمام الميكرفون. فقال إنه سيغني لرفاقه أغنية الطفولة: «على الطاولة لمبة غاز وفي البيت دفء..» ولم يفهمه أحد. حين وصول الكأسين الثانية والثالثة عشرة لم يستطع أي من الجالسين الوقوف على قدميه سوى الجراسين. كان مارك وكولار يعبثان بالعجائز، قبل أن يبدأ اللاجئون السياسيون والهاربون بالخروج وهم متهيجون من الأغاني والشراب.

تأوهت العجائز وشخرن وهن يرقصن بعجيزاتهن البافارية المتهدلة. وبينما كن يتخلصن من العبث الفظ، استعملن بعض تعابير الجنود

الأمريكيين أثناء هجومهم على ميونخ عام ١٩٤٥: كان كولار جون أو جون الكبير، ومارك بيلي بوي. أجاب البوغسلافيان أنهما لا يعرفان اللغة الأمريكية، وهما يسحبان العجائز لوضعهن تحتهما. تجول فرومكين من الواحدة إلى الأخرى وهو يداعبهن ويوصيهن باللغات اليهودية والروسية والألمانية أن يكن جيدات نشيطات تحت ضيوفه. كان يساعدهن، ويعيد ترتيبهن تحت الذكرين، ويصلح أوضاع أيديهن وأرجلهن، ويهمس لهن، والبافاري يسحب من خلفه الأوكرديون وهو ساهم وسكران، بينما لحس عازف الكمان بشفتيه المتورمتين المتشنجتين مخاط أنفه الحزين، «كن يا فتياتي رفيقات مع زملائي وأصدقائي، أنتن يا ملائكة بافاريا. ستيلا، أتسمعينني؟ ألبا، لا تقاومي، دعيه يفجر بك كما يشاء. انجيليكا، تعالي وساعديهما، إنهما يستحقان الرأفة والحب يا فتياتي الذهبيات».

«ولماذا الرأفة يا سيد فرومكين؟».

«لأنهما آتيان من البلقان يا بناتي، من الصحراء والفقر الروحي. ومن يخرج سالماً من ذلك الجحيم ويصل إلى هنا، يجب أن تقبليه يا أنابيلا من فمه، من جبينه كالميت.. هكذا.. هكذا للشجاعة، هكذا..».

«ولماذا تريدني أن أقبله من تحت؟».

«من كل مكان يا روسا. التعساء مثلهم يحبونه هكذا».

«وماذا يمكننا معرفته عن البلقانيين بعد؟».

«مهزومون وضائعون. ألا ترين؟».

«وعلى أي جبهة حاربوا يا سيد فرومكين؟ وأية معارك هي التي انهزموا بها؟».

«كل المعارك يا فتياتي. إنهم بدون وطن. بدون جذور ولا بوصلة توجههم. منبوذون. ملفوظون. ضحايا مثلي. إنهم لاجئون سياسيون وهاربون».

«لهما رائحة كريهة جهنمية يا سيدي!».

كان البافاري يسحب الأوكرديون، وكان صوته العجيب الممطوط يغطي مواء الفنانات اللواتي كن يترنحن تحت هذين البلقانيين المغتصبين، كان باقي الموسيقيين خائفين، سكارى مرتبكين، ولا يكادون يقفون على أرجلهم. كان اللاجئون السياسيون والهاربون الغرباء يغادرون المغارة، يغالبهم الحياء، وتعود إليهم عقولهم الهائمة الهرمة، وكل منهم يلعن ويشتم بلغته.

«فرومكين، سمعنا وفهمنا ما لقنته لهن» قال المجري وهو يفجر بستيلا. «أيها اليهودي قلت إننا بدون أمل ولا دين ولا أخلاق. فإذا تابعت شتمنا، سنكون على قدر مسؤولياتنا، وسوف تذكر جيداً اليوم الذي التقينا به».

«فرومكين. هل تعلم أننا أقوياء كأربعة؟» قال مارك وهو يفجر بشذوذ مع إحداهن، وأضاف «اسأل الأتراك إن لم تصدق، ثم الأمريكان».

«يجب النظر إلى عيونكم المليئة بالظلام والحيرة والقلق والخوف» قال فرومكين، وهو يفرد الخارطة في المكان الذي أظهرت فيه العجائز بؤسهن وسيقانهن وفنونهن الفاشلة المصحوبة بموسيقى خاطئة نشاز لمقطوعة كالينكا.. واحد... اثنان... كازاجوك. وأضاف: «إن كل ما تهدمانه في طريقكما ليس وحده ما يميز كما عن الآخرين من قوة، وليس لأنكما لا تعرفان ماذا تفعلان بالكلمات الفائضة عن حاجتكما، والفائض من قوتكما، وسائليكما، وليس لأنكما تعتقدان أن كل ما صنعه الإنسان وقدمته الإنسانية

هو للدمار والبصاق، وإنما لأنكما تشعران بالقهر والملاحقة والتعاسة والخواء رغم أنكما لا تعيان ذلك. لكن دعونا. ليس هو الوقت المناسب للتكلم عن ذلك».

«فرومكين. تعتقد إذاً أننا لسنا طبيعيين؟!».

«حتى الأغنياء اليوم ليسوا في محكم عقولهم».

«وأنت؟ ماذا عنك؟».

غضب فرومكين من نفسه، ومن العالم كله. ضرب صدره بقبضته، فسمع صدى كأنه صدر واسع لشاب قوي. وحتى لا يفهمه البافاري والعجائز تحدث بالروسية: «أيمكن لإنسان مثلي يملك أحقر بار في جمهورية ألمانيا الاتحادية أن يقول إنه كالآخرين؟ لا!. هل يمكن لصاحب بار وساقيه ومخرج برامجه ورئيس فتيات من ذوات السوابق، عاهرات بشهادة، عاملات في قسم الأمانات بالمحطة، منظفات الأراضي وعاملات المراحيض، هنَّ القعر والحقارة نفسها، أن يتعامل مع البشر الحقيقيين، التجار والمسافرين، الضباط والجنود الأشراف، أو حتى أن ينظر إليهم بدون خجل في عينيه؟ لا يمكن!. هل يمكن لمن هجرته خمس أو ست زوجات، أنا الذي عشت وأمعنت في شيبتي بدون ولد ولا أثر، بدون معنى ولا هدف، ولا عذر مقبول، أن أتجرأ على عقلي الفقير لأرفع يدي وأضرب على الطاولات وأقول: كفى للاحتقار؟ لا يمكن!. وأخيراً أي إنسان أنا حينما أعتاش عليكم وعلى أمثالكم من الأصدقاء والضيوف؟ أعذراني أنا لست إنساناً ولا حتى شيئاً من الأشياء!». صاح الجميع: «حزن مزمن وشوق مهووس لأكرانيا وهرسون وأوديسا».

«إذاً ما دام الأمر كذلك، وما دمت تحتقر نفسك لهذا الحد وتشتمنا، قف وردد أمامنا حكمك اليهودية القديمة، عقاباً لك، على ذكرك بلقاننا الوسخ المهلهل أمام تلك النسوة» قال المجري وهو يمارس شذوذه. وأضاف: «لا ترمش بعينيك يا ابن رابين وإنما تكلم. ردد كلمة وراء أخرى وفكرة إثر أخرى كيف نستطيع إسقاط البلقان؟».

«لا أفهمكما يا أبنائي».

«نريد بروخوس يا فرومكين، أنا وغوريلتي! بروخس، حكم قدماء اليهود، نريد سماع بروخوس ونحن نحفر بهذا اللحم الآدمي العتيق، نفجر الطوربيد ونعهر».

«لا تخلطوا المقدسات والدين مع هذا الواقع الفاسق من حولكم، الأغاني الفاسقة مع الصلاة والحكمة!».

«أيها اليهودي، إما بروخوس أو تعيد لنا الـ ٢٠٠٠ مارك التي صرفناها عندك هذه الليلة».

«الرحمة يا أبنائي، الرحمة لفرومكين الكافر». ركع وهو يراقب بطرف عينه ما يفعلانه بفنانات الرحمة. «يا أبنائي إن ديني الصارم ليس مثل دينكما البلقاني!».

«فرومكين. أعد الماركات وليعوض لك الله الذي تؤمن به».

«هل يمكنني ترديد كلمات النبي بروخوس بصوت خفيض على الأقل؟».

«هذا شأنك».

«كن رحيماً يا أدوناي، يا ملك العالم الذي أعطيت الديك عقلاً ليفرق النهار عن الليل» قال فرومكين بصوت مرتعش، وقد استدار برأسه نحو الشرق. وأضاف: «كن رحيماً بمنقذنا أيها الرب الذي كونتني حسب رغبتك ولم تخلقني امرأة!».

كانوا حوله وهو وسطهم، لكنه بدا كمن لا يرى إلا مناجيه الذي كان يناجيه بصوت خائف: «كن رحيماً يا خالق الكون لأنك كونت الإنسان عاقلاً بعقلك. لأنك خلقت المرأة وما بين رجليها!». «أنت حكيم أيها الخطاء. لديك لكل حادثة حكمة» قال مارك، وهو يشيح برأسه، ويقفز من شيلا نصف الميتة فوق أنابيلا. لم يكن فرومكين يسمعهما أو يراهما. كان راكعاً مثلما كان يفعل أبوه رابين ويداه ممدودتان تجاه الحائط الشرقي في مغارته.

«وكيف كون أدوناي العالم؟» سأل مارك وهو يمارس شذوذه مع انجيليكا.

«بهذا يا صديقي!» قال فرومكين وقد وضع يديه الآثمتين على فكه السفلي وشفتيه، وسكت. كانت انجيليكا النحيفة المجعدة والسكرى تضحك بلذة وفجور. وقالت: «لو أنه صنعه بهذا يا فرومكين» وهي تشير إلى أعضاء مارك «لكان العالم أجمل وأفضل وأكثر عدلاً، ولما وجدت الكراهية والاحتقار اللذين يطاردانك».

صمت فرومكين ليسمح لأنجيليكا أن تهمس لمضاجعها بأنها لم تفعل الجنس من هذا المكان في حياتها حتى ولا مع الملونين السود: «أمن العادم؟!» وأضافت أن هذا معيب ومؤلم وأنها لن تفعله ثانية في حياتها، كما لن تعمل

ضمن هذه المجموعة ولا عند هذا المدير والمخرج، ولن ترقص كالينكا وواحد اثنان كازاجوك. كان فرومكين يذرف الدمع بصمت.

«أين تنظر يا فرومكين؟» سأله المجري «صديقي، أين تنظر شارداً؟».

«انغوليا، كيشينوف ١٩٠٣. حقول كوليكوف الإسرائيلية. الرب الجديدة - أ - ك - ر - ا - ن - ي - ا!».

لحظتها، أتى من ناحية الباب صوت الأتراك والأمريكان ورجال الشرطة مع كلابهم.

«مارك. إنهم وراءنا!» قال كولار، وترك صديقته التي غابت عن وعيها وهي جاثمة على ركبتيها ووجهها تجاه الأرض وعجيزتها للأعلى وأضاف: «السكين!».

«شعرت أن أمراً ما سيحدث حينما أخذت الخريطة ونظرت إلى كييف وهرسون وأوديسا». قال فرومكين، والخريطة مفرودة أمامه، مكتوبة باللغة الروسية القديمة. وضعها أمام عينيه كالدرع وهو يتجه إلى الباب الذي علت أمامه أصوات الضرب بالأرجل والشتائم باللغات التركية والبافارية والأمريكية، وقال: يتبع الشر هذه الخريطة، الشر الذي حاق بكل أقربائي والذي سيلاقيني الآن».

انخلع الباب، فانطلق كولار بعد أن خرب المسرح برجله وأكتافه وهو يبحث عن فتحة يطير منها. طوى فرومكين الخريطة، وفرد أصابعه، وقال وهو في غيوبة:

«أرسلكم إلي أشمداي[1]. أعلم ذلك».

---

1 - أشمداي بالعبرية: ملك الشياطين. -المؤلف-

«السيد الذي تذكره لا نعرفه، نحن دورية!».

عوت الكلاب، وصاح الأتراك والجنود الأمريكيون المشوهون بحد الزجاج المكسور. ورفع الباقون أيديهم فوق رؤوسهم، واستسلموا للمرة الألف، بعد أن قيض لهم مراقبة مذبحة عجائز فرومكين خلال الظلام.

«أيها السادة الشرطيون لا يوجد لدينا أي مجرمين».

«لنرَ إذاً».

«المجرمون في بار أنقرة وليس في أوديسا».

كان قد (جعلك) الخارطة، وخبأها في صدره. همس بصوت متقطع، كأنه لا يشعر بوجود الشرطة ولا يراهم «أعذرني يا بروخوس لأنني تكلمت عن الخالق وقت ومكان ممارسة الجنس المشبوه. ألا ترى يا أدوناي أنني أصبحت ثانية بين يدي ملك الشياطين الأسود؟» تزاحم رجال الشرطة مع كلابهم فوق المسرح، ومنه نظروا للمغارة كلها. ولحسن الحظ أن عيونهم لم تتكيف بعد مع ظلام البار ونجوم الغبار داخله.

«لا أعطيكم الخريطة» قال فرومكين وهو يبكي راكعاً.

كان كولار ومارك قد حطما الكثير من الأخشاب عندما خرجا. عبرا بار أنقرة، وهربا تجاه شارع لاندوهر دون أن يصدقا نفسيهما، كان وراء الكواليس منور يشرف على الفناء الخارجي، المليء بالقمامة والملابس الداخلية العتيقة المتعفنة الوسخة، والأكياس المطاطية موانع الحمل، وبعض صحف اللاجئين السياسيين والهاربين. كان من الواضح أن أحداً لم يكن يعرف ذلك المكان سوى المجري، إضافة إلى فرومكين الغائب عن وعيه الآن.

- ٦ -

تذكر مارك أنهما عاثا فساداً في كل منخفض الـراين طيلـة شـهر شـباط. وأكد كولار وهو بحالة سكر شديد، أنه سيحرق حتى الربيـع ويـدمر كـل شيء من بازل حتى كارل سورهي. أوقف المجري القطار السويسري الملفع بالصقيع وهو ينهب المسافات باتجاه الشمال. ولاحظا في موهلـايم أن رجـالاً صقليين يتبعانهما فأسرعا باتجاه بادكروز نيكين بسيارة روفر مسروقة.

كان بانتظارهما على الهضبة المدعو سيمو ماتاروكا، صربي بوسناوي مـن يوغسلافيا، معروف بطول ألمانيا وعرضها باسم بيتـون. كـان جـسداً آدميـاً ضخماً، بخـدين منتفختـين، وأنـف معقـوف، وجـذع بـساقين طـويلين لا يتناسبان مع جسمه. يكشف حيـنما يـضحك عـن أسـنان وأنيـاب حـصان منخورة. وكان يشم قفازيه الجلديين الأبيضين بصورة دائمة. وكـان بيتـون يعتقد أن كل منخفض الراين ملك له. لهـذا حـاول جاهـداً أن يستـضيفهما كأي مضيف جيد. كان يدفع ثمن الكـؤوس المتـواترة إثـر بعـضها، ويغنـي بـصورة ممطوطـة أغـاني مـن قريتـه. وكـان كلـما ذهـب ليهتـف لـشخص ماركيز[1]، ردد كولار أمام مارك أن بيتون ليس ذبابة، وأنه يندر إيجاد رجـل مافيا مثله بين كل اليوغسلاف هنا.

وقد دار بينهما الحديث التالي حول بافاريا والنمسا وميونخ، التي منـذ أن اكتشفها الدورادو لم يعبر منها بيتون ولو مصادفة أو كعابر سبيل.

---

1 - أمير.

بيتون: «كيف هي الأحوال مع أشقائنا هناك».

كولار: «أي أشقاء؟».

بيتون: «اريتش مثلاً».

كولار: «لقد خضع هذا الصربي العفن منذ فترة لانهيار عصبي. تشاجر مع تابير البلغاري الوسخ الذي يعتقد أن كل ما يقع بين سالونيك في اليونان، ومضيق الدردنيل في تركيا، وحتى تريستا في إيطاليا وفينا في النمسا.. كله بلغاري. تشاجرا من أجل خمسة عشر رأساً سلوفاكياً تافهين، كانوا قد جاؤوا حديثاً من النمسا. كان بانتظارهم على هذا الطرف واصطادهم في شباكه المدعو فاسيل الروماني، الذي يدعو نفسه أمير البلقان. لهذا أعتقد ايريتش الصربي الشوفيني النتن أن هؤلاء السلوفاكيين ملكه. ذلك أن الروماني مدعي الإمارة كان قد دفع من أجلهم عربوناً جيداً فقط. وقد تبين قبل بدء المعركة اليوغسلافية - البلغارية أن البلغاري قد أعطى الأمير مثلما أعطى ايريتش. وهكذا اعتبر البلغاري أن هؤلاء السلوفاكيين المساكين ملكه. كيف لا!؟ ففي الوقت الذي كان اليوغسلافي والبلغاري يتجادلان، عرض الروماني عدداً آخر من الهاربين اللاجئين الجدد، مجريين وبولنديين للبيع. ولم يعد السلوفاكيون ملكه. ذلك أن الروماني مدعي الإمارة كان قد دفع من أجلهم، ولم يستطع أحد إقناعهم بأنهم قد بيعوا مرتين، وأن هذا ليس سوى البداية فقط. غنوا وبكوا، فاعتبرهم فاسيل مرضى ومصروعين. وقد صرف ايريتش الصربي النتن على هؤلاء المجانين الكثير، إذ كان قد اشترى لهم بزات مستعملة كألبسة القوات البرية الهولندية والمحاربين الدانماركيين ولبعضهم رتباً متدرجة،

واشترى باصاً كان يزمع نقلهم به إلى إحدى السفن في ميناء بريمن. وقد أراد أحد اللاجئين السياسيين والهاربين وهو ألماني شرقي وتاجر لحم آدمي أن يتمم فرقته الانتقامية المأجورة التي كان يزمع إرسالها لأنغولا وكينيا البرتغالية، فاختار عدداً من هؤلاء السلوفاكيين تحديداً الذين هم ملك ايريتش. ولم يكن لديهم أدنى فكرة بأنهم سوف يتلقون الأوامر باللغات التشيكية والبرتغالية والألمانية. وكان تابير البلغاري قد دفع الكثير بقصد الاستثمار في هؤلاء السلوفاكيين الذين ادعى أنهم ملكه. حلق لهم رؤوسهم، وغسلهم، ونظفهم، وعلمهم بعض الجمل الألمانية التي كانوا يرددونها بلهجة بلغارية. وكانوا سيرسلون حسب خطته إلى الإرهابيين الأكرانيين والفدائيين المأجورين الآتين من بحيرة بودنسكا، حيث وضعت خطة القفز بالمظلات، والركض حول البحيرة، والعديد من أمور التعبئة والتمارين.

لقد دُربت هذه الرؤوس السلوفاكية الخمسة عشر لتحل مكان عشرة رؤوس بجرية تعبة كان يرأسها أحد الخرفاتيين. ولم يعلم السلوفاكيون بهذا، وكانت توقعاتهم بأنهم سيجنون في الغرب الذي لم يقضوا به سوى بضعة أيام فقط، الحليب والعسل. وهكذا، قبل بدء التعبئة على ضفاف بحيرة بودنسكا هجم صديقك الصربي النتن إيريتش على صديقي البلغاري. تبادلا الشتائم أولاً، وتذكرا المعارك التاريخية بين شعبيهما والإهانات. ثم ابتدأ العراك وتبادل القبضات. وكانا قد اتفقا على ترك المسدسات للنهاية. يقول الذين شهدوا المعركة إنها كانت دموية ومضحكة.

بيتون: «وكيف كان تصرف غوريلا إيريتش؟».

كولار: «لقد تحول في اللحظة الحاسمة إلى صف البلغاري حينما كانت حنجرة تابير على بعد يسير من مخالب ايرتش، وابتدأ يحطم سيده بقبضتيه».

بيتون: «ألم يكن الغوريلا بلغارياً؟».

كولار: «اسمه شيرا، تشيكي، ولكنه لا يعرف سوى الألمانية».

بيتون: «وكيف قابل الصربي هذه الخيانة؟».

كولار: «عضته الخيانة في فؤاده! ترك البلغاري وأفرغ كل خزان المسدس في جوف الحيوان. وهكذا انتهت المعركة البلغارية اليوغسلافية. وقد حزن كليهما على شيرا الغوريلا الطيب، واللاجئ السياسي الهارب. وبينما كانا يبكيانه، ويقبلان جمجمته السوداء، ظهر الأكراني بوندارنكو من مكان ما، وحشر في شاحنته السلوفاكيين الأربعة عشر كلهم».

بيتون: «وماذا حصل للخامس عشر؟».

كولار: «تذكر براتي سلافا أثناء المعركة وصاح بأعلى صوته يناديها. رموه في نهر الدانوب، وهكذا عاد إلى بيته مجاناً».

بيتون: «وماذا حصل للأربعة عشر رأساً؟».

كولار: «كان الأمر سواء لديهم لمن سيتبعون. كانوا يغنون. وقد أتم بوندارنكو بهم جيشه من المرتزقة بعد أن كان معرضاً للانهيار تقريباً. واسترد من الروماني العربونين، عربون البلغاري وعربون اليوغسلافي. ذلك أن الروماني الأمير، كان مديناً له منذ أحداث بودابست عام ١٩٥٦، بعشرين رأساً مجرياً. وهكذا سوي الحساب أي أربعة عشر سلوفاكياً طازجاً مقابل عشرين مرتزقاً ضد الثورة المجرية موتى. وفي اليوم نفسه توجه

بوندارنكو إلى الشرق باتجاه الحدود النمساوية المجرية. قابلته قبل انطلاقه، وودعته، لكنه لم يرسل لك أي سلام».

بيتون: «وهل تشاهدون يرمولاي؟».

كولار: «تصور! لقد سار عشرة أمتار وسكين بوندارنكو مغروسة في جمجمته. ثم قال: «الذبابة تبقى ذبابة وليس من فائدة ترتجى!» ركض رجال الروسي ليطردوا الأكراني الذي أقسم أن يذبحه بأسنانه. فصاح بوندارنكو وهو يزبد: «إذا لم أقتل الروسي فسأقتل الرب نفسه؟» علماً بأن الروسي قد أطلق لحيته مرة أخرى، وشاربيه أيضاً، وكان أشد فولوكلورية من ذي قبل. يحوم صديقنا الروسي ويتشمم مع أشباله من اليوغسلاف والمجريين على طول حدود أوروبا الشرقية، ينتظرون ويصطادون. حيث يشتري الروسي ويبيع، ثم يشتري. ويقودهم رأساً إلى ليسابون. فكتائبه هناك منذ فترة. وكان قد أحضر من كفينيا البرتغالية قناعاً يرمز للموت، وبهذه العجيبة يُخيف الأكرانيين. لقد كنت معه قبل عدة أسابيع، في هوف على حدود ألمانيا الشرقية. ولم يرسل لك أي سلام».

بيتون: «ولماذا سلبتم أنت والسلوفيني من أنكل شتاد فرومكين اليهودي المسالم العجوز البضاعة والماركات من القبو؟. لم يجدر بكما تعريضه لهذه الحماقة. كان هنا منذ فترة، واشتكى لي منكما، وهو يجمع الشهود. بكى واسترحم ببوشكين. ولم أتخلص منه إلا بصعوبة. ولم يرسل لك أي سلام».

كولار: «لقد أخطأ بكلامه عن بلقاننا الأسود، وضياعنا وفقرنا الروحي. عموماً لم يأخذ جزاءه العادل بعد. لماذا لا يرى فقره الروحي المدقع وانحطاطه؟».

سرقوا في باد كورزنكن واستباحوا كل شيء. أدخلوا بعض التحسينات بقصد تطوير أساليب السرقة المدروسة. كان كولار ومارك يغريان البائعات والبائعين، يسحبانهم أمام الدكان، بينما ينهب بيتون بيديه الطويلتين. جرت الأمور بصورة رائعة، أفضل من أي وقت سابق. ولم يلاحظوهم سوى مرة واحدة في دكان لبيع الأحذية، فهربوا بالتكسي لـ براي ساش، ومن هناك وصلوا الحدود سكارى. تسلقوا الشجر، وهم يظنون أنهم سيرون من هناك كل فرنسا، فحيوها باليدين.

«بيتون، كم سنة منعوك من دخول فرنسا؟» سأل كولار.

«خمس سنوات» قال بيتون، وهو يرتجف كمن تذكر علقة جيدة. وأضاف: «وأنت؟».

«مثلك خمس سنوات» وتقلص وجه المجري.

«يعني مدى الحياة».

«مدى الحياة». رفع المجري ياقته، ومرر أصابعه خلال خصلات شعره الأبيض الأملس، ونظر تجاه جبال الألزاس وصاح: «ذباب، الفرنسيون كلهم ذباب».

«كان آخر ستة أُعدموا بالمقصلة في فرنسا يوغسلافاً». قال بيتون، وهو أشبه بالنسر الذي يستبدل شجرته، وأضاف: «وهكذا بدا موتهم وانتفاضة أجسادهم الأخيرة، أشبه بالمكافأة وليس بالعقاب إذا ما قورن بقص الرأس بالبلطة!».

«كنت أعرف أحدهم، مات وهو مدين لي». وأضاف مغمغماً «هو الذي مع المرأة العجوز.. مثل راسكولينكوف».

«يقولون إن ذلك السلوفيني بقي يغني ويشتم حتى انغراز البلطة في عنقه. ويقولون إن إحدى الشركات سجلت حول ذلك أسطوانة لونك بلاي[1]».

«ومن ممن تعرفهم كان هناك أيضاً؟».

«فيكتور أرتينو فيتش».

انتفض قلب مارك لدى سماعه لهذا الاسم، وتشبث بصعوبة حتى لا يقع من فوق الشجرة.

وقال: «ماذا؟ أيعرف بيتون فيكتور؟ أين هو؟».

«بيتون، لا تحدثه عن فيكتور» قال كولار بإصرار. وأضاف «تسيطر عليه فكرة قتل فيكتور كلية».

«هل خانك؟».

«نعم». قال مارك وهو يرتجف «على الحدود».

«ولهذا تريد رأسه؟».

«بل قلع عينيه من محاجرهما».

«أما أنا فلا أضمر له الحقد برغم خيانته لي» قال بيتون وهو يضحك ويركل علبة كونسروة فارغة. رفع قفازيه الجلديين إلى أنفه يشمّهما «وأي رجل لم يخنه فيكتور؟ بل وضربني بحربة في أضلاعي مرتين، كدت أموت. وكما ترى لا أضمر له الثأر، بل أقول: ليساعده الله ويحمِهِ، لأنه اليوغسلافي الوحيد الذي وصل إلى القمة، وظل في باريس يلعب بالملايين لعباً».

---

1 - لونك بلاي: حجم كبير - المترجم -.

كان المجري يصفر منتشياً.

«تئن مفاصلي كلما برد الجو وتؤلمني، وتنكمش جراحي وتتوتر. تلك الجراح التي تركها لي شيطانك الأشقر ذاك. لكن لا يهم. دعه يتسلق! يمكن أن نحصد من تسلقه الفائدة كلنا، طبعاً إذا كنا عاقلين، وإذا كان هو لا يزال إنساناً».

«قل لي يا بيتون، عند من يعمل فيكتور كغوريلا؟» قال مارك وعيناه تحرقانه كالجمر، ويداه ترتجفان: «عند جان بولموندو أم عند آلان ديلون؟».

«سمعت أن فيكتور يملك من المال ما يتيح له أن يكون هذان الممثلان من ضمن غوريلياته!».

«بيتون. سأقتله أقسم لك» قال مارك، وهو يلتهب كالنار، غير شاعر أنه بات يلامس الأرض، تلفحه ريح غربية تهدر وتضرب الأغصان، وتدفعهم ثلاثتهم باتجاه الحدود. وأضاف:

«سأحاكمه، ولن يساعده أحد».

كانوا يجرون أقدامهم في بادن بادن تحت وابل مطر عنيف. سعل مارك، وذكر بيتون اسم مركيز إيطالي كان مضطراً لأن يهتف له دائماً. كان كولار مرهقاً ومتعباً أكثر مما كان في بري ساشو. تجمدوا من الطريق، وتعبوا كثيراً من عمل طارئ: فتح إحدى الخزائن الحديدية القديمة في إحدى الحانات بقرية بعيدة. ثم ذهبوا لصالون الحلاقة والتجميل وتقليم الأظافر والساونا عند التشيكي أميل مارتينيك.

كانت يدا مارك ترتجفان. وكعقاب لرغبته بلقاء فيكتور، فقد هاجم دكاناً صغيراً قبل حلول الليل في شارع بوخل الضيق. ولم يساعده تدليك

اثنين من المدلكين لإيقاف ارتجاف يديه، ولا الكحول القوي بجانب الكمين، ولا أفلام الجنس الدانماركية. قال بيتون:

«كولار. بعني مارك هذا».

«لا تأخذه حتى لو وهبتك إياه مجاناً» أجابه كولار.

«لماذا؟».

«ألا ترى كيف ترتجف يداه!».

«يلزمني واحد مثله، تعال نعقد صفقة».

«بيتون. انظر جيداً في عينيه. يسكنهما ظلام عميق. لقد التقى بإحداهن في زرندورف، تشيكية، اسمها يانوش، وأحبها. روحان سلوفينيتان مجنونتان. إنه يبحث عن أبيه ليصفي حسابه معه، إضافة لبحثه عن تلك البغي التشيكية، وفيكتور الذي يريد أن يشرب من دمه».

«بعه لي. أقبله على عذره. سأقلمه وأروضه وأطرد محتويات رأسه. قابلت العديد مثله سابقاً».

«أؤكد لك أنه لا يليق بك. أعرف أنا عن أي رجل تبحث. سأجد لك واحداً. عندي واحد لا ينتظم معي بأي مجموعة. هو لك. لمن سأجد إن لم أجد لك».

«وماذا ستفعل بهذا؟».

«سأقول لك حينما نخرج».

«شاتس، يلزمني واحد مثله لمساء الغد».

«ستملكه!».

كان كولار وبيتون قد ارتديا ثيابهما بقصد الخروج. سألهما مارتنيك المحمرّ من البخار، ضعيف البنية، عما سيفعله بالثالث، مارك، الواقف بجانبهما ببرنص الحمام، بعد وضع حذائه وبزته في الخزانة والقفل عليها بالمفتاح؟

«أعده للساونا» قال المجري، وهو يعطي سائق التكسي إشارة لينتظر.

«احتفظ به في الساونا حتى تتوقف أصابعه عن الرجفان».

«وإذا لم تعودا حتى منتصف الليل، حينما أغلق المحل؟».

«دفئه أيها التشيكي. أعطه ليأكل ويشرب حتى ينفجر!».

«وإذا هتفوا ثانية من فيس بادن؟».

«نحن في شبيل بانك»[1].

«ممتع جداً» قال التشيكي مارتنيك وكأنه يغني.

«سنلعب في المكان نفسه الذي كان يقامر به دوستويفسكي»

«يا سيد كولار. كن حذراً. كان دوستويفسكي هذا يخسر كثيراً».

«نحن لا نذهب إلى هناك بقصد الربح مثل دوستويفسكي» قال المجري وهو يعبره «هدفنا أن نخسر أكثر ما يمكن بأقل وقت».

«رومانتيكي» قال التشيكي، ذو الكتفين الضيقين المتهدلين، والقامة القصيرة، وهو يرفع نظارتيه ليراهما أفضل ويحفظ وجهيهما للأبد.

بخروجهما من الصالون، اعتمر المجري قبعة فرنسية، وبيتون قبعة فلندية بغطاء فوق الأذنين برز إلى الطرفين، بينما كان مارك والتشيكي

---

1 - مكان للعب القمار - المترجم -

يلوحان بأيديهما مودعين. اختلفا مع سائق التكسي، وأخذا يحقرانه ويشتمانه.

«أنو.. أنو.. أنو..» قالها التشيكي، وهو يلوح برأسه ويعيد مارك للساونا.

لم تكن هناك فائدة تذكر من الويسكي أو البيرة أو بخار التشيكي، فقد كانت يدا مارك ترتجفان، وشعور بالإهانة والحقارة يملؤه، لاضطراره بأن يُشوى ويُطبخ في هذه الساونا، بينما يلعب المجري وذلك الدب المشعر بيتون القمار في صالون دوستويفسكي. كان مارك بكل روحه وأعصابه وفكره في شارع البلقان، في مدينته السابقة بلغراد بيوغسلافيا.

تذكر هروبه من وطنه:

«مارك، حتى الصباح أكون قد سقيتك كالفولاذ» قال فيكتور، المتأنق بملابس الكاوبوي، وهو يهرب أمام العمال الأجانب وعمال السكك الحديدية. وأضاف «إذا نجحت هذه الليلة في الفحص فسنذهب بعيداً معاً».

«فيكتور أصبح في صدري خمس محافظ» قال مارك متأوهاً وهو في عتمة القاطرة.

«افتح الحقيبة وكوّم. الدينارات[1] مثل الوحل. ماذا سنفعل بكل هذه النقود الورقية الوسخة؟».

«سنستبدلها في النمسا بأي ثمن» قال فيكتور بوقاحة، ذلك الطويل الممشوق مثل الدمية، وهو يرمي جوازات سفر العمال المسروقة ويدوس

---

1 - العملة اليوغسلافية.

فوقها بغلّ وكراهية: «لنعبر هذه الليلة الباردة والملتهبة، أحياء». وحتى يتقيا المعركة أمام القاطرة الذاهبة إلى مالوم وغيتبورغ، ويتقيا الشرطة التي وصلت من كل الجهات، قفزا واختبأا بين أفراد الفرقة الموسيقية العازفة في محطة القطار. خرقا الطبل، وداسا البوق، وتعرفا على رئيس الفرقة القواد الملقب بـ«الفراشة» في بار ماجستيك. صفّر فيكتور بأصبعيه إشارة للهروب، وانعطف يساراً ومارك في إثره. وصلا للساحة، ومن هناك تمكنا من مشاهدة القطار الذي يقصدانه بصورة أفضل. ولم يكن من السهل عليهما التفريق بين المسافرين والمودعين. استغربا لماذا لا تنطلق العربة المزينة بالزهور والسجاد ومناشف الأعراس الحمراء. كان الناس المتجمهرون على الرصيف يودعون العمال الأجانب المسافرين بأصوات متهيجة ضاحكة. وكانت القاطرات مزينة بأيدي ورؤوس العمال الممدودة من النوافذ. صفروا بالصافرات، ولوحوا بأيديهم مودعين. كانت الريح تصفر قوية من كل الجهات، لتذيب الثلج النادف لتوه بهدوء. أصبحت الأرض ملساء لماعة. كان الصفير من كل الجهات، فقد صفر رجال الشرطة وهم يلاحقون النشالين ونساء الليل والفراشات. كان صفيراً لا ينسى، صفير حب لآخر مرة في الوطن، صفيراً لوداع شارع البلقان وشارع ساراجيفو، لوداع مافيا بلغراد وحشاشيها ومجرميها ولاعبي القمار فيها. ارتجف عمال السكك الحديدية والحمالون من بردهم فهرولوا في أماكنهم بقصد الدفء. كان صفيراً من الميكرفون ومكبرات الصوت، من الأسلاك وكل شيء مجوف ومثقوب. حتى أمكن القول إن الجميع كانوا يصفرون. ولولا ذلك الصفير، وكل تلك العجلة من كل لجهات، ولولا التجاؤهما من حائط لحائط، سائرين ضد تيار الريح، لاستطاع رجال الشرطة والكلاب أن يستدلوا على

أثرهما بسهولة. وقتها لاحظ فيكتور أن الريح تدفع باتجاهها امرأة منفوشة الشعر، جاحظة العينين مفرودة اليدين، مذعورة القسمات. لم يستطيعا الاتجاه نحو اليسار بسبب عمال السكة الحديدية، ولا لليمين بسبب عمال المطافئ وأعضاء الجوقة الموسيقية. كانت المرأة المتلفعة بالسواد تقترب منهما أكثر. تبادلا بعض الكلمات، ولولا رجال الشرطة لعادا أدراجهما. تخيلا رجال الشرطة يركبون المكانس والعصي، وهم يتبعون كلباً أسود ممدود اللسان متشنج الذنب.

«مارك، ابني» صاحت المرأة. ولولا الريح والزحمة اللذان غيرا مسارها لوقعت أمامهما.

«ابني. وحيدي. روحي».

«تتبعنا الشرطة فاذهبي للشيطان»، وحتى اليوم لا يذكر مارك أيهما تفوه بذلك.

«ألا ترينهم؟»

«ابني. وجدت لك عملاً».

«لدي عمل».

«وجدت لك عملاً في ورشة إصلاح سيارات. المفاتيح والأقفال والحديد والمحركات التي تحبها من يومك!. لا يعنيهم إن كنت خريج السجون. سيوظفونك حالاً! لا يعنيهم من هو أبوك، ولا أي عائلة نحن! المهم أن تطرق الحديد جيداً، أن تسويه. سيكون المدير مسروراً لو تبرأت من أبيك أمام كل العمال».

«ولا بكل كنوز العالم يا أمي!» قال مارك، ودفع والدته بعنف «ألا تعلمين كم أحن إليه؟».

«ابق هنا. لن تعود حياً من هناك».

«أمي. لا أذهب كي أعود».

اعتبرها فيكتور نذير شؤم، وأنها جلبت وراءها الشرطة. ضربها مارك فوقعت. اصطدمت مؤخرة رأسها بالأرض بشدة. نهضت، وابتدأت تزحف باتجاه وحيدها.

«اتركيني. اتركي قدميَّ يا أمي!».

وابتدأا يركلانها بعنف معاً.

«ابني، ما دمت تذهب إلى هناك فابحث عن أبيك سلافيشا، واعترف له بكل شيء. لا تخفِ عنه شيئاً، ولا تقلل من أي شيء، لا عني ولا عن أختك فيرا. سيغفر لنا سلافيشا كما سنغفر له نحن عدم عودته حتى الآن من مخيمات التعذيب في اوسنابروغ».

كانت الريح عاتية تهدر من كل الجهات لتحتفظ بهما في دائرة على الجليد. وكانت عيناها مليئتين بالظلام، وصوتها بالدفء والأمل.

«ابني. إذا غفر لك أبوك، غفر لك العالم كله».

ولم يتأكد مارك حتى اليوم أكانت تنوي ضربه أم طعن فيكتور بالسكين، عندما صاح فيكتور أن عصابة من المسافرين وبعض العمال الأجانب يهجمون عليه. قفز مارك أمام فيكتور يحميه. جاءت الطعنة في كتفه. صاح. كانت الأم تقبض بشدة على السكين. اقتربت بها من رقبتها وشطبت.

انهارت. تقلص جسمها الأسود وتشنج، حتى بصقت أسنانها. كانت جاثية على ركبتيها مضمخة بالدم مثل فيكتور. هجم مارك بيدين فارغتين، كغوريلا حقيقي، وهو يزعق بوجه الناس الهاجمين على إلهه الأشقر. ولا يعرف مارك حتى الآن ما حصل بعد ذلك. كل ما يذكره الضربة في الذقن والصدغ ومؤخرة الرأس، فوقع. احتضنته يدا والدته:

«ابني. ما يصلنا من الغرب هو الجثث فقط» تذكر مارك أنها قالت له. فأجابها: «لا تلحسي الدم من خدي وشفتي». وكان يرغب لو اقتلع عينيها، لو ملأ فمها الفاغر بقبضته. فرقهما أحدهم، وهو يخرج السكين من عنقها. ولا بد أن هذا الشخص كان أكثر الذين داسوا عليه وبصقوه، وهو نفسه الذي رفع له رأسه عن السكة الحديدية وظل يسعفه طويلاً. انتشلته أيادٍ كثيرة، وقذفته ثانية على السكة الحديدية. وكانت الريح تزأر. ركعا هو وفيكتور، ونظرا إلى كابحات القطار ومواسيره خلال البخار، وأحسا أن الصقيع يحجّر جراحهما وصدريهما. وفكرا بما يجب فعله. تعانقا، وسارا يعرجان باتجاه أحد المراحيض. غسلا أيديهما طويلاً ووجهيهما، وأخرجا قطع الدم المتجمد من أنفيهما ولثتيهما، وتمرنا على تعابير الوجه المختلفة، وحركات الاستهزاء والوقاحة والابتسامات، وودا للمرة الألف أن يشبها رجال المافيا الصقليين، أفراد عصابة ميلانو.

«مارك. تهون كل الأمور ما دامت الأسنان في اللثة بعد» قال فيكتور وهو يغمز بعينه: «وما دامت العيون في محاجرها، والأصابع على الأكف».

أضاف مارك «وما دام الرفاق المنطلقون لسرقة الغرب أوفياء لبعضهم». وكان يمسح الدم والطين عن بنطاله الجلدي ومرفقيه.

«مارك. إذا تحملت هذه الليلية، فكن واثقاً بأنك قد عُمّدت وسُقيت كالفولاذ. وإنك ستستطيع الاستمرار حتى بدوني، بدون أي عراب».

«فيكتور. فيكي. سأتحمل هذه الليلة وكل الليالي الآتية» همس مارك، وهو يسند مثاله الأعلى كي لا يقع: «سأكون غوريلا لك حتى النهاية. نهاية عمرك أو عمري أو عمرينا معاً».

كانا في القطار.

«مارك لماذا يبكون هكذا؟» سأله بينما كانا يشرئبان من النافذة، ويتصرفان كعمال أجانب ذاهبين إلى ألمانيا: «يبكي العمال!! والأحرى بهم أن يفرحوا لخلاصهم من هذا الجحيم. إنهم خارجون. يبكي قاطعو التذاكر وسائقو القطارات!! ماذا حلَّ بهم؟ يبكي السجناء ببزاتهم الزرقاء وأرقامهم المنحوسة وقبعاتهم لأنهم يفرغون من الرصيف الخامس والسادس الفحم والملفوف والفاصولياء للجيش!. تبكي الفتيات الملونات كأن كل هؤلاء الرجال لن يعودوا ثانية إليهن وبين سيقانهن. يبكي المشوهون الحقيقيون والمزورون، الصحفيون، الملحقون السياسيون والغرباء. ملعون أبوهم وفروج أمهاتهم كلهم. كلهم هنا، وكلهم يذرفون الدمع! علماً بأنه لا تحدث أية معجزة. اللهم إلا إذا كانت هجرة شعب كامل من أرضه معجزة. شعب يهاجر لأوطان غريبة تدفع ثمن العرق الآدمي والحمل فوق الظهور بالعملة الصعبة».

«فيكتور. تتحرك القاطرات الموصولة ببعضها كالعقد، ونحن ننفض كل الأشياء الحية والميتة، وأفكاري تتشتت ثانية» همس مارك لإلهه الأشقر الشارد. وأضاف: «فيكتور. تتقطع أنفاسي ويجمد دمعي على جفني،

وأرتجف! أسمع الصافرات، والأكرديون والقاطرات، والأجراس والدواليب التي تطقطق جوز الفقراء. اسمع كيف يصيح أحدهم: بلغراد يا مدينتي، يا حبيبتي، يا طيرتي، وداعاً. يصيح الثاني: يوغسلافيا.. يوغسلافيا.. يا عروسة، يا وردة مطلية بالندى، يا ملاكاً على أيقونة، وداعاً للأبد. يصيح الثالث: يوغسلافيا أنت أمي وأبي وأخي وأختي وأنا لا أملك أحداً غيرك، فاعذريني لأنني أهجرك! ويصيح الآخرون... فيكتور. كم أود لو أصرخ أنا أيضاً، لو أنك لم تمنعني كي لا أثير انتباه الشرطة قبل الهروب: يوغسلافيا. وطني. يا من حددت مصيري وقدري، يا من وهبتني اسمي، وأعطيتني كل شيء، ومهرتني بخاتمك. اعذرني لأنني أخونك هذه الليلة، وسوف أغفر لك أنا!. فيكتور. إذا بكيت أنا فلا داعي لبكائك أنت».

«مارك. إنها أختك ميرا» قال فيكتور بلهجة باردة. كانت ميرا تنفصل بصعوبة عن الناس، وهم يرمون الورود على القاطرات وكأنها صناديق نعش. كانت ممتلئة، بضة، قوية، تلبس لباساً هجومياً بإغرائه. كانت تركض على الرصيف، تعيقها تنورتها الضيقة كتنورات بنات البارات، ومعطفها من الفراء الكاذب. كان نهداها يعيقانها وهي تخترق طريقها بين الجموع، وتمد يديها باتجاههما. خبأ مارك رأسه وراء ظهر فيكتور. كانت ميرا تصيح وتزبد:

«مارك.. أعد لي مصاغي.. أشيائي.. النقود.. ال - ذ - هـ - ب!».

كان القطار يبتعد عنها، وهي تلوح بيديها وتصيح: «أيها الناس، أخذ كل ما أملك وللمرة الثالثة».

تعالت الضحكات. وسمعت طقطقة القاطرة وصوت عجلاتها على السكة كحصان يركض. كانت ميرا تركض وتصيح كأنها تغرق: «أيها العمال، أيها الفقراء.. احترسوا! أنتم لا تعرفون أي سارق هو، ساحر، قاتل أخي هذا! نعم.. نعم.. أخي ذلك الأسمر. لهذا ضعوا أيديكم على محافظكم، على السكين. لا تسمحوا له ولا للأشقر الواقف أمامه بالعودة إلينا!..».

رأها لآخر مرة وهي تجرح خديها وتبكي أمام القاطرة التي كتب عليها: «أهلا بكم في ميونخ وجمهورية ألمانيا الاتحادية، وطنكم الجديد».

ثم غابت في زحمة القطارات والأرصفة.

كان القطار اليوغسلافي ينهب المسافات تجاه الحدود الغربية. ومن وقتها ابتدأت يدا مارك بالرجفان، وشيء كالمطرقة في صدغيه وجنبيه. كان يضرب صدغيه بشدة، ويعتصر مؤخرة رأسه وعيناه مليئتان بالشوك والدموع الوسخة، والشرارات التي حملها الهواء وأطفأها هنا قرب قاطرتهم. «لم يعد يوجد شيء». فكر وهو سكران، خائف أن يسرق أحد منه الزجاجة التي كان يشرب منها جالساً قرب فيكتور الذي غالبه النعاس. كان يشرب كلما شعر بغصة في صدره وحول قلبه. لم يعد هناك أشياء محسوسة، أغراض، شيء صلب يقف عليه لينتصب. لم يعد هناك شيء يا وطني الذي أخونك من أجل أبي. لا كلمات ولا حروف بلغتي الأم. تبعثر كله كغبار في هواء، منذ اللحظة التي انفصلت فيها عن الأرض، وأمسكت باب هذه القاطرة، وسكن روحي الظلام والقهر والشوق.

لبرهة طويلة، تمعن في فيكتور. كان يبتسم في نومه، يهتز رأسه الأشقر الأجعد المرمي على المسند والمعطف المعلق وبجانبه حقيبة عليها إشارة

الصليب الأحمر. كان يهتز على إيقاع اهتزاز القطار. وكانت شفتاه مليئتين كطفل مدلل، حولهما أخدودان منحرفان، وجبين أبيض عال أملس، وأنف معترق دائماً، مكور، بفتحتين كبيرتين تنبضان كلما تهيج.

«أبي. ينفجر الصباح، ويسرع القطار خلال الجليد!» همس مارك، وشعر كيف تتقلص أفكاره. «أبي. كنا سنعيش لتونا حادث صدام مروع، ونقفز في الدم والصرعة!».

سمع صوت صفارات وعواء كلاب، وذكر اسم رجال الجمارك. كان يصارع روحه التعبة، ويخاف من يديه اللتين يحسبهما سترتجفان حتى النهاية. كان يلاحق أفكاره:

«أبي. الموت قريب! وهناك حيث تبدأ روحي بالانفصال عن جسدي، في الأعالي، هناك أنت! أبي الذي أؤمن به كما أؤمن بفيكتور فقط، لا تسمح أن أعبر حدود هذا الوطن! أبي، قدري، خذني إليك أنت يا أفظع لعنة وأسود سحر، أميت كنت أم حي، لا فرق، لأنني سأنتهي إلى الأبد حينما أصبح في ذلك الجانب من العالم».

استندا على نافذة القاطرة، والتحفا بسجادة مسروقة واعتمرا قبعات غريبة، ووقفا يسمعان عمال السكك الحديدية الذين قالوا بعد انتهاء الأغاني «إنها الحدود». كانت هناك خشبة مغمورة بالثلج والجليد، تشبه حائطاً خرباً. ولو أنهما لم ينظرا إلى العمال والشرطة ورجال الجمال خلفهم، واستدارا للطرف الثاني، لشاهدا خلال نوافذ قطار اليونان الواقف بمحاذاة قطارهما، تلك الغابة التي غطت الهاوية السحيقة المظلمة. لكنهما شاهدا قطارهما فقط، المطلي بالجليد الوسخ والحجارة، وبعض الأعلام والرؤوس.

كان فيكتور منفعلاً جداً، يلامس بدون انقطاع جواز السفر المزور في جيب سترته الجلدية. كان يريد تغيير النافذة. أمسكه مارك، وأسرَّ له ألا يتحرك، وأنه قبل استيقاظه أودع الرصاصة في حجرة المسدس، وفتح السكين ذات النابض. أدار رأسه تجاهه فتظاهر فيكتور عدم سماعه. كان يراقب رجال الأمن وهم يتفحصون الجوازات. اصطدما في تلك الزحمة الغبراء بالحقائب والمحافظ المليئة للعمال الأجانب. وقع فيكتور، وأنّ متوجعاً. وهكذا تحرر فيكتور من يد مارك لأول مرة مذ أعاد رجال الأمن جوازيهما إليهما على أنهما حقيقيان، وحيوهما. امتلأ الفراغ بينهما بظهور رجال غرباء، وأيد ووسائد من الريش، وحقائب كثيرة. وللحظة وازن مارك بعينيه تلك القطعة الحديدية التي تربط قاطرتها بالتي تليها، والتي لم يكن رأس فيكتور ممدوداً من نافذتها. انطلق مارك إلى القاطرة التالية يبحث ويراقب. لم يكن فيكتور بأي مرحاض أو ممر. عاد إلى مكانه، وراقب كل القطار، وقطار أثينا أيضاً.

«فيكتور. أين اختبأت أيها الحقير؟» قال مارك بحسرة وتوجس.

«مارك. لم اختبأ» قال فيكتور بصوت دافئ: «هربت منك. لا أريدك أن تكون غوريلاي».

«لماذا؟ أين أخطأ يا قائدي؟».

«لم تخطئ».

«وعهدنا! وقسمنا؟!».

«أفوهة المسدس في الجيب يا مجنون؟! سيكتشفون أمرنا ويعتقلوننا!».

«ويجب أن يعتقلوننا ما دمنا رجالاً من قش».

«مارك، استسلم إن لم تكفك السجون والأسر، ونم في السجن عنا نحن الاثنين. أما أنا فلن تراني بعد اليوم، لا أنت ولا وطنك المعتوه يوغسلافيا. كفاني كل شيء. أتفهم؟!».

«فيكتور. وأنا؟!».

كان فيكتور يغير مكانه باستمرار، ويغير لون صوته: «أنت حر! وأي جائزة أفضل لنا نحن رجال القش؟».

«فيكتور. وما لزوم الحرية ما دمت أشعر بالضياع؟!».

«مارك. تملك يدين ذهبيتين!».

«ترتجفان».

«ستهدأ هاتان الكماشتان» قال فيكتور كأنها خارجة من رشاش: «لم أرَ مثلهما. سيسعد أي رجل أن تكون بصحبته في السرقات. لك أصابع ذكية ماهرة أيها الساحر. احرسهما أكثر من عينيك ولا تهتم. كل ما تراه فهو لك!».

«فيكتور. ألم تعمدني وتسقني كالفولاذ؟».

«ولدت معمداً ومسقياً يا طفلي المجنون!» قال فيكتور. وتهيأ لمارك أن خائنه موجود على سطح القطار أو في قطار اليونان.

«إلى اللقاء في سجون سنك سنك، على المقاصل، أو هناك في العالم الآخر!».

تحرك قطار اليونان، وتهيأ لمارك أن فيكتور يسمعه من مكان ما ويضحك. سمع صوتاً ينادي، وصوت أوكرديون، وسلامات الفقراء

والإخوة المحترمين الذين ظلوا في الطرف الآخر من المعبر. «مارك. كنت سأقذف لك مربعات الحشيش لو تأكدت أنك ستلتقطها، علها تعينك في البداية. ولأعطيتك الخاتمين الذهبيين، والعشرين ماركاً من البارحة. لكنت أعطيتك عناوين اللاجئين السياسيين والهاربين، بل وقذفت لك بالحقيبة كلها».

«فيكتور. إذا هربت فأنت خائن لي. وإذا تركتني وحدي أبدأ حياتي كلص ومجرم في أصعب لحظات عمري، - ولما أعبر الحدود بعد - فسوف أقتلك! سأشرب دمك بدل الماء يا فيكتور الذاهب مع اليونانيين. ولا تنس أن أحداً لم يهرب مني حتى اليوم. فيكتور. سأقتلع عينيك وأنت حي، وأجذم أنفك ولسانك، وأنتزع أذنيك من الجمجمة، وأتركك هكذا تتسول في ألمانيا الغربية».

راقب مارك قطار اليونان وهو ينطلق قبل قطار يوغسلافيا. كان قطاره أعلى من الأرض، وهو يتقيأ الشرارات والدخان الوسخ والدم. وسمع صوت العجلات مثل ركض الحصان، وصوت السكة الحديدية المتجمدة، والهواء الغريب. توسع العدم بجانبه، ولم يكن هناك أي من المسافرين ليقفل الباب، فلفَّ الثلج قدميه، وارتجفت يداه.

كان العمال الأجانب يغنون. لم يخمنوا أنه سيرغمهم على الاستسلام بفوهة المسدس والسكين. كانوا ينظرون إليه كما ينظر لإنسان غير مدعو، مبرود، ينزرع في الأغنية عرضاً ويشوهها. لم تكن لديه القوة ليلقي عليهم تحية الصباح، فما بالك ليقول لهم: «إخوتي، أيها الناس، أيها الفقراء، هل تعرفون أين نتجه، وماذا ينتظرنا هناك في الشمال؟».

كان العمال الأجانب يغنون.

أحس مارك منذ اللحظة التي خسر فيها فيكتور والوطن بأن نصفه قد شُلَّ. وبأن رأسه الضائع وجسده الفارغ كانا يسيران لجهة، بينما بقي قلبه وروحه على الطرف الشرقي اليوغسلافي.

كانت يداه ترتجفان.

هكذا تذكر مارك هروبه من الوطن.

- ٧ -

قفز كولار وبيتون وأمامهما التشيكي ظهراً داخل غرفة مارك. كانا سكرانين، يضحكان بعهر ويتراشقان بالكلمات. دفع أحد الجراسين أمامه عربة فطور إنجليزي مؤلف من شوكولاتة وسيجار وويسكي. وحمل الثاني سلة ورد كبيرة لم يعد يرى من خلالها. كان التشيكي خائفاً، يتظاهر بالسعادة، ويتصرف بناء على ذلك. وكان مارك مستلقياً. بينما بدا بيتون أشد سكراً من كولار، عيناه مليئتان بشعيرات دموية كالقرد، وهو يرتب سالفيه المنسابين كإطار حول خديه حتى وصلا عظام الفكين البارزين. كان يرتدي ثياب صياد كالمجري. يترنح سكران ويطقطق بجزمته. ساعد مارك في ارتداء بزة جاهزة أحضرها شخص ثالث. وكان كولار يحرك سيجاره من طرف فمه الأيمن إلى الأيسر ويتكلم هادراً من بطنه:

«مارك. لا أعرف ما أفعله بكل هذه الماركات، مليء أنا كالعين!».

«يا رئيسي، أمن صالون دوستويفسكي الذي حلمنا به طويلاً؟».

«صالون دوستويفسكي..!».

«أتمتعت كما في الماضي، في باد هامبورغ، حينما جلسنا في مقعد فيدور وأصدرنا أوامرنا لجوكيات اللعب؟»

«أخذت أكثر من الجميع».

«يا رئيسي، حينما تخسر كل آمالك سيساعدك الملاك دوستويفسكي».

كان المجري يغمز بعينيه، وهو يعقد لمارك ربطة العنق من قماش التريفيرا، ويخبره عن إحضاره قفازين بطانتهما من فراء الخروف، ليدفئ أصابعه أيضاً، فأحس مارك بالثقة تعود إليه.

«أكنت تلعب على اللون الأحمر؟».

«مارك. فعلت كل ما كان يفعله دوستويفسكي. ولو أنه علم كيف كنت أستغل أساليبه وألاعيبه وحيله، وكم أخذت منهم، لتقلب في قبره إلى الأبد».

«لو أننا نستطيع وضع الورود على قبره، أو أن نشعل له شمعة في إحدى كنائس الأرثوذوكس، أي شيء من هذا القبيل».

«لابد. سنفكر بشيء».

كان بيتون يعانق التشيكي مارتنيك، يضغطه بشدة، ويضطره للتجرع من زجاجته التي يسيل منها اللعاب. شرب التشيكي. وأجبره بيتون على التثاؤب كديك هندي ليتمكن من صب الخمر في حنجرته، كرمز على الأخوة السلوفاكية، وعقاباً لرفضه الشراب من الزجاجة في البداية. كان التشيكي ينفخ خديه، شاخصاً بعينيه وهو يبلع. وود بيتون تقبيله من فمه للذكرى، فوضع لسانه في أذن التشيكي المشعرة الوسخة. أشاح التشيكي

برأسه، فبقي بيتون ولسانه خارج فمه ككلب. سحبه بأظافره، وداعبه بهما ولعق مؤخرة رأسه الأصلع المسطح. كان المجري يدفع ويغالي بالدفع. وكان مارك موقناً أن هذه الماركات هي التي طبعت في أنكل شتاد تحت سقف المدعو ميركوسلانا.

كان المجري يبحث عن الأوكرديون. تحرر التشيكي من بيتون، وابتدأ ينحني ويركع، وهو يشكرهما بلغات عديدة. أمام الساونا، انتظرتهم سيارة أجرة، بها بعض التجار، وحقائب صيد. وأغلى البنادق ذات الفوهتين. أودع المجري خلف كل أذن من آذان الجراسين الثلاثة ١٠٠ مارك. وحشا صدور الباقين بفيشات القمار من شبيل بنك. ورغب التشيكي أن يفترقوا بأسرع ما يمكن، فمد يده مصافحاً أولاً. كانت تنبعث منه روائح الشامبو المعطر والصابون ومساحيق الغسيل. دفعه بيتون داخل التكسي، وانزرع المجري على طرفه الآخر، فضحك التشيكي ضحكة حامضة. وجلس مارك جانب السائق. كانت مهمته التلويح بقفازي بيتون محيياً كل المدلكين والخدم والعابرين.

«أيها السادة والأصدقاء، إلى أين؟ إلى أين؟».

«إلى الهواء الطلق قليلاً أيها التشيكي».

«لا يوجد أنظف من هواء الساونا. توقفوا. أرجوكم».

«أيها التشيكي. لنذهب إلى الصيد قليلاً».

«أيها السادة، لا يمكنني الذهب هكذا! لست مستعداً، إنني بجزمتي وقفازي المطاطين وصدارتي من المشمع ومريولي الأبيض، مع الشامبو والصابون والمكانس.. لا.. لا.. لا..».

«يا لربك التشيكي لا ترتجف».

«وماذا بقي لي أيها السادة؟».

«لا تخف لهذه الدرجة. سنلبسك وندفئك أيضاً».

«هل أنا مختطف؟».

«أيها التشيكي دلنا على الطريق فقط. لقد دفعت أجرة التكسي حتى مساء بعد غد».

«وأي اتجاه عفوكم؟».

«إلى أين يذهب أسياد بادن بادن للصيد؟».

«أنا لا أخرج من الساونا. أعيش في البخار!».

«أيها التشيكي، البارحة قلت غير هذا» قال كولار بغضب، وهو يقرصه وراء أذنه: «لقد أكدت لنا أنك تقيم في بادن بادن وهامبورغ من أجل الصيد وحده».

«أنا مجنون بالصيد يا سيد كولار، هذا صحيح. أتابع كل ما يعرض في السينما والتلفزيون حول الحيوانات، لكن..».

«لكن ماذا؟».

«لا أعلم إلى أية جهة أقودكم!».

«قلت إنك تعرف من أي منحدر في سهول فرنسا تنحدر الخنازير الوحشية».

«قلت الخنازير الوحشية فقط يا سيد كولار».

«حسناً لم تقل فرنسا. نحن نقول لك! أين ينتظرهم الألمان؟».

«لا أعرف أن الألمان ينتظرون الخنازير الوحشية يا سيد كولار».

«أي اتجاه تسلكه الخنازير الوحشية الألمانية؟ لقد همست بذلك وأنت تلسعني بمكانسك الحقيرة تلك».

«لم أقل الألمانية يا سيد كولار. أرجوك. اسمعني. قد أكون أضفت مع الخنازير الوحشية كلمة الراين أو الزاس. لكنني لم أقل أبداً السويسرية، الإيطالية والفرنسية. ولو قتلتني لن أعترف بأنني قلت الألمانية. أعرف جيداً من أنا وما أنا. أعرف يا سيد كولار أين أعيش، وماذا أجرؤ على قوله، وماذا لا أجرؤ على التفكير به».

«أيها التشيكي. هل زرع الألمان الخوف في عظامك؟».

«لاجئ سياسي أنا يا سيد كولار. هارب مسكين ماله معين ولا حام. ضائع أنا، هذا صحيح، لا أخفي ذلك. قد أكون معتوهاً بعض الشيء، مثل كل الذين ليس لهم وطن ولا أهل ولا أقارب، آتون من الشرق، خائف حتى من خيالي. أعيش من صدقات الألمان عموماً وحسناتهم وطيبتهم غير المحدودة. أشكرهم في كل مكان وكل مناسبة. الألمان أصحاب مزاج محترمون، أناس رائعون. لقد أحبوا الساونا، ويؤكدون أنهم أول من اخترع التدليك. لا أعرف أناساً أفضل وأكثر روحانية من الألمان. علماً بأنني عرفت كل العالم، أقصد كل الأماكن وكل المنتجعات، من براغ حتى بادن بادن. الألماني خروف وديع يا سيد كولار».

«للذبح!» همهم بيتون.

«يا سيدي قلت فقط خـ - ر - و - ف! خروف وديع، أضيف ذلك لكي تسمعوني».

«أيها التشيكي، لم تقل عكس ذلك!» انحنى كولار فوق السائق الذي كان يضحك وقال: «فرانس، يا خروفي الوديع. لنترك الصيد. عد بنا».

«مفهوم» قال السائق الوديع كخروف، بأذنين مشرئبتين حمراوين.

«منذ ثلاثة أسابيع يا سيد كولار، انتهى موسم الصيد لكل الطيور والحيوانات وليس للخنازير الوحشية فقط، بالضبط في ٣١ كانون الثاني. كان من واجبي تذكيركم بذلك قبل أن ننطلق سامحوني».

«أيها التشيكي. لقد أصبت فؤادي بحديثك عن الألمان والخروف الوديع والساونا والتدليك» قال كولار: «لذا سننزل إلى الوادي».

«رومانتيكي يا سادتي وأصدقائي. رومانتيكي. انتقوا الطعام الذي ترغبون، وسيكون أول وآخر كأس على حسابي».

«شكراً».

«أترفضون؟ أليس حراماً أن ترفضوا دعوة تشيكي؟ فقير، ولاجئ سياسي التقى أخيراً أشقاء روحه من الجنوب السلوفيني وأحبهم؟».

«أيها التشيكي، نحن لا نرفض شيئاً، وإنما لا يمكننا أن نشرب أكثر مما شربنا. نحن نكرع منذ البارحة، بعدما ربحنا كل تلك النقود. نكرع لا نشرب، نكرع!».

«هل يمكنني فعل شيء من أجل إخوتي السلوفينيين؟».

«مارتينيك. ستمشي بهذه الذخيرة وحقيبة الصيد، وهاتين البندقيتين الثمينتين، وبجبين مرتفع كتشيكي أصيل وبطل، مشية عسكرية في بادن بادن. ونحن من خلفك حتى لا يهاجمك أحد».

«لا أجرؤ. قد يراني أهلي الألمان».

«يا تشيكي. قلت منذ لحظات إنهم يملكون أرواحاً متسامحة».

«يملكون، لكنهم لا يحبون رؤية البنادق على أكتاف غيرهم».

«جميل أيها التشيكي! ليشاهد الألمان الوسخون من يدلكهم ويخنقهم بالبخار. فإذا كانوا لطفاء وجيدين، كما تؤكد، ستعجبهم رؤية عصابة سلوفينية مسلحة، رجال مافيا شرقيين. لأنهم لم يروا ذلك منذ زمن. سيضحكون، كما يضحكون عادة حينما تريهم أي شيء. إلى الأمام أيها التشيكي».

تملص التشيكي طويلاً. استعرضوا أمامه فوهة المسدس الكولت والسكين والشفرات. ولكي يدعوه وشأنه، عرض عليهم عدة دورات من الشراب الذي يرغبون، وساونا مجانية، وفتيات صغيرات. كان ينتفض. ذكر البريد، وقال: البنك. وفاحت منه رائحة البول والدهن التشيكي. أعاده بيتون إلى مقعده دون أن يفتح عينيه، وهدده بقبلة من فمه إذا لم يهدأ.

تناولوا طعام الغداء في شرفة مطعم أتاحت لهم رؤية جدران شبيل بنك وسقفه وبعض نوافذه. كان مارتنيك سكران من الخوف والشامبانيا يتابع أفكاره بصوت مسموع مشفوعة بشتائم. كان يدفع ويطلب موسيقى بصوت أعلى. يشتم الجراسين، ينعتهم بالألمان القصابين العفنين.

«أيها التشيكي، الآن وقد أصبحت إنساناً وصديقاً، الآن وأنت تعبر إلى حياة جديدة مليئة بالثقة، ساعدنا لنجد كل الأماكن التي كان بها وتناول الخمر الفقير دوستويفسكي في بادن بادن».

«رومانتيكي! منذ متى وأنا أتهيأ لرؤية هذه الأماكن المقدسة!» قال وهو يعانقهم، ويؤكد بأنه قرأ داخل الساونا كتاب المقامر من أجل شبيل بنك،

الذي يشاهده كل ليلة حينما يعود إلى بيته ماراً بجانبه وأنه قرأ الجريمة والعقاب من أجل العنوان فقط. «هيا بنا!».

كانوا في بهو فندق ممتاز ومضيء، وقد وضع التشيكي حقيبة الصيد على ظهره، والبندقية على كتفه وقبعة بيتون للصيد على رأسه، وأكد لرجل الاستعلامات أنهم في شفاليردي أور. وقد انتصب كولار ومارك وبيتون على بعد خطوتين منه كغوريلياته الخاصة.

«معذرة، لكن هذا الفندق اسمه فندق السفير».

«لا».

«إذا لم تكونوا أميين فاقرؤوا».

«ليس المهم ما كتب».

«وما هو المهم إذاً؟».

«المهم ما نفكره ونعتقده نحن. وبناء عليه فهذا هو شفاليردي أور! ولن نتكلم عن ذلك أكثر».

«ماذا يريد السادة؟».

«الشاعر المشهور، المعتوه، الإخوة كارامازوف والأرواح الشريرة، فيدور دوستويفسكي، لقد سجل اسمه في سجل زواركم بتاريخ ٢٢ حزيران، اعتماداً على تقويمكم. وبناء على تقويمنا وتقويمهم الأرثوذكسي في ٤ تموز ١٨٦٧، وتحت اسم فيجادوستويفسكي، حقير من بطرسبورغ. كان بصحبة زوجته التي تصغره بسبعة وعشرين عاماً، مدام آنا غريغورينا. لدينا كتاب سُجل به أن فيجا قد نسي في ليلتين عصيبتين كابوسيتين،

قضاهما معكم هنا، أن يسدد حسابه. لقد هرب عبقرينا في الحقيقة. لكن ذلك لا يمكن ذكره مهما كلف الأمر».

«ومن تخص هذه المشكلة الآن؟».

«تخصنا نحن. لقد أتينا لندفع!».

كان موظف الاستعلامات ينظر إليهم ببلاهة. لكن كولار مارتينيك فتقدم للأمام وكاد ينهار على منصة الاستعلامات. وهدر:

«كان دوستويفسكي شاعر الحقراء والمشوهين، التعساء مرة وإلى الأبد! لا يوجد أحد مثله غنى للألم والخطيئة والتشرد. كان دوستويفسكي ينزف وهو يكتب! كان وظل أخاً لكل الذين يطاردهم دم مهدور! لقد استحق دوستويفسكي المعذب أبداً، المقهور أبداً، عن جدارة أكثر مما نقوم به لأجله اليوم! كان دوستويفسكي صفحتنا العليا كما نحن اليوم صفحته العليا».

«نسيتم أن تقولوا إنه كان مصاباً بالصرعة أيضاً».

«كان مريضاً. كان يقع مصروعاً كما نقع نحن» هدر التشيكي، وهو يلاحظ كولار وبيتون ومارك كيف يقتلعون ويدوسون الزهور والشموع. قال: «انظروا».

«يا سيدي، لا يمكننا قبول ما تعرضونه من المال بأي شكل. لأن الدفع كان وقتها بالغولدن في هذه المنطقة!».

«لدينا غولدن!».

«لا يمكننا قبول أية عملة بتاتاً».

انتصب التشيكي، ومدّ يديه أمامه كمن يمشي في نومه، وتوجه نحو عامل الاستعلامات، بالأحرى نحو عنقه المنتفخ والمحمرّ من القهر. كانت عينا التشيكي مليئتين بالدمع، وصوته بالدفء والظلام:

«يريد دوستويفسكي الميت إصلاح هذا العيب! ومهمة السلوفينيين وفاء ديونه. لقد سُجل في هذا الكتاب أن فيجا بقي مديناً لكم ولشبيل بنك وللكثيرين أيضاً! لن نخرج من بادن بادن حتى نتحقق من كل شيء، ونسوي الأمور كما يجب!. نعلم أنه قد رهن عند موبرت، الشاذ جنسياً، ألبسته وألبسة زوجته الداخلية، وأحذيته القديمة أيضاً عدة مرات. ومن يعلم كم بقي مديناً لتلك العاهرة، مؤجرة البيوت الحقيرة، شاربة الدماء بشارع غرباشر، التي أسكنته غرفة فوق دكان حداد. كم تعذب لإقامته بينكم وليس بيننا. لقد بكى طيلة أسابيع سبعة!».

«اذهبوا إلى تلك السيدة وادفعوا لها، اتركونا وشأننا. عموماً بقي عبقريكم المريض، كما تسمونه، مديناً لتورغنيف والبارون فادفعوا لهما. سيشكركم البارون مدى الحياة».

«وأين نجد هذا البارون الحقير؟».

عندئذ، دخل البهو رجل طويل مهذب ومحترم، كهل، رأسه كبير، وشعره مثل شعر الشعراء. نزع معطفه المرمي على كتفيه، وانحنى. كانت بانتظاره قبضة التشيكي. أصابه في ذقنه، فوقع الرجل ممدداً على الأرض كبارون لا يتفوه. رفعوه، ثلاثتهم، كان فكه ينزف، ولم يستطع التفوه بشيء حتى لو أراد، أصلحوا شعره وربطة عنقه القديمة بشكل الفراشة، ثم أصلحوا ياقته المدماة. لم ينظر التشيكي إليه، بل توجه غاضباً نحو موظف الاستعلامات: «أهذا هو تورغنيف؟».

«لحظة فقط» قال الرجل الواقف خلف مكتب الاستعلامات بلهجة جليدية. وبيده بطاقة التشيكي متجهاً نحو الهاتف «الشرطة أفضل من يعرف أين هو تورغينيف وتولستوي وغونجارف وغيرهم من البارونات الذين لم يستوفوا ديونهم بعد».

افترقوا عن التشيكي في الشارع. قذفوه من التكسي أمام أكبر جمهرة من العابرين ومتسكعي الليل.

«خذوني معكم» بكى التشيكي بحرقة وهو يصيح راكضاً خلف السيارة: «لقد انتهيت، انتهيت، لقد شاهدني الألمان تحت السلاح! أتعلمون معنى ذلك ؟! إذا كنتم لا تعلمون توقفوا لأشرح لكم، وبعدها سأنتحر أو أقتل! لقد عملوا لي «فوتو كوبي»، سأكون في كل الصحف! لقد أخبر أحدهم الألمان عن معرفتي بكل ما يظنه بهم آكلو لحم البشر، وحدثهم عن عبقرينا المصروع دوستويفسكي في بطرسبرغ».

كانت السيارة تسرع ثم تتباطأ، بينما لوّح بيتون بقفازيه للتشيكي المتشجع، الذي كان للحظة يركض، وللحظة يمشي مشية عسكرية، وهو يصيح:

«يا أحب رجال المافيا إلى قلبي، لا تتركوني وحيداً في الغرب! ألا ترون فقري وبؤسي البلقاني، ألا ترون أنني لم أعد أخاف؟ أنا مسلح مثلكم! لدي ذخيرة لأحارب حتى الفجر! فساعدوني يا أشقائي المجرمين! اهجموا عليهم من الخلف، من سويسرا، ومن الجنب! لنكسر معاً العمود الفقري الألماني الذي يتباهون به جداً وهم في ساونتي! يا إخوتي السلوفينيين. أريد الانضمام لكم لأنني حقير مثلكم، مجرم.. محتال.. م - ح - ت - ا - ل! إنها

حياتي الجديدة! الخطف، القتل، النصب، السرقة، كما كنت في تشيكوسلوفاكيا!».

أمر كولار سائق التكسي فرانس أن يتوقف ليتمكنوا من رؤية ما سيحصل للتشيكي المهرول في منتصف الشارع وهو يغني بالتشيكية ويدمدم بالألمانية.

«سمعت كيف تنحدر بهذا الوادي العفن الحقير الخنازير الوحشية الألمانية، ثم السويسرية والإيطالية والفرنسية! يأتون إليَّ، للبخار المغلي!. لن أدلكهم بعد اليوم، ولن أضحكهم بقبضاتنا ونكاتنا السلوفينية! لن أضربهم أبداً بعروق الغار ومكانسه! أنا سلوفيني، حفيد فيجا دوستويفسكي، سأريهم بأي شيء سأفجر بهم..».

دوت طلقة، أعقبتها أخرى. سمعت أصوات استغاثة. لا بد أن أحدهم أصبح ميتاً، مثقوباً بالخردق مثل خنزير وحشي. ثم سمعت تعليقات حول سيارة إسعاف وشرطة، وتشيكي مصاب بداء الكلب. ثم دوت بندقية أخرى، كانت طلقتها تختلف عن الأولى، أنفذ، أغلى، مجرية.

أسرعوا نحو شتوتغارت وبفدرزهايم ضاحكين.

- ٨ -

لولا وجود مارك لاستطاع بيتون ذبح كولار من حنجرته.

فبعد أن غادروا بادن بادن بقليل، وكانت رائحة التشيكي لا تزال تفوح داخل التكسي، اختلف بيتون وكولار وتشاجرا حول من منهما الأكثر

حقارة، الأعنف قتلاً وسرقة ونهباً واحتيالاً، من منهما أعرق في المهنة! أيهما يمكنه صرف أكبر قدر من المال في يوم واحد، أيهما يمكنه شرب أكبر عدد من الأمتار[1] دون أن يسكر أو يتزحزح، وأخيراً أيهما أعنف وأشطر في القمار. أحس مارك بالعاصفة، ارتجفت يداه داخل قفازيه بهدوء. كان سائق التكسي يصلح وضع المرآة الخارجية، يدخن ويضحك.

«بيتون. كنت ستكسب عضو جحش، كما في سابق عهدك، لو لم أصحبك البارحة لشبيل بنك!».

«أتريد القول إنني تسللت بجانبك أيها المجري؟ وإن أياً كان لا يستطيع الدخول إلى هناك؟».

«للأسف أنهم يسمحون لأي كان بالدخول».

«إذا أصبح واضحاً لديك كيف أدخلوك!».

«لم يسمع أحد حتى الآن أن بيتون قد وضع على اللون الأحمر ٢٥٠٠٠ مارك مثلي أنا البارحة. ولم يشاهدك أحد وأنت تخسر أو تربح».

«من أين لي كل تلك النقود إذا أيها المجري؟».

«يكسب الآخرون ويخسرون لك!».

«من مثلاً؟ من يصرف على بيتون؟».

«معروف».

---

1 – نوع من أنواع السباق بين سكارى البلقان. تُصف الكؤوس الواحدة جانب الأخرى مليئة ويبدأ الشرب أمام لجنة التحكيم. من يشرب أمتاراً أطول لا يدفع الحساب. – المترجم –

«قل لاسمع. من يطعمني ويسقيني ويلبسني وينعلني؟ بنقود من أذهب إلى شبيل بنك؟».

«معروف!. في وقت من الأوقات كنت تفخر بهذا. لكنك مذ أصبحت مالكاً لغوريلياتك أيقنت أن ذلك معيب».

«وهل تضايقك نساء بيتون إلى هذا الحد؟».

«ستتكلم حول مجموعتك من العجائز مرة أخرى. وعندها ستتحدث عن العجوز الرئيسة».

«مَن مِنْ عجائزي العشر هي الرئيسة؟».

«الحادية عشرة. الماركيزة كلاوديا أشيل دي ستيفانو، منتجة وموزعة القيح الصناعي، ابنة الثمانين عاماً الصلعاء، البوار، المرأة ذات الخصيتين، فراشتك!».

«أتثير انتباهك لهذه الدرجة تلك الإيطالية العجوز؟ هي أم سيارتها الماساراتي؟».

«يبول المجري على كل كنوزكم».

«يمكنك أن تبول على الماساراتي نظراً لأننا سنشتري واحدة أخرى جديدة بموتور طيارة. لكن على العجوز لا يمكنك. العجوز هي ق - د - ي - س - ت - ي!».

«بيتون. أبول على قديستك، على الماركيزة كلاوديا أشيل دي ستيفانو. على تلك المومياء ذات الحنجرة الصناعية، والعين البلورية. والثقب البلاستيكي».

«وماذا ستفعل لو تبولت مخك المجري الفاسد مع كل هذا البول؟».

«لا تستحق عاهراتك العجائز اللواتي تفرشهن على الأرض ليُبال عليهن بهذا الشكل. على كل بدأنا الحديث عنك وعن القمار».

«هيا نتكلم عن القمار!»

«بيتون. يجب ألا يُسمح لإنسان مريض بالسفلس مثلك بالدخول للكازينوهات ونوادي القمار. يخيف شكلك الناس الأكابر. لك صفان من الأسنان، وثلاث لوزات، وشفاه مزدوجة، حينما تتثاءب تفوح أحقر الروائح من رغامتك وحراشفك. واضح أنك آت من ذلك الطرف على نهر الدانوب، من البوسنا، العصر الحجري الأول! أنت تصلح للأعمال الشاقة اليدوية. لهذا يجب إعادتك بين العمال الأجانب ذوي المستوى المنحط. وتسليحك بمكنسة وصفيحة وعربة زبالة. خذ - إذا كنت تجرؤ - مرآة. سترى قرداً! منتفخاً، حقيراً، لئيماً، شامبانزي بكتفين مهدلتين، تعود التشبث بيديه الطويلتين على أغصان شجر الموز وجوز الهند. لا تصلح ليديك هاتين المشعرتين بأظافرهما المعقوفة الجيتونات والنقود، وإنما المعول والرفش. ولا تليق لرأسك الفاجر المتفجر هذا القبعة الفلندية وإنما القبعة الحديدية الصفراء التي يلبسها عمال البناء! لو أنك إنسان ولست شامبانزو لكنت شكرتني، لقبلت يديّ ولم تخشخش بكيسك الفقير! ولما مدحت نفسك بحماتك وغوريلياتك، ولا بعجائزك المتصابيات وفراشاتك، على الأقل أمامي. لبقيت صغيراً.. هكذا... كحشرة».

«لماذا؟»

«كيف لماذا؟ أيها المعتوه، يا أحدب، يا دون. من احتضنك وألبسك بعد هروبك من سجن ساراجيفو؟ أنا!. من شجعك وهو يقول لك إن يديك

ستتوقفان عن الرجفان؟ أنا! من قادك خلال الحدود اليوغسلافية - الإيطالية خلال تريستا كنعجة؟ أنا! إن من أدخلك إلى مخيم الهاربين س - سابا؟ ومن كفلك عندهم وقال إنك ملاحق سياسياً في يوغسلافيا؟ أنا!. من سحبك من سويسرا إلى ألمانيا وجعلك تدور في الفلك الصحيح؟ أنا!. كان باستطاعتي بيعك كما بعت الآخرين. عرضوا علي مبلغاً جيداً لأجلك! كان أحد أصدقائي بحاجة إلى ثور مثلك ليعمل في المنجم عند يوهان سبورغ. كان يريد أن يقودك لغياهب المنجم لتحفر وتستخرج الفحم، ثم تدفع القاطرات المليئة به داخل الأنفاق مع الخيول العمياء! لم أدعك لأنك كنت تبكي دائماً وترتجف وتريد العودة لوطنك وقريتك. لو أنني بعتك وقتها لما وصل بك الوضع لمحاولة تجاوز خالقك، معلمك وعرابك، أنا!».

«أكان صعباً عليك لهذه الدرجة أيها المجري؟».

«معروف لديك جيداً مصير كل من يريد أو يحاول الوقوف في وجهي! تذكر كيف فرمنا إيليا بوتات، تلك الذبابة اليوغسلافية، عندما حاول خداعي، أنا سيده وحاميه ورئيسه المطلق! ماذا تظن أيها الحقارة والقذارة مجتمعتين؟ لماذا أصبح جسد رادوش كالمنخل؟ رادوش الملقب بالخنزير اليوغسلافي مثلك. بسبب قلة النظام الذي لا أسمح به، وليس بسبب المشاجرة والمعركة مع الأوستاشي كما ذهب الخبر لأهله! وماذا حصل للفقير شيف كوهار، اليوغسلافي المرح الذي ظن أن بإمكانه إخفاء الإتاوة عني؟ أنا الذي أخرجت سكين أخيه جوزيف من بطنه، ورأت ذلك نصف مدينة زرندورف!. سيلاقي كل عبد لي يرفض بتاريخ معين تسليم المبلغ المعين مصير بافل الاكرايني».

«أي أكرايني؟».

«ذلك الذي ذبحته أنت بسكين مثلمة أيها المتوحش الراقص بذيلك أمامي. وشبحته مثل الخنزير في تلك الليلة الماطرة في غابة بافاريا على الطريق إلى هولتز كرشن! بكيت وقتها وقلت إنك لم تقتل من قبل، فأجبتك بأنك كاذب، وأنك تفعل ذلك بطلاقة وبراعة على طريقة البوسناويين! رأيتك كيف تذبحه، وتفتح شرايينه، وتقص عروق يديه ورجليه. وكنت أضع فوهة الكولت على نقرتك. وهكذا مهرتك وأجبرتك على طاعتي للأبد. لهذا لا تعاندني!».

«إذاً، لن تحصل على الإتاوة مني بعد اليوم يا كولار».

«يعني: الحرب؟».

«حتى الدمار!. كنت أرغب بزف النبأ إليك البارحة ونحن نقامر في شبيل بنك، لكني انتظرت حتى تغيظني لهذا الحد. أنا لا أعرف عنك بقدر ما تعرف عني. أنت تخيف الشرطة ولا تخيفني. تأكد لن يساعدك أحد إذا ما داس رجالي على ذنبك. سيذبحونك ويسلخونك بوقت أطول من الوقت الذي ذبحت وسلخت به أنا جلد بافل الأكرايني!».

«وهل ستخبر الجدة العجوز عن الحرب؟».

«الجدة والجد».

«إذاً أخرج من السيارة، أيها البوسناوي المفجور به! لأن ما يليق بك محراث تجره كثور لا مرسيدس. كفاني حكايا عنكم وعن أمعائكم النتنة. أ - خـ - ر- ج!».

«أخرج أنت أيها المجري».

وابتدأ العراك قبل أن يتوقف السائق ويفتح لهما الباب باحترام. تلقى كولار أول ضربة بالفك. وأراد بيتون تكرارها ليستمر كمنتصر. لكن المجري التفّ حوله جامعاً كل قوته وغلّه. كان بيتون ينتظر. قفز كولار بكل قوته على رجلي بيتون ورماه من فوقه على الأرض، وانهال يضربه بالجزمة أحياناً وأحياناً بقبضتيه. كان بيتون يتأوه ويئن وهو ينهض، وينهال عليه بالسكين.

«مارك، غوريلا من أنت؟» صاح المجري «ألا ترى ما يعتزم؟».

ولم يكن بيتون يتوقع هجوم مارك عليه من الجانب، ولا اللكمات على رأسه ورقبته وأضلاعه. انهار بيتون على الثلج جانب الطريق. كان كولار يدوسه، يقفز فوقه، على بطنه، ويمعن في القفز فوق الأضلاع، وهو يرمي السكين التي استخلصها منه بعيداً في الظلام. وقال وهو يمسح الدم والطين عن وجهه ويديه: «بيتون، لو لم تكن ذبابة لقتلتك الآن! ولن أُسأل أمام أحد، لأنك لست مسجلاً أصلاً في سجل الجنس البشري. إبق هنا، وابصق أسنانك، واسعل رئتيك! وانتظر فراشتك الإيطالية».

كان سائق التكسي يبتسم، منتظراً أوامر كولار. وكان مارك في مكانه ترتجف يداه.

أمسك كولار باب السيارة مشرعاً لعدة دقائق.

«لا تسمح لقدمك أيها المجري أن تطأ منخفض الراين ثانية» قال بيتون وهو يحاول النهوض على ركبتيه. «ولا تنس أن المساحة من سويسرا حتى حدود هولندا هي في قبضتنا أنا ورجالي».

«بيتون. يملك المجري في قبضته كل منخفضات ألمانيا الاتحادية بما فيها منخفض الراين».

«لقد ثقبتها رئتي. ينفر الدم مني كالنبع! ما هذا؟».

«مت كالفطيسة».

«تذكر أيها المجري: إذا عشت هذه الليلة فسوف أقتلك».

صفق كولار الباب خلفه بعنف، وأعطى إشارة للسائق ليضغط دواسة البنزين حتى نهايتها، عندها تذكر مارك فيكتور ونيكو والروسي وابتدأت يداه بالرجفان.

«هذا لأن تدريبك ضعيف» قال كولار، وهو يأمر سائقاً آخر بالاتجاه نحو شارع ليوبوند، لإيصالهما إلى مخزن تسيتا ٢٠٠٠.

«هكذا أكون أقل إثارة للشبهة» همس مارك، بينما كان كولار يعطي إشارته العريضة ليفتح الباب لهما على مصراعيه. وقال: «هنا الغلاء خنزيريّ».

«كاد البوسناوي المتوحش السكران أول أمس أن يطعنني، لو لم تكن أنت. لهذا أريد أن أشكرك بتواضع».

«يمكنك أن تفعل ذلك بطريقة أخرى يا سيدي».

«أرى عليك عدة بقع من دم بيتون، لا تستحق الغسيل. كما أن الألبسة الجاهزة لا تليق لك، مثلي. يجب على أمثالنا تغيير ملابسهم وأوصافهم دائماً».

كان الباعة يسيرون خلفهما بكل احترام. وكان كولار قد ملأ قبل قليل مساحة المرآة برشاقة قوامه ولباسه البنفسجي، في محلات فيكن هينر. كانت تنرفزه الكدمة الزرقاء تحت عينه اليسرى وآثار الخمش على رقبته، التي لم يستطع الشال المربوط بعناية إخفاءها. كان معجباً بيديه، ولمعان عينيه

المعدني، وعضلاته التي أظهرها البنطال الضيق المصنوع من أفضل أنواع الصوف بشكل أفضل. سبق كولار الباعة حينما قال: «يشتاق هذا الأمير الشاب للموضة الإنجليزية ثانية. أرجوكم أن تلبسوه ليشبه سكان الجزر الإنجليزية، أو على الأقل جنتلماناً من الكومنولث!».

كان كولار يضحك، تلامس أصابعه بتلقائية الندبة التي وصل إليها أخدود وقح. ضحك البائعون والخياطون المتجمهرون حولهما بشكل أضحك مارك نفسه، وهو يرفع يديه فوق رأسه ليأخذوا مقاسه، بحيث لا يسمح للمجري أن يلاحظ أصابعه التي ترتجف. كان كولار يدخن سيجاراً هافانياً ويجعر:

«قميص نمرة ٤١. خياطة أكسفورد، حرير هندي خالص بمسحة زرقاء. المعطف تويد - هاريس مع قطع جلدية على الكوعين بفتحة واحدة. البنطال مثل الخيالة، قماش كبردين لون فضي كي يتماشى مع لون المعطف. ربطة عنق بدبوس. صدارة. سلسلة. ساعة. قفازين. جزمة من الواجهة. كرباج. قبعة صيد مع أغطية فوق الآذان من جلد صغار الثعالب. معطف كاب من صوف اسكتلندي. حقيبة دبلوماسية.. هكذا!».

أراد أن يقضيا بقية اليوم كأناس محترمين. تمشيا عابرين نصف شوابينك وكل شارع ليوبارد من طرفيه الأيمن والأيسر. ذهبا إلى الحديقة الإنجليزية. دخلا وتمعنا في كل مقهى بشارع مكسيميليان ورسيدنس. اشتريا مجوهرات وفراء. وطلبا من ماكس ديتل أن يسمح لهما بالتقاط صورة أمام سيارته الرولس رويز.

في السينما شاهدا فيلماً حول انتصارات رجال المافيا الصقليين في ميلانو وجينوفا وباريس. ولاحظ مارك لأول مرة مذ التقيا أن عيني كولار

تدمعان. شربا بعدها، وغاليا جداً في الدفع بدون حساب، وتخيلا أنهما سيلتقيان جان بولمندو، وفينتوري، وآلان ديلون، حتى إن الدمعة التي ظهرت في السينما ظلت طويلاً في عين المجري.

ولم يكن مارك قد صادق في حياته رجلاً مجنوناً بالسيارات مثل كولار. في مدينة الألعاب ركض كولار مع جاك بوت إلى ملعب كرة اليد. ومن سباق الخيل إلى سباق السيارات. وكان نَفَسه يتسارع ويتقطع عندما يصل إلى لعبة البنادق الكهربائية. كان يطلق على المساحات ويصيح «لقد سقطت يا بيتون، أيها القرد النتن!» عندها يصيب النجمة اللامعة فوق عرش ألماني. كان مولعاً جداً بآلات اللعب. يقول: «يجب على الإنسان أن يحافظ على أصابعه من أجل هذه الألعاب الكهربائية إن لم يكن من أجل أي شيء آخر».

كان المجري شارد الذهن، تشغله قضية الأصابع، وفي بيت العاهرة الذي تشرف نافذته على كولكن شبيل، ضحك بهسترية، كمن خسر على موائد القمار كل شيء، حتى عقله. قلع ملابسه، ولبس سروالاً داخلياً وقميصاً، ورمى الزهور على الأرض، والشوكولا، والبارافان، وكل ما كانت الفتيات قد أحضرنه. وكان على فتاته أن تساعده، وهو بهذه الحالة من السكر، ليقف ويبول على الكمين. كان يختنق وهو يضحك، يصعد فوق الطاولة فارداً أصابعه يعدها: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، ثم الإبهام. ويعيد ذلك على اليد الأخرى وهو يصيح: «الإبهام هو الإصبع الرئيس!». رمى نفسه من علٍ فوق حبيبته، وابتدأ يعض ظهرها، ويمط ثدييها، ويلحس أكتافها وظهرها وبطنها. وكانت الفتاة الثالثة عارية تماماً، بدينة إلى حد

القرف ومشوهة. استلقت بجانب مارك الذي كان يمارس الجنس مع إحداهن. وقف كولار يشرح:

«بتي، يا قطتي، لقد جلبناك ودفعنا لك من أجل بيتون. وتصوري، بيتون لم يعد موجوداً!».

«مسكين بيتون» همست المشوهة.

«بتي، كرري اسمه».

«بيتون!» همست ومدت يدها كما أمرها باتجاه بادن بادن «بيتون!».

وجعر الجميع بصوت واحد: «بيتون.. بيتون».

كان كولار يعد كدماته وندباته وهو ينظر في المرايا على الجدران والسقف، نادت الفتيات على بيتون البوسناوي. وراق لكولار أنهن يظنن أن بيتون يعني شيئاً آخر وليس إنساناً تنزف رئتاه على طريق كراش باخ.

في مساء الغد حاما طويلاً حول المحطة. كان كولار يبحث عن أحدهم. كان مطعم شيلر في الجهة المقابلة مليئاً بالبلقانيين. وكان اللاجئون السياسيون والهاربون القدماء يعرضون على العمال الأجانب سيارات مستعملة، جرائدهم ومجلاتهم، وصحبتهم أيضاً. كان البلقانيون الشباب يغنون ويشتمون النادلات. جعر أحدهم وكان أحدب مجدوراً مثل بيتون. ولم يكن هناك أحد من المعارف في المقهى المقابل. فسر المجري لمارك أن اللاجئين والنازحين يقسمون لثلاث فئات: أول مجموعة وأهمها تقع في السجون، وحينما تحتاجهم لن تجدهم. أفراد المجموعة الثانية أحرار في كل الأوقات وللأبد، لكن تحت الأرض. لهذا لا تستطيع إقناعهم بالعمل لحسابك، ليهاجموا الدكاكين والأكشاك والصيدليات والمخازن. أما أفراد المجموعة

الثالثة والباقون الذين تصادفهم فهم موتى رغم أنهم يمشون ويتفسخون أحياء، وهم يؤكدون لك أنهم سعداء، وأنهم لم يكونوا في حياتهم أسعد وأفضل مما هم عليه الآن، ولا تستطيع أن تبيعهم أي شيء، ولا رجلاً واحداً. كان شارع غوته صاخباً، مسقياً بالبيرة، أكثر مما كان عليه ليلة المعركة مع الأتراك والأمريكان. توقفا أمام باب بار أنقرة، الذي اهتز في داخله من شدة الصخب. وكان باب بار أوديسا مغلقاً، ولم يكن هناك لافتة ولا أضواء حمراء. مرا بهدوء جانب رجال الشرطة الذين كانوا يراقبون الأتراك بتعجب ونفاذ صبر. كانا هادئين مثل ألمانيين عاقلين. انعطفا إلى اليمين بسرعة. وشاهدا أمام الواجهات العارضة بضائع كهربائية على طول الرصيف الممتد حتى شارع شيلر رجلاً عجوزاً ضخماً بارز الوجنتين، بأنف مسطح عريض، يهمهم بلهجة نصفها روسية ونصفها ألمانية، محمياً بين غوريلياته.

«يرمولاي!» قالها مارك كالطلقة الخارجية من الجوف: «يرمولاي باشوشكا.. مرت سنة تقريباً ولم نرك». أوقف كولار تكسي. تعالى يرمولاي فوقها على الرصيف ومد مخالبه إلى الأمام، وهو يرى كيف يحشر كولار ضحيته في السيارة ويمد له لسانه خلال النافذة. قال:

«يا بوز الثعلب. أيها المجري، أتركه لي لأقبله في جبينه!».

«تأخرت، تأخرت يا ايفانوشكا».

«سنتقابل أيها المجري!».

انطلق التكسي، وبقي الروسي على الرصيف، متلفعاً بمعطف الفرو ومن حوله غوريلياته بألبستهم الخفيفة. سأل السائق عن الاتجاه. سحب كولار ورقة من ذات الـ ١٠٠ مارك وهمس «نورنبرغ»، فاحمر لون السائق.

كان المطر ينهمر متجمداً ببطء، وقد علا مذياع السيارة بالبرازيت والصياحات وذكر أرقام وأصوات تختنق. كان جسد مارك كله يرتجف لا يداه فقط وكان من حسن حظه أن سائق المرسيدس يشرد عند العطفة ويفرمل فجأة، ثم ينطلق ثانية بوحشية أكبر. كان كولار متهيجاً عابساً، حتى برزت عظمتا فكيه أكثر.

«مارك، أردت الذهاب ليرمولاي؟».

«أردت. شاهدت ذلك بنفسك».

«أمن أجل القبلة الأبوية في الجبين؟».

«وددت أن أبكي على صدره».

«مارك. يمكنك البكاء عندي أيضاً».

«تحلو الدموع عندما تداعبك يدان أبويتان على مؤخرة رأسك».

«لا أفهم!» قال كولار وهو يهز رأسه، ويعطي السائق إشارة ليسرع أكثر. «يا رئيسي، أنا لا أفهم الكثير من الأمور أيضاً». ابتدأ يقول بصوت متقطع: «لماذا تحتفظ بي؟ أكلفك نقوداً وأعصاباً، وعلى الأغلب شهرة أيضاً. أحمل لك أقل وأقل. حتى إنني أتساءل دائماً لماذا تجري خلفك؟ أعلم أنك بحاجة إلى مال كثير، وأنك تبني شيئاً في مكان ما، وأنني لست كما كنت في العام الماضي. أخجل من لباس غال كهذا. حتى الألبسة الجاهزة كثيرة علي!».

«المجري لا يبني أي شيء كان! المجري يبني في وسط ألمانيا حائطاً أسود كبيراً! أهو تمثال لي أم ما هو لا أعرف. إنه حائط بارد، متجمد كهذه الأمطار الليلية المتجمدة. حائط ليس له حدود كهذه البلاد، ألمانيا التي

ننتشر فيها كطيور ما لها رف! ليعلم الجميع أنه سيبقى من المجري شيء!. سيحل منتصف الليل بعد برهة، وليست اللحظة مناسبة لأشرح لك فيها شيئاً عن البناء الذي لا يعرف أحد شكله ولا حجمه! انظر إنها كروس لابن أكبر مزبلة في التاريخ».

«باسم الإله، ما الذي سنفعله على المزبلة؟».

«مارك. هناك تُستلم البضاعة!» قال كولار بلهجة ملغوزة غير واثقة.

«أية بضاعة؟».

«تعلم نوع البضاعة التي حملها الأردنيون. انظر إنهم يعطوننا إشارة من سيارة الصالون».

«سيدي، هذه السيارة مشبوهة».

«بالنسبة لي ليست كذلك».

كانت النار مشتعلة في كل مكان، يتصاعد أجيجها قوياً ناشراً دخاناً لاهباً ودامياً. وكان المطر يغمر سيارة الصالون القديمة، وهما ينظران كيف تنعطف سيارة الأجرة تجاه ميونخ. وقد اضطر سائق الصالون للعودة إلى الخلف بقصد الاقتراب منها. توقف وفتح حقيبتها الخلفية وتركها مفتوحة.

سمع مارك صوت عراك داخل سيارة الصالون، فاحتله الفزع. ثم فتح بابها الخلفي وانطلق منها ثلاثة رجال هائجين. ضُرب مارك على فكه وبطنه، فوقع على يد الرجل الثالث، ونفر الدم من أنفه. بينما وقف المجري جانباً ومسدس الكولت الصغير في يده.

«سيدي، لمن تبيعني؟» صاح مارك. ولم يستطع اتقاء وجهه بيده فجاءته لكمة شديدة. صاح: «شاندور كولار!» صرخها بشدة، بينما كانوا يوثقون يديه خلف ظهره ويعصبون عينيه بخرقة سوداء. «مارك، الصياح هنا على مزبلة كروس لابن، هذه الساحة الحمراء الكبيرة، بدون جدوى».

«سيدي، لمن سأتبع الآن؟ من هو مالكي؟». وبكى بألم وحرقة كمن فقد كل شيء.

«لن تتبع الروسي ولا بيتون. هذا مؤكد».

«أأنت أيضاً يا كولار؟».

«يا صغيري، الخيانة أفضل ما يمكنك أن تعتاش منه في هذه الدنيا الوسخة!».

«أحتى المجري مجبر ليعتاش بهذه الطريقة؟ حتى المجري، إلهي الكبير شاتس؟».

«كأنك نسيت ما حدثتك به عن المجريين ونحن في زرندورف؟».

«كيف أصدق أن المجريين لم يفقدوا ذنبهم بعد؟ وكيف أنهم يتنفسون من زعانفهم؟».

«ستتأكد».

«لماذا ألبستني هكذا؟ لماذا صرفت علي كل تلك النقود؟».

«مارك، كله محسوب ضمن سعرك. يبعثر المجري النقود ظاهرياً فقط».

«كولار، أريد أن أتبعك للأبد».

«لتقتلني؟».

«أنت؟ أبداً».

«لماذا تريد أن تتبعني إذاً؟».

«لأحسدك، وأغبطك، وأحميك».

«تذكر كيف كنت البارحة في بادتولز. جبان! لقد هاجم الإيطاليون البريد قبلنا. ولن أذكرك بما فعلته في بوكينك. كانت يداك وأصابعك وساقاك سريعة فيما مضى».

«سيدي، سأتغير منذ الآن، أشعر أن أعصابي تحسنت وأن قوتي تزداد. لقد ساعدتني الساونا والتمارين والكحول القوي. لو رأيتني البارحة في صيدلية المحطة لما عرفتني!».

«تذكر نيكو ماراش دائماً وتحن إليه، وفي الحلم تتآمران معاً. أعرف خططكما. حتى إنك كتبت له رسالة».

«مرة واحدة فقط».

«كيف وأنت لا تعرف عنوانه؟».

«كتبت له كأنني أعرف أين هو. تعلم كم مدحتك في تلك الرسالة، وجعلتك فوق كل الناس. كل ما عداك ذباب، هكذا كتبت له! كلهم ذباب ما عدا المجري».

«مارك، المجري يفضل الرجال الأمين والنسور المطيعين».

«ألم أكن عبداً مطيعاً في كل ما سرقنا ونهبنا وخطفنا وابتززنا؟ حتى أنني لا أذكر يوماً عشت فيه طبيعياً كباقي البشر. تذكر السجون والهروب والمعارك».

«يلزمني رجال لا يتذكرون شيئاً. عبيد لا يهذون في نومهم! غوريليات ليس لديهم أية مشاكل داخلية نفسية أو أفكار أو عقل».

«حررني من هذه الأيدي. كن أخاً وصديقاً مثلما كنت في هانوفر، حينما وضع الأتراك السكين تحت عنقي! خذني معك! سيكون الأمر مختلفاً عما كان. انس لوبك وهوف وكين وبادابلينك، حينما خانتني الروح واليدان، وتذكر فقط تلك الأماكن في هامبورغ وفرانكفورت، حينما كنت أهجم على اثنين، ثلاثة، لأحميك! تذكر حينما كانت السكين لا تزال في ظهري، وأول ما سألت عنه كان أنت! لقد تعجبت وقتها. سأكون لك ومن أجلك في المستقبل».

«فات الأوان».

«اقلع عيني، عاقبني هكذا!» كان يصرخ حينما بدؤوا بدفعه وحشره داخل سيارة الصالون: «ما لزوم العينين للغوريلا؟!».

«مارك، لا أصدقك بعد اليوم. لقد استهلكت، أصبحت منهاراً، نضجت للبيع. دع الآخرين يهتمون بك».

«خذ يداً من يدي». حشرج مارك من الأعلى، حينما كانوا يربطون رجليه «اختر واقطع.. وخذني معك».

«فات الأوان، لقد اشتريت واحداً غيرك، بعين واحدة، بدون كفين، اسمه سابرو، أهو تركي، ألباني، مكدوني؟ أنا نفسي لا أعرف. إنه أعور فقئت عينه اليسرى. فتدمع حفرة عينه المقلوعة حينما يتهيج، كم هو تعيس!».

«سأكون وحشاً كاسراً أكثر منه».

«لا يمكن! فسابرو بدون كفين، يخز الناس بالعظام النافرة من لحم يديه تماماً في وجوههم. يصوب على العينين، ويفقأ. فيصيح الناس مذعورين. بعدما تغطيهم الدماء. فيفقد بعضهم وعيه. وهذا أكثر ما يفضله سابرو. لم يحدث أن ارتجفت يمناه، حتى ولا حينما قطعوا له اليسرى. يقتلع بهذه اليمنى كل ما يمكن اقتلاعه من الأحياء الألمان. كما تجري معظم عملياته في القطارات التي يقفز داخلها، يسرق ويرمي من النافذة. وينطلق من هناك كالرصاصة. يقفز من فوق رؤوس الأشجار على المتقاعدين الجالسين في الحدائق. يجرحهم، يشلهم ويبصق في مؤخراتهم. يأخذ منهم نظاراتهم، نقودهم القليلة، صحفهم، والعصي التي يتعكزون عليها. يسرق المحافظ في المحطات والمعاطف والحقائب، بطاقات السفر، الكلاب والقطط، الأقفاص بطيورها. ولا يعرف سابرو السير مثل الآخرين، إنه يركض، حاملاً يديه فوق رأسه، يديه اللتين لا يسمح لجروحهما أن تندمل. وهو لا يبكي، ولا يكتب رسائل لأحد، ولا يملك من الأقارب غيري».

هدر صوت محرك السيارة. أغلقت الأبواب. أغلقها كولار بعنف مع شتيمة عن الحرية. وقبل أن تخرج السيارة إلى الطريق قال أحدهم، بركلو على الأغلب، للسائق: «والآن قُد السيارة مباشرة إلى فوق، إلى الجبل». حشروا مارك، وعفسوا رأسه، ووضعوه في الوضعية التي هو عليها الآن...

وهكذا تذكر مارك كل ما جرى له، وجزمة فوريتتش فوق رقبته.



الفصل الثاني

الدفتر الأسود، من هم أصحاب العيون العكرة؟ الحرب الصليبية ضد البلقانيين. السفلس.

«سنشرب دمك» قالها لي فوريتتش وبركلو: «دمك اليوغسلافي، الصربي، فالماء والبيرة في ألمانيا غاليان!».

«اشربوا!» أجبتهم بهدوء: «لكن حاذروا ألا تتسمموا!».

كان واضحاً لي أنهم يقودونني للنطع. فقلت في نفسي لمَ لا أتركهم يشربون كل ما يجدونه في شراييني؟ ليشربوا!. كنت أحسهم جسدياً. كانوا ضخام الجثة صلاباً، تفوح منهم رائحة العرق والتراب والأحذية الرخيصة المبللة، وكانوا هائجين أكثر مني.

«سنقتلع عينيك الصربيتين الأرثوذوكسيتين!» أعادها دازلينا، أو ذاك الذي أعطى المجري تلك الإشارة البذيئة، وأول من هاجمني بجانب سيارة الصالون.

سألتهم: «أليست عيوننا واحدة ومتشابهة؟».

«عيوننا كاثوليكية!».

«يعني: عكرة، معروقة ودموية».

«إنه يريد المزاح!».

«لا أريد شيئاً».

«ستتسكع في ألمانيا أعمى ومشوهاً» قالوا لي، بينما كانت السيارة تهتز وهم يضغطونني «وستحكي للباقين من اليوغسلاف كيف دبّرك رسل المسيح وتلاميذه، الذين هم عمال أجانب نهاراً، وليلاً إرهابيون في منظمة الاوستاشي».

«قلتم في فرانكفورت إنها صليبية».

«صليبية!».

«يهون أمر العيون. المهم هي اليدان وأن تكون الأصابع عليها».

كانوا يتفقون، وكنت صامتاً. ودّعت في خيالي كل من كنت أحبهم: أمي، أختي، كل من كنت أجد لهم العذر في حياتي، وكل من كنت أجد عندهم الحق والعدالة والنظافة، أبي وأخي الأكبر الذي كنت أبحث عنه. سمعت قديماً أن الإنسان يغضب من كل شيء حينما يقترب الموت. أنا كنت أزداد صفاء. يبدو أن الموت خلاصي، حريتي ونظافتي. لكنني لم أستطع أن أسامح فيكتور. كنت أود أن أقول لهم إن أخذ الثأر - فيما يتعلق بهم - لا يقلقني، وإن كل ما أريده هو الثأر وتصفية الحساب مع فيكتور. وبتسلسل أفكاري وغفراني وتسامحي ووداعي للكثيرين وصلت لكولار. أشياء كثيرة ومثيرة تلك التي عشتها معه. لم أعتب عليه لأنه باعني بعدة مئات من الماركات، أو أنه استبدلني بقرباطي ما، وإنما كنت أشعر بالحزن عليه لأنه لم يستطع جمع شمل عائلته.

تذكرت نيكو ماراش، ويديه بدون إبهام، ولاعب الملاكمة بوشكوفيتش، وبيتون الذي كان يخفي مخالبه المشوهة اليمنى تحت إبطه الأيسر، ثم كوستا كافران الذي كان بدون إبهاميه وبدون رأسه. حتى إن

كل ذلك فجّر بداخلي ضحكاً مريضاً. لا بد أنني تمتمت بشيء ما دام الرجل الأقرب مني قد سألني: ماذا قلت؟

«إن العمى لا يستمر طويلاً».

«هذه مهمتنا!» أجابني.

«ومهمتي. أنا مستعجل!».

«أتود العودة ليوغسلافيا؟».

«نعم! ولأي مكان أعود إن لم يكن إليها؟».

«إذاً سنقتلع عينيك بأظافرنا، بالأسلاك، بالملاعق!».

«احترسوا وأنتم في هذا النعيم ألا تقتلعوا عيون بعضكم!»

عندها توقفت سيارة الصالون. انتزعتني أياد عديدة. رمتني على الأرض. بقيت للحظة بدون حراك، واعتقدت أنه من العبث أن أحاول النهوض. أردت القول: «حسناً.. اذبحوني هنا. ماذا تنتظرون؟» لكنني لم أقل ولم تعد ترتجف يداي.

حينما حملوني، هاجمتني رائحة كريهة حارة لها طعم حلو. ولو لم تكن عيناي معصوبتين لرأيت أننا كنا نقف بين بيوت بافارية قديمة وكبيرة، ذات نوافذ مسمرة، وجدران مقشوطة، وحظيرة خنازير بأبواب عدة. تقيأت لا أعلم على يد من. بعدها فكوا عصبة عيني، فشعرت بالبرودة والهواء على جفني. ثم رأيت الليل والنجوم التي كانت تضيء حول رؤوسهم، ونوافذ صغيرة على طول حظيرة الخنازير الطويلة، والعديد منهم: خنازيراً سود أشدّ سواداً من الظلام الذي كنت مرمياً على قعره.

امسكوا بي، وتعجبوا لأنني لا أحاول التملص منهم. سألوني عما بي، فكررت أنني لا أشعر بالبرد. ذكروا اسم كازمير بوداك. صفروا له، مما أيقظ الخنازير وهيج الكلاب التي حاولت اقتلاع جنازيرها. نظرت باتجاه ذلك القصر القديم الواسع وأنا أصيح خلفهم: «بوداك، أخرج يا بوداك». كانوا يدخنون، وكنت شبعاً من الدخان. جاء بوداك وبيده مصباح قوي.

كان رجلاً طويلاً، نحيفاً، محنياً، في الستين من عمره. مهدل الكتفين تحت قبعته التي يعتمر مثلها الفلاحون البافاريون. كان يحتفظ باللفافة بين شفتيه، ويبدو ضعيفاً على رجليه، تعيقه الجزمة المطاطية أثناء سيره. كان يسعل فيهتز شارباه الأشيبان من منتصفهما، المصفران من أطرافهما بسبب التدخين. كان يضيء الطريق الضيق المؤدي بنا إلى إحدى حظائر الخنازير. وبينما كان يجس عضلاتي تحت الكاب، كان الماء يعتصر من معطفه البلاستيكي. «من زمان ونحن نبحث عن إنجليزي مثلك» كان أول ما قاله لي وهو يبتسم، ويفصح عن أسنان لها شكل حبات الذرة الصفراء المكسرة «ولو أنك تصبح موثوقاً أيضاً..». أجبته بسرعة:

«لم تعد يداي ترتجفان! جربوني».

قادني بوداك إلى مكان مربع الزوايا، مليء برائحة كريهة حارة وبخار الخنازير، وقال إنني سأبقى مطروحاً هنا لفترة. أراني الإسمنت والتبن. كانت الخنازير تجعر من كل الجهات، من كل الأمكنة والحظائر التي كانت مقسمة ومعزولة عن بعضها بفواصل خشبية.

نزع بركلو ودازلينا ثيابي عني، بينما كان فوريتش يقف بجانب بوداك وهو يشرح له. تعجبت لماذا يهتمون ويولون بزتي كل تلك العناية. تفحص

فوريتش الكـاب بحسد وغبطـة، ثـم جزمتـي وكربـاجي. ونـاولني بيـده الأخرى بزة عمال وسخة بروث الخنازير والطين، ورمى لي بجزمة كبيرة من المطاط المبطن، ووضع على رأسي قبعة كبيرة كان على حوافها مـن الـداخل بقع كثيرة من دم آدمي.

استدرت لأرى على فراش تبني مثل فراشي، مبعثر على الطرف الآخـر مـن الفاصل الخشبي، جثة إنسان. كانت يداه نافرتين من القش. حاول رفع الجـزء المشعر من رأسه المليء بالعفن والتبن كي يميزني بـصورة أفـضل. خيـل إلي أن عينيه معروفتان لديَّ، هذا الوجه الناعم ذو الكدمات. داس بوداك على جبينه، فصدر عنه تأوه ممطوط. وارتمى الرأس ثانية بين القش والخرق والظلام.

نظرنا إلى بعضنا، بوداك وأنا. وعلى ضوء المصباح توضح في عينيه التعب والهزيمة اللذين كان يحاول إخفاءهما بتجعيد حاجبيه وزم شفتيه. كان خداه ناشفين، مجعّدين مثل صـياد سـمك، معـبرين عـن قحـل مـدقع. حتـى إن صوته كان مكسوراً:

«كن هادئاً!» خاطب الرجـل الـذي يـئن بـصوت خفـيض مـن خـلال القش.

«بوداك. ماء!».

«تحمّل يا نيكو ماراش!».

عندها شعرت كأن الشمس تبعث الدفء بأوصالي.

كنا على العتبة.

«لن تعلم يا ابن الكلب في حياتك أين كنت» جعـر بـوداك. ينتـشر مـن صوته النعاس والخمول:

«انظر حولك، ثم احفظ إذا أردت: البحر من كل الجهات، والعدم والضباب، شيء مثل ايسلندا!. وسواء أكانت الليالي هنا شتائية أو صاحية فمن هذا المرتفع لن ترى إلا الجبال، مع أن الخيال يصور لنا أننا نرى أبعد من ذلك، النمسا! وقتها نرى تلك الجهة، ونعتقد أنه بعد ذلك الجليد الألبي، وذلك اليأس، تطل البلاد التي هي لعنتنا، يوغسلافيا، التي يتمناها الكثيرون كما يتمنون ثدي أمهاتهم. أحياناً نطيل النظر إلى هناك حتى تختفي تلك الهضاب وراء الثلوج والريح والغيوم. عندها نعود للخنازير، نطعمهم ونسقيهم، ونعطيهم أسماء بشرية لأناس كنا نحبهم ولا نزال نحن إليهم، نداعبهم ونوشوشهم ونلعب معهم. ومن كل تلك الخنازير فإن واحدة فقط تعرف وتفهم آلام الإنسان ودموعه. إنها الخنزيرة البركشيرية السوداء!».

ورغم أنه لم يخطر ببالي القيام بأي خطوة، فقد كانوا بجانبي يراقبونني. رمى أنطون فوريتتش ثيابي على ساعده، وهو يؤكد بأن أحداً من المعتقلين هنا لم يستطع الهروب حتى اليوم، وبهذا فلا داعي للتفكير بالهرب. وكان دازلينا وبركلو يؤكدان قوله بهز رأسيهما. كنت أنظر إليهم ببلاهة، دون أن يخطر لي طرح أي سؤال، خصوصاً حول السبب الذي يضطرهم لسهر الليالي بطولها ناظرين إلى تلك الجهة التي يقوم خلفها وطنهم اللعنة.

ولو أنهم لم يقودوني ثانية ويغرسوني في القش، قبل إغلاق الباب علينا من الخارج، لقلت لهم إن شيئاً لم يعد يهمني، وإنه من الأفضل لو يذبحونني الآن ويرمونني للخنازير. ضربت مؤخرة رأسي بالفاصل الخشبي، فاستيقظت الخنازير البركشيرية، وأخذت تنفخ وتشخر من الطرف الآخر. انتظرت حتى هدأت.

«مارك، يجب أن تقتله» همس لي نيكو «أنا أتفسخ ببطء، ولن أستطيع قتله. يملؤني القيح، فانتقم لنفسك ولي، ولكل اليوغسلاف الذين أتوا للأرض الموعودة في الغرب، ليعصروا، ويتعذبوا مشوهين بأعضاء مبتورة، وعقول محطمة، وأرواح محقرة ومهانة. أتعدني؟».

«نيكو، أخي، هل تشك بي؟».

«سيعلمونك كيف توقت القنابل وتفجرها. كيف تخنق بالأسلاك. كيف تستعمل الديناميت. كيف تقذف وتلتقط السكاكين وشوكات الطعن. كيف تدمر الجسور وسكك الحديد. سيدربونك كيف تهاجم القنصليات والسفارات وشركات الطيران. سيعلمونك كيف تذبح وتفقأ وتجعل الموظفين يرفعون أيديهم على الطرف الآخر من الكوات..».

«وماذا فعلوا معك؟».

«لا شيء! حاولت قذف القنبلة تحتي. سألغم نفسي قبل أن ألغم العمال الأجانب. لذا يعذبونني بهذا الشكل. أشعر أنني سأموت قريباً، وهذا ما أتمناه. أهم شيء عندي أنني لم أرضخ لأي شيء. فاخدعهم أنت ما دمت أنا لم أستطع».

«كيف؟».

«وافق على كل شيء».

«بعدها؟».

«في إحدى المرات كنا نتمرن في الباحة، حول حظيرة الخنازير» همس نيكو، وهو يقترب بجبهته من الفاصل الخشبي الذي يفصلنا عن بعضنا «كنا أربعة. وضعوا لنا مجسماً لمكاتب، وألعاباً بدل السفراء والقناصل

وحماتهم، واللون الأحمر بدل الدم. سرقت سكيناً وخبأتها في شجرة تفاح منخورة، تلك التي يوقف بوداك سيارة الأوبل القديمة تحتها. شكوا بأمر السلوفيني الذي كان ينام هنا مكانك. عذبوه وسلخوا جلده بالشفرة. ضربوه حتى مات بين أيديهم. حينما يقودونك إلى هناك دس يدك. ستجد السكين. وبعدها تصرف».

«ألا تزال السكين في الشجرة؟».

«وأين ستكون؟».

«نيكو، سأفعل كل ما قلته لي، حتى لو اضطررت لبعثرة أشلائي بالنصلة نفسها».

«اهدأ الآن يا أخي» قالها كأنه يشخر وهو يصغي: «إنهم قادمون».

«ليأتوا!».

«لا تدعهم يعرفوا أننا تكلمنا».

«فهمت».

وضعوا لي حلقتين معدنيتين حول الجزمة. سألتهم لماذا لا يضعونها مباشرة على اللحم. أجابني بوداك بأن ذلك سيحصل. وكان يضيء بمصباحه الحواجز الفاصلة بين الخنازير حتى يتبين الرجال الثلاثة السائرون بينها طريقهم. وقال إنهم يكتفون الآن بوضعها حول الجزمة. كانت السلاسل والحلقات ثقيلة، حتى بت أتحرك بصعوبة أثناء المشي.

رفع الثلاثة نيكو ماراش فلاحظت - وهو ينتصب - أن رجليه هو الآخر كانتا موثقتين بالسلاسل والحلقات. أشار بوداك بمصباحه للاتجاه،

وسار أمامهم. كانت الخنازير تزبد وتقفز على السور، وتدس أبوازها بين الأخشاب، مشرئبة تشم معطف بوداك البلاستيكي.

«نيكو، إلى متى ستظل تقع؟» كان العجوز عاتباً على نيكو الذي انحنى عدة مرات مرغماً فوق السور قبل أن ينهار فوق ظهور الخنازير «لم نتفق هذا!».

انهار نيكو مرة أخرى، فكانت اللكمات بانتظاره من فوق، حتى إنه وقع عدة مرات فوقي وهو يعانقني واشماً إياي بدمه. كان بوداك يلوح بمصباحه، مما أتاح لي رؤية الجدران المزينة بالصلبان المعقوفة، والصلبان الأخرى، إضافة إلى مئات الخنازير. كانت الأعلام على الجدران، وشعارات الحركة الاوستاشية، ونسور هتلر ذوات الرأس الواحد، وشعارات موسوليني كالبلطات.

«أخبرنا يا نيكو، كعقاب لك، كل ما تعلمه عن هذا المعبد!» قال بوداك، خائر القوى، وهو يضيء بصباحه ظهور الخنازير، ويمسك بيده الأخرى كتاب الإرشادات لتربية الخنازير في دولة خرفاتيا المستقلة[1] تأليف الدكتور كرشيمير ماسلوفاريتش «لقد علمناك. فلنر ما الذي علق بهذه القرعة التي تعتمرها رأساً!».

«النقطة الخامسة، البند الأول» ابتدأ نيكو، وهو يدهن بيده التي قُصَّ إبهامها وجهه بالدم «الخنازير الألمانية البيضاء، حروف كبيرة وسوداء، وما بين قوسين، بيضاء، خنازير أصيلة ومؤصلة. سطر جديد. الخنازير

1 – هي الدولة التي أعلنها الأوستاشيون كدولة حرة مستقلة غن يوغسلافيا أثناء الحرب برضاء هتلر وضد الثوار اليوغسلاف. – المترجم –

الألمانية البيضاء الأصيلة ذات الآذان القصيرة هي - كما يعبر اسمها عن نفسه - بيضاء اللون. إنها خنازير تنضج بسرعة، من النوع المدهن المكتنز. تشبه كثيراً الخنازير البيضاء الكبيرة. الخنازير الألمانية البيضاء الأصيلة، التي نتحدث عنها، الصورة العاشرة، هي أيضاً خنازير كبيرة تختلف عن الخنازير الألمانية البيضاء الكبيرة بجسم قصير، وأرجل أقصر من الأولى. ويصل وزن الخنازير الألمانية البيضاء من ١٥٠ حتى ١٨٠ كغ خلال سنة واحدة إذا لقحت جيداً، ويمكنها أن تعطي من ١٠ - ١٢ خنزيراً صغيراً، ذات حليب جيد. ينصح بها لتحسين خنازيرنا الأوستاشية. وهذا لا ينطبق على أي نوع من الخنازير، كالصربية والروسية واليونانية، ذات الشعر الخشن والغليظ. كما أن الخنازير الأرثوذوكسية بطيئة جداً، ذات قوام قصير، لا تستغل الطعام جيداً. لهذا لا يمكن أن ننصح بها لمربي الخنازير عندنا. نقطة، صورة، سطر جديد. لقد وجدت الخنازير المؤصلة البيضاء، ذات الآذان الطويلة من تطعيم الخنازير ذات الآذان الطويلة مع الخنازير الأصيلة الكبيرة، التي أوجدت من قبل. كما ينتشر الخنزير المؤصل الألماني، ذو الآذان الطويلة، في الجهات الشمالية والشمالية الغربية من ألمانيا والنمسا وبانونيا، التي معناها المناطق المجرية وسلوفينيا. حيث يتم هناك ضغط الخنازير البلقانية بقصد تدميرها من الوجود. وقد وجدت الخنزيرة المؤصلة البيضاء ذات الآذان الطويلة الغليظة من أجل تربية الخنازير في دولة خرفاتيا الحرة المستقلة، ومن أجل العزة والكرامة عامة. إنها خنازير ذات بناء جسدي ضخم، ولودة وصلبة ومقاومة».

أضاء بوداك بمصباحه وجه نيكو. ولم يتوصل نيكو ليرمي وجهه على صدره، فما بالك بطلبه الماء. سبقه بوداك بصوته الفاقد للحياة: «وهذا المعبد يا نيكو؟».

«والنقطة السادسة. لا يمكن القول إنه لم يكن هناك فائدة من تطعيم خنازيرنا الأوستاشية مع الأجناس الغريبة والأصيلة، الألمانية بالدرجة الأولى والكاثوليكية لكنها حتى الآن ليست كما يجب أن تكون من قريب أو بعيد، أخلاقية، قادرة لتتناسب وجهدنا المبذول في استغلال طرقنا العلمية. لهذا يجب إيلاء هذا العمل أهمية أكبر مستقبلاً. وليس الأمر سيان بأي الخنازير يجب تطعيم موادنا الأوستاشية. فمع مرور الوقت يجب أن تنمحي من حظائرنا الخنازير الضالة البلقانية، بين قوسين، البيضاء والسوداء والشقراء، بين قوسين، التي منها».

كان رأسي يدور، ولم أعد أعي هل ترتجف يداي. أظن أنهم حاولوا إسنادي ما دمت قد بقيت على قدمي. كانت أحشائي تفور باتجاه الحلق، وتوقفت هناك. غمر العرق جبيني ورقبتي. ولم أعد أعلم من يتكلم، نيكو أم بوداك القاحل الذي هرم قبل وقته، مع المصباح الذي كان ضوؤه ينير:

١ - هتلر بلباسه الشعبي هائجاً، يحتضن خنزيرة بركشيرية سوداء سُرح شعرها، اسمها جوزفينا. كان أدولف هتلر محاطاً بأطفال ذوي شعر أشقر، زينوهم بزهور من جبال الألب. ورجال وأطفال مشوهين، بدون أرجل، أضلاع، فكين، أيد، عيون، أو سقف حلق. وأمهات الأشبال الموتى من كتائب س - س، الأبطال. وكهنة مع صلبانهم المعقوفة على صدورهم. وعمال رافعي الرؤوس، حملوا على صدورهم الآلات، ذوي عضلات معدة للتصوير، مهيئين لمسك زمام التاريخ.

٢- بينيتا موسوليني على صورة مؤطرة بإطار من خشب بافاري، يحتضن جوزفينا على صهوة جواد بدون رأس وعيون وأرجل أمامية يتجول في روما عام ١٩٢٣ حتى بدت الصعوبة واضحة على حصان موسوليني في اختراق حماته، ذوي القمصان السوداء، وغوريلياته ولاعبي سركه، سواء من كان منهم بألبسة مدنية أم عسكرية، اصطفوا خلال عناقيد من الفتيات والأمهات الشابات تحمل كل منهن طفلاً فاشياً مثالياً، بعد عدة صفوف من راكبي الدراجات النارية بفوهات متجهة نحو الإطار بصورة مزورة مرعبة يعلم الله إلى أي سنة تعود، وأمام عدة مجموعات من الحمير والخراف والخنازير الهائجة بسبب انتصار ذلك الخيال والممثل، مما جعل موسوليني يصدر أوامره من فوق سرجه، ليصيحوا ويزمروا ويضربوا على الطبول المصنوعة من جلود بشرية ألبانية وحشية.

٣- الكاردينالات الرومانيون. كهنة عسكريون وغير عسكريين، عمداء ورهبان، ضاحكون واثقون من النصر الأسود. وأخيراً البابا بيا الثاني عشر، في صورة ٤٠ × ٢٠ سم ممزقة عدة مرات وملصقة. تداخلوا يقبلون بعضهم في الأفواه والآذان والبطون. تجري بين أرجلهم نساء شهوانيات عاهرات، بزهور وأعضاء ظهرت بأوضاع مشينة، عام ١٩٤١. وبما أنها صورة مكملة، فقد بدون وهن يهدين الصليبيين الخبز والأحذية المستعملة، في ذلك اليوم، احتفالاً بدخول بعض اليونانيين والحبشيين والليبيين في الدين الكاثوليكي.

كان صوت نيكو يتقطع. رأيته كيف يركع وأنا أمسح العرق عن جبيني وجفني. كان ينهار، لو لم يمسكه أحد الثلاثة من كتفيه. قال بوداك بصوت

فاقد للحياة، بـدون ثقـة، وهـو يقـرأ في الكتـاب: «البركـشير خنزيـر أسـود إنجليزي متوسط الحجم واسع الانتشار. ورغم أنه إنجليزي يمكـن اعتبـاره خنزيرنا الأوستاشي. لقد استمر تكوين البركشير خمسين عاماً، أي منـذ سـنة ١٨٠٠ حتى ١٨٥٠. أما أفضالنا فمعروفة. ذلك أن رأس البركشير عريض، خصوصاً عند منطقة الجبين. ومنظره الجانبي محني، لهذا يبدو الرأس بيـضوياً أحياناً. ذنب البركشير مـزروع عاليـاً، وأكتافـه وعجـزه ناميـة جـداً ومليئـة باللحم. زاوية انحراف العظم الدمعي عند البركشير ٠.٩ درجة. وهذا يعـبر عن نوعية نظيفة. مما يرغبنا بتطعيم موادنا الخنزيرية بالبركشير الأسود إضافة للخنزير الألماني ذا الآذان الطويلة. إن عرق البركشير عرق غالب مما سيدخله في برنـامج تربيـة الخنـازير عنـدنا. أمـا الخنـازير الأكثـر أصـالة فهـي مثـل يوركشير، كرونفل، تان وورث، لنكولن!».

لحسن الحظ لم نعد أنا ونيكو في الحظيرة. كانـت تمـر أمـام عينـي صـورة نـورنبرغ، ومحطـة الـسكة الحديديـة، والـصفوف أمـام الكـوات. تزاحمـت ودفعت الأخريين وأنا أسرق. كنت أقلد اليوناني المسرع. حتى إنني سرقـت أحد النشالين مثلما فعلـت في بوكينـك مـع شـاندور كـولار. وقفـت أبيـع العابرين ساعات مهربة ومسروقة، خواتم كنـدي وبوصـلات أمـام فـروان كيرشن. ولا أعلم كيف تواجدت الليلة عـلى الاسـمنت ووجهـي ويـداي الفارغتان في البخار. كان المطـر يهطـل. فتحـت عينـي ورأيـت فـوقي فتـاة شقراء، متواضعة اللباس، ذات يدين طويلتين، وعينين باكيتين، كانت تنفخ على إصبعي، وتتحدث للحظة بالألمانية وللحظة بالتـشيكية، حتـى ضربنـي ذلك الشاب الأشقر المتأنق بآخر موضة عدة ضربات قوية في مؤخرة رأسي. سألته الفتاة لماذا يفعل ذلك ولماذا يسرقني وأنا منهـار عـلى الأرض؟ أجابهـا

بأنه ينتقم لأنه سُرق أمام الكوة، ضحكت. رتبت الفتاة شعري وقميصي. لم تبك، ولم يعد جفناها متورمين، سألتها من هي وماذا أكون بالنسبة لها لترفعني عن الأرض وتعيد ترتيبي؟ قالت إن اسمها يانوشا نوفاك، وإنه اسمها الحقيقي، وإنها هربت من التشيك عام ١٩٦٨، وإننا عدنا لزرندورف مع بعضنا بالباص، مع المجريين والبولنديين، الذين امتلكوا مثلنا نحن الاثنين بطاقات مخفضة، وسماح بالعمل في نورنبرغ. كنت أدفئ كفيها أمام كل الناس حتى وصلنا باب المخيم وأنا أعدّ وأقبل نمشات وجهها حول أنفها المدور وعينيها. كانوا يصفقون لنا. ثم قدم لنا شاب أشقر تهاني الزواج أمام كل اللاجئين السياسيين والهاربين، وباللغة الروسية. شاب أشقر عرفت به المجرم الذي سرقته أمام الكوة وأنا أمثل دور اليوناني المسرع. وتحولت يانوشا لرويشا. ثم مددني الروسي على الإسمنت وذبحني حتى العظم، حينما توقفت خواطري.

«ماء!» استجار نيكو وهو ينحني أمامي. ولم يعد مفيداً أن يضربوه أكثر. اهتز رأسه أمام ركبتي حينما حملوه كجثة محنية، فشعرت برغبة قوية لأقبله في جبينه النازف، واستخرج القمل وبراغيث الخنازير وغائطها المخلوط بالقش من شعره الأشقر. كان فمه مفتوحاً، ككل العطشى. هاجمتنا من الرجال في الأسفل رائحة بخارية نتنة وحارة. وحتى لو إنهم لم يربطوني بالسلاسل لما استطعت السير أفضل. ما كنت أريده فقط - وأنا أرى لبرهة الخنازير التي تجعر، ولبرهة أخرى الرجال الذين ورثوا تعب ضحاياهم - أن انضم إلى نيكو وآلامه بأسرع ما يمكن.

صحا نيكو حينما قذفوا رأسه بسطل ماء بارد، بعد أن وضعوه في ذلك الجزء اللامع المزحلق في آخر الحظيرة. رشوا رأسه وعنقه وصدره بالماء.

عندها فتح عينيه، ولست متأكداً أنه رآني. استدار نحو بوداك المتعب الجالس وراء طاولة مفروشة بقماش أسود اصطفت فوقه الشعارات الأوستاشية والصلبان المعقوفة المذهبة من حوافها.

«نيكو، سنعيد كل شيء من أوله!».

وبينما كان دازلينا وبركلو يقربان يدي نيكو ويوثقانها بسلك شائك كان انطون فوريتتش يرفع رأسه الضعيف عن صدره المشوه. وبينما كان بوداك يتصفح الدفتر ذا الغلاف المشبع بالدهن والصفحات الوسخة تُركت أنا واقفاً، مكبلاً بسلاسل وراء الباب. كان بوسعي رؤية الفرن الصغير المصنوع من برميل امتدت شعابه فوق الجدران، لتغيب في نهايتها خلف الباب. تمكنت من رؤية الخريطة لدولة خرفاتيا المستقلة الباهتة، (المجعلكة)، المحكوكة والمجرّحة والمثقوبة في أماكن عدة، المثبتة بمسامير، والملصقة بعجين في مواضع التمزيق من كثرة الدلك والطي. كان بياض الخريطة مليئاً بصور البطريرك الوزيا ستبينا، وبعض الكهنة الكاثوليك الكبار، الجالسين خلف طاولة عامرة في مكان ما على الجبهة. وكان الرئيس الدكتور انطون بافيليتش بطربوش على رأسه، كالذي يلبسه أفراد الكتيبة الإسلامية المتطوعة، وحزن لا يشفى في عينيه. وكان أعضاء الأوستاشي من جيش المرتزقة الأسود، وأعضاء عصابة ذوي القمصان السوداء الإيطاليون يضحكون، جاثمين فوق أجساد أطفال معذبين، على الطرف الآخر من أسلاك المعسكر الشائكة. أما الحرف السفلي للخريطة فقد ألصقت عليه قطعة كرتون سجل عليها بأحرف كتبتها يد غير ماهرة:

نحن لسنا سلوفينيين بل نمساويين وهنغاريين!

أما الزاويتان اليمنى واليسرى للخريطة فكانتا مليئتين بصور طيور ومزهريات من تلك المناطق، أرانب، وعصافير كلها ملونة، عبث بنضارتها الزمن وبخار الخنازير. وما بين الخريطة والفرن كتب على ورقة صفراء:

العذراء هي معينتنا الوحيدة!

وتحت ذلك: كل ما نفعله هو من أجل سمعتك يا أم المسيح العذراء.

وما تبقى لم تستطع عيناي قراءته. وخطر لي أن نيكو لم يلاحظ بوداك حينما وضع الصليب المعقوف والسكين والقنبلة على الطاولة بجانب شمعته ودفتره، وحينما تنفس عميقاً وهو يقبل الأشياء أمامه. خرَّ بركلو ودازلينا وفوريتتش على الأرض متشنجين يزفرون بعمق. كانوا يصلون. نظروا كمرضى الصرعة إلى رموز بوداك الثلاثة والشمعة والدفتر، ثم إلى الخريطة وكل ما كتب على حوافها، ورددوا أنهم سيروون بالدم الأوستاشي كل شبر من تلك الأرض العظيمة المقدسة الأوستاشية، وأنهم سوف يظلون يرددون اسمها معذبين حتى تعود: إما محررة من الأرثوذوكس والشيوعيين والسلوفينيين عامة، أو تصبح أرضاً جدباء بواراً لا يملكها أحد.

«نيكو، أحلف أمام هذا الصليب والسكين والقنبلة، أمام رموزنا الفولاذية هذه أنك ستخدمنا نحن دونهم!».

«يكفيني خدمات!».

«إنك ستكون لنا!».

«لا يعُرف في هذا العالم من مُلْكُ من؟»

«احلف أنك ستدمر كل شيء يوغسلافي، صربي، شيوعي، أرثوذوكسي!».

«لن ترتفع يدي بعد اليوم على أي شيء ملكهم هناك في الجنوب».

«منذ متى يا نيكو؟».

«منذ أن أتيت للغرب!».

«ندم؟».

«بل نضوج! ولتعلموا أنني لا أندم على أي شيء!».

«إذاً ما هو يوغسلافي مقدس لديك، وما هو لنا لا؟».

«لا مقدس لديَّ إلا الحرية والصداقة. ولا شيء غيرهما!».

«هل سنهجم أنا وأنت ثانية كصديقين على العمال الأجانب؟ لأخذ حقنا الذي ينكرونه علينا. لأنهم يرفضون إعطاءنا الإتاوة بانتظام؟».

«أبداً!».

«نيكو. ما قيمة أن يُنسف في الهواء عدة سفارات حمراء، وقنصليات ومكاتب تمثيل؟».

«دمروا ما دام ذلك هيناً!».

«ألا ترغب بالموت من أجل دولة خرفاتيا المستقلة، التي تمتد من نهر الدرينا وسوجا إلى سوبوتيتسا وبوكاكوتور؟».

«معتوهون. دولة خرفاتيا المستقلة لم تعد موجودة! كأنكم لا تعرفون أنها غرقت مع أدولف هتلر في ليلة واحدة! ولو أنها كانت موجودة لهربت منها كما أهرب من الطاعون! كما أهرب من أي دولة وأي قانون!».

«يا بني، ألست خرفاتياً؟».

«لست ابن أحد! ولست خرفاتياً!».

«كيف لست؟!».

«أنا نفاية خرفاتية. متغير استحالي مشوه! لست خرفاتياً كما أنكم لستم خرفاتيون!».

«نيكو، أين هم الخرفاتيون إن لم يكونوا في ألمانيا والسويد وأستراليا؟ أين يعيش ويتعذب المطرودون التعساء؟».

«بقي الخرفاتيون الحقيقيون في البلقان، مكانهم الطبيعي!».

«ما نحن إذاً؟».

«مرضى بالسفلس!».

«إذا كنا كما تعتقد، فسوف يكلفك هذا الأمر الكثير».

«سأدفع!».

«من قال إنك وطني؟ أهدافنا ووسائلنا مختلفة».

«اكتبوا أو احفظوا أن نيكو ماراش مذ وعى ما حوله كان رقماً زائداً في أي مكان حل به. وكان يجب أن يُقتل قبل مجيئه إلى ألمانيا. ولو أنه قُتل لما عاب مدينته ريكا، سوشاك واسترا والبحر الأدرياتيكي. لهذا لا تدعوني خرفاتياً بعد الآن، لأنني أصبحت ملك شعب آخر هو أكثر الشعوب عدداً على سطح الكرة الأرضية، شعب اللصوص!.

«لنضف إذاً أن نيكو ماراش كان لصاً يوغسلافياً!».

«وماذا أكون إن لم أكن لصاً يوغسلافياً. ولأنني مع الأسف لست من مدغشقر وإنما من يوغسلافيا! لقد حدثتموني بأنفسكم داخل وكر التعذيب هذا، أنكم تعرفون تحولي من السرقات المسلحة والاختطافات العنيفة

والهجوم على البيوت إلى عمليات أرفع وأرقى. وإنني قفزت من القطارات الوسخة إلى المطارات، وتحولت من النوم تحت الخيام إلى الفنادق الفخمة، ومن محطات البنزين والكراجات على أطراف المدينة إلى مخازن التحف وصالونات مقتني الآثار والأشياء الثمينة. ولم أكد أولع بالطوابع والذهب القديم والفضة والمجوهرات واللوحات الثمينة لأشهر الرسامين، حتى وقعت بين أيديكم!».

«نيكو لا زال الناس يتاجرون، لكن بالمخدات والألماس واللؤلؤ. تاجر بما تحب. ارتفع بمستواك واغن وانضج واكبر. واسرق، كما سرقت حتى الآن. وإذا رغبت بنقود وفيرة وشهرة واسعة فتاجر بالرجال! لم يحدث من قبل طلب للمواد البشرية كما هو الآن. من ناحية أخرى فإن أسهل طريق للربح هو الوصول إلى الرجال وبيعهم. من الشرق يمدون مسالخ الغرب. ستدبر نفسك، كما دبرت نفسك من قبل. سنساعدك».

«لماذا تساعدونني؟».

«لأنك خنزيرنا!».

«لست كذلك».

«نيكو، سنسامحك بدفع الإتاوة. ستكون من القلة التي تتجول وتطير في ألمانيا والنمسا كالعصافير! وافق فقط على وضع الديناميت في أحد مكاتب التمثيل اليوغسلافية».

«لا أريد!».

«أتخاف؟».

«بل أخجل!. أعرف أنني سأستسلم لهم، وأنني سأركع على ركبتي قبل أن أضع الديناميت».

«أترفض طريق الخلاص والنظافة والانتقام؟».

«أرفض كل طريق تعرضونه أو تشيرون إليه!».

«جزء كبير مما فعلت سابقاً مسجل في هذا الدفتر. وحتى لو خرجت حياً من هنا فسوف تنام في السجون. يبحثون عنك في النمسا ويوغسلافيا وألمانيا!».

«سأنام في السجن. وأنا أستحق أن أسجن في كل هذه الأوطان بالتساوي!».

«ماذا ستقول للرجل الذي سيصطادك فور هروبك؟».

«قولوا لكولار، هون المجنون، سيصلك العقاب، عقاب البشر أو عقاب الله لا فرق. عقاب عادل مجري! وليقم هو حائطه، عجيبة اللاجئين السياسيين!».

رأيت كيف ينحني بوداك فوق الطاولة، وتهيأ لي أن عينيه ستلفظان من وجهه من شدة التعب والدموع. أما فوريتتش فقد هيأ رقبة نيكو للذبح، وهو يقرب رأسه نحو خريطة دولة خرافاتيا المستقلة وثلاثية الرموز الفولاذية الموضوعة جانب دفتر الرجل العجوز.

عندها، دخل إلى صالة التعذيب هذه دراكولا[1]. كان عجوزاً محني الظهر، بعنق نحيف مجعد محني للأمام. كانت عيناه في زمن مضى زرقاوين وحيتين، والآن باكيتين مستهلكتين، مزروعتين عند جذر الأنف العظمي

1 - دراكولا اسم يستقى عادة من حكاية قديمة حول غول يشرب دماء البشر. - المترجم -

العتيق. وفي مكان الجراح لحلاقة قديمة، نبتت قشور خضراء دبقة طرية بدل الدم. وقد برزت من كم معطفه القروي المبلل يده الخشبية مع قوس كمان مثبت مكان الكف. وكانت أصابع اليد الأخرى قوية، خشنة، بأظافر معقوفة، أمر بإشارة منها أن يعطوه شيئاً.

«نحن بانتظارك يا حاكمنا العادل الوحيد!» قال بوداك بخشوع «تصور. إنه يرفض أن يكون ابن الوطن الملعون، جندياً مختاراً في الجيش الأسود للمرتزقة الأوستاشي، جيشنا الذي ابتدأ يشتهر بين الناس ثانية!. يرفض كل شيء. أقترح أن تُتَوّجه ليصبح مثالاً للآخرين!».

«أهو ذلك اليوغسلافي الذي استطاع الهروب منا مرة؟» سأل دراكولا بلغة هجينة خليطة من الهنغارية والكارباتية والنمساوية.

«نعم أيها الحاكم!».

استطعت أن أرى بوداك، الخائف حتى الموت، المظلم كقبر، كيف يقدم بحركة سريعة الكماشة التي انتشلها من مكان ما. انحنى دراكولا تجاه الفرن، وكادت تقع قبعته النمساوية القديمة عن جمجمته. التقط بالكماشة شيئاً يشبه الحديد. وقد بدا لي، بقوس الكمان في يمناه، والكماشة مع الحديد المحمى بيسراه، وبنظرة من عاش في عالم مختلف بأشيائه وأناسه، كأنه غير حقيقي. ولو أنني عرفت بأنه القدر الذي سيقلب حياتي رأساً على عقب، لتمعنت به طويلاً وبانتباه أكثر. لكنني والأمر كذلك توصلت لأقنع نفسي بصعوبة أنني رأيت شارب الدماء الكارباتي. أعطاه بوداك إشارة ثم وشوشه.

تشنج دراكولا كلية، زم شفتيه وبدا مشمئزاً، وتكونت حول حفرتي عينيه شقوق وأخاديد عميقة مشوهة ليس لها عدد. وقعت من وجهة

القشور الخضراء، بينما كان يقترب من نيكو بحدوة الحصان المشعة من سخونتها.

كان بوداك يضع أمام شفتيه وأنفه كيس تبغ وقفازين رسميين من جلد يشبه جلد الغزال، يشمّها جميعاً ويقبل دفتره الأسود، والجلد المحترق، ويسأل نيكو لآخر مرة - كما قال - أهو مستعد للهجوم على مكاتب الشركة اليوغسلافية للطيران؟ لوح نيكو برأسه رافضاً، وهو موثق ومنهار، وسال خيط الدم على طرفي فمه عريضاً حتى غطى العنق.

«يا نهر الدرينا بمائك الدامي» صاح دراكولا وضغط بحدوة الحصان المشعة من سخونتها، الآخذة شكل حرف أو رمز الحركة الأوستاشية، بكل قوة يده اليسرى، وما تبقى من جسده المتداعي وكماشته، وبسرعة، على صدر نيكو: «ضاع منك كل شيء ما عدا اللعنة.. يا نهر الدرينا بمائك الدامي».

امتلأ فراغ الحظيرة الدبقة بزعقة نيكو المرعبة. تشنج جسده، وخشخشت السلاسل في رجليه. انتفضت يداه، وفاحت رائحة الخرق واللحم والجلد الآدمي المشوي. أخذ فوريتتش ودازلينا الكماشة من يسرى دراكولا وحدوة الحصان، وصلّبا فوقها، ثم دساها وراء الفرن. وقد تلون بركلو وبوداك بصفرة الموت، وهما يصلّبان أيضاً.

رأيت جوزيف فرانس - لا بد أن هذا اسمه، ذلك الخاسر المهزوم من نهرالدرينا وغاليتسيا - كيف يقترب بطقوسية احتفالية من جسد نيكو الذي يدخن. وقف ساكناً. بكى، وكانت دموعه خضراء كطحالب نباتية. وبينما كان ينحني ويقبل نيكو من جبينه، أصدرت مفاصله الخشبية القديمة صوتاً كباب صدئ يأتيك من أعضائه تحت المعطف. اتجه نحو الأخشاب القديمة السوداء التي سمّروا فوقها حقيبة نمساوية، وهو يتحدث بلغة الكاربات

وترانس سيلفانيا وأرديليا. حسبت أنها كانت دعوات شريرة موجهة للسلوفينين الجنوبيين، وهو يدخل في حقيبته التي لا يوجد لديه أعز منها وأكثر راحة وأماناً. كان من الصعب على فوريتتش ودازلينا طي يد جوزيف فرانس الخشبية اليمنى مع مفاصلها ليمدداها جانب معطفه وآلة الكمان داخل الحقيبة. ثم رأيته وهو مستلق على جنبه، رجلاه مطويتان، يرتجف من شدة غضبه وشقائه. عطس كغول حقيقي وسعل وأرسل أصواتاً وحشرجات وروائح كريهة من كل فتحاته. وضع فوريتتش ودازلينا الغطاء فوقه باحترام. ثم حملا الحقيبة خارج حجرة التعذيب على عربة تصدر أصواتاً متقطعة كالآنين. «نيكو دُمغت ثانية، وثانية أصبحت ملكنا!» همس بوداك، وهو يلمس بقفازيه ضحيته في مؤخرة رأسه. «وهذا التاج يا بني أجمل وأكثر التيجان كراهية. ستحمله سائراً في هذا العالم الذي لا يفهمنا كل ما سوف تعيشه من سنين!».

«لا أريد حياة بتاج كهذا!».

قبّل بوداك نيكو في جبينه، كما فعل جوزيف فرانس قبلاً. هكذا هنأه على جراحه الشريفة - كما قال - وعلى دخوله في صفوف المعذبين المطاردين النخبة. وأضاف بصوت لم تنقصه - كما خيل إليّ - لهجة مصطنعة لحسن النوايا:

«والآن اهدأ يا صغيري نيكو! واتركني أنا العجوز أطعم الخنازير التي يوقظها الفجر وبكاؤك! ولا تنس أن تنقل لكل الآخرين الذين ستقابلهم، بأن كل من يُحقّر الصليب الكاثوليكي، ويرفس القنبلة الأوستاشية، ويرفض سكين معسكر ياسينوفاتس[1] سيتوج مثلك اليوم!».

---

1 - أكبر مخيم للتعذيب في يوغسلافيا، كان الأوستاشي والنازيون يعذبون به الثوار. - المترجم -

فك بركلو وثاق نيكو، بينما وقف فوريتتش ودازلينا على باب غرفة التعذيب، المفضية إلى إحدى الصالات المليئة بالخنازير. ومن هناك سمعنا صوت سعال جوزيف فرانس، خواره، وصوت كمانه، بينما كان الثلاثة يحملون نيكو.

كان بوداك ينير الطريق، وكنا نعبر خلال الخنازير التي استفاقت، سائرين فوق الخشب، ونحن نسمع أنين نيكو، ذلك الأنين الذي كلما أمعنا في السير بدا كأنه ينحدر في بئر.

كانوا ينظرون إلينا من خلال التبن، وكان بوداك حريصاً ألا يقع الكتاب من يده. كانوا - ثلاثتهم - يزفرون بحسرة، كأنهم سئموا بخار الخنازير وموسيقى دراكولا المنبعثة من مكان ما تحت سقف القصر. شعرت بالحزن عليهم، لا أعلم كيف ولماذا. قال بوداك الواقف عند العتبة يوصيني وهو يبتسم ابتسامة مريضة متقلصة:

«وأنت أيضاً كُلّكَ مسجل في هذا الدفتر. كلنا مسجلون هنا!».

«كلكم!» صحت «أنتم وليس نحن!».

كانت السلاسل والحلقات تخنق مفصلي قدمي. وكنت أسأل نفسي ترى هل سمعوني وأنا أشاهدهم كيف يخرجون. كنت بدون حراك، ولا أعلم إن كانت يداي ترتجفان، لكنني كنت واثقاً أنني صحت خلفهم: «سفلس!». كان العرق يغمرني، وقلبي ينفطر، ليس من الخوف على ما ينتظرني في ذلك المكان الخنزيري الشيطاني الفظيع، وإنما من الحسرة على نيكو ماراش.



الفصل الثالث

العزف فوق لحم السلوفينيين الجنوبيين المدنس، كيف وافق مارك على القتل بنصيحة من نيكو ماراش. المساعدة الكبيرة واللامحدودة لأنور باباك، دوبوي، بوسنا. جوزفينا!

١- الآن أتكلم أنا نيكو ماراش:

لو أن جراحي المحدثة من نضوة الحصان لم تتقيح، ولم تنتشر النار من صدري إلى جسدي، لوقفت وطلبت منهم أن يقتلوني قبل أن أبدأ بالتفسخ. هكذا أسكت، وأسمع كيف ينهمر المطر، وكيف يرتجف - بيني وبين مارك - شخص اسمه أنور باباك، مسلم من قرية دوبوي في البوسنا، وهو يكرر لنفسه: «فترة الحضانة للطاعون الخنزيري الأوستاشي تستمر عادة من ثلاثة إلى ستة أيام» كان أنور باباك عاملاً جاؤوا به من الورشة، حتى إنه لا زال بخوذته العمالية الحديدية، على رأسه المطرقي، ذي الفكين السفليين البارزين، لم يضعوا له السلاسل والحلقات حول رجليه، ولن يضعوها. شيء من هذا القبيل قال بوداك، بشرط أن يراقبنا،ويحترس بشدة ألا أقترب من مارك أو أكلمه.

«أنور، كيف انجرفت إلى هنا؟» سألته حينما وصل. قال من خلال الدمع إنهم حشروه في سيارة الصالون وقتلوه. «من باعك لهم وبكم؟. لا شك أنهم تجادلوا أمامك حول سعرك، وهم لا يخفون شيئاً، بينما كانوا يجسون

عضلاتك وكتفيك وخصيتيك؟ ألا يُدعى الذي اختطفك وعرضك على المشترين كثور، شاندور كولار المجري؟

لم يفهم أنور باباك من كل ما سألته شيئاً، أو تظاهر إنه قد شُري وبيع للمرة الأولى على هذه الطريقة. كان يمسك بقوة كتاب الإرشادات لتربية الخنازير في دولة خرفاتيا المستقلة، ذلك الكتاب القديم الذي عمره ثلاثون عاماً بالضبط. كان صامتاً، تضيء عيناه كفأر خارج من الطحين. «أنور، ماذا كنت في فترة انتمائك للحرية والحياة؟» تابعت أسأله، وأنا لا أملك القوة لمسح العرق والتبن من جبهتي وجفني «أأنت نسر قطارات الليل مثلي ومثل مارك؟ مخادع؟ لاعب علب الكبريت؟ نشال عادي؟ تدفع الناس بعد وضع رجلك أمامهم ثم ترفع الضحية عن الأرض وتجردها؟. أم أنك عشيق العجائز؟ أم قواد مثل بيتون؟ أم أنك ببساطة محطم الأقفال والخزائن وسارق من أحط الفصائل البلقانية؟».

كان العملاق البوسناوي يمسك الكتاب بإصرار، وهو يقرأ ويحفظ بهدوء فصول الطاعون الخنزيري. تهيأ لي أنه يريد اعتصاري من حنجرتي، وكنت أنتظر ذلك! كنت أرجوه بأفكاري وقلبي أن يسرع وينقضّ عليّ، وأن يساعدني لكي أموت. لكنه كان يتهرب مني.

سمعت صوت سيارة الصالون، عواء كلاب دراكولا، خطوات. لا شيء عن الموت! كانوا يقودون أحدهم، أو أن أحدنا نحن الثلاثة سيذهب إلى غرفة التعذيب. ولا أدري - لكني أخمن - السبب الذي اضطر أنور لتثبيت الخوذة العمالية الحديدية على رأسه الكبير فوق أذنيه المشرئبتين وأنفه الضخم ويستمر بصوت مسموع: «يجب أن تكون مداواة خنازيرنا ناجحة،

ذلك أننا نرى مرض الجذام عندها كتسمم في الدم أو التهاب في الدماغ والنخاع الشوكي. وقتها تكون خنازيرنا فائرة، متأهبة للهجوم، تحفر الأرض بأسنانها، وتقضقض أنيابها وأضراسها. تسير كالسكرى بخطوات غير منتظمة. تدور في دائرة، ثم تمشي إلى الأمام، حتى تأتي إلى الحائط أو أي عائق آخر فتستند عليه وتنطحه كأنها لا تراه. وغالباً ما تتوقف خنازيرنا المريضة أثناء مشيها كأنها أمام حائط وهمي، رغم عدم وجود الحائط! أحياناً تتعثر راجعة للخلف. كما يمكن انتقال العدوى للحيوانات الأليفة الأخرى، خصوصاً كلابنا وقططنا، خيولنا وحميرنا وأبقارنا. باختصار إلى كل ما هو حي في دولة خرفاتيا المستقلة».

فتح الباب. تملكني الهلع والخوف والرجفة. ضربني في صدغي، فتسرب العرق داخل عيني وأذني، وبت لا أعرف عدد الرجال الذين رفعوا مارك من داخل التبن، ولا أفهم ما قالوه له.

أعود إلى الوعي، وأرى نفسي في غرفة التعذيب، على الإسمنت خلف الباب. فمي مليء بحبات الذرة والتبن والقش. لم يرفعوني، ولا قفزوا من فوقي، بل كانوا يدوسون فقط. قلت لنفسي لن أعيش طويلاً. أدخلت الفكرة السرور إلى قلبي. كانوا مشغولين عني بمارك، لكنهم يتوجهون إلي أحياناً ببعض الكلمات: «أيها المتوج، تفوح روائح جراحك النتنة، رائحتك اليوغسلافية، رائحة شيوعيتك!» سكت. لم تعد تجرح كرامتي. لم أعد أصيح، وما علمت أنني كنت أفعل ذلك. كنت على ركبتي لبرهة وراء الباب، مكان وجود مارك الآن، مكان ما شووا صدري بنضوة الحصان. ارتميت على الأرض، فارتطم رأسي بالإسمنت. لم يعد يؤلمني. أيعني أنني

أموت؟ لا أرى أمام عيني سوى اهتزاز مرأى النجوم وخفقـان اشـتعالها. آه لو يسكن رأسي الظلام والضباب والخفاش حتى لا أرى ما يفعلونه بمارك!

كان مارك يقترب نحو ساحة التعذيب بخطى حذرة، ورجلين مكبلتـين بالسلاسل. يجلس على الكـرسي الـضخم. يـضع يديـه عـلى جـذع شـجرة بهدوء. تخيلت إنما أُسرّ له بشيء حينما فكوا وثاقه سألوه بعض الأسـئلة. ولا أعلم أكـان يجـاوبهم أم يجـاوبني. أذكـره بـأنني أحـضرت لفتاتـه النمـشاء التشيكية يانوشا أفضل خاتم كندي. أظن أنه أضاف بأن الحذاء كـان أكثـر ضرورة لها، حذاء مبطناً دافئاً إلى ما فوق الكاحلين. تابعت قـولي إن القطـار الليلي السريع الذاهب لهـامبورغ مـليء جـداً، وقـد تعـب المـسافرون وقـل انتباههم وحرصهم. «أوكي». أظن أنه قال، وابتسم على طريقة كولار. ولا أعلم كيف نصل في الوقت نفسه لفرومكين وبار أوديـسا. كـم مـن المـرات بقينا مدينين له. هذا ما أقولـه أنـا. فيـضيف مـارك أنـه يجـب إعـادة الـدين مضاعفاً له ودفعـة واحـدة. أتقـزز وأنـا أردد كلمـة إثـر أخـرى بـأن ديـن فرومكين هو الدين القوي القويم بالنسبة لنا، نحـن الـذين نعـيش النكبـة، وليس المسيحية التـي يـشوون باسـمها صـدرك بنـضوة حـصان مـشتعلة، ويفقؤون عينيك بأظافرهم، ويشوهون باسـمها يـديك وأصـابعك التـي لا يمكنك بدونها أن تخطو. يناسبني ويناسب مارك ويناسبهم أن يكون كل مـا قلته «أوكي».

كان بوداك في مكانه، أمامه الخريطة والسكين من معـسكر ياسـينوفاتس وقنبلة قديمة على الطاولة، مشدوهاً بما يـسمعه منـا نحـن الاثنـين، يرتجـف ويخضرّ لونه كلما ذكر أمامه اسم أي ديـن آخـر، وتعكـس عينـاه ضـياعاً لا

محدوداً. أمامه الدفتر وقفازاه الرسميان لأيام العطل والأعياد يرفعهما تجاه وجهه. من وقت لآخر، كلما أنّ مارك أو صاح، يشمهما وكأنه ينتظر شيئاً.

عندما فتح فوريتتش ودازلينا وبركلو بكل خشوع الحقيبة النمساوية المسمرة على الأخشاب السوداء القديمة قدم التاريخ، وأعانوا دراكولا على الخروج منها. زم جوزيف فرانس شفتيه، وجعد القشور الخضراء على وجهه. ثم نفض فوريتتش عن معطفه بعض الأعشاب والتبن وزرع بركلو مثبتاً في كفه الخشبية قوس الكمان. ترك دازلينا الحقيبة القديمة والميزان، وأخيراً المساحة الضيقة غير الطبيعية التي يرقد بها حاكمهم البسيط، وهو مستلق على أضلاعه، محني الرجلين طيلة النهار حينما لا يكون يعزف في أرجاء القصر. ولم يكن جوزيف فرانس يخرج من حقيبته إلا وهو يبتسم لملاكه الحارس ابتسامة حب. كانت «ملاكه الحارس» لحظتها ببوز وخياشم مدماة، متمددة فوق مخالبها على شكل كلب مستلق تنتظره. قذف لها جوزيف فرانس ببعض قطع الخبز والأحشاء والأمعاء وقطعة سكر. وكانت جوزفينا - وهو اسم هذه المخلوقة العجيبة بلون الفحم - تتلقف بسرعة كل ما رماه لها. بحث الحاكم العاشق بقوس الكمان في جيوبه، وهز برأسه، بينما كانت جوزفينا تدور ذنبها وتمد لسانها بتهكم. كانت جوزفينا حيواناً عطشاً دائماً للدم، خصوصاً عندما تكون حبلى كما هي هذا الربيع. وكنت أخاف منها خوفاً جهنمياً. ومن حسن حظي أن بوداك لم يكن يعرف ذلك، ولا الرجال الثلاثة الواقفين بثياب فرانيفيتش[1]، وإلّا لكانوا سيقتلونني بالخوف منها.

1 - ثياب تشبه ثياب الكهنة لكنها مطرزة - المترجم -

كانت جوزفينا خنزيرة بركشيرية ناضجة، ضخمة، بظهر مسطح تماماً، وذنب مزروع عالياً، وعينين عطشتين للدم. تختلف عن أقاربها بوجود وردة بيضاء بين عينيها. وبهذا كانت حيواناً نادر المثال. كانت خنزيرة قدرية ألفت العديد من الكتب الجيدة حول قوتها المميتة - كما أكد بوداك - كتب لا يسمح لأي كان بالحصول عليها أو قراءتها. كانت ملك جوزيف فرانس، وكان يحتفظ بها في حقيبته، يعيد قراءتها، يضيف عليها وينقحها حينما لم يكن يعزف. وكان يؤكد أن جوزفينا قد غيّرت مصير العديد من الشعوب، وغيرت مسار مستقبلها وقلبته.

كنت قد تعرفت خلال إقامتي الأولى في هذه الحظيرة الخنزيرية على تاريخ جوزفينا وعلى أهميتها. وكان ذلك في تلك الليلة التي قص بها دراكولا إبهامي الأيمن لأنني لم أوافق على الانقضاض على سفارات وقنصليات السلوفينيين في أوروبا الغربية. أذكر كيف كنت مغسلاً بالدم، وأنا أعود لوعيي، فخوراً لأنني لم أوقّع. رأيت جوزفينا وهي حبلى - كما هي الآن - وقد مدت لسانها متعطشة للدم، منتظرة أن تقطع بأسنانها أي واحد يقترب من الأخشاب التي سُمرت عليها تلك الحقيبة الأزلية وبداخليها الزجاجات والميزان والأوعية الفخارية الناشرة للروائح الكريهة. فرمت جوزفينا عظمي ولحمي، وتقيأت بلسانها - خلال أسنانها - إبهامي المقصوص. وهكذا ابتدأ جوزيف فرانس حكايته، بعدما بات متأكداً من امتلاكه لشيء يعزف من أجله حتى الصباح. ابتدأ حكاية لا يمكن أن أنساها أبداً:

«وحتى لو لم تنحدر جوزفينا من أصل إنجليزي شهير لعائلة بركشير، فإنها صُنفت وتصنف فعلاً على أنها أصيلة السلالة. تنتمي جوزفينا لعائلة

ك. ك. الارستقراطية من الدور الأول. وترفعها الوردة البيضاء بين عينيها للقمة نفسها. ذلك أن جوزفينا ليست شيئاً من عالم الحيوان فقط بل شيئاً تاريخياً. أي أنها أعجوبة سياسية!. إنها مسيحية كاثوليكية معذبة ومقهورة تستحق أن تكون بين قديساتنا. يتشابك قدر جوزفينا وقدري. فجوزفينا جزء من شجرة عائلتي. كما أنني جزء من شجرة عائلتها. وهذا يبدو غريباً للنظرة الأولى فقط!».

هبطت من السقف نقاط فاترة كبيرة، نتيجة تفاعل بخار الخنازير والصقيع. وكنا لحظة توقف عواء الكلاب نسمع كيف تضرب الأغصان العارية خارجاً بالأبواب والنوافذ الصغيرة لصالة التعذيب. كانت الخنازير تجعر وتحتج من كل الجهات. وبدموع نباتية في عينيه كان جوزيف فرانس يحكي لنا من ليلة إلى ليلة:

«كنت في الحادي عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٠٢ شاباً في الثامنة عشرة، يخاف الله كثيراً، شديد الحياء، من أصل ألماني - ترانسلفاني - كارباتي. قبلوني في وظيفة معاون مربي خنازير، في حظيرة تعود لعائلة هابس بورغ. حلمت أن أرى فينا، وكنيستنا الضخمة ومقرنا الكبير الذين كان يقرر بين جدرانهم مصير شعوب أخرى أقل أهمية. ولم يتركونا لنخرج من الحظيرة. كنا هناك نصلّب ونصلي. عزاؤنا الوحيد أن سكان القصر يعرفون عنا ما يجب، وأنهم يحبوننا. وقد أوصى القيصر العجوز أن البركشير الأسود هو خنزيره المفضل، خنزير حياته. وكنا سعداء ونحن نقتسم مع البركشيريين السراء والضراء: الهواء الطلق والطعام الأفضل، لذا لم نعد نذكرهم بأنفسنا.

وكان يزورنا ولي العهد فرانس فرديناند، وملكة المستقبل صوفيا[1]، أيام الأعياد وأيام خدمة الرب. كانت صوفيا تقذف على ظهور الخنازير السوداء عروق الغار، زهور الأضاليا، النرجس، ثم تذهب. وكنا نحن مربي الخنازير نتبارز أينا سيسرق أكبر عدد من الزهور المبعثرة فوق ظهور الخنازير البركشيرية. كنا نشم الجذور وسيقان الورود التي كانت تحتضنها أيادي الملكة الجميلة، التي كانت الإنسان الوحيد الذي دخل صالة التعذيب ولم يتعذب. كنا نشم ونلحس زهورها ثم نمارس شذوذنا ونلوط ببعضنا البعض.! ولم يتصور فرانس فرديناند مدى خطأنا تجاهه. لذا لم يكن يمكث في ماخورنا أكثر من ساعة أو ساعتين. كان المسؤول عني جورج أسطفان المجري، الذي سار في إحدى المرات نحو أحد الأمراء متوسلاً، وتكلم باسمنا جميعاً مطالباً بالمغفرة لأننا جعلنا منه ذا القرنين، فنفث فرانس فرديناند سائله العفن الذي تلقفه المجري أمامنا وأمام الخنازير ودهن به جسمه كله. ولم يكد يصل لمنتصف الجملة حتى أصبح جورج أسطفان أميراً. ثم سحب سكيناً من مكان ما وبقر بها بطنه من هول فرحته لأنه في حضرة ولي العهد وخوفه ألا يكون على قدر المسؤولية للغفران. اشمأزّ فرانس فرديناند من رؤية الأمعاء البشرية، خصوصاً المجرية منها، وسار بمشية عسكرية غاضباً. فيما بعد ابتدأت تزورنا صوفيا مع أطفالها فقط. كانت تبقى بيننا ساعات وهي تقول إنها تستشف السعادة والحظ. حتى ابتدأنا نفكر أنها أصيبت بالهوس من كثرة ممارستنا للشذوذ بقوة أكبر وأكبر!

---

1 - ملك وملكة دولة اتحاد النمسا - هنغاريا قبل الحرب العالمية الأولى. - المترجم -

في الحادي عشر من شهر نيسان عام ١٩٠٢، حدث ما نسميه نحن الفلاسفة والأطباء البيطريون وعلماء الإحصاء: الاكتشاف. ففي خضم الحرب التي كان يقودها أكبر مرب للخنازير، المنحدر من الفرع النمساوي للبركشيريين، ولدت روساليا أحد عشر خنزيراً صغيراً. عمّدت كلاً منهم وقبلته. كانت الخنزيرة الحادية عشرة أنثى، بين عينيها وردة بيضاء. ولم أعِ وقتها ما الذي أحمله بين يدي على صدري.

لقد ولدت جوزفينا!

تآخت فينا وبشتا[1]. وكانت جوزفينا أكبر إثبات بأن الإله الطيب يفكر ولا ينسى مملكة ك. ك! سمعنا في حظيرتنا حكايات مفادها أن كل مملكة النمسا – هنغاريا قد زينت بالأعلام والصلبان والأحرف السوداء التي كانت تصرح عن ولادة الأمل في حظيرة الخنازير. كانت صوفيا أسعد الجميع. كررت علينا مئة مرة بأن حدسها للمستقبل لم يخنها. كانت غارقة بالدموع، وهي تسمي جوزفينا خنزيرة الحظ والسعادة. كانت الحظيرة مطوقة بالعسكر والدرك، الذين لم يسمحوا لنا بممارسة اللذة، ولا أن نساعد بعضنا للوصول إليها. ساقونا إلى الكنيسة التي كانت قد شيدت جانب الحظيرة مباشرة من أجلنا. لقد فكر الكاهن ليوبن برغر أنه سيثنينا بذلك عن الشذوذ. صلّينا وطلبنا من الإله الأعلى أن يحفظ جوزفينا وصوفيا التي كانت تغسل لها خرقها، وتحضّر لها الألعاب والصلبان الصغيرة. وكانت سوائلنا تنهمر بين سيقاننا حتى غالب القيصر العجوز شعور أفضل.

---

1 – اتحاد النمسا وهنغاريا عام ١٩١٢ بدولة واحدة سيطرت فيها بعد على ما حولها ومن ضمنها جمهورية خرفاتيا قبل انضمامها ليوغسلافيا. – المترجم –

في شهر تموز ١٩١٤ ذهب فرانس فرديناند وصوفيا لزيـارة الـسلوفينين الجنوبيين الذين كانوا يـشتكون متـذمرين للمـرة الألـف. كانـت جوزفينـا خنزيرة السعادة والأمـان في القـاطرة الأخـيرة التـي هُيئـت خصيـصاً لهـذه الرحلة. وقد أعجب الزوجان بمدينة ساراجيفو. التقطا الـصور. وكـررت صوفيا - التي مذ خطت فوق أرض البلقان وشعور بالموت قتلاً يجتاحهـا - لآخر مرة الحديث عن الإحساس بحتمية النهاية والشر. وكـادت جوزفينـا تختنق بروائح الشرق العفنة، هاجت، مضغت أوانيها المصنوعة من القرميـد والبورسلان، كسرت المرايـا وحطمتهـا، مزقـت كـل الألبـسة، ممـا اضـطر الزوجين لمقابلة كاهن عائلة هابس بورغ مونسيفرون ليوين برغر إيلاريون، ومترو بوليه الأرثوذوكس، ومجموعة الشيوخ الدراويش في كل البوسنا. ولم تـسعفهم كـل كميـات العلـق مـصاص الـدماء، ولا البخـور، ولا حكـم الفلاسـفة والحكـماء البوسـناويين. كانـت جوزفينـا تلـف تحتهـا أثوابهـا الاستعراضية والأحذية والشالات. ثم كسرت المجوهرات. ولم تنم صـوفيا طيلة يـومين وليلتـين، ولم تأكـل. وكانـت ككـل الموهـوبين في استـشفاف المستقبل تشرب وتبكي. أرادت أن تعود أدراجها فوراً، وأطلقت على بوسنا اسم بلاد الكراهية والحر الذي لا يحتمل، وموطن مرض الكَلَب للخنـازير. وحتى لا تنقل المرض والخوف من العـدوى إلى بقيـة الخنـازير والتـابعين في إمبراطوريتها ذات التعداد من خمسين مليوناً، اقترح طبيبها الخـاص، الأمـير الدكتور فيكتور اسن برغـر قتـل جوزفينـا، وحرقهـا مـع قاطرتهـا. وكـان فرانس فرديناند المؤهل الوحيد لتصديق حكم الإعـدام. وقـد فعـل ذلـك، ودموعه في عينيه، في ٢٧/ ٤/ ١٩١٤، قبل منتـصف الليـل. كانـت صـوفيا تريد العودة قبل تنفيذ حكم الإعدام، لكن زوجها لم يسمح لها. وكان اليـوم

التالي مقرراً للسير في شوارع وأزقة ساراجيفو وزيارة المعابد والكهنة. وأشرق صباح ٢٨/ ٤. وعندما أطلق الدرك رصاصهم كالمطر كي تنهار خنزيرتهم جوزفينا رمز السعادة، أطلق أحد القتلة المغتالين المعتوهين وكان ذا اسم وكنية ملفقين ومرتبين حتماً لهذه المناسبة، وهو صربي إرهابي اسمه كبريل برنتسيب، النار على مليكنا الجيد فرانس فرديناند وجعله كالمصفاة، وعلى مليكتنا المقبلة صوفيا[1]. وهكذا ابتدأت الحرب العالمية الأولى!.

سافرت الجثث الثلاث إلى فينا بنفس القطار. حنط الزوجان، واكتشف الأطباء البيطريون والفلاسفة أن الشر قد سكن جسد جوزفينا، فأحرقوها مع القاطرة. وهكذا أصبحت خنزيرة السعادة والحظ والهناءة والانصياع والنظام والعمل، رمزاً للإرهاب والفظاعة.

توقع السحرة وقراء علوم المستقبل ظهور جوزفينا جديدة كل أحد عشر عاماً. من أجل السلوفينين الجنوبيين خاصة، وكل الآخرين الذين يحذون حذوهم. وقالوا إن تلك السنة ستكون سنة المؤامرة والاحتيال، سنة الاغتيالات السياسية والقتل الرهيب الذي لم يكن معروفاً قبل جوزفينا.

إن ما حصل مع جوزفينا يشبه جداً ما حصل مع الشمس، التي - كما هو معروف - تتهيج كل إحدى عشرة سنة، فتحصل على سطحها البراكين والزلازل. تضاربت الدورتان تماماً، فجوزفينا هي الشمس، بقدر ما الشمس خنزيرة. جوزفينا هي الشمس السوداء بشارين! وابتدأت هذه التنبؤات تتحقق.

---

1 - حادثة تاريخية حينما اغتال شاب صربي وطني اسمه كبريل برنتسيب، الملك فرديناند وزوجته ملكي اتحاد النمسا وهنغاريا وكان ذلك إيذاناً ببدء الحرب العالمية الأولى. - المترجم -

ولم يستطع القيصر العجوز تحمل الطلقات الآتية من محارق عديدة، فمات وسط الحرب عام ١٩١٦. وكانت آخر كلماته: حافظوا لي على الخنزيرة السوداء البركشيرية!. وكان قد ثار ضدنا نصف العالم، خصوصاً السلوفينيون، رغم أنهم كانوا تحت حكمنا في منتهى السعادة!. ولم تظهر جوزفينا. وهكذا في عام ١٩١٨ خسرنا كل شيء ما عدا اللعنة. ومع عدم ظهور مملكة ك. ك انمحقتُ أنا. قُتلت عدة مرات، أكثرها على نهري الدرينا والسافا، ثم في غاليتسيا. كنت تحت التراب وأنا انتظر مرور السنوات الإحدى عشرة ولحسن حظي لم يرغب الدود بلحمي!.

لقد ظهرت خنزيرة بوردة بيضاء بين عينيها في عام ١٩٢٣ إبان حرب أفقر الصقليين أغسطس مارويبني. وكان بينيتو موسوليني مهيأ لعمل جذري وكبير، بكتبه السحرية، وجيوشه المرتزقة، وعصابة القمصان السوداء[1]، فهجم على الجنوب. وكان ماروبيني يعيش مع زوجته وأولاده العشرة وأحد عشر خنزيراً صغيراً أسود، في غرفة خشبية واحدة فوق منجم الملح في ترابانيا. أما إعجاب موسوليني الشديد بالفقراء فهو معروف لديكم جميعاً. لهذا اشترى كل ما يملكه ماروبيني من خنازير. وقد صور السحرة ولاعبو السرك وذوو القمصان السوداء مناظر طبيعية لشقاء وفقر لم يرَ مثلهما أحد، ووعدوا بتقديم الأموال والوسائل لبعث أعمال الحكومة من جديد. وأراد ماروبيني أن يتصور مع موسوليني، ولم يكن موسوليني قد تنازل في حياته كما يتنازل الآن. فأمر أن يصوروا ذوي القمصان السوداء مع ماروبيني، الراغب بدخول التاريخ بأي ثمن. وتصور موسوليني مع

1 – منظمة الشبيبة الفاشية في إيطاليا في عهد موسوليني – المترجم –

الخنازير وكتبها وحظائرها، وتصور بعدها مع زوجة ماروبيني وفي حضنها يجعر الطفل الحادي عشر الذي ولد لتوّه. وهكذا أصبح الرقم الحادي عشر رقماً قدرياً لتلك الأماكن. وفي السنة نفسها ١٩٢٣ سار موسوليني وجوزفينا في حضنه - وكأنه يمزح - مشية عسكرية في روما، مبشراً الناس بالتقدم الذي أسماه التقدم الجديد الأسود. فكثرت الاغتيالات والقتل وذبح الأطفال. وقد لوحظ في الجنوب الإيطالي بعض حوادث آكلي لحوم بشرية. وكانت بعض أسباب الاغتيالات مفهومة من قبلنا فقط، حتى إن ماروبيني نفسه قُتل. ولم ينس قاتله الذي قطعه إلى قطع أن يحفر على جبينه وخديه الحرف الأول من اسم جوزفينا. وشك الناس بالابن الحادي عشر لأغسطس ماروبيني.

في عام ١٩٣٤ نهضتُ مذعوراً من تحت الأرض. لقد ولدت جوزفينا جديدة في مكان ما ووصل صوت جعيرها إلى مسامعي. وبعد تشرد دام شهوراً طويلة سيراً على الأقدام في النمسا وسلوفاكيا والمجر، وصلت إلى حظيرة خنازير المدعو سلطان فاهر، المجري. كان اسم المكان المجاور ناكي كانيزسا. وكانت يوغسلافيا الملعونة تطل من الطرف الآخر. بمعنى أن ظهور جوزفينا في تلك البقعة من وسط أوروبا لم يكن مصادفة!. احتفظ المجري بي في مزرعته عدة أيام، أطعمني وسقاني وضمد جراحي، وأهداني جوزفينا، وتمنى لي حظاً وسفراً سعيدين. أراد أن يقبلني في جبيني، لكن قشوري الخضراء الدبقة جعلته يشمئز!. قُتلت مع شبيه له عدة مرات، وهذا ما حدثته به. لوح لي فاهر بيديه وأنا انطلق مع جوزفينا. قال إن الخنزير - بالنسبة له كمجري - لا يعني كثيراً أو قليلاً. وأضاف: «المهم بالنسبة لي هو التاريخ!» وصلت مدينة يانكا بوستزا في غرب المجر عند

الفجر. رأيت الإرهابيين الأوستاشي والمرتزقة مجتمعين. كان الهدف هو اغتيال ملك يوغسلافيا اسكندر الأول كاراجورجي، الصربي، الذي كان يتهيأ لزيارة فرنسا. وكان الكابتن فير ماشتا والضابط ديترش شبيدل مدربين للتمارين والتعبئة. أحبني الأخير - كغول - بجنون. ضم جوزفينا إلى صدره وداعبها كقطة بحنان. كان شبيدل يهتف كل ليلة حوالي الساعة الحادية عشرة للأمير غالياز صهر موسوليني. وكان صاحب مزاج. وتحدثنا عن الأمراض الجنسية، لكن ليس فيما يتعلق بجوزفينا. سحب شبيدل أثداء جوزفينا فأهاجها. ويظهر أن غالياز وتسيانو قد حسدا شبيدل! لهذا استدعت برلين الضابط. وكان هتلر مسحوراً بجوزفينا وصورها، فارتجف شبيدل لاستدعائه. وصرح غورينغ[1] أن الملك اسكندر لن يذهب إلى فرنسا بالقطار عن طريق سويسرا. والسبب: الخلاف مع ماريا، لهذا سيذهب إلى ميناء مارسيليا يوم التاسع من تشرين الأول ١٩٣٤. وبهذا صُنف تقرير الجواسيس الطليان والمجريين - الذي مفاده أن اسكندر سيذهب إلى باريس عن طريق لندن، ليسابون، مدريد - بأنه تقرير غبي.

كان هتلر، مدمن الكحول وعالم النجوم، يثق ويؤمن بالدورات الكبيرة، بالظواهر غير الطبيعية، بالمعجزات والعوالم الموازية. إنه مخترع التقويم الذي لن يظهر مثله لوقت طويل. لقد حدث شبيدل الممتقع طويلاً حول الاتحاد الألماني - الآري - ضد السلوفيني، وسمي ذلك الاتحاد تويل بوند، فأسسه وأوجده عام ١٩١٢. وقد توافق تاريخ التأسيس هذا مع ولادة أول جوزفينا! وياللعجب. لم يكن لدى شبيدل أي علم باتجاه تويل بوند، ولا

---

1 - غورينغ وزير الداعية والإعلام وأقرب المقربين من هتلر في ألمانيا الفاشية - المترجم -

بمنظمة اهنيزيب المؤيدة لنظرية هور بيكر حول جليد العالم. ولم يكن شبيدل سوى ضابط صغير. وبما أنه كان يتأتىء، فقد اضطر هتلر للصياح على الطرف الثاني من خط الهاتف بأن جوزفينا خنزيرة المستقبل ورؤيته. وأضاف إن الخنزيرة السوداء ذات العلامة البيضاء على جبينها، التي ولدت أخيراً، ستفعل المعجزات، مثل معجزاته. «وحينها سأختفي - فيما إذا اختفيت - ستبقى جوزفينا». قال ذلك ومسحة من الثقة والكبرياء في صوته. وقد شرح هتلر تنبؤاته السياسية، واستنتج أن مستقبل العالم سيكون مظللاً بلونه ولون جوزفينا الأسودين. تعب هتلر قبل الفجر، ونام مع صورة جوزفينا وسماعة الهاتف على صدره. سأله شبيدل وماذا عن استشفاف المستقبل وعن الخنزيرة؟ فجاءه صوت رجل آخر يشرح أفكار الفوهرر[1] النائم: «يجب أن يُنظف مغتالو الملك اليوغسلافي، اسكندر الأول كاراجوجي جذرياً بحليب جوزفينا أو بلحمها». وكان هناك العديد من القتلة والمغتالين. وقد حصل فيليجكو جورجييف كيرين، بلغاري وأوستاشي رهيب، وميو الملك - ما هذه الكنية! - وزفونيمير بوسبيتيش، وميلان رايتش وهم خرفاتيون على أكبر كمية من دم جوزفينا وقطع لحمها نصف المشوي. ولم يرغب أي منهم أن يكون سلوفينياً فكيف به ليكون يوغسلافياً. المهم أنهم سافروا فوراً لمدينة مارسيليا، بينما بقيت أنا في مدينة يانك. وبنكاتي الغوليه عن الحرب العالمية الأولى أضحكت شبيدل طويلاً. وصل المغتالون مارسيليا سعداء، تعرفوا على المدينة، اشتروا زهوراً، تمرنوا على الاقتراب من سيارة اسكندر. وقد سافر الملك اسكندر سعيداً أيضاً.

---

1 - الفوهرر: هتلر.

كانت بانتظاره نصف فرنسا. اخترق البلغاري جورجيف الحائز على جائزة أفضل القتلة لعام ١٩٣٤، جموع الجماهير الفرنسية، وسحب المسدس من باقة زهوره الأكبر من كل الأكاليل، وأفرغ نصف خزانه في اسكندر. ويقال إن اسكندر استطاع إملاء وصيته، ولا نعلم لمن: «احرسوا لي يوغسلافيا!» أما بقية الخزان فقد أفرغه البلغاري في مضيف الملك وأول غوريليياته لويس بارتو، ماسوني، وزير خارجية فرنسا. لم يوصِ الفرنسي بشيء، ولا البلغاري الذي سحلوه فوراً في المكان نفسه. ومن تلك السنة الناجحة بالنسبة لنا ١٩٣٤، بتنا نطلق على مارسيليا فيلا جوزفينا. صافحت الكابتن شبيدل الذي جمع أغراضه وفر إلى ناكي كانيزسا. أما فاهر سلطان فقد كانت نهايته أبشع من نهاية الملك اسكندر وماروبيني، بل وبارتو نفسه. ذلك أن أحدهم قص رجليه ببلطة ثم يديه ثم أصابعه. أما رأسه المفروم فكان بدون عينين ولا أذنين ولا أنف. اشرأبت الخنازير البركشيرية في الجبل وهاجت بشواربها المدماة، وابتدأ يحتلنا خوف جهنمي. فابتدأ الأهالي برمي عميانهم ومجذوميهم ومشلوليهم في نهر «إنّ»، الذي كان يغرقهم أمام عيوننا ويجرفهم معه. اشتد السباق الدموي، وهدر وتعالى حتى غطى الشمس. كنا قد بدأنا باستخراج السكاكين السرية، عندما وصل رجال الإطفاء والدرك. فرقونا، وهم يقولون إن بروناو قد دخلت في التاريخ والغيبية بدون جوزفينا، التي اعتبروها أولاً أم المسيح العذراء وقد استبدلت اسمها. كان ذلك في شهر نيسان، في اليوم الحادي عشر منه، أي يوم عيد ميلاد جوزفينا.

وبعد تسعين يوماً سُمع صوت جعير خنزيري في منتصف الصيف. كان ذلك فوق المعبد الجبلي سويتا كاسا نيغرا، على الحدود الإسبانية البرتغالية. لم تستطع جوزفينا النزول بسبب الريح الذي اقتلع الأشجار ورمى الحجاج

أرضاً. وكان أكثر الحجاج مرضى روحيين، مشلولين، مشوهين وفقراء. بقينا راكعين على ركبنا ليلاً نهاراً ونحن نصلي ونرجوها ونغني لها. لكن جوزفينا كانت تجعر فقط، حتى إن الكثيرين في غيبوبتهم خمشوا خدودهم، وفقؤوا عيون أنفسهم. رأينا كيف تنشق السحب وتدمي السماء. وكانت جوزفينا خيراً عمياً أرسلته الآلهة في ذلك المطر اللاطبيعي، الذي جاء بعد فترة قحط رهيبة. اقتلعت الريح والمطر كل ما كان موجوداً على تلك البقعة من الأرض الحرام المدنسة، ولم يبق سوى الحجارة والجذور، امّحت سوتيا كاسا نيغرا بسكانها الفقراء المؤمنين، ولم يعد لها أثر. لهذا دخل المحوقون في التاريخ الذي ندونه بكل أمانة كما حدث.

وكان أهم شيء بالنسبة لنا نحن الذين بقينا أحياء، ألا تتغير دورة جوزفينا. وحقيقة لم تنقطع ولم تتغير. في تلك السنة، في شهر تشرين الثاني، كانت دولة المجر المؤمنة كلها على شواطئ نهر الدانوب. لقد توجب هذه المرة أن تخرج جوزفينا من النهر. كنت بين الذين نجوا من برونـاو وكاسا نيغرا، وكان بين الحجاج الكثيرون من مرضى الصرع والجذام والأقزام. بحثت بين التعساء والمهزومين عن الضابط شبيدل. كانت كل الأيدي الصحيحة ممدودة نحو نهر الدانوب، وكل العيون متوجهة نحو الماء، وكل عدسات التصوير. سمعنا صوت جعير خنزيري عاصف هادر كأنه ينعي نهاية العالم وآخرته. ترك أكثر الناس أولادهم المخبولين وركضوا على الشاطئ أو داخل الماء. صحت بأعلى صوتي أنبههم أن جوزفينا تضع مولوداً، وأنها حبلى بالألم، ولهذا تتعذب وتزعق بهذا الشكل. فاض نهر الدانوب. فرأى بعضهم الصفين الهائجين من أثدائها. وبعضهم أذنيها السوداوين الكبيرتين اللتين كانت تقذف بهما الماء كالرفش، وتطرح أرضاً

كل الضعفاء. ولم يسمح ذنبها المعقود لأحد أن يصوره، وكانت هذه إحدى عجائب جوزفينا. بقرتُ بطنها وسحبتُ أمعاءها مع الوليد. عندها، تذكرت اسطفان الحي وشهادته لفرانس فرديناند!.

لم تعد إقامتي على الأرض ضرورية، أولاً لأنني لم أستطع الحصول على اتصال مع الكابتن فاهر ماشتا ولا مع ديترش شبيدل. وثانياً لأنني كنت مليئاً بالثقوب من الرصاص، ولي عدة مفاصل خشبية، مما جعل رؤيتي واكتشافي ممكنين وهذا ما شكل بالنسبة لحركة جوزفينا خطراً قد يكون قاتلاً. نزلت لتحت، في عالمي. وكان أمامي إحدى عشرة سنة من الاستلقاء، والتلذذ بنفسي، والتحجر. وكنت أتابع من تحت كل العمليات في الحرب العالمية الثانية. كان ضدنا هذه المرة أكثر من ثلاثة أرباع العالم. وفي ٢٩/ ٤/ ١٩٤٥، في سنة جوزفينا، شنق موسوليني من رجليه في ساحة لورتيو بميلانو. وبهذا لم يتمكن هتلر من إتمام كل شيء بمفرده. ألبس الأطفال ذوي الخامسة عشرة ألبسة الحرب، وأرسلهم ليدافعوا عن أبنية برلين المقدسة، وعن الخنادق المموهة المحترقة، عن اهننبرغ. ولم أستطع أن أجد شبيدل!. ورغم أن وقت ظهور جوزفينا قد حان إلا أنها لم تظهر. في تلك الأيام المميتة من شهر أيار ١٩٤٥ حدثت معجزتان: الأولى للأمريكيين وهم يعبرون نهر الماين. كانوا ينشدون أغانٍ بدائية ممطوطة سوداء بألحان موسيقى الجاز، وهم بصحبة جوزفينا. وكان السوفييت الآسيويون أول من هاجم ودخل مخبأ هتلر تحت الأرض. كانوا يحملون الحراب والبنادق، وقد حفروا على أطراف خوذاتهم الحديدية المليئة بالقمل وبجانب النجمة الحمراء، أول حرف من اسم جوزفينا، أو كل اسم جوزيف[1]. فبالحرف

1 - يقصد جوزيف ستالين.

جـ يبدأ الفعل الرئيسي البشع لكل السلوفينيين[1]. حتى بدا واضحاً أن جميع قوى الحلفاء[2] والروس كانوا يحملون جوزفينا، خنزيرة هزيمتنا ونـصرهم غير المستحق. ولولا ذلك لما تجرأ هتلر - كرجل آري - ليطلق عـلى نفسه الرصاص. وبقدر بشاعة ما حصل كان طبيعيـاً أن يوقـع بعـض رجالنـا في ٩/ ٥/ ١٩٤٥ صك استسلام جزئي. بحثت عن شبيدل، أين كـان في تلـك السنوات الحاسمة الخنزيرية؟! ذهبت إلى تحت الأرض كي أشجع رجالنـا الموتى الشجعان، وأؤكد لهم بأن الدورة لن تتبدل، وأنـه خـلال أحـد عـشر عاماً، أي في عام ١٩٥٦ سوف تظهر جوزفينا جديدة.

في عام ١٩٥٦ انطلق في عالمنا الغيبـي صـوت يخبر أن وجـود جوزفينـا مؤكـد في الـسماء أكثـر ممـا هـو عـلى الأرض، بـين أولئـك الـديمقراطيين الاشتراكيين والليبراليين المختلفين. وإنها كانت في تلـك الفـترة كمـن فقـد عقله. كان ما يقرب من ألف رجل يـدينون بـديننا ومعتقـدنا ينتظـرون في مذبح مظلم، جانب بلدة برونا و - م - ن - في النمسا الغربيـة. وكـان بـين الحجاج بعض المدسوسين البروتـستانت واليهـود الممـوهين والـشيوعيين. وكنـا نـشرح للنـاس معجـزات جوزفينـا، وعزاؤنـا الوحيـد أن القربـاط السلوفينيين، الجنوبيين تحديداً، لم يعودوا موجودين. كنـت أخـوض النهـر حتـى ركبتـي، وكـان الآبـاء والأمهـات يمـسكون شـياطينهم وأولادهـم المذعورين. جعرت جوزفينا مـن فـوق، فأصـابهم الهـرج، وهربـوا للـوراء كأنهم ليسوا مسيحيين ومجريين قاموا بالثورة المعروفة ولا زالوا حتـى اليـوم يفتخرون بها وهم في المنفى. كنت مع المجذومين، وكانوا الأفظع والأرهب.

---

1 - فعل الجنس باللغات السلوفينية.

2 - دول الحلفاء: أمريكا وفرنسا وإنجلترا ضد دول المحور: ألمانيا وإيطاليا واليابان. - المترجم-

قتلوا، ذبحوا، حرقوا كل شيء يمشي منتصباً خصوصاً أولئك المرتدين ذوي اللون الأصفر والشيوعيين. وكان الأقزام والطرشان والخرسان ومرضى الصرع أول من هاجم بودابست حطموا عدة تماثيل، من بينها تمثال جوزيف ستالين. وسيبقى سراً من الأسرار عدد الأطفال الذين حصدوا بالرشاشات أو دهسوا بالدبابات ثلاث مرات على الأقل خلال أحد عشر عاماً حتى يمكنك القول إن بلاد المجر قد فرغّت. وبعد ألف جهد جهيد استطاعت الرياح أن تعيد نهر الدانوب لمجراه. في تلك السنة ١٩٥٦ هجمت بعض الجيوش تتقدمها جوزفينا للقضاء على عبد الناصر.

إن عام ١٩٦٧ هو خير دليل على أن الدورة لم تتغير، ولم تعد جوزفينا لغز الجمعيات السرية العاملة تحت الأرض مثل: الفجر الذهبي، ووردة الرياح السوداء. ولا حلمنا نحن متنبئي السياسة وكتاب التقويم فقط. لقد ابتدأت جوزفينا تظهر على كل الخرائط. وعليه فأنا لست الأول ولا الأخير بين الفلاسفة وأطباء البيطرة الذين باتوا يملكونها. في تلك السنة ١٩٦٧ ظهرت جوزفينا في شهر كانون الثاني في بلدة بونتا كودورا - هندوراس البريطانية. كانت تزرع الدمار والقحط على طول الشاطئ لمدة أحد عشر يوماً وليلة. سارت بعدها خلال الماء باتجاه الجنوب. ومن الطريف أن أحداً لم ينظر إليها بتعجب. في شهر آذار ظهرت إحدى الجوزفينات على مزرعة جون ولوسكي، الأمريكي من أصل بولندي من أوماها دولة نبرس. وظهرت صورة جوزفينا في العديد من الصحف في دول الغرب. في شهر نيسان سُرقت جوزفينا، وذبح ولوسكي بشيء مثلم. كانت الصحف مليئة بأخبارها، بينما لم يذكر البولندي أحد. وكأن جوزفينا أصبحت ظاهرة، ضرورة وخيراً عاماً، أصلاً للبشرية كلها. وبهذا، وفقط بهذا، يمكن تفسير

الحقيقة أن جوزفينا جعرت في أواسط شهر أيار من العام نفسه، في حظيرة خنازير لرجل ألماني شرقي، لاجئ سياسي في المملكة الإفريقية لوسوتو. لم يطاردها أحد. وككل خنزيرة تصيبها جرثومة الطاعون لفظت أنفاسها الأخيرة بسلام. ولا زال الألماني الشرقي يبكيها حتى اليوم، ومن يعلم هل سيسلوها ذات يوم. وفي الوقت نفسه ظهرت جوزفينا جديدة في سلافيا نسكا على نهر الدونيتس في أكرانيا. كانت هرمه، بدون أسنان ورأس. كانت عمياء تقريباً عندما شاهدوها على ضفاف نهر دونيتس. لهذا فمن الصعب مجرد الافتراض كم عاشت وكم زرعت من الدمار قبل أن تفقد في ليلة ليلاء. وكان هذا دليلاً على إمكانية ظهور جوزفينا في أي مكان. حتى إنها ظهرت في حظيرة أحد الرعاة الأتراك حوالي اسكي شهر، هناك حيث حصل الزلزال. ولم يتفاجأ محمد بها، بل إن ما حيره هو نقصان عدد الخراف كل يوم. وكانت جوزفينا تملك ذنباً دهنياً مشعراً من آسيا الصغرى، ويدي خروف، وثديين بثلاث حلمات فقط. ولم يكن محمد يعرف أن جوزفينا - يعلم الله من متى - كانت تعيش في أحد خرافه. وانتظر محمد ليرى ما ستقوله أنقرة. كانت أنقرة مسرورة جداً: «وأخيراً أصبح لنا نحن الأتراك خنزيرتنا!». صاحوا وعربدوا وعانقوا محمداً.

مزّقت جوزفينا أجساد خمسة أطفال أتراك أو ستة، وتحولت بعدها خلال الليل بقوتها وسحرها إلى خروف، ولم يعرف محمد في أي خروف هي. وقد حزنت أنقرة على ضياع النجمة السوداء الفائرة أكثر مما حزنت على موت الأطفال القرويين، الذين اعتبر موتهم طبيعياً جداً. ولم يفاجأ أحد حينما ظهرت جوزفينا في نازيرات أول شهر تموز. كانت في البداية نصف متوحشة، لهذا كانت في مرتفعات غاليليا. بعدها أحبت الوديان

والمستنقعات والرمل. أصبحت تتجول بحرية، كأنها ملك للجميع. هناك عبرت الحدود وذهبت للأماكن المقدسة، جعرت، ثم أصبحت أليفة من تلقاء نفسها. كانت تعرف كيف تمشي وراء البدو لساعات طويلة. وكم من مرة ذهبت تتشمم تحت الخيام، عند الفدائيين الفلسطينيين. كان الجنود الإسرائيليون يمشطونها ويغازلونها بحنان. ويربط سحرتنا حرب تموز مباشرة بوجودها وتأثيرها هناك في الجنوب. ويؤكد العرب أنهم لم يهزموا إلا لأن بعض الإسرائيليين كانوا يرفعون على أعلامهم رأس خنزير، أي رأس جوزفينا. ومهما يكن الأمر فإن جوزفينا كانت تتجول بحرية في سيناء وكأنها في حظيرة خنزيرية عادية غير مسورة ولا مبنية. كانت تخنق الجرحى العرب، وتلف تحتها ووراءها أمعاءهم. كانت ثعابين الصحراء مسرورة لشهور طويلة بسبب جوزفينا، حتى تجمعت على شكل جدائل وشلالات، وعششت تحت الخوذات الحديدية المهجورة للجنود العرب، وتحت جماجمهم. والآن يؤكد الإسرائيليون والمصريون أن جوزفينا في مكان ما من قناة السويس. ولم يعد يتعجب عالم اليوم من ظهور جوزفينا بقدر ما يزعجه فقدانها وضياعها. لهذا كان من الطبيعي جداً أن أشتري جوزفينا، هذه التي تراها، من إحدى القرى الكاثوليكية في وطنك السابق يوغسلافيا. وباللحظة التي سمعت أنها ظهرت سارعت إلى هناك، ولم يكن ذلك صعباً عليّ أنا الذي أتجول بحرية، بدون جواز سفر، تحت أرض أوروبا. ذهبت إلى تحت وأخذتها! لقد باعني إياها إلهك اليوغسلافي الفقير المتعبد بـ٢٠٠ مارك ألماني، وطلب مني أن أجد لأولاده عملاً في ورشات البناء بألمانيا والنمسا أو سويسرا. ولوعدي الذي أعطيته إياه التزم أن يعيد لي تلك الـ٢٠٠ مارك ألماني. وهكذا أخذت جوزفينا مجاناً!. تعرف جوزفينا الخنزيرة العاقلة

والذكية، أن سنوات الستينات والسبعينات هي أوقات البشاعة والفظاعة، خصوصاً في الإرهاب السياسي، الإرهاب الجماعي وقت السلم، والذي لم يكن يحدث قبلاً. وتعرف جوزفينا اليوغسلافية هذه أننا نرسل مرتزقة بارعين مدربين ذوي أسعار غالية لينقضوا على مكاتب الإرساليات والوفود والقنصليات. تعرف جوزفينا جيداً أن الإنسان لم يثق بنفسه بعد، فمن طبيعته الخوف والجبن وتسفيه الأديان، لذا لا يمكنك أن تفعل معه شيئاً، فمثله مثل الآلة والماكينات. سنرهب العالم في القريب العاجل!. سنرسل الخنزيرة السوداء ذات الوردة البيضاء على الجبين لتنقض على سفارات الشيوعيين والسلوفينيين والاشتراكيين الديمقراطيين وبيوتهم. ستكون جوزفينا صاروخنا! سنستطيع بجوزفينا المدربة بدقة، المسيرة آلياً من الأرض أن نختطف من نريد. نحن الغيبيين، كتّاب كتب التنبؤ، وكتب طرق تربية الخنازير، أفضل من يشعر ويرى بأي سرعة ينهار العالم نحو الدمار، ومتى سيكون الطوفان والانفجار وانمحاق كل الفضائل القديمة! وبما أن السلوفينيين يحرفوننا عن الطريق القويم نحو اليسار، ومثلهم الليبراليون وكل الاشتراكيين، فإننا الوحيدون القادرون بواسطة جوزفينا على إعادة البشرية لخطها القويم. سننتقم لساراجيفو ١٩١٤، إذ تنبئ علومنا البيطرية التي لا تخطئ أن الشيوعية الأوروبية قد ابتدأت منها!. يجب أن يكون العقاب رهيباً لم يسمع بمثله أحد، ولم يرَ مثله أحد. ستكون أنهارهم دماء، وجبالهم من الجماجم والأضلاع والعيون المفقوءة! حينها سيستوعب العالم أن الغولية والإرهاب اللذين نمارسهما، بالمقارنة مع تقدمهم، هما الأمل!!.

إن من عادات جوزفينا انتقاء اللحم البشري. فاللحم الإفريقي الأسود أو الآسيوي الأصفر، لا تريد حتى شمهما. كما أنه ليس سيان لديها أهو لحم

من نصف الكرة الشرقي أم الغربي. لقد جربت مرات كثيرة حتى اقتنعت. حتى إنها تفرق بين لحوم الشعوب القاطنة في تلك الجهة للنجمة الحديدية. فإذا كان اللحم مجرياً، رومانيا، ألبانياً، فيجب عليّ أن أملّحه. أما اللحم الأبيض السلوفيني، وخصوصاً لحم السلوفينيين الجنوبيين الخطائين ولحم أطفالهم، فإن جوزفينا تقطعه وتبتلعه بسرعة اللبوة...».

- ٢ -

كان أنور باباك في الزاوية الأخرى من صالة التعذيب، يتبادل النظرات مع جوزفينا. بجانبه كتاب الإرشادات من سنة ١٩٤١، وعلى يده معطف جوزفينا الكاب، ذو الياقة العالية، بفتحتيه الطويلتين لظهور الساقين الأماميتين. وقد عُلقت بزتي فوقه على الحائط بجانب لباس مارك الإنجليزي المتكامل مع الكرباج والجزمة. وكان هناك الكثير من بزات العمال وقبعات الأطفال ومعاطف النساء، لكني لم أحصهم. كنت أراقب جوزيف فرانس وهو يتأكد من تثبيت يدي مارك جيداً على الخشبة. ورأيت بجانب جذع الشجرة الذي رقدت عليه يد مارك في وضع انتظار، على الطاولة الطويلة التي لا يمكن لأي إنسان أن يحركها، ما لا يمكن أن أنساه أبداً:

١- كماشات من كل المقاييس والأحجام. بدءاً من التي تقتلع فيها الأظافر والأسنان الصحيحة كعقاب، وانتهاء بالتي تسحب بها المسامير النمساوية من الخشب.

٢- مقصات لجزّ الخيول وأذنابها، وجزّ الأغنام والعنزات البوسناوية والدلماتينية، ومقصات صدئة تماماً وتاريخية. هذا ما قاله بوداك في إحدى

الليالي، وهو يرينا صورة أكبر مخيم تعذيب في البلقان «ياسينوفاتس». مقصات تستعمل لقصّ أصابع الأطفال، وللكبار ألسنتهم وأنوفهم وآذانهم، بناء على كتاب إرشادات آخر يحمله الآن فوريتتش بين يديه.

٣- أسلاك، تشبه تلك التي تشاهد على الصورة المثبتة على الحائط لمعسكر داشاو. وعلى بطاقات المعايدة تحت الخريطة. وأسلاك أخرى، تلك التي تُثقب بها العيون لأي إنسان حي ليس كاثوليكياً. وأسلاك شائكة، منها الملفوفة كذكريات، ومنها خارج اللفة، متشابكة حول أحد أطراف العصي، تستعمل لثقب راحة أقدام البروتستانت، أكفهم وبطونهم، بعد تغطيسها في ماء مالح وكبريت. وبها تُخمش الآن كما خُمشت سابقاً، ظهور أولئك الذين يودون العودة إلى بيوتهم في يوغسلافيا وصدورهم وأيديهم، أو إرسال أي شيء إلى أهلهم وأطفالهم. أسلاك يمكن أن تسميها من كل الأشكال، حتى الجديدة التي تنقل الكهرباء لتصل إلى أولئك الذين لا يدفعون الإتاوة بانتظام للحركة الأوستاشية الصليبية، أو إلى الذين لا يملكون الشجاعة ولا الإرادة وقوة الروح ليسكبوا السم في القدور الضخمة لطعام العمال الأجانب.

٤- مناشير صدئة، كبار وصغار، لنشر القرون والأسنان التي لم تنبت بعد، وعظام البشر الصغيرة، ذكرى من سنة ١٩٤١.

٥- ملاعق عسكرية أخذت من المخيمات كجوائز، خشبية ومحروقة. وملاعق لها أيدٍ من عظم جيد كعظم الحصان أو الإنسان، وملاعق عادية ضحلة. ملاعق مستديرة وبشكل الصدفة يمكنهم بها وبحركة واحدة أو على الأكثر بثلاث حركات، أن يقتلعوا عينيك من جذورها، إنها من

التذكاريات المصنوعة والمطلية بالكروم من تصميم الرئيس انتـه بـافيليش[1] وحسب رغبته وأوامره الصادرة في الشهر السابع عام ١٩٤١. والعديد مـن الملاعق التي يستعملونها هذه الليلـة للطعـام والـشراب والمبـارزة. هـذا مـا شرحه لنا بوداك وهو يهدد أحد الرجال الذين ماتوا بجانبي بأنه سيعميه إذا لم يهاجم مكاتب شركة الطيران اليوغسلافية أو شركة لوت.

٦- مبارد كبيرة وصغيرة، بالعشرات. ازميل لقلع الأسنان وكسر الفك. مطارق. مسامير صدئة من كل الأحجام يغرسـونها - كـما قـالوا في إحـدى الليالي - على نغم الموسيقى تحت أظافر الصربيين والكـاثوليكيين والإسـلام واليهود والبروتستانت. مسامير من كـل الأنـواع يمكـن أن تـدخل في كـل الأجسام والأماكن، مخصصة للخرفـاتيين الخونـة والكـاثوليكيين الـضعفاء غير اللائقين بالدين الكاثوليكي وبالشعب البلقاني الكبير، وللذين يريـدون بأي ثمن أن ينتصروا لكنهم لا يستطيعون.

٧- أكياس رمل من نهر الـسافا، مـستخرجة مـن قـرب ياسـينوفاتس، لضرب وهرس الكلى، أكياس مصنوعة من قماش حربي مبطن بالكوتـشوك الجيد، دامية المقابض الخشبية، من عام ١٩٤٢.

٨- سكاكين، بدءاً من الصغيرة حتـى الأكـبر، العـسكرية والمـستعملة، والتي لا يزال يحتفظ بها للتخويف والإرهاب. شفرات مغلفة بقرون بقرية. سكين اسمها البلطة البوسناوية، والقامات الـشهيرة التـي تـصور بجانبهـا فوريتتش ودازلينا وهما بلباس الفرانيفيتش في مثل هذه الليلة، حيـنما صـلّبا

---

1 - رئيس دولة خرفاتيا الحرة أيام هتلر. - المترجم -

أمامها عدة مرات ثم غرزاها في الباب وعتبات صالة التعذيب، كأنهما يهددان شيئاً لا نراه.

٩- هراوات، كاملة ومستقيمة، ومن التي غيرت سماتها لتؤلم أكثر، والتي تتفرع من قبضاتها النوابض القديمة، حتى إذا ما ضرب بها جيداً التفت حول الجسد. ومنها التي بسلاسل بدل النوابض، تلك التي إذا ضربوك بها ضربة واحدة فقط انغرز في لحمك خمسون مسماراً أسود على الأقل.

١٠- بلطات، مجموعة منتقاة، تستعمل لزرع الخوف في قلب المختطفين والمقتادين إلى هنا لتوهم. أي للخوف والرعب. أكثرها من النوع الخفيف، حفر على مقابضها صلبان وشعارات، تصلح جيداً وبدقة للحرب صدراً لصدر بالسلاح الأبيض. ثم بلطات قديمة، أثقل، مسننة، من عام ١٩١٨، وغير مسنونة، قصت بها أيدٍ وأرجل ورؤوس كثيرة. وأخيراً بلطات ثقيلة جداً كالتي يستعملها سكان الغابات لضرب خنازير الألب بين عينيها، والثيران بين قرنيها. بلطات فولاذية أصيلة مصنوعة في مدينة لينز.

- ٣ -

بوجهه الأخضر، وعنقه الرمادي، شارداً، أمسك عازف الكمان بيده الصحيحة اليسرى بلطة كهذه. لم يلوح بها، ولم ينتظر بوداك الخائف حتى الموت لينهي حديثه مع القاتل المستقبلي المحترف، حارق البيوع والمزارع، خاطف الرجال والأطفال. كان بوداك يسأل ومارك يجيب وأنا أرجو الإله أن يطيعني.

«أتوافق يا ابن الكلب، على حمل الألغام ووضعها في دور السينما في يوغسلافيا، مثلما فعل المدعو خركاج؟. أتوافق على وضعها في محطات القطار والقاطرات والأمانات في المحطات مثل المدعو بيليتش؟[1] في المخازن الكبيرة، ومقابر الشهداء، وملاعب الكرة؟. في كل مكان يجتمع به ذلك الشعب اليوغسلافي العاهر الذي تبرأ منا؟».

«أوافق!».

«أتوافق أن تضع لهم القنابل الموقوتة - لحسابنا طبعاً - تحت جسورهم وتماثيلهم الأغلى على قلوبهم؟ في بيوتهم التي يعيشون فيها، بينما نتعذب نحن ولا نرى أبعد من ظهور الخنازير؟».

«أوافق!».

«أتوافق أن تهاجم قنصلياتهم وما يسمونه سفاراتهم، بالقامات والأسلحة الأوتوماتيكية، بالمعاول أو قضبان السكك الحديدية، إذا لم يتوفر لك شيء آخر، وأن تثقبهم كالمصفاة، وترميهم أرضاً وتعفس فوقهم، وتذلهم؟».

«أوافق!».

«أتوافق أن تذهب من ورشة بناء لأخرى، من براكة لبراكة، في كل مكان يعيش ويتعذب به هؤلاء العمال الأجانب اليوغسلاف المشركون، المخلصون لأوطانهم، وأن تجني منهم المال لصالح دولة خرفاتيا، وجريدة خرفاتيا، ونادي خرفاتيا، وجريدة الشباب الأوستاشي، وصالح كل ما

1 - إرهابيان وضعا المتفجرات في صالة سينما المحطة وأماناتها ببلغراد وتسببا بموت الكثيرين وتشويهم.

نصدره ونوزعه في هذا الغرب الحر؟. أن تجمع التبرعات الشهرية لصالحنا وصالح حركتنا التحررية الأوستاشية، أن تأخذ منهم الإتاوة والضريبة سواء أكانت تبرعاً خيرياً أم بواسطة القبضة الحديدة أو السم؟».

«أوافق!».

«ما يزعجنا هو اليوغسلاف، العشرون مليوناً بالعدد، خصوصاً مليون العامل هنا في ألمانيا، التي هي ملكنا وملكنا فقط. قد نضطر لفقء خصيتي أحد قناصلهم أو سفرائهم بنصلة أو بلطة، لحربه ضد الرايخ الثالث والعالمية السوداء منذ عام ١٩٤١، وضد الكتائب العقابية والأمير أوين الذي قلعوا عينيه كأهم حلفائنا البلغار واجتثوا رجله اليمنى الزائدة».

«أوافق!».

«أيها الكلب الأرثوذكسي، لو أنك تنفّذ نصف ما اتفقنا عليه، لسامحناك بحياتك». ويرتجف بوداك من خوف مجهول، وهو يمرر يده على آلاته: «ستعطينا الثلث فقط. والباقي بدّده مع بني وطنك اليوغسلاف، مثل الآخرين!».

سأعطيكم الكل!» همس مارك بثقة وهو ينظر في عيني العجوز: «تعرفون أن ما أبغيه هو الحق أكثر من الذهب. سآخذ بعض «الفراطة»، حتى أستطيع الاستمرار بحياة عارية، وسوف أضع الباقي هناك حيثما أؤمر. أفهمكم، وأقدر موقفكم، فالحظيرة ضيقة منذ زمن، وأنتم ترغبون بتوسيعها. أعلم أن إطعام كل تلك الخنازير مكلف. القنابل والألغام غالية، والحصول عليها صعب. الناسفون والقتلة طماعون يطلبون كل يوم أكثر، مبالغ خنزيرية!».

«لماذا تحني رأسك؟» سأله بوداك، وقفازاه الرسميان أمام أنفه: «من أين أتتك الآن تلك الدموع في عينيك بعدما وافقت على كل شيء؟».

«أخجل من نيكو ماراش» همس مارك، وعقلي لا يصدق ما يسمع: «لقد عذبتموه أكثر. لماذا لا تدمغونني بذلك الحديد المحمي؟ مثله!».

«حدوة الحصان للمختارين فقط. ولا يمكن أن يحملها على صدره إلا الكاثوليكي فقط. وفي أفضل الأحوال أولئك الذين يصلّون ساجدين» فسر بوداك وهو يشير إلى أنور باباك، الذي يمسكه دازلينا وفوريتتش من كتفيه.

«أخجل من نيكو ماراش!».

لا أعلم هل أبكي أم ألامس جراحي فقط. تلك الجراح التي كان دازلينا وفوريتتش وبركلو، يسكبون فوقها بول الكلاب بأمر من دراكولا ويدهنونها بغائط الخنازير. تحولت كلي لجرح كبير. جرح لا يمكن - من حسن حظي - أن يشفيه أي نوع من الحشائش أو الدهون. الموت هو أملي الوحيد، تحرري وخلاصي. لهذا لا أريد أن أنتظر الفجر! لا أملك القوة لأرفع رأسي عن صدري وأرى بوداك بصورة أفضل، حينما انحنى خلال طاولته باتجاه ملك الخنازير الناعس.

كان بوداك يرتجف. ظننتُ أنه يريد حماية رأس مارك من يدي دراكولا المرتفعتان إلى الأعلى وفيهما قوس الكمان والدفتر الأسود والكماشة. كان دراكولا يرسم بهيكل يده اليمنى التي تطقطق من مفاصلها، دوائر وأقواساً في الهواء، برقاً كالذي انهمر عام ١٩١٥ على كتيبته النمساوية الحادية عشرة، آكلة اللحوم البشرية، إبان الهجوم على نهر السافا من طرفه الشمالي عند مدينة بلغراد. كان دراكولا يزبد ويشخر كوحش مائي، متذكراً المذابح في القرى،

في أرديليا والكاربات، عندما اشتهر وذاع صيته بقطع ألسن الجنود وهم أحياء. وكلما كان ينتقم - كما في هذه الليلة - يكتسب وجهه لوناً ميتاً، أخضر فوق قشوره. لا بد أنه كان عطشاً، ما دامت شفتاه ترتجفان بهذا الشكل. كان دراكولا بكامل وعيه. بدليل أنه كان ينظر إلى يد مارك المسجاة على الجذع، وإلى عبيده الأربعة الذين يسندون الباب حتى لا تنطلق الخنازير.

«مرضنا كَلَبُ الخنازير هو مرض معد، نراه كأعراض غياب للوعي وشلل كامل!» كان أنور يعيد ما حفظ، وهو يعود إلى الخلف تجاه الحائط، يسترق النظر من فوق الكتاب ليد جوزيف فرانس الصحيحة وبها البلطة: «يتوضع سبب العدوى في بصاق الحيوانات الكَلِبة التي تأتي من أماكن أخرى. خصوصاً الأماكن الصربية. وأحياناً من عضة ثعلب أو ذئب وحيوانات أخرى. مرضنا كَلَبُ الخنازير لا دواء له!».

شعرت أن وعيي يتقلص. سمعت صوت ضربة البلطة الصماء فقط. ومن خلال الضباب الدامي، شاهدت الغول العجوز يأخذ إبهام مارك المقصوص وينظر متمعناً فيه. ذكر بوداك عدل المسيح. وحاول جوزيف فرانس اصطياد نافورة الدم بفمه الأشبه بجرح كارباتي قديم لا يشفى. كان يفعل ذلك ببراعة، حتى إنه لم يلوث سوى قبعته وأنفه وجبينه الترابي. ثم تمتم بأشياء لا يفهمها أحد، كأنه يحاول التذكر، عائداً إلى الوراء، مستنجداً بالتواريخ والعلامات من تقويمه القديم. ثم رمى إبهام السلوفيني أمام جوزفينيا.

فتح الرجال الثلاثة الباب المفضي من صالة التعذيب إلى مسرح صالة الأوبرا الخنزيرية. كان جوزيف فرانس متلفعاً بمعطفه الكاب، وقد انتعلت خنزيرته حذاء من جلد بشري، وهما يخرجان بهدوء، أما بوداك فقد دهن يد

مارك بشيء أصفر نتن، ثم أسرع يـدفع أمامـه الحقيبـة المليئـة بالزجاجـات والكتب القديمة، سائراً وراء جوزيف فرانس. ولا أعرف كيف وصـلنا إلى المسرح المغمور بتبن نظيف.

كنت جاثياً على ركبتي. وشيء ينتفخ في يد مارك خلال الدهن، لا بد أنه الدم المتجمد. كنت أستطيع ملامسته، كان قريباً مني. عيناه بلوريتان. وبـدا أنه لا يعرف أين هو، ولا أن إبهامه المقطوع، المرمي أمام جوزفينـا المـستلقية تـسبقها أظافرهـا، يـشبه دودة ميتـة. أمـا أنـور فقـد غطـى وجهـه بكتـاب الإرشادات لمؤلفه الدكتور كرشيمير ماسلوفارتيش[١].

أمسك دراكولا الكمان بيده الصحيحة. كان وجهه أخضر مثـل القـوس الذي قربه بيده اليمنى تجاه حامل النوتة، ثم انحنى أمام البركشيرين. كانـت أول النغمات الـسحرية الخـضراء مخصـصة لتهدئـة الخنـازير. بعـدها ابتـدأ دراكولا العزف فوق أجـساد الـسلوفينين الجنـوبيين المدنـسة. أظنـه كـان يهمس ويهمهم، كتلك الليلة حينما شوهني إلى الأبد. وكان من عادته إذا بدأ العزف ألا يعرف كيف يتوقف. يقـول إن أخطاءنـا وأوهامنـا لا نهايـة لهـا، فتمتد موسيقاه وتتئذ وتطول. كان محني الظهر، لا يرى إلا بـصعوبة خـلال بخار الخنازير والماء الذي ينقط من السقف على يديه.

انتهى الجزء الأول من الكونشرتو فـوق لحمنـا المعاقـب. نامـت بعـض الخنازير على أنغام باغانيني[٢] في أكبر صـالة كونـشرتو، دون أن تـسأل عـن طعام أو شراب. كانت المستيقظة جوزفينا فقط، المرتدية كابـاً يغطـي جـزءاً

1 - وزير الدعاية بدولة خرفاتيا الحرة أيام الحرب - المترجم -

2 - موسيقار إيطالي كبير. - المترجم -

جيداً من أثدائها الفائرة وكرشها المتدلي، في أذنيها حلق وأساور ذهبية على أرجلها الأمامية، وقبعة نوم على مؤخرة رأسها.

شرح لنا بوداك وجوزيف فرانس مرة بأن جوزفينا حينما تكون هادئة هكذا وعابسة، إنها تفكر بصاحب الحظ الذي سيكون القاتل المغتال المنتقى، الذي سيطهر بحليبها أولاً.

أصبحنا أنا ومارك في مكاننا القديم. كان أنور باباك بيننا. وكان مارك في غيبوبة صاحية. وكنت أشعر أن تنفسي يتقلص، وأفكاري تضيق وتتسطح، وأنور يستنجد ويستغيث أن يسامحوه بإبهامه وألا يقصّوه له، وأنه سيحفظ عن ظهر قلب كل ما في القصر من كتب. ولا أعلم ما الذي أراده بوداك مني وهو يهز قلة الماء أمامي رغم أني لم أطلبها. ولمس بقفازيه الرسميين الاحتفاليين جبهتي وشفتي، وسمح لي أن أشم كيس التبغ. ولا أعلم هل كنت شجاعاً حينما قلت له إنني لم أعد أهتم بالتدخين أبداً.

«نيكو. تكمن عظمتنا في العذاب والرغبة لهدم كل شيء تملكه يوغسلافيا، هذا السجن الرهيب لإخواننا الأبرياء. وفي الألم!».

«بوداك، هذا العالم هو السجن بالنسبة لي وليس ذلك العالم. لا أشعر بالألم بعد الآن، لهذا لا تفرح كثيراً».

«نيكو، طريقنا هو طريق موت عام لكل شيء!».

«لماذا لا تتركني أموت بسلام إذاً؟ لماذا لا تساعدني؟».

«عش وتعذب!».

«بوداك، برهة وسأموت!».

«نيكو، علام حزنت أكثر ما حزنت؟».

«على مارك!».

«كيف؟ إنه من دين آخر. أرثوذوكسي!».

«عُذب وجلب له العار أكثر مني».

«نيكو، ألم تسمع كيف وافق على كل مطالبنا؟».

«ستدمرون نصف العالم!».

«وما هو تعليقك على ذلك؟».

«بوداك، يجب أن تخاف من الانتقام. سيصلك!».

«متى؟».

«حينما ترى نفسك أرغب ما تكون بالحياة!».

«نيكو، أتعرف المزيد عن ذلك؟».

«لا!».

«إذاً أنت تخيفني فقط؟».

«بوداك، ما دمت لن تساعدني، اتركني أُمت نفسي كما يجب. اذهب من هنا».

«نيكو، لا تخرج الروح بسهولة من الجسد الخاطئ!».

«بوداك، اقتلني إذاً». أعرف أنني أتوسل وأمد يدي إليه: «اخنقني، باسم العذراء، شفيعك الوحيدة التي تتوسل إليها منذ أكثر من عشرين سنة وأنت قابع بهذه الحظيرة الخنزيرية. باسم جوزفينا التي تلبسها حذاءها وأثوابها، وتحلبها. باسم...».

«لا!».

«بوداك، أيها الخنزير العجوز، سيعاقبونك فوق لأنك لم تساعد - كما تقول - مخلوقاً مسيحياً ليفطس كإنسان!».

«نيكو، حتى الآن لست ولا نملة».

«كيف؟».

«أقسم لك».

«يا كافر ما الذي تستطيع أن تقسم به أنت؟».

«بشرفي! ووطني الكافر، الذي بسببه كل هذا!».

«وبماذا أيضاً؟».

«بحياة ابني الوحيد الوزيا!».

«لماذا لا تقسم بالله؟».

«ها أنذا أقسم به!».

«أقسم بجوزفينا!».

«لينقطع لسانك!».

«جوزفينا هي موتك!».

«نيكو، لن أقتلك مهما قلت لي!».

«سأقتل نفسي إذاً!» قلت شيئاً كهذا، وأنا أشعر أن الألم والكلمات تموت بداخلي. كنت أرى أكواماً من البخار الدامي وأنا أعصر حنجرتي بيدي. أحشرج وأنا أتحرر بأفكاري وأموت: «ب - و - د - ا - ك!..».

- ٤ -

الآن أتكلم أنا أنور باباك.

لم يستطع نيكو أن ينهي حياته بيديه. شخر، حشرج، تأوه، ثم ارتمى على الأرض. ولم يشأ بوداك أن يعينه كشيء حي، بل أعاقه. كان يحاول فك يديه عن عنقه. ثم أخرج التبن من حنجرته وفمه وأخرج أسلاكاً وخرقاً. كان نيكو يضرب رأسه بالأرض. ورغم ذلك لم يستطع أن يموت.

غضب بوداك: «أنور، ماذا تنتظر؟ اخنق!».

كان بوداك يقف وراء السور، وهو ينير غرفتنا المنفردة. كانت عينا مارك بلوريتين، كما كانتا حينما كنا على المسرح. تقلص جسد نيكو، ولم تطاوعني يداي لأهجم عليه. جعر بوداك:

«أنور. اخنق!».

أخذت من الأرض ودسست في فم نيكو: أخشاباً صغيرة عفنة ونشارة. أسلاكاً شائكة كأسلاك المخيمات، وأسلاك ما بعد الحرب المخصصة لربط أيدي المخطوفين والمحكوم عليهم بالتشوه وأرجلهم وأضلاعهم، إزميلاً، ملاعق وشوكات. قطناً مستعملاً، شاشاً، خيطاناً. ملصقات، مناشيراً، دعوات لحرب صليبية ما. روث خنازير سوداء الذنب والشوارب. تبناً حامضاً، وأعلاماً بصلبان معقوفة، وغير معقوفة، رأس جوزفينا. تنورة احتفالية، وأثواباً سوداء للكاهن الوزيا ستبينا، مسدسة، قبضته الحديدية، خاتمه، وتلك الذكرى لغالياز، سكيناً نمساوية كبيرة بعدة شفرات وعدة

رؤوس وغلاف ذبح بواسطتها عدة مئات من الصربيين والقرباط الفقراء على هضبة كورا البعيدة أقل من مئة كيلو متر عن منزل المطران. شعراً خنزيرياً وأظافر معقوفة، عظام جماجم لأرانب وأطفال. خرقاً من بزات الجنود الأوستاشي والإيطاليين والألمان من سني الحرب مع رتبها الصدئة وصلبانها المعقوفة. بيضة عنكبوت، خيط قنب، ومقصاً، قفازات مثل قفازي بوداك.. «بالبركشيري يا أنور. وإلا ستلحقه أنت أيضاً» هدد بوداك.

كان خنزيراً مولوداً لتوه، يقف على الأرض بصعوبة، وقد أدار رأسه يتقي شعاع الضوء المنهمر من بطارية بوداك. استطعت رؤيته. كان بدون وردة بيضاء بين عينيه. كيف أتى إلى حظيرة الرجال؟ جمعت شجاعتي وسحبته. التصق بأصابعي. جعر. أردت أن أقذفه. كم كان مخاطياً!. أشار بوداك بالدفتر والسكين إلى رأس نيكو. عندها اقتربت بمخالبي التي التمع فيها ما يشبه السمكة من شفتي نيكو وهناك ضغطت بشدة. حشرج نيكو مختنقاً للحظة أو لحظتين. ثم هدأ، مثل البركشيري الصغير المعفوس. «أنور، لقد اشتريت نفسك».

صلّب بوداك. صلى. ذكر الشموع والنحل والقمح والوطن والجسور التي لم تنسف في الهواء بعد. وبقي هكذا حتى خرج جوزيف فرانس لمسرح شبيه بالأول، حاملاً قبعته وكمانه الفوسفوري. كان الملك شارداً. يعزف منقاداً بكليته للكمان والنغمات. كان ينتقم منا على طريقته! ولم يصدر عن مفاصله الخشبية العديدة صوت طقطقة هذه المرة.

استلقت جوزفينا بين العازف وحقيبته. كان وجهها يعبر عن الألم. تصورت أنها ستلد خنزيراً حينما تتوقف الموسيقى. عموماً لم تكن غاضبة

من الملك الناظر إلى الصالة بابتسامة حب. كان البركشيريون يجلسون على أذنابهم الملتفة تحتهم، على أقفيتهم، وهم ينظرون إلى المسرح باحترام وانتباه يحسدون عليهما. يسمعون ويتابعون موسيقى باغنيني الملتهبة من أكبر عازف كمان لهم.

لم أستطيع أن أميز الرجال، بركلو وفوريتتش ودازلينا. لعلهم كانوا خلف الكواليس، مع فساتين جوزفينا المخصصة لحملها، واللحم الطازج وعربة أطفال لوليدها الجديد. أو إنهم كانوا في الصالة مع الجمهور. كان بوداك في الجهة اليمنى من المسرح، جانب الستارة، يحمل فوق صدره تقويماً سميكاً مجلداً بجلد خنزير. لم أعرف ما أفعل بنفسي. كيف استطعت، كيف جرؤت على خنق نيكو؟ كانت يد مارك الصحيحة تمسح بحنان على جبهة نيكو. بكيت على الاثنين.

ومن خلال دموعي رأيت بوداك مسكيناً ومضحكاً أكثر من أي وقت مضى. كأنه لا يجرؤ على الحركة من مكانه. عندها، انطلقت من داخل تقويمه الخفافيش والعنكبوت والفراشات بأجنحة فضية متجهة صوت الكواليس، وصوب الأرض، وصوبنا.

ومذ جئت إلى ألمانيا، لم أعش شيئاً أفظع وأكثر غرابة. كنت مكبلاً بدموعي.



الفصل الرابع

التهيؤ الكبير للانطلاق

وداعاً يا ملائكتي السوداء! فرومكين لأول مرة في القصر. دراكولا، أود أن يصلك الخازوق البلوطي.

«يا بن الكلب، ودع الخنازير» قال بوداك وهو يغطي مارك بفروة كالتي يلبسها، ويفتح الباب الذي دخلوا منه تلك الليلة: «وإذا كنت عاقلاً فلن تعود إليهم ثانية».

«سأكون عاقلاً يا أبتي».

«ينتظر الإخوة البركشيريون السود وداعك».

«يا ملائكتي» قال مارك بحرارة، وهو يحي بيده الملفوفة جبالاً من الظهور المسطحة: «لقد عشت معكم فترة أهنأ من التي عشتها مع بعض الآدميين».

«ضد أولئك المجرمين يرتفع ثأرنا!» قال بوداك.

«يا أبتي، أيمكنني أن أودع ذينك الاثنين؟» قال مارك بأدب، وهو ينظر إلى المكان الذي استلقى عليه قبل قليل داخل التبن.

«بشرط أن توصيهما بالإذعان لكل شيء».

«وداعاً يا أنور باباك!» قال مارك، وانحنى فوق الفاصل الخشبي وهو يداعب شعر المارد المرهق الذي لفت يده اليمنى.

«أنا انتهيت» قال أنور وهو يبكي بدون دمع «لن نرى بعضنا ثانية أبداً. وداعاً».

«أنور، إذعن لكل شيء» قال مارك بصوت مسموع، ليتمكن بوداك الواقف عند العتبة من سماعه:

«كن مثلي. اعمل مثلي. ألا ترى أنني ذاهب؟».

«تأخر الوقت بالنسبة لي سواء رضخت أم لا» قال أنور من مكانه نصف المظلم: «رافقتك السلامة!».

«ارضخ أنت أيضاً لكل شيء يا وسيلوسكي!» تابع مارك، وهو يقترب من الشاب الطويل ذي الشعر الأبيض المسترسل، المكبل بالحلقات والسلاسل فوق جزمته المطاطية، الراقد مكان نيكو ماراش:

«بدون إبهام يمكن إفراغ الجيوب أفضل. هذا ما يقوله الواثقون، اليد أخف وأسرع!».

«لا أفهم شيئاً مما تقول!» كان يتكلم وكأنه يتقيأ، للحظة بالألمانية وللحظة بالبولندية: «أنا السارق الناعم ومحطم الخزائن الماهر الذي ينتظر اللجوء السياسي والفيزا الكندية، انتهي في حظيرة الخنازير؟ لمجرد كوني بولندياً لعيناً ولاجئاً سياسياً هارباً، أصبح كلباً يهرب منه الجميع؟!».

«وسيلوسكي، لن تصل إلى كندا في حياتك إن لم تذعن لكل ما يطلبون!» قال مارك، وهو يقيس بعينيه لآخر مرة تلك الحظيرة المليئة بالعظام والجوائز والأعلام على الجدران.

قال بوداك وهو يغلق الباب: «حينما نظرت في عينيك تلك الليلة وضح لي بأنك ستكون لنا. قلت في داخلي: سيفعل ابن الكلب هذا المعجزات. وفعلاً ها أنت!».

«لحصول المعجزات يا أبتي لا زال هناك متسع من الوقت».

«لا يوجد!».

كانت الأمطار جليدية وهي تنهمر بغزارة. وضع بوداك قبعة قروية على رأس مارك. كان يكلمه بصوت مفرغ أثخن، لم يخل من الطيبة:

«أحزنني قدرك، أقسم بشرفي. خصوصاً قصة أمك في المحطة. ثم حبيبتك التشيكية. أي ابن في هذا الزمن يبحث عن أبيه؟ لا لا يوجد ابن بار مثلك! حتى إنني لا أشعر بالحزن وأنا أخرجك الآن من هذا المكان، تصور!».

«يا أبتي، لو تُرك الأمر لي لبحثتُ عنك أيضاً!».

«أنت شاب غريب. لا تشبه بني قومك من الصربيين. وبما أننا في ذكرهم، أحفظ وتذكر: الصربيون أكثر يهودية من اليهود وكل القبائل الصحراوية. جاؤوا، لا أحد يعرف كيف، من سيناء، وانتشروا كالمرض في كل البلقان. أخذوا عنا الارستقراطية، العادات، اللغة، الشكل الخارجي، وهكذا تموهوا. لكن هذا لن يطول! ماذا سيفعلون حينما يدرك العالم من هم؟ ومن أين أتوا؟.

يؤكدون أنهم مسيحيون، وهم الذين قتلوا مسيحنا: يهوذا الاسقربوطي والشيطان نفسه! يدعون شيئاً - مثل إخوتهم الصحراويين هناك في الجنوب

– ويفكرون بشيء آخر. أما ما يفعلونه فهو شيء ثالث. بينما أنت على العكس من هؤلاء الآسيويين. كأنكم لم تجتروا من نفس المرعى!».

«كم يسرني سماع ذلك يا أبتي».

توقف بوداك. بحث عن كيس التبغ والولاعة. وتمكن مارك للمرة الثانية أن يرى مساحة المكان، الجدران المتشققة المتداعية، جبل الحجر المغسول والأخشاب، كومات التبن. وكانت سيارة الصالون القديمة، المحطمة النوافذ، تقف أمام أحد المداخل. كانت السيارة ذاتها التي اقتادوه بها إلى هنا. سمع صوت عواء وهديراً، ولمعة عقب سيجارة ألقي خلال النافذة. ووقفت خلف السيارة التي كان يهدر محركها، سيارة ريكورد تحت المطر، مليئة بالعلب والسحاحير والجزمات. تطلع مارك إلى الشجرة المنخورة، وتذكر نيكو ماراش والدم يتدفق إلى قلبه كشلال.

«نيكو.. يخيل إلي أنني أمشي فوق قبرك» فكر، وهو يمشي بجانب بوداك، المتقلص داخل معطفه حتى بدا أصغر: «نيكو، كنت صأصلّب لو لم يكن إبهامي مقصوصاً، لهذا لا يسعني إلا الذهاب حيثما يقودني، وهو يقودني إليك. كم أود ذلك» راقب الشجرة المنخورة ثانية، تتالت أفكاره كسلسلة: «نيكو، نفذت كل ما قلته لي، فإذا كانت السكين هناك... وإذا استطعت سحبها..».

عندها فتح بوداك باب صالة التعذيب وأدخله. ولاحظ مارك كيف يتسرب دخان السجائر من النوافذ المجاورة، فتظاهر بالنظر إلى قصاصات الجرائد والصحف القديمة منذ الثلاثينات، المسمرة أو الملصقة بالعجين على الجدران. وشاهد بجانب بزته وبزة نيكو عدة بزات عمالية، جزمات

مطاطية، قبعات معدنية برتقالية. وعلى الأرض وفي الزوايا خرقاً مدماة (مجعلكة)، معاطف غاسلو الطرقات، مكانساً، خرطومين مطاطيين مقرفين طويلين، أحذية. وكان سيرى - لو أنه لم يخش ارتطام نظره بهم - هياكل عظمية إنسانية وجماجم. أما الحقيبة السوداء وعازف الكمان وجوزفينا فلم يكن لهم أي أثر.

«يا ابن الكلب، نحن وحدنا الآن».

«أرى أننا وحدنا».

«لا متسع لدينا من الوقت. هذا اتفاقنا الأخير قبل بدء العمل».

«مهيأ أنا لكل شيء».

«أولاً اخلع واستحم» قال بوداك وهو يقوده ناحية البرميل المليء بماء مغلي «كلك، رأسك، جسمك. احترس للرباط، لا أريد أن يقيح جرحك ثانية».

«لن يقيح. لن أسمح له» قال مارك مازحاً، وهو يخرج من الماء.

«يجب أن تكون أنيقاً حينما تذهب، كأنك جديد. أن تفوح منك روائح عطرة».

«سأفوح» ارتجف وهو يلبس ثيابه الإنجليزية.

«كأنك تتهيأ للذهاب إلى ملعب سباق الخيل وليس للاغتيال!».

«صحيح...».

«لقد استعمل غوريلياتي ثيابك الجميلة هذه على ورديات، لعدة أسابيع فقط كي يلتقطوا بها صوراً تذكارية فقط».

«يا أبتي، لم يتغير في الثياب شيء».

«لو أنني سمحت لهم بلبسها كما يريدون لتغيرت!».

«كم قلبك كبير».

«ما هو القلب الكبير؟».

«لا أعرف. لعله الاغتيال الذي نحضر له».

مر بوداك بجانب كرسيه الخاص الصغير، المصنوع بشكل مقصلة مصغرة جانب الجذع وفوقه كيس التبغ والقفازين. وقد رقد على جذع الشجرة المنخور ذي القشرة المكسرة كتاب إرشادات تربية الخنازير. وصل بوداك إلى الزاوية. نظر إلى المكان بحذر، مكان انبعاث الدخان. ناوله الجزمة التي استعملت حتى تكسرت، والقبعة الاسكتلندية والكرباج ثم ألبسه الخواتم وساعة سايكو الأوتوماتيكية، غطاه بالكاب، وأمره بالجلوس. أذعن مارك.

«جائع؟».

«نعم» قال مارك، وهو يرى كيف يضع بوداك في جيب معطفه المسدس والقنبلة والسكين القديمة من معسكر التعذيب ياسينوفاتس.

«لا يزال الحساء ساخناً» قال العجوز. وسحب من مكان ما صحوناً فخارية وملاعق: «وهذا لحم خنزير مشوي».

«لعله ليس من جوزفينا؟».

«من طفلها الحادي عشر!».

«المهم أنه من أقرباء جوزفينا» قال مارك وهو يأكل «المهم هو ذكر الرقم الحادي عشر، الدائرة».

«ولماذا تعتقد أن ذلك مهم؟».

«الاغتيال!».

«آه الاغتيال!». كرر العجوز هذه الكلمة السحرية وهو يشير إلى الزجاجة: «بيرة أم عرق؟».

«الاثنان يا أبتي».

«اشرب هذه الليلة قدر ما تريد، اشرب، وسأشرب أنا!» كرع العجوز من الزجاجات وارتجف.

«والآن بعدما تشرفنا بأكل لحم جوزفينا، يجب أن نسقيه. ليلة مهمة كهذه تستحق أن تكون مسقية!».

«صب لي إذاً!».

«خذ! وإليك الأشياء التي أحضرت بها إلى هنا. هذه جوازات سفرك الثلاثة: اليوغسلافي واليوناني والإسباني. صك زواج أحد الأكراد من ألمانية تدعى أورسولا. شيكات بالدولار، (فراطة) من كل العملات الأوروبية. إليك الساعات، المناديل المزينة بالأحرف، أقلام الحبر والرصاص، البوصلة. حتى لا تقول إننا نهوى السرقة!».

«لم أفكر بشيء كهذا مطلقاً» قال مارك وهو يشعر بالنار تندلع في أحشائه، وبالثقة تعود إلى فكيه ويديه.

«نحن نقتل فقط!» قالها بوداك منتعشاً، وهو يشرب من الوعاء الذي قال عنه عند بدء الشراب إنه الوعاء الذي يبرد به حليب جوزفينا.

«القتل أشرف من السرقة!» سارع مارك إلى القول.

«حسناً من نقتل؟».

«حتى الآن اليوغسلاف فقط. ونقصد بذلك الصربيين، السلوفينيين، المكدونيين، الخرفاتيين، وكل من يحب يوغسلافيا اللعينة أو يعتقد أنها وطنه!».

«ومن على سجل القتل أيضاً؟».

«الديمقراطيون الاشتراكيون! الليبراليون!».

«ماذا؟».

«لأنهم أبشع من الشيوعيين» حياه بكأس العرق، وبجمل محفوظة بينما كان بوداك المتهيج يقدم له القدر الثاني مليئاً باللحم وزجاجة بيرة: «لأنهم يحاولون مسك الخنزيرة السوداء ذات الوردة البيضاء على جبينها جوزفينا، من ذنبها».

«أكل أعضاء حزب SPD على السجل؟».

«حزب SPD + حزب FDP!»[1].

«وهل يمكننا أن نقتلهم جميعاً؟».

«ليس لمعجزات جوزفينا حدود!».

«تسلسل القتل؟».

«السجل طويل جداً يا أبتي».

«وماذا؟ ليكن طويلاً».

1 - أكبر حزبين سياسيين في ألمانيا الغربية.

«قلت إنه بقي داخل تقويم جوزيف فرانس».

«عد بالتتابع!».

كان جوزيف فرانس محنياً يعزف فوق جوزفينا وأطفالها. وريح مظلمة تضرب الأغصان كعظم يدق النوافذ. يتوالى خوار البركشيريين وعواء الكلاب، يتخللها في بعض الأحيان صوت ناقوس قديم مبلل آت من واد بعيد، وصوت مزاريب المطر وانهماره فوق الأسقف التنكية من كل الجهات. أعطى بوداك إشارة لمارك كي يتوقف عن العد. توقف مارك بصعوبة. ثم تعانقا وصاحا بصوت واحد كالجعير:

«ليعدم أي واحد، بدون اعتبار لماهيته وأصله، يعتقد أن ذلك الوطن، تلك الجمهورية اليوغسلافية العفنة هي شيء ممكن! باسم حقيقتنا وعذابنا وتلك الرغبة المزروعة بعمق في قلوبنا لحياة أخرى، لحرية أخرى ووطن آخر باسم جوزفينا!».

كان المايسترو العجوز يعزف. «وأي يوم سيبزغ بعد لحظة؟».

«العاشر من نيسان ١٩٧١!» همر مارك خائفاً من انهيار بوداك المصفّر على الأرض وهو يقول:

«بالضبط قبل ثلاثين سنة، أعلن قائد خرفاتيا الأول الكبير الدكتور انته بافيليتش قيام دولة خرفاتيا الحرة. وفي اليوم التالي اعترف بها موسوليني وهتلر! وأول ما فعلته خرفاتيا الحرة كان إعلان الحرب على أمريكا. فاجتمعوا في البيت الأبيض. وكما ترى فمن أجلنا أيضاً يمكن أن يجتمع البعض، ليبحثوا في إعلان الحرب هذا.

أداروا مجسم الكرة الأرضية. فردوا الخرائط. سحبوا رسومات العوالم المنقرضة. لكنهم - حسبما زعموا - لم يستطيعوا رؤيتنا، ولا في أي قارة نكون! كم كانت الإهانة جارحة! أن لا يعرف الأمريكان موقع دولة خرفاتيا الحرة! وبما أننا لم نحصل على جواب حتى اليوم، فإننا لا نعتبر الحرب منتهية، ولن تنتهي، ما دام يلعب في تلك الدولة المنخورة الأرثوذوكس، والبروتستانت، والصرب، والاشتراكيون المبتورون والماسونيون!».

كان جوزيف فرانس قد قارب على إنهاء تخيلاته الموسيقية الليلية على الكمان. فوافق البركشيريون بصوت راعد وخوار موحد على ذلك. كان هذا تصفيقهم الحاد له. توقف العواء. وغرق صوت الريح في الصبح الطالع ليوم جديد كالعيد. كان مارك ثملاً، تقوده أفكاره للشجرة المنخورة والشيء الذي وضعه نيكو في جوفها. أحس أن تنفسه يكاد يتوقف. أراد أن يسمع صوت قلبه، لكن بوداك قطع عليه ذلك السحر. كانت الدموع تنهمر من عينيه الزجاجيتين كعيون مرضى الصرعة.

كان مارك يصب لنفسه المشروب قاطعاً البيرة بكأس من العرق، ثم العرق بكأس من البيرة. ذكر الرقم أحد عشر، مما أعجب بوداك جداً.

كاد بوداك للحظة أن يتعثر ويقع فوق الكرسي الذي وضعت فوقه عدة القسم والشعارات. ضغط بيده على قلبه، حشرج وغرب بعينيه، ومد رقبته بدفعها للأمام جانب الجذع والبلطة. أدار رأسه المخمور تجاه خريطة دولة خرفاتيا المستقلة واحتله بكاء متشنج.

بكت الأصوات أيضاً. تلك الأصوات التي كانت قبل قليل - إذا أخذنا بعين الاعتبار الدخان المتسرب، والرائحة الكريهة، والموسيقى التي جاءت من هناك - تقود باتجاه أكبر مسرح وأضخم صالة كونشترتو. ندبوا. جعروا وكأن حباهم الصوتية في مكان ما تحت الأرض، خلف الجدران، أو في الحنجرة الثكلى، تنمطّ وتتقطع، ثم تتحد ثانية، ليصبح العواء والتأوه أضخم وأكثر دواماً.

حينما فتح الباب كان مارك ينظر لبوداك، وقد حمل بيده كيس التبغ والقفازين الرسميين والإبر الصدئة لفقء العيون. تحادثا، جعرا، أطلقا أصواتاً غريبة في آن معاً. جاءا على ذكر العرق، والقديس أنطوان الدلماتيني، ونهر السافانا، وسوجا ودرينا، الديناميت، البيرة، الأطفال البركشيريين ذوي الوردة البيضاء السحرية على الجبين. ولو أنه نظر إلى هناك حيثما كانوا يخمشون خدودهم، ويكرعون من الزجاجات الكبيرة، لوجد ما يراه.

كان بوداك يعود من غيبوبته، وقد ارتخى وجهه، وفرغت عيناه. رفع رأسه عن مسند الكرسي ومسح الزبد عن فمه، وسأل:

«يا ابن الكلب، على من سنهجم، أنا وأنت، في فجر يوم جوزفينا الكبير هذا؟».

«على شركة الطيران اليوغسلافية يا أبتي! على السفارات والقنصليات، وفروع الشركات اليوغسلافية أو ما شابهها من الحكومات؟».

«قل!».

«لا أريد الكلام كثيراً. سأفعل! أعيد: سأسبق خوارق البطلين انجلكو وميرا. اللذين انقضا بعد تنظيفهما بحليب جوزفينا على سفارة يوغسلافيا في

استوكهولم قبل ثلاثة أيام في ٧/ ٤/ ١٩٧١، وجعلا من جسد السفير رولوفيتش منخلاً[1]. سأوثق هذا الصباح السفير أو القنصل. سأقطع أذنيه وهو حي، وأنفه، وخصيتيه. سأبول فوق جراحه، حتى تكتب الصحف الاشتراكية الديمقراطية، والصحف الأخرى المصابة بتصلب الشرايين في أوروبا ما بعد الحرب عن حدوث جريمة سياسية لم يحدث مثلها طيلة ثلاثة أيام، أي منذ ٧/ ٤/ ١٩٧١ حتى الآن. ولم يشاهد ولا سمع بمثلها أحد! سأجعل الأجساد كالمصافي، سأذبح أو أخنق كل موظفي ذلك الماخور الذي يسمونه سفارة. سأسحبهم وأكومهم حول رئيسهم مقصوص اللسان، مفقوء العينين والقلب والخصيتين، حتى يستطيع المصورون في هذا النصف من الكرة الغربية المقلوبة الدائرة في فلك الشيوعية، أن يسحبوا صوراً للذكرى والخلود! وإذا ساعدني الوقت، سأحفر على جباههم جميعاً وخدودهم أول حرف من اسم جوزفينا! ليكن ذلك إنذاراً آخر لهذا العالم!».

تعرّق مارك من مجرد التفكير بالسكاكين والديناميت، التي ابتدأ باستعمالها منذ وصوله إلى هنا، خصوصاً بعدما التأمت جراح يديه. كان الخمر والدم يضربان بصدغيه. وكان متجهاً بوجهه نحو كرسي الآلات وجذع الشجرة مع البلطة. ولم يجرؤ أن ينظر لفورتيتش، وبركلو، ودازلينا، الذين كانت تغطيهم الدموع وهم يحشرجون أمام خارطة دولة خرفاتيا المستقلة، ويغرسون السكاكين بالأبواب.

---

1 - حادثة حقيقية: اغتيال القنصل رولوفيتش في السويد على يد الإرهابيين الخرفاتيين. - المترجم -

كان الرجال الثلاثة الآخرون المحمومون في النشوة المجنونة، بخدودهم المجرحة، يمسكون بتلابيب أنور. لم يحاول الخلاص. ولم يكن مارك ليجرؤ على تركيز بصره عليهم لأكثر من لحظة - لحظتين. وتابع وهو يتمعن في عيني بوداك القديمتين الملتهبتين:

«لكل خطة نضعها وننفذها أحصل على / ١٠٠/ مارك ألماني نقداً، واكتساب الحق في العمل أحياناً لحسابي في القطارات والمحطات، إضافة لرؤوسنا، أقصد رأسي الذي أهديتموني إياه بكل رحابة صدر. لقد وقّعت مختاراً على ما يلي: إن حياتي ليست ملكي، بل ملك جوزفينا. وإذا لم أنجح في سفح أكبر كمية من الدم الدبلوماسي فسأدعهم ينتزعون مني وأنا حي، عضواً إثر عضو. أن يقتلع لحمي، أن تقطع شراييني، وأن يرمى كله أمام خنزيرة الأمل وأمام أصغر أطفالها!».

عندها صاح أنور:

«وأنا وقّعت أيها الرجال الطيبون!».

«أنور، قل على ماذا وضعت توقيعك!» قال بوداك.

كان فورتيتش وبركلو ودازلينا قد لبسوا لهذه المناسبة ألبسة بحارة دانمركين، ووقفوا يسندون أنوراً، جاعلين من أيديهم سوراً حياً. كان العرق والبخار الوسخان ينهمران على وجنتي أنور وعنقه الرفيع، بينما كان يريهم بيده اليمنى الملفوفة كيف وقّع. حشرج:

«سأنظف شوارع الألمان ومراحيضهم، كما فعلت حتى الآن، سأحفر أنفاق القطار تحت الأرض في ميونخ، وسأحمل وأجرّ كرجلين كما فعلت حتى الآن. سأبني وأتعلق بالصقالة، كما فعلت حتى الآن، وكل ذلك نهاراً.

ليلاً سأسرق، وأحمل لكم، كما يليق بمسلم عُمِّد مسيحياً! سأبحث في المحطات أنتظر القطارات، سأنهب من اليوغسلاف والعمال الأجانب البلقانيين الآخرين: جوازات سفرهم، الماركات الألمانية، حتى (الفراطة). سأسرق قبعاتهم، أمشاطهم، رسائلهم! أما أولئك الذين يبدؤون بالنواح أو الصراخ، والذين لا يشتمون الله، فمعروف ما سأفعله بهم: سأدفعهم خلال الباب والقطار بأقصى سرعته! سأحضر لكم وأنت تكومون. وسيصبح لديكم بسرعة أكثر مما لديكم الآن من الكلاب والخنازير. سأفعل كل شيء كمسيحي، وبالضبط ككاثوليكي عُمّدَ حديثاً. سأوقع لو وعدتموني كأخوة في المسيحية بأنكم لن ترموني حياً أمام جوزفينا، وأنكم، إذا ما حصل لي مكروه، سترسلون لأهلي الفقراء في دوبوي بوسنا في عيد الفصح المجيد وكل الأعياد المسيحية الأخرى، أحذية مستعملة، جوارب مهترئة، فراشاً تبنياً، أي شيء يلتحفون به...».

«أنور، أنا ذاهب!» قال مارك.

«مع السلامة» أجابه أنور، وهو يرفع رأسه فوق أيدي البحارة: «ولتحقق بإذن الله كل ما تفكر به!».

«أنور. سرّ على هداي!» قال مارك، وهو يرى كيف تخاذل السور الحي لأيدي البحارة، وكيف انهار العملاق وارتطم بالأرض. تابع مارك كأنه يحدّث نفسه: «أنور، إذا استطعت الخلاص منهم هذه الليلة، فسأعيش مئة سنة! سأتحرك، كما في السابق، في المحطات والقطارات. وهناك سنلتقي!. سأقودك معي. سترسل لأهلك الفقراء المسلمين في دوبوي - بوسنا. لن يتجمدوا من البرد، لن نسمح أنت وأنا بذلك!».

«يا ابن الكلب، أيعرف أنور معنى السير على هداك؟».

«اسأله يا أبتي!».

«سأضع الديناميت مكان ما أؤمر به!» قال أنور، وهو ينهض راكعاً على ركبتيه:

«تحت عتباتهم، في مدارسهم، تحت سياراتهم وقطاراتهم! سأبقيهم بدون تماثيل ولا أضرحة ولا شواهد، بدون عظام أجدادهم! هناك في الجنوب، في يوغسلافيا. أما هنا فسوف أختطف أولاد الدبلوماسيين، سأبتز أهاليهم، سأخيفهم بجوزفينا آكلة اللحم الآدمي. سأقذف في السفارات والقنصليات ومكاتب التمثيل وبيوت وبراكات عمالهم الأجانب، كل شيء أسود يمشي: الخفاش، الفئران العمياء. العنكبوت، البومة، العقبان، الكلاب، القطط، الجراد الصحراوي، القمل، الخنازير السوداء. سأكون مسيحياً مستقيماً!».

اقتحم ثلاثة من القتلة الباب الذي لم يكن مارك يعلم بوجوده بمعاطفهم التي لا زالت تنقط مطراً، ورموا أمام قدمي بوداك كيساً بداخله إنسان حي يختنق. فتح دازلينا وفورتينتش وبركلو الكيس ليسحبوا من داخله فرومكين. كان رثاً، مخمّشاً، ببزة البار، مليئاً بالكدمات.

كان يهذي مازجاً اللغتين الروسية والألمانية مع لغة مختطفيه، وهو ينظر تجاه مارك ويبكي:

«باشوشكا، بأي معمل نحن؟».

«معمل أشمداي يا فرومكين. أنت في شبكته يا صديقي».

«ماذا قلت؟» قال بوداك وهو نصف ثمل.

«كنت أحييه».

«يا ابن الكلب الأرثوذوكسي، لعلك نقلت لهذا اليهودي الوسخ شيفرة ما».

«لم أفعل».

«ذكرت أحداً...».

«أشمداي بلغته العبرية هو شيء شبيه بجوزفينا. قلت له أن يرضخ لكل شيء إذا لم يشأ أن يبتلعه الظلام».

«ومن أين تعرف الروسية؟».

«كل يوغسلافي كان مسجوناً يعرف الروسية بطلاقة».

«قل له إننا نتابعه منذ سنوات، وإننا نعرف كل شيء عن منتداه الأرثوذوكسي اليهودي أوديسا في ميونخ، الذي يكرعون بداخله العرق اليوغسلافي، والكفاس الروسي، والفودكا البولندية، وتسوكا الرومانية، وأقل شيء البيرة الألمانية. منتداه الذي يجعرون بداخله ويندبون بأغاني عن نهر الدانوب والدونا وفلاتفا ودنبير. قل له إننا نعرف كل شيء عن هذه الجورة العفنة التي تغلي بها الشهوة المجنونة. ونعلم أنهم يدفعون بالماركات المزورة ويشتمون ويبصقون على الأرض!».

«سأقول له يا أبتي».

«تجلب أوديسا له المال، ولهذا يحضر الآن هنا!. ليقل لنا كم يملك، ليعطنا الثلثين. كما يجب أن يتعهد لنا بالإرسال المنتظم، عشرة آلاف مارك

ألماني شهرياً. إنها (فراطة) بالنسبة ليهودي. وإذا لم يملك هذا القدر، فليأخذ من إخوته المشوهين، المتهالكين في ميونخ. أقنعه بهدوء، سيفهمك أكثر: الإ - ت - ا - و - ة!».

«فرومكين، صديقي، يقولون إنه بإمكانك دفع ثمن خلاصك. لا تبكِ، ستعطيهم كل ما تملك. سيتركون لك حالياً رأسك، عينيك وأصابعك. مما سيتيح لك الوقوف ثانية على قدميك. أشمداي ليس أبدياً كما هي الحياة أبدية!».

«يا ابن الكلب، لا أبدي سوى جوزفينا!».

«فرومكين، أذعن لكل شيء. وسوف تفتتح أوديسا ما جديدة على سطح الأرض. أوديسا جديدة نأتي إليها جميعاً. وستملك ثانية أحط بار في العالم، بعجائزه البافاريات على المسرح، وضيوفك السابقين الذين سيتبعونك حيثما ذهبت. سنساعدك، لا تخف. ستنبع النقود حتى ولو كانت مزيفة، ستهدر الأغاني. فالحياة مهما كانت.. هي حياة!».

«مارك، لن نتقابل ثانية أبداً!» بكى فرومكين، ويداه لا زالتا موثقتين.

«فرومكين. أطعني! هل باعك المجري مثلي؟».

«لو أنه قتلني وسلبني لكنت فهمته. أيبيعني كحيوان، كشيء!».

«فرومكين، المجري تعيس. المجري ينتقم من الناس، ببيعهم وشرائهم. لننساه!».

«سأذبحك يا كولار» قالها فرومكين شاهقاً «سأقتلك، سأقتلع قلبك حتى لو طوقتك مئة غوريلا!».

«يا ابن الكلب ليذهب إلى إسرائيل إن كان يريد الانتقام!» قال بوداك وهو يضغط زند مارك: «إننا نحذره من مجرد لمس المجري!».

«سأقتل المجري أيها اليوغسلافيون!» قال فرومكين وهو يقفز «سأذبحه لكم بأسناني!».

«لسنا يوغسلافاً! لينقطع لسانك!».

كان بوداك ومارك أمام القصر. وكان المطر ينهمر. وقبل أن يقول بوداك إن فرومكين هو اليهودي التذكاري العاشر أو الحادي عشر منذ استسلام ألمانيا المخزي عام ١٩٤٥، التفت مارك، ولاحظ شمعة تحترق في إحدى الغرف من ذلك البناء المهترئ المتداعي الذي جلبوا له وحوله غائط الخنازير وخلطوه بغائط الكلاب.

كان جوزيف فرانس بجانب الشمعة. وبدا كأنه قد أسند جبهته وأنفه على النافذة، لكنه لم يكن كذلك. لم تكن القبعة النمساوية على رأسه ولا المعطف، فبدا صغيراً بدون قوة، كواحد لن يستطيع العيش حتى ١٠/ ٤/ ١٩٧١. كانت الأغصان الجرداء تضرب النافذة، والريح تحني لهب الشمعة، فارتسم خياله على الجدار كبيراً كسلم مصغّر متحرك.

راقبه مارك للحظة كاملة، ببرود وتعجب، بدون كراهية. تحرك جوزيف فرانس تجاه النافذة، حياهم بهذه الطريقة، فتوضح لمارك أن دراكولا لا يحمل بيده فحماً، ولا خنزيراً أسود، كما رآه في مرات عديدة، وأن هذا الجبل الليلي الأسود المضاء من أطرافه هو جسمه القديم الجريح النازف.

كانت الرفوف خلفه مليئة بتلك الكتب، والتقاويم السميكة، الموازين، الزجاجات، والأوعية الفخارية. وهناك حيثما كان يقف جوزيف فرانس

قبل قليل وراء الشمعة، كان المجسم القديم للكرة الأرضية، وشيء أشبه بهضبة صغيرة من البنادق المتحفيه علت رؤوسها حراب وصلبان مكسورة يعلم الله عن أيّ ومن أيّ صدور اقتلعت. وفي اللحظة التي أسرَّ بها بوداك لمارك أن سيارة الريكورد قد سخنت تماماً، رفع جوزيف فرانس من منطقة نصف مظلمة الكمان بيسراه الصحيحة وهيأه. ومد يمناه الخشبية بتأن، كأنها يد مصابة فقط. ثم سحب قوس الكمان فوق الأسلاك، فانهمرت الأصوات، وتمايل بتأثيرها لهب الشمعة. جعرت الخنازير، وقفزت الكلاب مسعورة حول جنازيرها. وانبعث صوت دقات رطبة من ناقوس كنائسي بعيد متمازج مع الضباب فوق قصر الغول. ثم جاء صوت جرس هاتف انبعث فجأة كأنه من عالم آخر، من الحرية، لكن أحداً لم يرد على رنينه المتواتر.

ضرب ناقوس الكنيسة ثانية من الجبل. كانت الروائح الكريهة تنبعث بصورة جهنمية من كل الجهات. مادت الغابة، اهتزت الجدران، صارت الأرض غير ثابتة تحت الأقدام، فحسب أنهم سيغرقون.

كان المايسترو القديم يعزف. وقد تهيأ لمارك، ولأول مرة منذ مجيئه لوادي الخنازير، بأن الكثير من الأسلاك والكابلات والهوائيات والروابط تتداخل لغرفة الشمعة، المكتظة بألبسة الجنود المليئة بالدود والهياكل العظمية. وبأن عازف الكمان، ذا الوجه الأخضر والدم النباتي، ليس وحيداً، وليس ملعوناً. وبأنه كان في وضعه هذا ومعزوفته في هذا الوقت من الليل والسنة على أقوى اتصال بكل عالم المجانين المسعورين الجوزفينيين، الذين لا يمكن لمارك أن يتفق معهم أو يؤيدهم على الإطلاق.

«أشمداي!» قال مارك في سره، وهو يتذكر جوزفينا، تخلله قشعريرة رهيبة. ثم فكر بفرومكين، الذي حدثه منذ أيام ميونخ، بأن الشيطان، خصوصاً ملك الشياطين أشمداي، يظهر أحياناً متقمصاً بأشياء حية، وأحياناً ميتة، وعلى الأكثر بصورة حيوانات بلون الفحم. «وداعاً إلى الأبد يا جوزيف فرانس، يا أعجب وأرهب من أي دراكولا في هذا الكون. وداعاً. وأود أن يصلك الخازوق البلوطي»[1].



1 - تقول الأساطير إن الغول لا يمكن قتله إلا بغرس الوتد «الخازوق» في قلبه. - المترجم -

الفصل الخامس

يا وطني الوحيد، لا تسمح لهم أن يبصقوا على ابنك!
من سيبول دماً؟
من سجل المحيين.
لماذا الله ليس مسيحياً؟
أهو الوطن الذي قال: يا ولدي المذنب، امسك ذنب الخنزير الأسود ذا الوردة البيضاء بين عينيه!

«إلى الوداع أيها الحاكم!» قال بوداك بخشوع، وهو يلوح لعازف الكمان الشارد «سننفذ أوامرك ورغباتك، حتى لو طارت أشلاؤنا نحن الاثنين مع كمية ديناميت كهذه!».

فتح باب سيارة الريكورد. كان المحرك يهدر.

لاحظ مارك أن لوحتي سيارة الصالون القديمة. التي كانا يقفان خلفها، قد غلفتا بخرقة مبللة وجرائد عتيقة. «لم تفعلوا ذلك جيداً.!.» كاد يقولها، حينها لاحظ أن الرجال في تلك السيارة قد وقفوا عند النافذة يرمون زجاجات فارغة وعلب كونسروة وأعقاب سجائر. كانوا يغنون، يبكون أو يتقاتلون. جلس بوداك خلف المقود، وفتح الباب الأيمن.

«يا رئيسي. أتسمح لي أن أبول؟» سأل مارك، وهو يلاحظ المسدس في يمنى بوداك.

«تبول عني أيضاً يا ابن الكلب، ما دمت بجانب الشجرة!». تحركت سيارة الصالون ببطء. كانت الكلاب مسعورة كالوحوش. من المؤكد أن

موسيقى البارون الغول قد أهاجتها لهذه الدرجة، تلك التخيلات الغاليـة[1] والرقصات البلقانية والموشحات الأرديلية.

ولعل ماء النبع الذي علا صوت خريره خـواء البركـشيريين هـو الـذي اقتلع أقرب الأشجار وهدم بعض الجـدران القديمـة، وإلا فإنهـا القيامـة في بعد مليء بالضباب والموسيقى وصوت الهاتف الذي لا يرد عليه أحد. كـان صوت محرك سيارة الريكورد منتظماً. وقد تهيأ لمارك أن نافذة غرفة جوزيـف فرانس مشقوقة، وأن عيني عازف الكمان الـدبقتين المخـاطيتين الخـضراوين النباتيتين تنظران إليه فقط، وهكذا تملكه الرعـب لأول مـرة مـذ خطـى مـع بوداك في المطر والريح والحرية. عاد من أفكاره السوداء إلى الأرض، وشاهد خروج الدخان الأسود من عادم سيارة الصالون.

«هل سيساعدني الـرب؟» كـان يرتجـف. يبـول وهـو يخفـي يـده تحـت الكاب. مدها نحو الشجرة.

«يا إلهي إذا كنت موجوداً، وإذا كنت حاميـاً حقيقـاً لأولئـك الـضائعين وهـم يبحثون عن حب نظيف وعدالة وصداقة، يا أدوناي فـرومكين، يـا الله أنور، يسرّ لي تلك السكين! يا إلهي، الذي تُوسل إليك جداً وشُـتمت جـداً. أيها الإله الأرثوذكسي، الذي لم أؤمن به في حياتي بصدق، هيـئ لي الـسكين، إذا كنت لا تستطيع أن تصنعها وتشحذها وتضعها بسرعة مغروسة في لحـم الشجرة والمقبض نحو يدي التي ستأخذها! نيكو، أخي من ريكا، لعلـك لم تمزح معـي وقتهـا؟ إذا وجـدت الـسكين، فأنـت يـا نيكـو الإلـه ولا أحـد غيرك!».

---

1 - نسبة إلى بلاد الغال - فرنسا. - المترجم -

«تبول جيداً!» أوصاه بوداك من خلال النافذة، وهو عكر المزاج لأنه لم يستطع أن يجد على محطات الراديو شيئاً سوى غناء رجال الجيش الأمريكي السابع، وموسيقى رقص سريع. «لن نملك الوقت فيها بعد!».

«كيف؟».

«بعدها سيبولون هم، دماً!».

«سيبولون من أفواههم يا أبتي!» قال مارك وهو يقترب من الشجرة أكثر وينظر إلى سيارة الصالون وهي تنزلق أمامها ببطء.

«اعصر كل شيء ولنشعل لفافة».

تزحلق مارك عن قصد، فشتم بوداك المطر والأرض الوحلية ولوح بمسدسه البارز مع يده من نافذة السيارة. لامست يد مارك السكين ذات النابض بنصلتها ذات العشرين سنتيمتراً. اقتلعها وأدخلها تحت الكاب في أحد كميه. وقال في نفسه إن نيكو هو الإله الوحيد الذي لا يكذب. ثم استدار باتجاه بوداك: «وقعت يا أبتي».

«يا ابن الكلب، ليس في هذا اليوم!».

جلس مارك جانب بوداك. ضغط العجوز دواسة البنزين فانطلقت سيارة الريكورد بخفة ودارت حول سيارة الصالون التي جعر الرجال بداخلها. كانت الريح تشيعهم، وعواء الكلاب وخوار الخنازير الذي لا زال يسمع حتى الطريق، وحتى النبع.

«ليكا يا أمنا، دلماتسيا يا أختنا، اسمعاني لن تكونا مسرورتين حينما تسمعان عما حصل لنا في ألمانيا». كان بوداك يغني، بصوته الثقيل مثل حركاته، مما جعل الأغنية ممطوطة وحزينة حدَّ الاشمئزاز. ذكر الأمهات

الأرامل، الأخوات فاقدات الشرف، الأخوة والأولاد المشردين في الدنيا، القرى مسقط الرأس، كرز بافاريا الحامض، الغربة والرطوبة اللتين تهاجمان في وقت واحد العظام والروح معاً. كانت سيارة الصالون خلفهما عن قرب، ترسل لهما صوت بوقها أحياناً وأحياناً أضواءها. أكمل بوداك الأغنية. وبدا كأنه سيتقيأ من الحزن والأغنية التي كانت تتحول إلى ندب ممطوط ذي قافية. ولم يعد مارك يلاحظ سيارة الصالون. قال بوداك: «أيها البطل، قبل لحظات نظرت باستغراب في عيني. جمدتني!».

«يا أبي، نظرت إليك بعفوية. لن أكررها».

«انظر كما يحلو لك!». تحسنت قيادة العجوز عما كانت عليه وقت غنائه النادب «ولا تنسى أن العيون الفارغة، المعذبة والباكية، هي عيون الناس الذين لا وطن لهم، لا عائلة لهم ولا حرية، عيون اللاجئين السياسيين والهاربين من أوطانهم!».

«يا رئيسي، ستصبح عيناي بعد قليل مثلهم أيضاً. قدر!».

«قدر تقول؟». لم يعد بوداك يبكي، لكن شفتيه وذقنه المحفورة بوضوح تحركتا بدون قدرة أو طاقة حقيقية. «قدر تقول؟! أجل قدر، لكنه خنزيري. ففي البداية تحب وطنك، وتجاهد من أجله. تنزف وتفخر بدمك النازف. لكن الوطن الغالي يلفظك على مزبلة غريبة، نازفاً مثخناً بالجراح والدموع. فأين المعين ولا شيء سوى الليل والغربان. فتقول محشرجاً: يا وطني الوحيد لا تسمح لهم أن يبصقوا ابنك. لكنهم يطردونك من فوق المزبلة مشفوعاً بعواء الكلاب وأبشع النعوت، كما لفظوني قبل نيف وعشرين من السنوات. فتحزن باطراد لمسقط رأسك، للكنائس والمقابر والأغاني باللغة

الأم. وتغدو نازحاً غريباً تائهاً لا تتبين شرقك من غربك. فتتبع أناساً يستحيل عليك حبهم، لأنهم أدركوا اتجاههم، وعرفوا جهات العالم والتوجه الصحيح، وامتلكوا بيتاً وصليباً معلقاً في مكان ما بداخله. فتحاول وأنت منهك تجر أسمالك، مساعدة الوطن. تناجيه: ليس هكذا أيها الفقير.. ليس هكذا بل هكذا يا أختي التي أضاعت شرفها، يا وطني الكبير بدون قلب. لكن وطننا مثل كل الأوطان لا يسمع ذلك ولا يراه، ولا يهمه كل ما عنكب حول عينيك من تجاعيد، وكل ما احتواك من الوساخة والعفونة. فتنحني وتتقلص وتنزف مثلي حتى الموت. وتستفيق محشرجاً ذات ليلة لتصرخ يا وطني، يا بغياً بدون قلب لا تشبع. ثم تنتصب لتحبك الانتقام وأنت متجمد، جائع، قاتل، شارب دماء. فتحرق، كغول لاجئ هارب، كل ما تبقى من وطن أبيك بعد كل كوارثه، وتخنق بيديك قلبك المعذب، وتنقضّ على أرواح غريبة، على رأسك الفقير المشتاق حتى الجنون من لوعة الوحدة والهجران».

«والإله يا أبي؟ الذي طالما حدثتني عنه وأنا أتمرن على الركض والقفز فوق الحواجز حينما كنت أذبح بأسناني السفراء المصنوعين على شكل ألعاب، والقناصل المصنوعين من الكاوتشوك وجلد الخنازير. الذين كانت تنفر من عروقهم دماء الكلاب والماء الملون بالأحمر، حينما كنت أخنق البوابين والموظفين والغوريليات..».

«آه، الإله!». توقفت يدا بوداك عن الرجفان. وضغطت الأصابع الهرمة المقود بشدة. «الإله هو الضياع! الإله يفكر بكل الناس ما عدا بخرفاتييه هنا!. الخرفاتيون لم يعد لديهم إله!. لا نملكه!. عموماً آمنت منذ زمن بعيد

أنه قد أحب الآخرين أكثر، مثلاً أولئك السينائيين هناك في الجنوب. آخر إله لنا كان أدولف هتلر، الذي صفرت في جمجمته رصاصة حجرية روسية أو ديمقراطية اشتراكية! فكيف نعيش الآن بدون دين ولا مثل أعلى، لا يمكن!. ممن نخاف؟. بمن وبأي شيء نتمسك؟».

«بذنب الخنزير الأسود». سكت بوداك. ولأول مرة منذ بدأا حديثهما، نجح باستجماع وتقليص عضلات جبينه وحول فمه ليعبس كلاجئ سياسي حقيقي ذي خبرة طويلة. حتى إن صوته أصبح أرفع، كلبيّ، يتناسب مع قوة كفيه اللذين كادا يقتلعان المقود، ورجليه اللتين تضغطان بعنف في الظلام على الدواسات.

«لو كان الإله كما يجب، مسيحياً وكاثوليكياً جيداً وسياسياً، لما سمح بسفح كل ذلك الدم الأصيل الاستروغيني في كل الجهات من هذا العالم المجرم، الناكر، الأطرش بالنسبة لنا. ولم يكن ليسمح لفرع مقاومة التجسس اليوغسلافي، أقصد الصربي، أن يعتقل كل هذا العدد من أبطالنا ورجالنا الأوائل!. أن يقضي علينا فعلياً، طيلة السنة، وعلى الأكثر في الشهر الرابع نيسان، وقت احتفالنا بعيد ميلاد جوزفينا وتوسع الهتلرية على أراضينا، وتأسيس دولة خرفاتيا الحرة!. أن يحصدنا كلنا وبكل شيء، وغالباً بالرصاص الألماني الساخن فالتر عيار ٧.٦٥ ملم، وشيفرتهم وأسرارهم! ونحن لا ذنب ولا خطيئة. أنصبح حيوانات للصيد لمجرد كوننا الآريين[1] الوحيدين في البلقان كله وإيماننا بالعوالم الموازية؟ حيوانات لا تتمتع حتى

1 - العرق الآري هو الأنظف والأقوى والأحق بالحياة - نظرية هتلر في تصنيف الشعوب. - المترجم -

بفترة منع الصيد ولا منذ عشرين وأكثر من السنوات!. قائمة موتانا طويلة جداً. سأذكر فقط الأسماء التي ينفطر قلبي أكثر ما ينفطر من أجلها!».

«أسمعك يا أبتي! كما سمعتني!».

«١- يوم ٩/ ٤/ ١٩٥٧، بالضبط قبل أربعة عشر عاماً، أطلقوا النار في بونس آيرس - الأرجنتين على حبيب هتلر وموسوليني، الدكتور انته بافيلتيش أول وآخر رئيس جمهورية لدولة خرفاتيا الحرة. ومن تلك الجراح السينائية المسمومة المكتسبة وقتها، مات معذباً بشناعة في ٢٩/ ١٢/ ١٩٥٩، على أيد أخوية دافئة للجراح وعالم الأبراج والنجوم كاردينال مدريد!.

٢- يوم ١١/ ٤/ ١٩٦٩ - أي تاريخ! لقد ذبح بسكينتين مثلمتين في سارساغانتا - إسبانيا جنرالنا الشهير وأفضل قائد لمخيم التعذيب ياسينوفتس، فيكوسلاف لوبورتيش ماكس. كان قاتله إيليا ستانيتش، الذي كان قبل ذلك مجرد عامل مطبعة، وهو الآن مدير عام لفندق على البحر الأدرياتيكي، حيث يستقبل السياح الألمان الحيوانات، الذين يركضون إلى هناك في الجنوب وكأن البحر الأدرياتيكي هو الوحيد المالح!.

٣- يوم ٣٠/ ٤/ ١٩٦٩، في ميونخ، شُطب من قائمة الأحياء موحد الخرفاتيين في ألمانيا المهندس ناهد كولينوفيتش خنقاً باليدين داخل بيته ومكتبه! ولم يجدوه إلا بعد اليوم الثالث وفي حجره خنزير صغير أسود ميت!

٤- يوم ٢٦/ ١٠/ ١٩٦٠، أيضاً في ميونخ، جعلوا من جسد ميلان روكافينا مصفاة تصفر فيها الريح. كان رئيس الخرفاتيين المتحدين في ألمانيا، ورئيس تحرير جريدة الحرية الخرفاتية، مع مساعديه كريشو وفيد. قاتلهم

ألماني من حزب SPD[1] لكنه مرتزق من بلغراد اغتالهم بمسدس فالتر عيار ٧.٦٥ ملم!.

٥- يوم ٩/ ٤/ ١٩٧٠، وأمام صيدلية المحطة في سالزربورغ - النمسا، غرست سكينة يوغسلافية مثلمة في رئة جزويتنا، بينيتا جوركان. وحتى الآن لم يقبض على قاتله النمساوي ليلقى به حياً أمام جوزفينا!.

٦- يوم ١٨/ ٤/ ١٩٧٠، خنق أشهر صحافينيا ورئيس تحرير مجلة ستوديو خرفاتيا، إيفوبوغدان في بونس آيرس. وعندنا بصمات الأصابع اليوغسلافية المجرمة.

٧- يوم ٣/ ٤/ ١٩٦٨ قُطع ندلكو ماركونيتش قطعاً أكبرها بحجم الكف في بيته الباريسي.

٨- يوم ١٤/ ٩/ ١٩٦٧، رشوا ميلان شيموندينتش في شتوتغارت، من مسدس فالتر عيار ٧.٦٥ وبإحدى عشرة طلقة. ثم حفروا على جبينه صليباً معقوفاً. وقد كتب على قطعة الورق التي وضعت فيها عيناه المقلوعتان: هذا إثبات أن جوزفينا تجتر أطفالها!.

٩- يوم ١/ ٤/ ١٩٧٠، مثل هذا اليوم، مات البطل المهاجم الصنديد تريبو آغابابا من لغم انفجر بين يديه قبل وقته. كان في التاسعة عشرة. والسؤال هو من وقّت الآلة الجهنمية حينها؟!. قلنا انتقام! فنحن قتلنا للفرنسيين بارتو عام ١٩٣٤ وهم آغابابا عام ١٩٧٠!».

قال مارك إن ذلك أمر ممكن الحدوث لأي إرهابي، ويمكن أن يحدث لهما إذا لم يحترسا. لكن بوداك لم يسمعه. وتابع:

---

1 - الحزب الاشتراكي الديمقراطي - ألمانيا الغربية. - المترجم-

«ولن أحكي لك كيف قتل جوزيف سينيتش، إيفان توركاي، كينراباشتي. كيف ذبح يوزويليتش. كيف طعن بالسكين في براتو - النمسا عمر أفديش أدولف وابنه ذو الثماني سنوات أنطو. كيف سفح مخ ميريانا يانوث التاجر من زغرب في بروكسل، فقط لأنه آمن بالخنزير الأسود ذي الوردة البيضاء. وسوف أتجاوز المذبحة في كراش - النمسا، في مينز - فرنسا، في تريستا ونابولي وفيرونا - إيطاليا. وأفضل ألا أحدثك عن القتل السينائي البيزنطي بالغش والاحتيال في بورت هادلن كانبيري، في لوبك وكيل، في أوكس بورغ وبرلين الغربية، وعندما كانوا يضعون فوق كل قتيل ورقة كتب عليها الخنزير شر قاتل، وجوزفينا تشكل خطراً لمن يملكها أكبر من الخطر للذي توجه إليه..».

«يا رئيسي، ماذا سنفعل مع إله كهذا؟».

«نقتله، ذلك الدموي. لقد أثبت أنه يهتم بالصرب أكثر! سنقتل بما نحمله الآن الإله في الإنسان، والإنسان في إله كهذا. حتى يعم الجنون ويمحق العهر والرذيلة والشرك البروتستانت كلهم! حتى يغيب كل ما هو جميل، ويحل اللون الأسود. لقد استحقت الإنسانية ذلك. حتى يتشرد اليهود الوسخون في هذا العالم ويخنقوه بروائحهم العفنة! إنه الضرورة نفسها ما دام العالم قواداً لهذه الدرجة! حتى يصل الصربيون الملعونون إلى تريسّتا، كما حصل فعلاً للأسف. سنقتل الإله! أتفهم؟ هذه الليلة، أقصد صباحاً، بالألغام، بالديناميت، بالضبط في ١٠/ ٤/ ١٩٧١! سنوجه ما هو مكوم على المقاعد خلفنا ضد الإله! سيكون كفاية لهذا الخائن، إذا لم يكن فعلاً كما جاء في تقويم دراكولا!».

«يا رئيسي، كم أحب السرعة الجنونية!».

«لعلي أقود ببطء؟».

«قُد كما تريد!».

كان مارك يتعرق وهو يتحسس السكين تحت الكاب. كان يقلبها من يد لأخرى، ويشد على مقبضها. لم تكن سيارة الصالون خلفهم.

كانت الدموع تنهمر من عيني بوداك بصمت، وتقفز فوق عظمتي خديه البارزتين، المليئتين بالأخاديد، ثم تنهمر على يديه. ضغط دواسة البنزين لآخرها وقال:

«إضافة لليوغسلاف سنقتل السكان الألمان أيضاً، الليبراليين والمؤيدين للشيوعية والاشتراكية، أولئك البقر أعضاء حزب SPD فالألمان ليسوا كما كانوا سابقاً! صاروا يحيون بطريقة أخرى، وليس بكف مرفوع! سلاماً قصيراً، قوياً، صادحاً: هايل هتلر. الوحيدون الذين لم ينسوا هذا السلام هم اللاجئون السياسيون والفارون من أوروبا الشرقية! يخجل الألمان اليوم من معسكرات التعذيب الجميلة التي بنوها! يأكلون ويكرعون أكثر مما يجب، ويطردوننا من هنا. يقولون: اذهبوا إلى السويد، إلى أستراليا!. وكأنه من السهل النزوح عن ألمانيا قاصدين قبائل الكنغورا! أين سنذهب وكيف سنذهب مع هذا العدد الهائل من الخنازير؟!».

«الحق معك يا أبتي: ليذهبوا هم إلى نيوزلنده لا نحن!».

«سنغير أنا وأنت على يوغسلافيا، ولينمحق الوطن الأسوأ من الخالة زوجة الأب. سنجد ابني ليكا هناك في الجنوب، اسمه ألوزيا وأصبح الآن المطران ستبينا. سنقتله. سأقوم بذلك وحدي، لا تتدخل أنت! وكما يحلم

كل ولد بقتل أبيه، يحلم كل أب أن يجتث رغامى ولده. خصوصاً إذا كان الإله قد خان الأب! سمعت أنه جميل، أشقر، وبأنه سعيد مع أبنائه. سأقتل ابني والد أحفادي، حتى يفطسوا من الجوع هناك في الجنوب! ويذبلوا وتشح أعوادهم من الحزن على ألوزيا بوداك، الذي لم يَدق في صدره أبداً ومطلقاً قلب أبيه بوداك!. ألوزيا، لم تعد حياً في أفكاري، سأقطع لك بأسناني تفاحة آدم لأنك لم تبحث عني! ولأنك تجرأت على احتقاري ونسياني كلاجئ سياسي هارب فقير بدون مأوى! أتعلم يا ألوزيا أن اللص والمجرم الجالس بجانبي، وهو يتهيأ للاغتيال، يحرقه الشوق لأبيه أكثر مما أنت لي. لهذا انطلق ليبحث عنه، ليراه ويصفي حساباته معه! لو كنت مثله على الأقل، لو أنك انطلقت لتقتل، أقسم لك إنني كنت سأستسلم إليك!. ألوزيا، هذا القاتل بجانبي يبحث عن والده، عن صانعه، لهذا فهو بالنسبة لي كبير ومقدس، كائناً من كان، ولا يوجد شيء في الدنيا لا أضحي به من أجله، لمجرد أنه يبحث عن أبيه».

«يا رئيسي، وفيكتور أرتينوفيتش؟».

«تصور أن ابن الكلب هذا يبحث عن الاثنين! أبيه وخادعه! وأنت يا ألوزيا لا تفكر بالانتقام ولا من أحد! كأنك لا تجد من تنتقم منه ولماذا! عاقل أنت، خرفاتي مقهور بدون دين، بريء، عبد، يدوس عليه الأرثوذكس والصرب، والشيوعيون والخونة الخرفاتيون. ألوزيا، وجّه السكين وانقض عليّ أقسم لك بقدري اللاجئ الهارب، سأركع على ركبتي!. سأهيئ لك رقبتي حتى لا تتعذب. لطخ يديك بالدماء تتساوى مع الناس ومعي! وقبل أن تغرس سكينك في رقبتي يا ألوزيا، خذ قفازي الرسميين اللذين ألبسهما أيام الأعياد، وكيس التبغ، والحزام الذي طوله متر

ونصف، الذي أشد به خصري تحت ثيابي الداخلية. مصنوع كله من جلود آدمية! من جلود الأتراك والعرب والنور والصرب في معسكر ياسينوفاتس! ألوزيا، سأساعدك لتجدني، كما سأساعد هذا السينائي المتوحش الجالس بجانبي ليصل ويجد ويجتث إياه من حنجرته!».

«بوداك، أين أبي؟».

«لا يوجد كائن لا نستطيع إيجاده في ألمانيا أو النمسا أو السويد! تمتد صلاتنا وخيوطنا فوق الأرض كما تمتد تحتها! المافيا هي اللاشيء بعينه إذا ما قيست بالنسبة لنا! فالصقليون لا تعذبهم الأفكار لاحتلال العالم!. نحن نريد أن نبعث العفاريت والماضي، أن نعيد إلى اللون الأسود مكانه العتيد! وحتى كو - كلوكس - كلان[1] لا يوجد في شعارهم خنزير أسود بوردة بيضاء!. لنا صلات قوية في كل أجهزة الأمن في العالم الغربي، بل ولنا رجال. اشترينا بعضهم، وابتززنا بعضهم، ونظفنا بعضهم دون علمهم بلحم جوزفينا وحليبها! أبعد ذلك لن نجد عقبانك؟».

«ما دام الأمر كذلك فسوف تهطل الدنيا دماً قبل الفجر!».

«هل ستشعل لفافة من هذا الكيس؟». وغير بوداك مكان قفازيه من إحدى زوايا لوحة القيادة أمامه للأخرى، وضرب بغلاظة على الركبتين. «دخان أصلي، دالماتيني، يوغسلافي!».

«لا أريد» قال مارك، وهو ينظر إلى مؤشر السرعة خائفاً من اصطدام سيارة الصالون بمؤخرة سيارتها «لم أدخن منذ زمن، قد يضرب برأسي!».

---

1 - أخطر وأفظع منظمة إرهابية أمريكية يلبس أعضاؤها ثياباً سوداء لا يرى منها سوى العيون ويضعون الصلبان على صدورهم. يغتالون السود ويحرقون بيوتهم. - المترجم -

«لقد دخن بوغسلافي آخر من هذا الكيس».

«مرحى له» قال مارك مازحاً.

«ولبس قفازي».

«هذه مشكلته!».

«أراد أن يحصل على الحزام أيضاً».

«كان يجب أن تعطيه إياه!».

«يا ابن الكلب، إنه اليوغسلافي الذي تتمنى موته!».

«يا أبتي لا أعلم من يكون. وقائمتي ليست قصيرة..».

«فيكتور!» قاطعه بوداك: «فيكتور ارتينوفتش!».

«وهل وافق فيكتور أيضاً مثلي على كل شيء؟».

«حتى قبل أن نضع كفه الأيمن على الجذع ونقصه!».

«ولماذا قطعتم إبهامه إذاً؟».

«للذكرى!».

«وكم مرة تقابلتما مذ أطلقتموه؟».

«مرة واحدة فقط، في محطة نيرنبرغ. ولم أستطع الوصول إليه من رجاله الغوريليات. كانوا ثلاثة! ألبسهم مثل الأرانب، وبسط على نفسه ألبسة بلون أخضر، وكان قفازاه مثل قفازي رسميين للسهرة».

«وهل يدفع الإتاوة هو الآخر؟».

«أي سؤال هذا؟» أنتعش بوداك، وأعاد منظم السرعة من سرعته الرابعة إلى الثالثة، فاندفعت سيارة الأوبل إلى الأمام بعد اختناق وجعير. «كل حركة سياسية تعتمد على الإتاوة!».

أخذت سيارة الريكورد اتجاهها وسرعتها. استمر بوداك حول فيكتور:

«فيكتور صاحبك ذئب أشقر! لم نرَ مثله ولم نملك، إنه يرسل لنا وبسخاء! ماذا يعني له إن أرسل لنا من إحدى جولاته بضعة آلاف من الدولارات، الكرونات السويدية، الجنيهات الإسترلينية، الينات اليابانية؟! لا شيء. هذا بالنسبة له مصروف جيب بسيط! إنه يرسل لنا عن طريق رجلنا صلة الوصل. أوصيناه: فيكتور، لا تغال، لكن لا تنس التواريخ!. أجابنا إنه يريد البقاء حياً ويعمل بأمان وسلام. قلنا له: حسناً. لكنه نسينا ونسي واجبه مرة واحدة فقط ولم يرسل النقود عن طريق الرجل صلة الوصل لمدة ثلاثة أشهر. ففكرنا أنه في سجون فرنسا، أو أنه فكر بالهرب منا. أرسلنا رجلنا إليه في أمستردام حيث كان يصور فيلماً: إما الإتاوة أو نذبحك ونحفر حرف جـ على لحم جبينك. فاستقل فيكتور أول طيارة وجاء إلى نيرنبرغ ليعتذر ويدفع ثمن روحه. حدث ذلك في نفس اليوم حينما ذهبتُ للجنوب من أجل الذرة والمعجنات. لوحت له بيدي لكنه لم يلاحظني».

«بوداك، أأصبح مشهوراً إلى هذه الدرجة؟!».

«يا ابن الكلب، ستصبح أكثر شهرة منه! ستدخلك المذبحة التي تنفذها اليوم التاريخ، تاريخ السياسة والإجرام طبعاً! صباحاً سنسبق أنا وأنت مارسيلي وعام ١٩٣٤ كله! وما داموا لا يسمحون لنا بأعمال جيدة نلفت بها الأنظار إلينا، فسوف نلفتها بأعمال شريرة وجرائم بشعة، قتلاً واغتصاباً. جرائم ما ذكر مثلها قط في كل الصحف ولا في قتالات الجريمة!»

«أبا الخنزير الأسود؟».

«ولماذا الأسود فقط؟ بالخنزير عامة كما هو!».

«يا رئيسي، متعطش أنا للدم. بودي لو أذبح نصف ألمانيا. أسرع!».

«أتريد أن تعقد معي اتحاداً خاصاً وسلاماً؟».

«مع أبي بوداك كل شيء. المهم أن نبتعد عن سيارة الصالون!».

«إذا أفشيت ما سوف نتفق عليه، سأصب الزيت المغلي في عينيك، بهاتين اليدين المعروقتين!».

«لن تفعل ذلك يا أبتي!».

«كيف لن أفعل؟».

«لن تفعل لأنني لن أفشي سرنا!».

«بعد عملية الاغتيال التي سننفذها اليوم سنعود إلى الجبل، ونهبط الوادي دون أن يلاحظنا أحد. سنسحب الحقيبة السوداء الملونة، ومنها البارون الخنزيري، الذي تليق به كل الأسماء والأوصاف التي ألصقوها به. وسنشوه جبهته بنضوة حصان محماة. ليحمل هو ذلك التاج بدلاً منا! سنغرس في جسده الإبر المسمومة والمبارد والإزميل وكل ما رأيته هناك على الطاولة بجانب جذع الشجرة. سنغرس هناك حيث لا زال يوجد شيء من عظمه ولحمه! بعدها سنخوزقه بالخازوق البلوطي!».

«ألا تستكثر عليه كل تلك الآلات والأجهزة؟».

«لا يملك بوداك شيئاً! كله للشيطان، بدءاً من هذا «الطنبر» الذي نركبه وسيارة الصالون وأولئك التعساء بداخلها! لقد جمع دراكولا تلك المخارز وكل آلات التعذيب من المزابل وأقبية التعذيب، من المتاحف

ومجموعات الإجرام في الغرب. لقد سرقوا لأجله من البرتغال وإسبانيا وإفريقيا! لديه ناب من أسنان لومومبا! وتصور، لقد طلب أن يُحضر له طلقة من التي قُتل بها القائد الزنجي مارتن لوثر كينغ عام ١٩٦٨. وفسر أنه يفعل ذلك من أجل كلمة لوثر في اسم الزنجي الكريه».

«يا عمي المسكين، كيف اجتمعت به؟».

«بعد الهزيمة النكراء غير المتوقعة عام ١٩٤٥، تسكعت طويلاً في النمسا وألمانيا. وبإمكانك أن تتصور رجلاً جنوبياً فقيراً بائساً في عالم الغرب، حيث الشمس تشرق مرة في السنة! كنت جريحاً أجر أسمالي وأشواكي وأتسول أمام الكنائس التي كانوا يعيدون ترميمها ويملؤونها من جديد، وأمام المخازن وعلى الجسور».

«تبرعوا لهذا الخرفاتي الفقير الذي لا يرغب أن يعود سلوفينياً، بل آرياً!».

كنت أجعر وأصفّر كأن الرصاص الروسي والأنجلو أمريكي قد اخترق حنجرتي.

والأمران سيان بالنسبة للألمان ماذا كنت وماذا أريد أن أكون. كانوا يرمون لي خبزاً ناشفاً، عظاماً أمتص لحمها، أعقاب سجائر.. كانوا يقولون دائماً وفي كل مكان إنهم لا يملكون فكيف يعطونني، لا فرق لديهم من أنا ومن كنت. وقتها كانت تتجول في ألمانيا قوافل من المتسولين الحقيقيين والمزورين، متسكعين، مجرمين ومذنبين من كل الأنواع. وكنت قد قطعت كل الأراضي الألمانية وأنا أعرج. كنت أبكي الجدران الألمانية المخدوعة التي فقدت شرفها. وكانوا يتعجبون مني. قالوا نفس الكلمات التي لا زالوا

يكررونها: اذهب إلى الجحيم. لكنني لم أكن أستطيع أن «أنقلع» وأذهب إلى الجحيم، كما لا أستطيع الآن!. بكى الألمان أبناءهم القصر الذين لم يعودوا من ساحات الحرب، أما أنا فقد بكيت شرف ألمانيا الذي وسخوه وتاريخها، بصق بعضهم في وجهي منذ ذلك الوقت فماذا سيفعلون الآن؟ بحثت عن بقايا رجال هتلر في كل مكان وعن شعاراته التي لو وجدتها لركعت أمامها وأقسمت لها ألف مرة!».

«أنادم أنت؟».

«لا ينفع الندم. اسمع. وجدني على إحدى المزابل قرب حدود تشيكوسلوفاكيا عازف الكمان الذي تسميه جوزيف فرانس. لقد رأيت فوراً وتأكدت إنه غول. لكن ذلك لم يزعجني، لأنه لم يكن سلوفينياً. ولم يسعني إلا أن أحسده وأغبطه وهو يتجول فوق الأرض وتحتها. ولا زال حتى اليوم ينزل في سالزبورغ ويخرج عند زرندورف، لا عقبة في طريقه، ليقطع المسافة من دشاو إلى أوسنبورغ. بينما أحمل حقيبته المقرفة بالقطار على حسابي. لقد نسيت كم من المرات قُتل خلال الحربين الأخيرتين. وكنا بين الذين لا وطن لهم ولا اسم. فاشترى من تسولنا المشترك خنزيرين أسودين، وقادني معهما إلى الجبل. وهكذا سيطر وملك! أصبحت مربياً لخنازيره وخادمه، عبده! هددني وابتزني، وفيما بعد ابتدأت أنا أهدد وأبتز غيري. كم مرة شرب من دمي بالقشة. كان يعصر ويشرب كل ما يجده في شراييني، ثم يحقن قلبي بدم خنزير! ولهذا الشرف الكبير - كما كان يقول - سأعزف فوقك مقطوعات باغانيني وبارتوك. كان يعيدني من غيبوبتي ليهمس لي إن الملاحقين والهاربين والصفوة يجب أن يعبروا عملية التنظيف من خلال حظيرته. هربت، وصلت لأول نبع ماء. ولعلمك أن الإنسان الذي نجري في

عروقه وقلبه ومخه دماء الخنازير لا يمكنه أن يركض، تنقصف رجلاك وترتجف ركبتاك! وفي كل مرة من المرات الثلاث - وكعقوبة كما قال - كان يقذفني بين الخنازير السود. كان البركشيريون ينهشون لحم مؤخرتي، فقدت نصف مؤخرتي! أنا الآن بنصف مؤخرة! هكذا وضعني جوزيف فرانس على قعر الجحيم نفسه. ولا عودة لي إلى الأرض ولا لعالم البشر إلا بقتله، بثقبه بالخازوق!».

«وفوريتتش وبركلو ودازلينا؟».

«لنرحم هؤلاء الدلماتينيين اليوغسلاف الفقراء!. لقد هددتهم وابتززتهم كما فعل دراكولا بي. لقد قطعوا بالبلطة أفضل أصدقائهم وهو دلماتيني مثلهم لقطع صغيرة من أجل ١٠٠ مارك ألماني. وتصور، لقد أسرّوا لي بذلك. ومن وقتها انتهى كل شيء بالنسبة لهم ولحريتهم ومشيئتهم! إنهم يعلمون نهاراً كعمال لحفر نفق القطار في ميونخ، بحيث لا يمكنك تمييزهم من الغبار والطين. وليلاً يصطادون ويختطفون. ويمكنك القول إنهم كانوا أشبه بالعقلاء الطبيعيين حينما قابلتهم. لكني روضتهم وربيتهم بشرهم نفسه، الذي - والحق يقال - ليس كبيراً ولا مميزاً، لكنه بالنسبة لهم مميز وكبير! لقد جننتهم بالقومية الشوفينية الخرفاتية، تلك الخدعة السياسية الكبيرة، وخصوصاً بخريطة دولة خرفاتيا الحرة التي لا توجد أصلاً. تماماً كما فعل دراكولا معي قبل كل تلك السنين!».

«بوداك، أليسو من الأوستاشي؟».

«الله معك يا بني! إنهم يوغسلاف محتجزون بجوازات سفر حمراء. إنهم لا يعرفون الأوستاشي والحركة الأوستاشية إلا من الحكايات والمجلات.

الأوستاشي يا بني قد لا يوجدون أصلاً. لقد رأيتهم آخر مرة في تلك السنة المخزية ١٩٤٥. أما ضرورة الأوستاشي بالنسبة للبعض فهذا أمر آخر. لقد سجل في أحد تعاليم دراكولا بدقة عدد الذين يجب إرسالهم إلى الجنوب كل سنة من أولئك الصليبيين المرتزقة الدمويين والجيوش السياسية. يجب على البعض أن يكونوا أوستاشي سواء أرادوا ذلك أم لا، فالعالم لا يمكن أن يستمر دون بغضاء، دون إرهاب وقتل وتسلط!. لم يرَ دراكولا في حياته ولم يصادف أوستاشياً حياً، ولن يرى. وبما أن علومه البيطرية لا يمكنها أن تقوم بدونهم وبدون من يشبهونهم فهو يخلقهم ويبرمجهم. يعرف دراكولا جيداً أنه لا يمكن خلق أوستاشي من روماني أو تشيكي نازح أو لاجئ. لهذا يقوم بكل ذاك الجهد ويتمرن على اليوغسلاف. وبالتالي لا يفهم هؤلاء الفقراء الثلاثة الخرفاتيون الذين يتبعوننا كل أو أي أوبريت سياسي، خصوصاً هذا. إنهم يخطئون كما رأيت! لا يفعلون شيئاً واضحاً أو عن إيمان وثقة. أضحك عليهم في داخلي حينما يصلّون، حينما يغرسون السكاكين في الأرض والأبواب، حينما يخمشون ويجرحون خدودهم وهم في الغيبوبة والنشوة. مارقون ومع ذلك يغالون! أليس من قلة العقل أن يكون بركلو مثلاً وهو اليوغسلافي بسروال داخلي وسخ، متحدثاً عن الثلج الأبدي، عن العرق الآري المفضل، عن الكيمياء وردولف هس[1]، ظاناً إياه ماركة طائرات! أو أن حماراً كفوريتتش لا يمكن للسانه أن يلفظ كما يجب كلمة تولي بوند أو الرايخ الثالث أو الجليد الأبدي! كيف يمكنك ألا تبكي على ديك حبشي مثل دارلينا وهو يعتبر أوستاشياً يتحدث عن رزنبرغ، هوربينر

1 - أحد وزراء هتلر المقربين إليه جداً. - المترجم -

وأطلانتا السحرية، التي - كما يؤكد جوزيف فرانس - قد سكنتها مخلوقات تشبه القمل الترانسيلفاني! أما كلمة اهنيتريا فلا يمكنني أنا أن ألفظها، أنا الذي مسقط رأسي ليك نفسها، فكيف سيتمكن فلاح دلماتيني جاء لتوه إلى ألمانيا!؟. من حسن حظهم أنهم يدعون الأوستاشية، التي لو كانت موجودة بالفعل لما عرفوا كيف يلعبون بها. أرأيت كيف يقدمون ضحاياهم إلى حظائر الخنازير المختلفة. سيدمروننا بغبائهم، ويمكنك أن تصور ما الذي سيحصل للممثلين!».

«ولماذا لا يهربون؟».

«هربوا، من قال إنهم لم يهربوا مثلي، لكنهم لم يصلوا إلا للنبع! وقد استبدل دمهم الآدمي في الوقت المناسب بدم الخنازير. وعادوا من النبع إلى هناك نادمين. من يعلم عدد المرات التي اضطروا فيها لحلف اليمين أمام الشعارات الفولاذية، وخريطة دولة خرفاتيا المستقلة والآلات فوق الطاولة. كان جوزيف فرانس يجلدهم. في البداية عراة كما ولدوا، بعدها أنا. وكانوا مجبرين ليخز بعضهم بعضاً بالإبر، أن يجلدوا بعضهم. أن يغيبوا عن الوعي، بينما يعزف الغول فوقهم. كان يجبرهم - واعذرني على هذه الكلمة - ليمارسوا الشذوذ بأبشع أشكاله. وتصور أن ذلك كان أصعب عليهم من الجلد والعذاب! وكم مرة ومرة قذفهم أمام جوزفينا وهم عراة تغطيهم سوائلهم العفنة حتى شوهت الخنزيرة أقفيتهم وأفخاذهم. وكان دراكولا يعالج جروحهم بدهنه وشحمه حتى يتوسلوا: دعنا يا حاكمنا العادل نقف ثانية على أرجلنا وسوف نعوض كلاً من ضحاياك بابن من أبنائنا».

«تبدو كأنك حزين لأجلهم».

«حزين! لهم عائلات وأهل مرضى هناك في الجنوب، لهم أولاد صغار جائعون حُرموا - كعقاب - من مكاتبتهم أو إرسال أي شيء لهم. لقد فكر هؤلاء الرعاع البلقانيون أن الحرية شيء آخر في عالمنا الغربي، وأن الحفر والنتع في ألمانيا والنمسا والسويد تختلف عما هو عليه في بلادهم. لكنهم سيمرون بكل ما مررت به أنا... تنتظرهم أيامي السوداء العصيبة!».

«وماذا سنفعل بهم؟»؟.

«سنعرض عليهم بعد انتهاء عملية الاغتيال أن يهربوا معنا إلى الوادي وينقضوا على دراكولا».

«يا بوداك، لقد جننتهم نهائياً، وأخاف أن يلعبوا الأوبريت هذه المرة كما يجب، وأن يجعلوا من جسمينا مناخلاً تصفر فيها الريح».

«إذاً لن نقترح عليهم شيئاً. لن نخاطر!. سنحصدهم قبل أن يستلوا مسدساتهم الأوتوماتيكية. عموماً يلزمني عدة جوازات سفر يوغسلافية سارية المفعول!».

«وماذا سنفعل بالجثث؟».

«سنقدم اللحم اليوغسلافي لرعاة دراكولا!».

«أنت ترتجف».

«لم يعد بوداك يخاف من شيء ولا من أحد. سنغرس الخازوق البلوطي بقلب دراكولا. هكذا تقتل الغيلان. أما خنزيرة شقائنا جوزفينا فسوف نقذفها من فوق المسرح بين البركشيريين ونغلق الأبواب كلها بالأقفال ونسفح على تلك الظهور السوداء بضع مئات الليترات من البنزين ثم نشعل النار من بعيد!. مرة واحدة فقط في حياتي رأيت كيف يحرق ألف خنزير!».

«يا عمي، كأنك لم تعد آرياً».

«بل لا زلت! وأنا فخور بذلك!».

«أليس من الأجمل أن تكون يوغسلافياً؟ ولو يوغسلافياً سابقاً، فقيراً، رجلنا في الجنوب، عوضاً عن الرجل الغربي المتكبر، الأفضل، الأغنى، المتجمد؟».

«يا بني، إنني جزء من سكتش قديم».

«ألست ولو جزئياً مثلنا نحن الباقين، سلوفينياً من الجنوب، من تلك الأماكن المشمسة التي تزهر الكرز وتنضجه طوال العام كما حدثتني؟».

«أنا لست كما أنا، بل كما كونني غيري، آري!».

«إذاً فرمل أيها الآري!» صاح مارك، وهو يلاحظ أنهما يتوجهان إلى الهاوية، ويرى صخور الوادي وهي تنار بضوء السيارة: «ف - ر - م - ل».

وقبل أن يسحب مارك ويهيئ السكين، وقبل أن يصيحا صيحة الموت، توقف بوداك من شدة ارتباكه، وعنف شلالات الماء المنسكب على زجاج السيارة، وهو يشنج رجليه المعوجتين، ويفرمل. حرف المقود بإحدى يديه لليمين، وسحب بالأخرى الكابح اليدوي.

شفّطت العجلات، وابتدأت سيارة الريكورد تتزحلق، تفقد توازنها. ولولا وجود الأرض الموحلة التي انغرست بها الصادات والأضواء، لصارت السيارة في الهاوية التي قفزت فوقها العجلات الأمامية كحيوان يستشف الظلام.

تابعت السيارة تزحلقها، ووصلت إلى المنعطف، وضرب جانبها بجذع شجرة ثم توقفت. وحينما انحنى جسم السائق إلى الأمام، وضرب بجبينه

زجاج السيارة الأمامي، دون أن يوقف ظلام الهاوية والماء المنهمر من كل الجهات ماسحات المطر، استل مارك سكين نيكو ماراش. وبكل قوته غرسها في الجسد الذي بجانبه. وحتى لا يتأوه العجوز كثيراً أو يصيح، وحتى لا يتشنج أو يضرب بيديه على المقود وهو بهذه الحالة من العمى والضياع، أرسل مارك وبنفس القوة عدة ضربات أخرى قوية بالسكين. وحتى لا يغرب بوداك بعينيه أو يصيح أو يشخر، انهال مارك بيدٍ قُصَّ إبهامها ليغرس سكين نيكو حتى المقبض في عنقه، بالضبط تحت أذنه اليمنى، وترك السكين هناك. «نيكو، أخي، لقد فعلت ما كنت ستفعله أنت. نيكو، لقد انتقمت لك، وسأنتقم للباقين ولنفسي فيما بعد!». نظر مارك إلى المرآة أمامه ليرى وجهه المتورم المتطاول، وذقنه التي لم تحلق منذ شهرين. أخافه وجهه أكثر من الجسد الملقى بجانبه، فقال:

«قتلت لأول مرة، وأتمنى أن لا تكون آخر مرة!».

هدأ بوداك وهو ينزف. رفع مارك سترة العجوز ودس يده هناك حيثما ضرب بكل قوته. وقع كيس التبغ والغليون والمسدس. وكان سيبحث أكثر داخل صدر الميت لولا الدم النافر من كل الجهات. داهمته رائحة خنزيرية دافئة. أخذ السكين الموضوعة تحت القفازين فوق لوحة القيادة، وأخذ السكين الأخرى من جيب فروة بوداك. أخذ المسدس الأوتوماتيكي ماركة فالتر، وكان قد تمرن عليه كثيراً في الأسبوع الأخير. أخذ خزانات الرصاص، كانت خمسة أو ستة. أما ما تبقى من القبضات الحديدية المدببة والقنابل والأسلاك فقد خبأها تحت فروة بوداك. ثم انسل ببطء من السيارة.

كانت الريح والمطر عاصفة تزأر. توجه مارك إلى الطرف الأيسر من السيارة. فتح الباب. انحنى فوق الجثة التي كانت تفوح رائحتها بالأمونياك وشيء كالصمغ. سحب المفاتيح ورماها بعيداً في الظلام. فك الكابح اليدوي. وأغلق الباب ودفع السيارة. لكنه أيقن أن ذلك سيكون صعباً. ربط مصباح البطارية على صدره، وحاول تخليص السيارة من بين الرضفة وجذع الشجرة العالقة بينهما.

أخذ عدة علب من الديناميت الجهنمي كانت موضوعة على الكرسي الخلفي ورتبها، ولا يعلم لماذا وضعها حيثما كان يجلس قبل قليل. كان يعرف ربط أسلاك الديناميت وتفجيرها في الظلام دون حاجة لضوء ما. وبهدوء صنع إكليلاً من الديناميت، إكليلاً جميلاً. ثم هيأ الساعة، وأغلق وراءه الباب الخلفي.

«أخي نيكو، ستسمع الانفجار بعد عشرين دقيقة!» همس وهو لا يشعر بالمطر يغرق شعره ورقبته بغزارة. «إذا لم أستطع دفع السيارة حتى ذلك الوقت، فاعلم يا نيكو أنني سأحترق مع بوداك!».

استلقى مارك، وحشر نفسه بين عجلة السيارة الأمامية والرضفة، وابتدأ يدفع. «كيف يسير الوقت بسرعة!» فكر والقشعريرة تحتله. دفع بكلتا رجليه. دفع الدولاب حجراً فتدحرج بصوت مسموع إلى الوادي. «بقي لي عشر دقائق!» واستمر يدفع.

تحركت السيارة ومارك يدفع. أصبحت العجلتان الأماميتان والعتبتان اللتان سحب رجليه من تحتهما في آخر لحظة، فوق الهاوية. «الآن لم أعد

أخاف، الآن لم يعد مهما كم دقيقة بقيت لي في هذه الحياة!» استمر وهو يساعد السيارة لتنزحلق وتتبع جزءها الأول.

سمع مارك وهو مستلق في الوحل الذي لم يستطع النهوض عنه، كيف تتدهور السيارة. وسمع الانفجار. أضاءت النار ظلام الطريق المتعرج، الذي كان قد قرر النزول إليه دون حساب ولا خوف من ركاب سيارة الصالون.

«أية أمطار وأي صباح هو يا نيكو» قال وقد تهيأ له أن الليل والظلام وحظيرة دراكولا لم تكن قائمة أصلاً على وجه الأرض. غسل يديه تحت المطر وقال:

«نيكو، حبيبي، أنا هكذا ولن أتغير! أما أولئك الذين يعملون ويؤمنون بالعوالم الموازية والغيبيات وأسرار السحر وحياة ما بعد القبر، فليختاروا ما يريدون وكيفما يريدون!».



الفصل السادس

كم يطول يوم كامل في الحرية؟

على ساعتي وقت غريب! علوم اللغات السلوفينية.
كيف تقتل ألمانيا!

- ١ -

«فوريتش، بركلو، دازلينا، أين أنتم؟ إنكم ملكي مهما يكن عددكم في سيارة الصالون!. رصاصكم ينتظركم، عشر رصاصات من مسدس فالتر الأوتوماتيكي، أما السكين الشبيهة بسكاكين معسكر الاعتقال ياسينوفاتس، فقد بقيت في عنق بوداك!. أيتها الحيوانات السكرى، أي حماة أنتم لبوادك زعيمكم!».

لا بد أن شيئاً غير طبيعي قد حصل لي، ما دمت والمصباح على صدري قد سرت فوق الهضبة، أتبلل بالمطر، غير عابئ ولا خائف أن يصلني أحد. لم أسرع، وكان باستطاعتي الاختباء في بيت معد للرمل والرفوش، ومن استحكامي هذا أرشهم بالرصاص. احتلتني قشعريرة. وبت أتكلم.

صحت بأسمائهم، وأنا أوسع خطواتي وسط الطريق الزفتي، وفكرت أن أسكب الرصاص على زجاج سيارتهم الأمامي، وفي المحرك. أن أخرق عجلات السيارة. «أيها الثلاثي الشيطاني!» صحت بأعلى صوتي: «لقد أدميت يدي لأول مرة بهذه الطريقة. ألا ترون أنني لن أستطيع التوقف بعد الآن!». لم يكن لهم أثر. كنت أعد الإشارات وأنا مبلل أرفس الحجارة. ولم

تعد تفوح رائحة وسخ الخنازير من الكاب والبزة. لا بد أنني كنت مريضاً، ما دامت الأمطار لم تستطع تبريد جبيني وشفتي وأجفاني. كانت المياه تفور من كل جانب حولي، والهاوية تفتح شدقيها، وعتمة غير شفافة يشقها البرق من لحظة لأخرى.

ظل المطر يصفعني على نقرتي وصدغي حتى ارتميت. لم تؤلمني ركبتاي ولا مرفقاي. لا بد أن شيئاً غير طبيعي قد حدث لي ما دمت قد شعرت باللذة دون أن يخطر ببالي مغادرة الحفرة. امتلأت الجزمة حتى منتصفها بالماء، وغاصت ذيول الكاب في أوراق الشجر والوحل. ويبدو أن الظلام أيضاً لم يكن طبيعياً كما يجب. «إخوتي، يا إخوتي الحزانى، أخاف أنكم ضللتم الطريق» همست وأنا في واد، أو حفرة، أحدق في الظلام، باتجاه الطريق - الذي أود - أنه بقي خلفي للأبد. «إذا كنتم أحياء، تعساء تحتفلون بعيد مولد دولة ما لها وجود، فأسرعوا. رصاصة في جماجمكم الضالة المجنونة. سأنضم معكم لليوم المبجل ١٠/ ٤!».

لم أعد أناديهم. كنت أنظر إلى سيارتهم الصالون ذات العينين الأماميتين المحمّرتين، وهي تطير في الظلام كأنها نجمة مذنبة. لا بد أن سيارة الصالون قد تدهورت هي الأخرى في الهاوية مع سيارة بوداك، فوق الصخور، ما دام اصطدام بهذا العنف قد وقع، وشيء أخذ يتدحرج. واستغربت كيف لم يحدث الانفجار. كانت الهاوية التي وقفت على حافتها مغطاة بالماء والحجارة والريح. حزنت من أجلهم.

لا أعلم أكان ذلك حلماً أم هو صرعة الهاوية الحلوة الحمراء الدامية. كانت يدي على السكين، أمسك المقبض بكل قوتي وثقلي، حتى لامست أصابعي وراحة كفي اليسرى رأس النصلة من الطرف الثاني لرقبة بوداك.

حركت المقبض، ارتعش، وعاد ثانية غضروفاً ولحماً، ثم انغرست يدي في أحشائه. سحبت من خلال الزعانف التي كونتها سكينه حيوانة مخاطية من نوع الزواحف بقوائم خروف، وعينين شريرتين حيوانيتين، وبوز ممطوط كآكل النمل،وشعيرات حادة لخنزير بري. كان أشمداي!».

لم أصعق من رائحته النتنة، ولا من جعيره وخوار قوته، ولا لأن عجوزي المسكين لم يكن يعرف ما يحمل بداخله، وما الذي نما في دمه الخنزيري، ولم يدرك ما حصل له، لأنه كان يضحك كالخطيئة، بدليل فوحان تلك الروائح الكريهة النتنة التي تفور مع دمه، وتسيل لكل الجهات.

قادني الطريق الضيق إلى نور مصباح كهربائي بعيد، كأنه نجمتي، كنت أتعثر لكنني أمشي. استغرق اقتراب المصباح وتقاطع الطريق القروي سنوات، لكني لم أفقد الأمل.

كان بوداك ينتظرني مستنداً على العمود. كان المصباح ينير وجهه كله، وجهه المتورم، الملتهب، المعذب، الترابي، وكانت سكينه في رقبته. ولم تكن جروحه الباقية المنتشرة في كل جسمه تنزف. وكان المقود في يديه. كيف أمكن أن يحصل ذلك وكيف انتبهت الآن فقط، وأنا الذي عرفته قروناً، أنه بدون إبهام أيمن! كان متجهاً لمتابعة القيادة، فلم يلاحظني إلا عابراً.

«اعذرني لأنك اضطررت لقتلي» قال لي.

«يا عمي، أي وقت من اليوم الآن؟».

«لديك ساعة».

«على ساعتي زمن غريب».

«اليوم ١٠/ ٤/ ١٩٧١».

«والساعة؟».

«هذا أقل أهمية يا بني» قالها وهو يقود السيارة: «لا بد أنها بين الخامسة والسادسة».

«أذاهب أنت للاحتفال؟»

لم يجبني. شفّط وانحرف إلى اليمين. تركته وتابعت طريقي، كنت سعيداً لأننا تقابلنا ثانية. بقي عليّ أن أقابل بركلو، دازلينا، وفوريتتش فقط. كنت أريد أن أحدثهم أيضاً بأشياء عادية ومحزنة. ركضت. كنت متأكداً أنهم لا بد أن ينتظروني عند المفترق.

غمر وجهي ويدي نور فجر لصباح مطري. كنت في واد ما، تقطعه جداول صغيرة عربدت فيها المياه والرغوة. لم يكن المسدس الأوتوماتيكي معي ولا خزانات الرصاص. فإما أن أحدهم جرّدني منها أو أنها ضاعت مني وأنا أنزل الطريق الغابية بعوائقها. لا زال المصباح فوق صدري. خرجت من خلال الحقول والبساتين إلى الطريق الزفتي، عندها تأكدت أن قواي تخور، وأنني مريض، وأنني إذا لم أقفز داخل سيارة ما سأنهار حتماً.

- ٢ -

«قف!».

صرختها بصوت لا يمكن أن يصدر إلا عن ضليل له تعاستي ذلك الصباح. توقفت بجانبي سيارة B.M.W قديمة خضراء. أنا المنتعل حذاء مخصصاً للاغتيال. ولو أنه لم يفرمل لاستلقيت فوق مقدمة سيارته وزجاجها الأمامي. كنت متعباً لدرجة الانهيار.

استلقيت على الكرسي الخلفي، ولا أدري ما قلت له. ضحك ولوح بأصابعه كالقوائم وضغط على مداس البنزين. كان بركشيرياً أصيلاً رأسه عريض، خصوصاً عند الجبين، ومنظر وجهه الجانبي بارز للأمام، وشكله العام، بنظارتيه السميكتين، يشبه منظر بيضة متطاولة مقلوبة. كان مكتنز الكتفين والساعدين القويين، مثل رقبته، والطوابق الثلاثة المتجمدة تحت عينيه، والقوائم التي فتح بها الباب قبل قليل. كان يمسح المقود، ويعلك بفمه القديم المترهل سيجار الهافانا. سألني وهو يبدو كالمربع:

«أيوافقك هذا الاتجاه؟».

«يوافقني أي اتجاه!». انحنيت إلى الأمام، وأخذت السيجار من فمه، وصرخت به «كل اتجاه يا سيد بركشير!».

«هذا ليس اسمي».

«هذه مشكلتك أيها العجوز!».

«ومشكلتك أيضاً أيها السيد الشاب، منذ اللحظة التي صعدت فيها إلى السيارة التي هي بيتي!».

«بركشير هي كنية خنزيرية لطيفة!».

«ولماذا لا تلصقها بنفسك؟».

«البركشير هو خنزير القتل والخطيئة. أو باختصار البركشير هو خنزير القتل! من جهة أخرى، يا سيد بركشير، ولاكتساب كنية كهذه يجب أن يتوافر للإنسان شروط عديدة».

«لو لم أكن رجلاً ألمانياً طيباً، وساذجاً، لكنت غضبت».

«ولكان الغضب الأخير بالنسبة لك؟».

«أيها السيد الشاب، نسيت أن أقول لكم إنني ذاهب إلى مكان بعيد».

«وأنا لأبعد منه يا سيد بركشير!» جاءتني القوة! كنت أرغب بقتله. ولو فعلت ذلك لكان الألماني الأول بالنسبة لي، شعرت وكأنني لا زلت مسلحاً. «قد تكون ذاهباً إلى النهاية؟».

«على الأغلب».

«لو استطعت لذهبت إلى النهاية ثم في اتجاه العودة المعاكس!».

«كل شيء ممكن، أيها السيد الشاب، إذا أتفق الناس بين بعضهم بدون إهانات».

كان يدخن سيجار هافانا جديداً حتى امتلأ جو السيارة بالدخان: «بالنسبة لي يمكنني الذهاب في أي اتجاه. أنا مستعد لأخذك حيثما تريد، إلى مكان ذهابي، بل إلى أبعد. سأحترم الأوامر. بشرط أن تحافظ على اتفاقنا».

«وهذا ما أريده منك يا سيد بركشير: هدوء، نظام، عمل! قد السيارة كما قدتها حتى الآن، حتى لا أفكر بأبشع ما يمكن!».

«وما هو؟».

«الثلج الأبدي. لحياتك بعد المهات، لفترات التقويم الجديد ذي الأشهر الأربعة، للنكبات. للعوالم المختفية، التي يمكن أن تُصبح جزءاً منها قبل أن ترمش عيناك. لليل الذي انحسر منذ قليل!».

«لنفكر بالنهار أيها السيد الشاب. بالشمس، بالمستقبل!».

«ماذا تقصد، يا سيد بركشير؟».

«لنفكر بالبيت الذي نبنيه. بالمشاريب التي نحبها، والتي من أجلها نستيقظ باكراً هكذا. ولنترك الضباب والصقيع لغيرنا!».

«مع أفضل رغباتي في التفكير بالمستقبل إلا أن من قتلتهم مباشرة أو غير مباشرة ماثلين أمام عيني دائماً وأبداً يا سيد بركشير. وأولئك الذين سرقتهم سواء أكانوا أحياء أو ميتين. وهذا لا يعني أن توجهاتي الحياتية أو النهارية هي العنف والسرقة والليل والجليد».

استدار السير بركشير لأميز عن قرب شعيرات سوداء مغروسة بالشحم العائم فوق جفنيه القصيرين. لم يعد لونه أحمر، ولا كان وجهه واثقاً. كان يرسل الدخان من الفتحات الخنزيرية الكبيرة، وهذا ما كنت أفعله أنا أيضاً، لكن من خلال فمي كإنسان.

كانت سيارة السيد بركشير الـ B.M.W أوتوماتيكية. لم يشفط، ولم يفرمل. ذكرني ببوداك. ورغم ارتجافه حافظ بجدية على خط سيره فوق الأوتوستراد. كان ينظر إلى الأفق بحذر، وإلى المستقبل وهما أبعد ما يكونان عني.

توجب عليّ الاحتفاظ بالسيد بركشير في حالة توتر دائمة. كنت أريه من خلال النافذة الصخور والضباب والأشجار. قال إنه يمر يومياً من هنا ويرى الحقول والسهول جانب الأوتوستراد. كانت جوزفينا تقفز بخطوات كقفزات الكلب. ولم يكن بالإمكان مقارنة قوتها بقوة سيارة السيد بركشير وسيارتي الـ B.M.W. ولو كان هو الآخر بوعيه! لاستطاع رؤية الإشارة البيضاء على جبينها. لم أكن أريد إزعاجه أو إخافته بماضي جوزفينا، ولا بأهميتها ورمزها. وكاد يصرخ فزعاً حينما رأى يدي التي لم تندمل بعد، بدون إبهام. فاكتفيت بالقول إن جوزفينا، التي يراها دون أن ينجح في الوصول إليها، هي ملكتهم جميعاً. أكد وأقسم إنه يتابعها بعينيه. لكنني شككت في أقواله. كانت جوزفينا تركض بجانب السيارة من وقت لآخر،

وكان باستطاعتنا سماع هسيسها، وضربات قلبها الأسود. سألني السيد بركشير وهو مصفرّ ومتجمد أين تذهب الخنزيرة هكذا باكراً.

شرحت له «لتقتل إنساناً شريراً. لتنهشه وتسرقه!».

بدت سيارتنا الـ B.M.W وكأنها لا تلامس الإسفلت. كانت جوزفينا تركض بجانبنا، وذكرتنا كلينا بصاروخ أسود حي. «أيها السيد الشاب، ما أملكه نقداً هو عدة مئات من الماركات فقط، ألف مارك على الأكثر».

«النقود لا تهمني يا سيد بركشير».

«ومن الأشياء، كما ترى، لا أملك الكثير».

«يا سيد بركشير، ما أريده هو الذهاب لأبعد مكان!» قلت له وفكرت أنني قد همست من خلال الدموع: «ما يهمني هو الإنسانية، العطف، الكلمات البشرية الرقيقة، التي لا يكمن خلفها صقيع أو كذب أو سخرية. لا يهمني هذا الصفيح الذي تركبه، ولا أسمالك البالية، ولا نقودك التي يعلم الله كيف جمعتها!».

«أأجرؤ على معرفة صفة مرافقي الذي أسوق به السيارة؟».

«رجل من عصابات تحت الأرض، يا سيد بركشير! كائن من العوالم الموازية. لاجئ سياسي تعيس من الشرق. متسكع لا يستطيع إيجاد مخرج للخلاص من دهاليز الغرب الملتوية بشدة. أنت تسوق وسوف تسوق بالقوة، شريراً وقاتلاً، قتل عمه بوداك في حالة دفاع عن النفس وبسرور زائد، وثلاثة من إخوته! تركت الرجل العجوز على مفترق طرق، بينما لا زلت أبحث عن بركلو ودازلينا وفورتيتش!».

«لماذا تبحث عنهم ما دمت قد قتلتهم؟».

«لا أستطيع أن أعيش من دونهم».

«أتعرف ما ستقولهم لهم؟».

«ليس بعد؟».

«أي سكتش هذا؟» سألني، وقدم لي بقوائمه اليمنى شوكولاته.

«سكتش من الإنجيل، سياسي كما يقولون!. أخوي، أعني سلوفيني! سكتش عادي ألماني فوق وتحت الأرض!».

«أتحت أرض وطني هذا؟!».«عالم غريب تحتنا يا سيد بركشير. ظلام في النهار، وظلام في الليل، وظلام فيما بينهما. ليل أبدي تحت، صقيع، عناكب، خفاشات، جرذان عمياء. وفوق أنتم الألمان! نحن منتفخون، متورمون، مكدومون، من قلة النوم غالباً، من الانتظار، من أفكارنا الانتقامية والفلسفية. أنتم أقوياء متخمون، وجوهكم حمراء، بدون تجاعيد جلدية ولا هموم. وبينما تبنون أنتم الطرق، وترفعون أبنية عالية ضخمة لا يفهم معناها أحد، بينما تعيشون وتتمتعون، نكون نحن نصفي حساباتنا، ونغتال بعضنا البعض، مدّعين من أجل المبادئ، من أجل الحق المهضوم، من أجل الماضي. أنتم تنسون، ونحن تنهشنا الذكريات بجنون أكثر وأكثر!».

«سمعت عن وجود جو مرح تحت أرضنا الألمانية».

«اغفر لهم يا سيد بركشير!».

«أيوجد دماء؟».

«شعرة من قرعة أي ألماني أغلى ألف مرة من حياة أيٍّ منا. علماً بأننا أذكى منكم! فقل لي كيف لا أجنّ؟!».

«وماذا تفعلون أيضاً تحت؟».

«نغرق باحثين في المجاري، التي لا تعرفونها أنتم الألمان، ولا تفترضون حتى وجودها. نسحب وننسحب، على الأغلب ونحن ننزف ونبكي، دون أن نعرف على من، ولا على أي شيء؟. تتعرفون علينا من جرائدنا السياسية التي نصدرها هنا وليس من آلات الثقب والعربات الحديدية والمعاول التي لا توجد أصلاً ولن توجد أبداً. تتعرفون علينا بالمخطوطات القديمة العفنة، بكتب وصايا تربية الخنازير، بالملصقات والإعلانات والمناشير، بالرسائل والتقاويم التي نغمر بها شوارعكم وبيوتكم وحدائقكم. حينما تصادف كائناً بشرياً مسلولاً، منتفخ الوجه، خائف القسمات، غائر العينين يسكنهما الظلام، تعيساً يحتضن الكتب والأسلاك والسكاكين، وقتها قل لنفسك: هذا إنسان مواز! واهرب».

«ممتع» قال السيد بركشير، وانتعش «لو لم أكن مرتدياً بزة العمل، لطلبت منك فوراً أن تأخذني إلى تحت. وسأدفع!».

«من لم يجرب مرة حلاوة العالم السفلي، ورائحة الجراح والدم الحلوة الدافئة، الظلام والرهبة، سيكون من الصعب عليه أن يعيش فوق الأرض. خذني مثالاً: لم أكد أخرج رأسي من تحت، حتى تمنيت الخروج من هذا الخراب الأرضي، لأعود كما جئت! فالآجر والحجر والفولاذ في كل مكان. أين هي الأفكار؟ أين الشعر؟ أين السكتش؟! إن نضارتك هذه يا سيد بركشير، وهذا الهواء الذي لا تستطيع بدونه أن تعيش هو بالنسبة لنا تفسير جديد للحياة والتاريخ. تترجمه الأعداد والألوان والأرقام السنوية، إنه الفظاعة التامة! إن هذه الريح، هذا الزخ المطري، هذا البرد، كله غير موجود عندنا! اعذرني لأنني، من كل هذه السعادة المصطنعة والظاهرية، وهذا الرخاء أكاد أتقيأ مرارتي وكل أحشائي اللاجئة السياسية الهاربة!».

«لا بد أنهم يتكلون العديد من اللغات تحت ألمانيا».

«السلوفينية بصورة رئيسة يا سيد بركشير! بعدها الهنغاريات، ثم الرومانيات، ثم الألبانيات. يمكنك سماع اليونانية، التركية، العربية، الأرمنية، إذ يعيش تحت ميونخ الشرق مصغراً، البلقان، آسيا!».

«وماذا تكونون أنتم الذين تحت بالنسبة لنا نحن الذين فوق؟»،

«يديشنا، مثلاً، ليست ماما لوشن[1] لكنني أستطيع أن أصرخ هاسر أينر[2]. أعطني سيجاراً هافانياً آخر لو رغبت بسماع شيء إضافي. بروكلياتي هو هول، يس لي يا تيبليانه رازدافيل فـ كييف، تاك ياتيبيا يايتسا أوتنفاجو في ميونخن[3]! هكذا يكلم الروسي الأكراني، بينما يرد الأكراني على الروسي بالألمانية: كاتساب الوسخ[4] سأنتظرك مع العصابة على الشاطئ الآخر لنهر إيسار! الروماني يكلم نفسه: بوبيسكو، يا ملك البلقان، مت بشرف لأجل الملك والملكية! البلغاري يفتح مغارته حينما يأكل أو يتبرز فقط. ويخنق الروماني الأمير بصمت. يقول الأمير: المعركة أصلاً حول ملكية الدانوب، لمن هو؟ سأشرب وأذهب أيها السكران البولندي دومينيك كوفالسكي المجنون. لماذا لا تسمح لهم بإخراج السكين من بطن السلوفاكي. يركع التشيكي فلاومتابو كروني، يموء ويرجو كقطة، ويذكر بيلا خورا وميونخ، يقضم الصابون ليوقف دموعه. سأقطف من السماء كل النجوم لمجدك يا هنغاريا! بهذا الصوت المأساوي المتعصب يجعر المجري ناجي أرباد. واعلم

1 - أيها الخنزير. - المؤلف -

2 - اللغة الأم. - المؤلف -

3 - أيها الملعون إذا لم أدهسك في كييف، فسوف أجتث خصيتك في ميونخ، - المؤلف -

4 - كاتساب كلمة أكرانية شتيمة للروس. - المؤلف -

إنه لا يوجد لغة في العالم يمكنها أن تترجم ما يقوله الصربي للخرفاتي والخرفاتي حينما يجاوب الصربي!».

بعد أن قلت كلماتي الأخيرة، أحسست بالتوتر بطريقة مضحكة، تذكرت عمي بوداك وأخوتي فوريتتش ودازلينا وبركلو، الذين كنت أبحث عنهم، وأنا أجتر السيجار الهافاني الثالث للسيد بركشير، بكل قوة تفكيري، وبكل حدة شعوري وإحساسي. أصبح وجه السيد بركشير أحمر للمرة الثانية، وبينما كنت أحدثه عن الهجرة والهروب، عن فلسفة ذلك وتراجيديته، كان يختنق بالشوكولا والضحك، وللمرة الثالثة وددت لو أراه ميتاً. وحتى أحتفظ به مذعوراً ومتوتراً، صرخت: إن جوزفينا خنزيرة الموت قد قفزت على الأوتوستراد، وإنها بانتظارنا.

لوى السيد بركشير المقود بارتباك إلى اليمين، وانحرف عن الأوتوستراد، وظل يسوق متوتراً في ذلك الدرب المغسول بالمطر. وبينما كانت جوزفينا تقطع الوديان والأنهار، نفرت شعيراته السوداء الحادة من وجهه. ولا أعلم عن ماذا كنت أحدثه. كان واضحاً أنه لا يسمعني، ولم يستدر نحوي ولا توجه ببوزه الرطب كبيضة مقلوبة متطاولة. ولم يفترض السيد بركشير بالطبع أنني أعزل. كان يقود وهو يدخن. فرمل، ثم أرخى العنان للبنزين ثانية. كانت أمعائي تفور، وأفكاري تتشابك.

ولا شك أنه كان يريد أن يتعبني بهذه الطريقة، أن يثقبني ليشرب من شراييني الدم، ثم يرميني في حفرة ما. كنت مستعداً للدفاع عن نفسي، لأخنقه.

كنا في ورشة بناء.

- ٣ -

«أدفع لنا أيها الألماني!».

هكذا صاح العمال الأجانب: يوغسلاف. يونانيون، إسبان، عرب، وهم يحيطون بالسيد بركشير. لم يلاحظوني، كما لم يلاحظني. كنت أنظر من طرف كيف يتوجهون إليه، ويقتربون منه حاملين رفوشهم. كان يلبس جزمة ومعطفاً طويلاً من شعر الجمل. وقبعة من فرو الأرانب، محني الظهر، غير بعيد عن سيارته. كان بدون قفازين، تبللت قوائمه الأربع.

كان العمال الأجانب حوالي الثلاثين عدداً. صاحوا بكنيته القصيرة كرال.. أو شيء من هذا القبيل، وأنا قابع داخل الشيء الذي أصبح لمصلحته قبره.

«سنقتلك إذا لم تدفع لنا!».

وحتى حينما حشروه بجانب كومة من الآجر والأخشاب وأجهزة التكييف لم يصدق السيد بركشير أنهم جادون. فرحت بموته الذي بات وشيكاً، ولدي الكثير من الأسباب لهذا الفرح، إضافة إلى استهزائه من سكتشي حول الأخوة المجانين المتناحرين.

ابتدأ العمال الأجانب صياحهم ملوحين بالقضبان الحديدية «أيها السيد كذا وكذا، يبكي أطفالنا الجائعون هناك في الجنوب، في بوسنا ومكدونيا، عراة وحفاة، يطلبون رواتبنا عن شهري شباط وآذار».

كان واضحاً لي ما الذي سيحدث، وكان آخرون يتلفظون بأشياء مشابهة لكن بلغات أخرى. كان جبيني يحترق، وشفاهي تتشقق. كنت عطشاً للدم

الإنساني أو الخنزيري لا فرق. احتفظ السيد بركشير بيديه أمام رأسه المنفوش، بينما فتحت من خلفه حفر الأساسات لعمارة مستقبلية مغارتها العريضة حوالي عشرين متراً، والعميقة من يعلم كم؟، حتى لم يعد بإمكانه الذهاب إلا للهاوية. بدا العمال الأجانب كأنهم ينتظرونه ليقفز من تلقاء نفسه في الهاوية. وبدل أن يتدحرج إليهم قذفهم بالمعطف المصنوع من جلد الجمل والقبعة الدافئة، وأصبح على حافة هاويته.

«لن تهرب منا، يا سيد كذا وكذا. ستدفع لنا إما بالماركات أو برأسك!».

«عمال أجانب شيوعيون، خنازير؟».

«يا سيد كذا وكذا، ادفع.. لخنازيرك.. ك.. ك..!».

هرب السيد بركشير صائحاً كلما تلفت:

«تشوش، لا عقود بيننا! تعملون شفارتس، كولاريتش[1]، ولا يهمني ما دمتم تشتكون علي للنقابة، للمرة الثالثة». لو أنه لم يتوقف لما أصابته قطعة الآجر.

«مدَّ لسانه وجعر:

«كولاريتش، عفنون وسخون».

هرب. وهناك حيث ثقبت قطعة الآجر أو إحدى الآلات كمّه، نفر الدم والشعر الأسود. قطعوا عليه الطريق بالمعاول والرافعات وكسارة الحجارة.

---

1 – هي أبشع الأسماء التي تطلق على العمال الأجانب اليوغسلاف وغيرهم في النمسا وألمانيا الغربية – خصوصاً في بافاريا.

«بيوت كثيرة عندك، يا سيد كذا وكذا! وفي التي تعسكرنا لنبنيها لك فالمرحاض من فضة، أنجليه لك ونلمعه لتأخذ حقنا!؟ طواحين كثيرة عندك! خمس معامل غاز، ما عدا الذي ابتدأنا بتعميره الآن! لديك غابة، لديك نهر، جسر، طريق عليه شاخصات تحذر أي قدم غريبة أن تطأه.! لديك خطوط حديدية، قاطرات! وكم من البساتين والحقول والأسوار والأسلاك؟! أنت نفسك لا تعرف كم لديك من الماركات. ولنا نحن الفقراء المتجمدين من الجنوب، العاملين لديك بدون عقود، المعتمدين على الكلمة الألمانية، لا تدفع حسابنا!»

«إرهابيون بلقانيون، لم أعطكم أية كلمة، من أنتم لتُعطى لكم كلمة! ثوار، بودكم لو تأخذوا منا كل شيء!».

«لا نريد منك رهواناً ولا حصاناً، يا سيد كذا وكذا! لا نريد قرودك، ولا خنازيرك ولا لبواتك، ولا غاباتك، ولا كلاب الصيد. لا نريد مجموعة الديوك التي جمعتها من كل أنحاء العالم!. تملّك واغتني. كن سعيداً. وادهن بنادقك بالذهب، لكن أدفع لنا «الفراطة» التي استحققناها بعرقنا!».

«اذهبوا، تشوش! لدي عمال آخرون، أفضل منكم: ألبانيون إسلام لا يسكرون، لا يعهرون مع البغايا، لا يغنون! لا يعشش في أجسادهم القمل الإسباني ولا الهرش الجلدي اليوناني، ولا عث وفلسفة يوغسلافية!».

«يجب أن تفي بوعودنا. شهران كاملان ونحن نحفر لك أساسات العمارة! الآن يجب أن نرفع الحائط وأن نضع كل شيء تحت السقف كما في المخطط، أن ننصب السور العالي والأسلاك الشائكة، ليخبأ كل شيء عن عيون الناس! وأن نمرر الكهرباء خلال الأسلاك حتى لا تتمكن ولا الثعابين من الدخول! كله كما أمرت، يا سيد كذا وكذا!».

«تحفرون أعمق مما يجب وخطأ، تشوش! اذهبوا أيها الكولاريتش.

«ألن تدفع؟».

«لا.. لا.. لا.. لا..! - أ - ب - د - أ - !».

«إذاً سنقطع خصيتيك أيها الألماني! أتفهم؟ خـ - ص - ي -.ت - ي - ك - ! كونيس، افكا، أركيديا[1] أيها الألماني، خصيتيك اللتين تحفر من أجلهما كل هذه الأراضي، وترفع كل هذه المداخن!. خ- ص - ي - ت - ا - ك!».

«أتجرؤون أيها الرعاع الحيوانات أن تقولوا لي شيئاً كهذا؟ ارجعوا هيا إلى الخلف! سأستدعي البوليس، الجيش، الشعب الألماني!».

لم أميز العامل الواقف تحت الصقالات جيداً. لم يكن هناك أحد ليرفعني فوق كومة الآجر. كنت منهكاً من المطر والتعرق، أنزف كما نزف نيكو تلك الليلة. أظن أن كفي كانت تتقيح..

لم أرَ السيد بركشير. لعله كان فوق العمارة، حينما طارت خشبة طويلة فوق كومة القبعات الفولاذية البرتقالية. وهدر:

«مهمتكم أن تحملوا وتتحملوا. أن تسحبوا وتنسحبوا. أن تغسلوا أقدامنا وتقبلوها، لا أن تعدوا ديوكنا، ولا خيولنا، ولا طواحيننا. وهذا لكم!».

طار من العمارة التي أتى منها الصوت، سلك فولاذي ثخين لرفع الأثقال باتجاه أيدي العمال الأجانب، الذين كانوا يثبتون لوح خشب كبيراً.

---

1 - كونيس، اكفا، أركيديا تعني الخصيتين بالإسبانية واليونانية. - المؤلف -

ومن الأصوات والتأوه وذكر الدم الآدمي، تأكدت أن أحدهم لا بد قد قضى أو صار جريحاً في خطر.

لم يعد العمال الأجانب يذكرون رواتب الشهور الثلاثة، ولا أطفالهم، ولم يعد السيد بركشير يجعر بوجوههم ويهدد بالدبابات وقوى شعبه الكبير، بل صار يدوس في الطين بدون إحدى جزمتيه. ركب السيارة، وحاول أن يقود للخلف. لكن عاملاً أجنبياً إسبانياً، لاحقه بكسارة الحجارة، وقطع العربي الطريق أمامه بالرافعة. أما اليوغسلافي فقد اقترب من طرفه الثالث بخلاطة الإسمنت. لم يعد للسيد بركشير منفذ. استغاث أن يرفعوه من الطين.

وحتى الآن لم أفهم لماذا لم يقتل العمال الأجانب خنزيرهم فوراً. لماذا تركوه ينحشر في سيارته كالجرو. كان الخنزير فوق المقود يدفع بقوائمه الأمامية منظم السرعة للأمام، ويدوس برجله «دواسة» البنزين.

انفتح فكا الرافعة الكبيرة من فوق، وهبطا. كان السائق يوغسلافياً. انغرست أسنان الرافعة تحت جناح السيارة الخضراء وابتدأت برفعها. كان السيد بركشير يضرب رأسه بيديه. أظن أنه سألني وهو يتطاول للأعلى «ماذا يريدون مني؟».

«يريدون فصلك ولو لدقائق عن الأرض».

«السبب؟!».

«يريدون رفع السيارة التي هي ملكك بالرافعة التي هي ملكك».

ومن المؤكد أنني همست له:

«أن يعملوا لك نزهة في سماء بافاريا الجميلة الخالية بدون حدود والتي هي ملكك وحدك! يريدون أن يمرجحوك يا سيد بركشير، كأنك في حديقة

أطفال ولست في ورشتك الضخمة، التي هي ملكك وحدك. من فوق سيبدو لك المكان أفضل، الأنهار والأرض، كل ما هو ملكك وحدك! وحينما تستدير ستتمكن من رؤية كل ما تملك بشكل أفضل!».

«كنت أظن أنني أملك أقل مما هو حقيقة». كان في الأعالي فقال:

«أية ممتلكات رائعة!».

«هل حُفرت الأساسات كما يجب لشركة البيرة والقصر؟».

«نعم! وبينما استدير تبدو كأنها أعمق وأكثر سواداً!».

«التشوش الفقراء ينتظرون «الفراطة»، أتعطيهم إياها؟».

«لا!»

كانوا يديرونه بسرعة أكبر وأكبر. أخرج رأسه من النافذة، وصوّب نحوي قوائمه الأمامية: «أ - ب - د - اً - !».

وددت لو تنفجر قنبلة خبيثة شريرة غريبة لاجئة، حتى تؤكد النار الأولى النار الثانية، كما يحدث عندنا في عالم الإجرام وتحت الأرض، لكن العمال الأجانب لم يملكوا المدفع لذلك. لم يعودوا يديرون السيارة بل أنزلوها لتحت، لأعمق أساس ألماني ملكه هو. أصبح نصف السيارة في الظلام حينما قال السيد بركشير: «لا أسمع أية صرخة ثأر، لا شتائم، حتى ولا أغنية. كيف ذلك؟!».

«التشوش مسرعون يا بالبوس».

«بأي لغة هذا يا كولاريتش؟» سألني.

«بالقرباطية يا سيد بركشير، بالبوس تعني الغني، الملاك، رجل البيت الصالح. كنت أنت بالبوس!».

«اذهبوا، انقلعوا من أرضي!».

«سنفي بوعدنا يا سيد كذا وكذا. سنملأ الأساسات بإسمنت حي، بك، ب - ك، أنت. سنبني بسرعة وبدقة، كما في الاتفاق. سنقتصد. مهمتنا أن نسلمك البناء مسقوفاً، مسوراً بسور عال، مسيجاً بالأسلاك. كل شيء كما اتفقنا وكما أمرتنا. بعدها سننقلع من أرضك».

« الشرق... أن..!».

«ماسل توبالبوس!» همست له وضحكت:

«حظاً سعيداً أيها الملاك». واختفى.

رعدت كسارة الحجر ثانية، كانت خزاناتها المكوّرة تدور بهدوء. وانهمر عجين الإسمنت الفضي من المعالق والقمع في هاوية الأساسات. ثم سوّى سائق البلدوزر الأرض، أزال العمال بقايا عجلات السيارة. رفعت شوكة الرافعة البلوكات الإسمنتية وقربتها، فبدا عالم مواز، عال، أفضل، لا أعلم هل سمعوني حينما صرخت:

«يا أصدقائي، احموا بعضكم وأنتم في العمل. تفوح من كل الأرجاء رائحة الغائط، ودخان الخنازير ويُعتصر البول. فاحترسوا من العدوى!» لم يلاحظوني. همست: «الصداقة والشرف قبل كل شيء. أرسلوا كل قرش لأوطانكم، لأهلكم المرضى هناك في الجنوب، لليونان، لأخواتكم اللواتي ينتظرن عودتكم سالمين بكل أصابعكم، ليوغسلافيا، لأخواتكم الأصغر، كل قرش لإسبانيا، لتركيا!».

لم يلاحظني العمال الأجانب، ولم ألاحظهم. عموماً لم يكن لدي ما أبحث عنه في الورشة. ذهبت وأنا أحييهم بيدي التي أصبحت تنقّ من جديد وتتفجر. كانت تتقيح.

كانوا يعملون. وكنت ألاحظ في كل مرة أفارق فيها أناساً حقيقيين، فوران الدمع على جفوني. فكرت بعمي، بأخوتي، كانت إحدى تلك الدمعات من أجل السيد بركشير، أول ألماني بالنسبة لي. للعالم والناس الذين كانوا يشتكون أو يتألمون من شيء في ذلك الصباح المطري.

- ٤ -

قادوني طيلة ذلك الصباح بسياراتهم على طريق الأوتوستراد. كنت أكرر للسائقين أن سبب هذا الجو الماطر هو السحر الأسود. لم يفهموني. والذي أغاظني أكثر هو أنني نفسي لم أكن أعرف عن السحر الأسود شيئاً. وسألتهم أين يمكن أن يكون الآن بني وطني اليوغسلاف، إخوتي. كانوا يقودونني إلى أبعد. تابعت: إنني أحتاج اليوغسلاف أكثر مما يحتاجونني. وثانية لم يفهم سائقيَّ ما أقول. شتمت، غنيت، وشتمت ثانية. «أريد أخيراً أن أحرر أولئك الثلاثة من السحر الأسود، سواء أكانوا ميتين أم أحياء لا فرق!». فقالوا: «بإمكانك أن تحرر من تريد!» ومن أجل ذلك احتفظت بهم أيضاً في وضع متوتر، بل في خوف مميت. كنت أريهم، علمياً وتقويمياً، بأن الخنازير يديرون كل شيء، كل العالم الحالي، حتى رياح ذلك الصباح. وإنه يوجد أشمداي صغير في كل محرك ألماني. «صحيح» قال ثلاثة منهم خلال ساعة واحدة وهم يديرون رؤوسهم الضخمة الشحمية بنفس الطريقة. ولا بد أنهم كانوا على صلة من خلال السحر الأسود وهم يقودونني. لأنهم لم يرغبوا بسماع أي شيء عن سيارة الصالون اللعينة، وعن إخوتي اليوغسلاف الفاقدين للدم الآدمي في أجسادهم. لم تكن تهمهم حكاياتي حول

الصعوبات والرفوش في حياتنا القرباطيـة النازحـة. كنـت أسـتبدل أنـواع السيارات والسائقين حينما أريد. كنت أختـار! وكـانوا يجيبـون - بالاتفـاق ثانية - إنهم سئموا كلَّ شيء، وإن رائحتي تفوح، وإنني يجب أن أُقذف عـلى الإسـفلت. وبـالرغم مـن أن روائحهـم هـي التـي كانـت تفـوح وليـست روائحي، فقد قُذفت على الإسفلت. ولو كنت مسلحاً، لأطلقت علـيهم في العجلات، أو عـلى الأقـل في جماجهم. وكنـت غالبـاً مـا أحيـيّهم بالقبعـة العريضة السوداء ذات الحـرف الوسـخ مـن الـدهن، تلـك الـذكرى التـي أخذتها من أحد سائقي هـذا الـصباح، والـذي أراد أن يقـودني إلى بيتـه ذي الحمام الدافئ، وكل ما هو دافئ، وأن يدغدغني كما همس لي باسـتحياء، وأن يعطيني ٥٠ ماركاً أو على الأكثر ٥٥ ماركـاً ألمانيـاً. أمرتـه أن يفـتح فكيـه، ففعل ذلك بسرعة وصوت. كان في فمه فتحة شرج! بصقت هنـاك. وأظـن أنه التذَّ وقذف. فانتشلت قبعته الوسخة، بينما كان يتشبث بفراء المقود بقوة. والآن تغطي هذه القبعة النتنة وجهي حتى الذقن، وذلك بالضبط ما وافقني هذا الصباح.

كنت أنظر إلى شاخصات الطريـق عـلى المفترقـات دون قراءتهـا. سـيان لدي أين يقود الطريق، وكم هي المسافة من مكانٍ هو ملكهم لمكان آخر هـو ملكهم أيضاً. كان الوقت لا يزال صباحاً، وهذا ما كان يقتلني. كان الضوء يزعجني. فبسببه تغيب كل الأسرار، كل الألغاز والغموض. وكلما حجبت إحدى الغيوم الشمس، كان قلبي يـدق فرحـاً. كنـت أود أن أعـيش شـهر نيسان بكامله حتى لو فطست بعدها. «وحينما تنهار كلية، ستـستطيع ثانيـة أن تولد وتنتصب» هكذا قال لي المجري شاندور كولار. كانت يـدي تقـيح وأنا أشعر بثقلها، كانت قنبلة لاهبة حيـة!. وككـل الـذين مهـرهم المـوت

بخاتمة فإن قوة هائلة كانت تشدني إلى انتهاء النهار باتجاه الظلام. فقط في ظلام تحت الأرض الدافئ سأستطيع أن أشفيك يا يدي المستباحة. قلت هذا في نفسي وبصوت عال. وعلى حواف مدينة من مدنهم ذات كنائس متطاولة وقفت لفترة قصيرة على حافة الأوتوستراد. ولو أنهم أرادوا لاستطاعوا أن يدهسوني جميعهم دون استثناء. جرني بعض الأطفال إلى المزبلة وتركوني هناك. حينما ابتدأت أنهض، كان الظلام يهبط. يا ليلي المنتظر، عادت القوة لي والأمل. كنت منتصباً تستشري بداخلي الحياة وتعود الثقة. قال الأطفال: «لا يزال الوقت صباحاً! لم تتجاوز التاسعة بعد!».

- ٥ -

كانت المحطة التي شرّحت بها أصغر وأنظف من محطة ميونخ. ولم يكن شارع شيلر على الطرف الآخر، ولا أوديسا خمارة فرومكين وخمارتي المحبوبة. لذا لم أخرج من المحطة. كنت محاطاً بالخنازير في الممرات من كل عرق ولون وعمر. كنت أتهرب وأتحاشى البركشيريين فقط. وأقترب من أولئك المنتظرين في صفوف طويلة أمام منافذ البيع، ثم أقع في أحضانهم مع صياحي المرعب: «الصرعة!» ساحباً إياهم معي إلى الأرض. وبينما كانوا يرفعونني، ويرشونني بالماء، ويسألونني عن قوميتي، كنت أقلّب جيوبهم. كنت أفعل ذلك كما كنت أفعله في أفضل أيامي السالفة، حينما كنت أسيح طائشاً مع نيكو ماراش في برلين الغربية وهامبورغ وفرانكفورت. وقتها كانت الصحف تكتب: «جاء من الجنوب بعض مرضى الصرّعة، الذين لم يعرف الطب الألماني ولا علم الجرائم مثلهم حتى اليوم». وبعدة محافظ في

صدري، أصبحت أقف وأدوس بصلابة أكبر في صالات الانتظار، ومكاتب السفريات، أراقب المخارج والمخابئ. دخلت مجمعات وصالات البيع وأنا مغسول بالعرق.

ولأول مرة منذ مجيئي إلى ألمانيا عبرت بجانب رجال الشرطة دون خوف. ولا أعلم إن كانوا لاحظوا ذلك. طلبت من أحدهم بوقاحة أن يشعل لي سيجار الهافانا. انحنى لي. سألته عن اسم المدينة. شرح لي وهو يحمرّ. قلت له بولخا! فاعتذر لأنه لم يفهم ما قلت. جاء آخر أكثر احمراراً ومعه قاموس. كنت بعيداً عنهما، خلف العمود. وحينما وجدا ما تعنيه كلمة بولخا، بحثا عني. ولو أنهما وصلا إلي لركعت، واستسلمت وحكيت لهما كيف ابتدأ كل شيء.

وقتها سمعت صوت جلبة وشجار، وصوت رجل يختنق من حنجرته. لا بد أن أحدهم قد هجم وسرق القطار الشمالي. كان هناك العديد من النشالين الدافعين الخطافين، وعدد من رجال الشرطة، أمسكوا القواميس وتوزعوا على شكل قوس. أيقنت أن الصيد سيكون رائعاً، لكنني لم أملك القوة لأنضم لأي من الفريقين، كفاني ما نشلته بداء الصرعة.

سار ورائي في صالون المحطة شخص متوسط العمر، متطاول الرأس كالمطرقة، بأذنين مشرئبتين، وفتحات أنفيه ضيقة جداً. كانت المناشير الإرهابية للسياسيين الفارين والصحف والملصقات تغطي وجهه حتى لا يرى منه إلا عيناه الإرهابيتان ويداه ومقدمتا حذائه. كان يسير بحرية وسهولة رغم ثقل ما يحمل. وكنت تجده دائماً هناك حيث لا تتوقعه. رغبت بقتله. وقد بدا وكأنه يملك عجلات غير مرئية تحت قدميه، وخلفه محرك بقوة خنزيرين بخاريين على الأقل. عرفته وهربت منه لسنوات. كان يتحرك

في محطـات القطـارات والبوفيهـات والمقـاهي، داخـل القطـارات، وعـلى اليابسة. كان أول لاجئ سياسي هارب، وأول مفكر التقيـت بـه وأنـا أعـبر لأول مرة حدود يوغسلافيا هارباً إلى النمسا. وقتهـا لم يكـن أشـيب الـشعر هكـذا ولا معتوهـاً. عرفتـه في محطـة قطـار فينـا، في ترايـسن كيرشـن وزرندورف، بل ومن باحة السجن في لينز - النمسا. كان يقترب منـا كأنـه كشك متحرك، يعرض الدخول في الحركـة. مؤكـداً بلغـة مـن الـصعب أن يفهمها أحد بأنه يريد توسيع وتقويـة اتحـاده للاجئـين الـسياسيين الهـاربين الأوروبيين الشرقيين الذين هم ضد ألمانيا. وأذكر كيـف قلـت لـه في محطـة برلين أولاً ثم في محطة هامبورغ، إن الألمان لم يقتلوا أحداً يخصني، حتـى ولا أبي. لهذا لا أستطيع أن أكون ضدهم رغـم رغبتـي بتحقيـق طلبـه. «أمحايـد أنت؟» سألني وهو يخرج من صدره وجيوبه خيط قنب قـوي. وإذا لم تخنـي ذاكرتي فإن ذلك لم يحدث في صالون محطة كولن عندما أبـرز مخالبـه بـسرعة من الجريدة ليحيط صـدري ويقتلعنـي عـن الأرض، وإنـما في شـتوتغارت بجانب الحافلة التي تصعد على تل. «أنا مع الألمان!» صرخت به. أطلق النار على التكسي الذي هربت به على قيد شعرة منه. ذهبت بالـسيارة هاربـاً منـه ومن كيس القنب الذي يُقلُ به المخطوفين إلى ميونخ. في شارع شـيلر، عـلى الزاوية، حكوا لي عنه كل شيء. كان ألمانياً من بروسكا الشرقية. ولم يكـذب حينما قال إن لديه اتحاداً للهاربين السياسيين الأوربيين الشرقيين، وإنه رئيس ذلك الاتحاد. وكان في الاتحاد عضو واحد، هو نفسـه. كـان يـضع في ذلـك الكيس من القنب الألمان الشرقيين فقط، ثم يرميهم في نهر ايسار أو المـاين، وغالباً في نهر الدانوب. وكان ما يقـال صـحيحاً. لقـد نجـح بقـوة شروره، وتصلب فكره، وقوة إرادته، في نسيان لغته الأم، وتكوين لغة أخرى لنفـسه

وأولئك الذين يبيعهم الصحف، لغة السياسيين الهاربين الموازية المستوحاة جذورها من لغة الفلاشكي الرومانية ولهجة وارسو البولندية. ورغبت الآن، مثلما رغبت في فرانكفورت، بقتله. كان يسير خلفي حاملاً خيط القنب القوي وكيس القنب، فشعرت أن رجلي تنقصهان.

لم تعد دكان بائع الورود مخبأ أميناً لي. قفزت داخل دكان حلاق. ركض نحوي ثلاثة، يبدو لصرختي بأنني مع الألمان، وأنني أريد لرأسي أن يصبح مثل رؤوسهم. جزوا شعري، طرشوا الصابون على وجهي حفوا لي أظافري التسعة جميعها. شعرت أن أمعائي تفور. تصورت الرجل الكشك. وكاد يغمى علي وأنا أنهض من مقعدي. غطوني بالكاب، رفعوا الياقات العريضة حول رقبتي، أنزلوا القبعة فوق رأسي حتى أذني، فلم أكد أعرف نفسي في المرآة.

عرفني الألماني الشرقي صاحب كيس القنب. صاح إنه من العبث أن أهرب، فتوقفت. عندها حدثني عن حتمية امتلاكه لي. حياً أو ميتاً. اقترب مني: «خذ منشوراً فقط، أفسر به وبلغتي الجديدة، كيف يمكن اجتثاث ومحق الألماني الشرقي المتخلف» صفر محشرجاً، فهربت. غطاني العرق. ركضت باتجاه سكة القطار، ووقت غريب على ساعتي. كنت أحس الدم يندفع فائراً في عروق رقبتي كلما مرت قاطرة. يجب على الإنسان أن يعيش في القطار، خصوصاً اللاجئ السياسي والهارب. هكذا فكرت وأنا أعلك السيجار الهافاني الذي أعطاني إياه الحلاق.

وإذا استطعنا الحكم بناء على اكتظاظ الجماهير المحتشدة، الحاملة للزهور والصلبان، فمعنى ذلك وصول رجل هام غير عادي. كانت فرقة العازفين المشوهين تعزف لفترة مقطوعات حماسية، ولفترة كنائسية. وكان يقودها شخص بدين مشوه تملأ وجهه القشور، مفقوء العينين، بدون إحدى أذنيه

وأنفه. كان المشوهون يترنحون. سألت أحد المحتفلين عن الوقت. ولا أعلم بأية لغة ذكر اسم أطلانتيدا. سألته ثانية عن الوقت فأجابني إن الساعة لم تبلغ العاشرة بعد، وإنهم رغم ذلك قد بدؤوا الاحتفال الديني. وحتى لا ينظر أحد إلى رجليه، صرخ وهو يصلب «بيني دكتوس!» رموا الزهور، التفت برأسي، فاحتلني شعور آخر بالإلهام.

رفعت من فوق عربة الحمالين أكثر الحقائب سواداً، وتوجهت إلى المخرج. كانت الحقيبة مسمرة بالأخشاب، استحال حشرها في حقيبة سيارة المرسيدس. فرفعها السائق بصعوبة إلى الظهر.

كانت الحقيبة معروفة لي، كأنني سرقتها من مكان ما قبلاً، وخمنت لمن يمكن أن تكون. راودني أنها لا بد أن تكون حقيبة الوحش الذي كانت تعزف له فرقة المشوهين، ويهللون له.

سألني السائق هل أرغب بالذهاب إلى فندق جيد. «في أفضل فندق إن كان موجوداً!» قلت له، وأنا أقدم له محفظة النقود ليأخذ ما يريد. ساعدني في استعلامات الفندق للحجز، ورافقني حتى جناحي في الطابق الحادي عشر. «الأجرة مدفوعة لثلاث ليال» قال وهو يعيد لي محفظة النقود وجواز السفر باسم يانيس دورسو تاجر الفراء والقرون من سالونيك. «لا بد ستشفى حتى ذلك الوقت!» غمزني وهو عند العتبة يمعن النظر إلى يدي، التي كنت أحتفظ بها بمستوى الوجه.

كانت الحقيبة تنتظرني بجانب السرير العريض المخصص لشخصين. فتحتها. فاجأتني رائحة كريهة نتنة. نفضت على الأرض الأواني المصنوعة من بلور أسود والميزان، والكتب الطبية والمجلدة بالفراء فوق صفحاتها المتعفنة، والعديد من الأكياس المليئة بجذور الأعشاب، والأعشاب،

والعظام التي تشبه عظام الأطفال والأرانب، كنت أقفز فوق التقاويم وكتب وصايا الخنازير وتربيتها وقراءة الأبراج. تصفحت كتاب تشريح رومانياً. بحثت عن صورة اليد والأصابع، قارنت الصور الملونة مع لحمي، كانت يدي تقيح! لم يحترس عازف الكمان ليلة بترها. لقد غرس البلطة فوق المفصل الثاني. لم أعد أبحث وأنقب في كتب التاريخ الروماني وأمراض الأعصاب التشيكية بل وضعت الهويات وشهادات السياقة وبطاقات السفر والرسائل وكل ما سرقته وكان بحوذتي بين مخطوطات علم الغيب للشبح وتاريخ حياته، جانب كتب الصلاة والكرباج المصنوع من جلد آدمي. أغلقت الحقيبة. فاحت الروائح الكريهة ثانية. اغتسلت في الحمام طويلاً، صرفت كل أملاحهم الخضراء، حتى اعتقدت أن ماء المدينة قد شح!.

لا أعلم كم من الوقت احتفظت بعيني مغلقتين. حلمت بدراكولا. كان مستلقياً في فراشي المزدوج، عارياً. لم يلتفت إلي. كأنه يتهيأ للنوم. كان يفعل ذلك بأناة وهو يهمهم. وخُيل إلي أنه قد صُنع كله من جلد قديم، ومفاصل خشبية وأسلاك. وبيسراه الصحيحة فك يده الهيكلية اليمنى، ثم وضعها جانب السرير. وفعل الشيء نفسه مع رجليه. ثم سحب عينيه من حفرتيهما وانزلهما ببطء وأناة في كأس ماء جانب فكيه الاصطناعيين. لا بد أنه كان يتهيأ لنوم طويل، ما دام قد فك رأسه بأظافره الطويلة، وبعدةِ برمات سريعة فقط ثم غطى ما بقي من جسمه، وهو جذعه الصغير، بيده طويلاً ليحميه. ثم غابت يده مختبئة هي الأخرى..

لم يعد المكوث في الغرفة ممكناً من فظاعة الروائح الكريهة وانتشارها. لبست واتجهت صوب الباب. كانت الحقيبة مفتوحة، مبعثرة موطوءة بالأقدام برزت منها صحف اللاجئين السياسيين والهاربين، مناشيرهم،

وعلبة مليئة بغائط الكلاب والخنازير، وكلى وأمعاء وجمجمة طفل من كتاب التشريح. نظرت إلى السرير، فرأيت أشمداياً صغيراً يخرج من مكان جوزيف فرانس، كان العجيبة يشم المفاصل، كأنه يبحث عن يدي، أراد الدخول في جرحي. رن جرس. هبطت على الأرض من داخل مزراب.

انتعشت بسرعة تحت سقف المحطة، وقد عادت الثقة إلى يدي ورجلي، حتى إنني شردت مرات عدة. تهيجت بشدة كما لم يحدث لي قبلاً مذ جئت إلى ألمانيا. فوددت الإفراغ في أي شيء. كان لدي ما أدفعه، فالسائل الزائد والنقود يجب الخلاص منها بأسرع وقت. كانت فراشات الليل حول مراحيض المحطة. رأيت امرأة خلف مقود إحدى سيارات الأجرة، فركضت نحوها.

- ٦ -

كانت سائقة التكسي امرأة مليئة الجسد. في حوالي الخمسين أو الستين من عمرها، قوية الأصابع، بعينين تنمان عن طيبة، وشعر خفيف أشيب وأنف مكسور بحفرتين عميقتين من الطرفين. على خديها أثار مرض جدري سابق، وقد خبأت ما تبقى من الندبات بالقبعة «البيريه» الفرنسية، والياقة العالية من جلد صناعي رخيص، وعلى معصمها ساعة طيار، ركبتاها كبيرتان، وقد أنزلت ساقي بنطالها الرجالي داخل جزمة. وكتبت أمامها على لوحة القيادة اسم شركتها: ل. جـ. مان. الشارع الأول. كانت تدخن. وحينما مددت لها يدي للمرة الحادية عشرة بقطعة نقدية من فئة الـ ١٠٠ مارك نظرت إلي باستغرب وقد فغرت فاها. عندها رأيت أن لسانها أيضاً قد شوي في يوم ما.

«أكل هذه النقود؟».

«هذه سلفة فقط، يا سيدة مان» انحنيت تجاهها وتابعت:

«ستحصلين على المزيد. قوديني فقط!».

«يا مريم العذراء!».

ضحكت بأمومة. كان هذا بالنسبة لي، أنا الصحرواي، طراوة للقلب وعقدة للسان. تذكرت كولار الذي أكد - بينما كنا نشرّح ونترك ما وراءنا خراباً في منخفض الراين وفي بادن بادن - إن أسهل طريقة تقتل بها ألمانياً هي أن تستأجره، تشتريه. أن يسوقك بدون توقف أربعاً وعشرين ساعة، ثلاثة أيام أو أسبوعاً. لقد أخرج السائقون كولار من السيارات أو أدخلوه فيها مرات عديدة. في باد هامبورغ طلب السائق الألماني ريكشا، وعرض عليه ١٠٠٠٠ مارك ألماني ليسوقه من إحدى جهتي جدار برلين المقسمة إلى جهته الأخرى.

لم تكن خطة قتل السيدة مان موضوعة ومدروسة في رأسي الذي يضج. كل ما كنت أعرفه هو ضرورة الاحتفاظ بها في وضع التوتر. وكنت مستعداً لوضع يدي اليمنى تحت أنفها لأداعبها. كنت أنظر في عينيها مباشرة، وبيدي الصحيحة كومة أوراق نقدية من فئة الـ ١٠٠ مارك. كنت أغبطها وأحبها. وأود إعطاءها قدر ما أعطيتها لأسعدها، فقط لتتابع ابتسامتها. علني التذّ جنسياً بحرية بعد كل ذلك الغياب عن الحرية.

كانت تقود. بدلت وضع لفافتها الغليظة من إحدى زوايا فمها للأخرى. كانت تدخن وتتمنى ممارسة الجنس مثلي.

«إلى أين؟».

«إلى أي مكان ترغبين يا سيدة مان. المهم أن نكون معاً!».

«ستتحقق رغبتكم».

«كم تقولين ذلك بجمال! كرريها أرجوك!».

«سألتك عن الاتجاه المطلوب».

«انتقيه أنت يا سيدة مان. أنت تعرفين أفضل مني، كيف يمكن للإنسان أن يقتل الوقت».

«دعنا من الكلام عن القتل».

«كم هي الساعة الآن يا سيدة مان، على منبهك الجيبي؟».

«على ساعة يدي الحادية عشرة بالضبط».

«رائع يا سيدة مان!».

«ما هو الرائع؟».

«إن الساعة بتوقيتكم كما قلت إنها بالضبط».

«ألديكم توقيت آخر؟».

«موازٍ؟» همست لها «وقت موازٍ!».

«أسألك ثانية عن الاتجاه».

«سوقي يا سيدة مان أينما تريدين لمدة اثنتي عشرة ساعة بتوقيتكم، الوقت أمامنا لنرى المدينة، الضواحي، الغابات. يخيّل إلي أننا نستطيع رؤية العالم كله!».

«يُنصح في هذا الجو الماطر أن لا يخرج الإنسان من المدينة».

«المطر يساعد على التفكير وأنت تتمشين على الشاطئ».

«قل هذا لإنسانة أخرى!».

«لم أفكر بشيء سيء».

«في مثل هذا الطقس يُقتل السائقون. البارحة قتلوا إحداهن. وجدوها مسلوبة وميتة على الشاطئ».

«يا سيدة مان، أنا لم أعرض عليك ذلك الشاطئ».

«لدينا نهر واحد!».

«وشاطئان يا سيدة مان».

«كانت الجثة بدون رأس، والرأس بدون عينين ولا أنف ولا آذان.غرس القاتل وترك في بطن القتيلة وصدرها إحدى عشرة سكيناً. هذا تحذير كاف لباقي السائقين. أليس كذلك؟».

«لن يستطيع أحد رفع يده عليك ما دمت معي».

«كيف؟».

«أنا واحد من أولئك الذين يقتلون».

«سائقي التكسي؟».

«أقتل غالباً بدوافع حب يا سيدة مان. ثم أتعذب. أقتل بدوافع ثأر. أحياناً أقتل بدون سبب. لم تسيطر الكراهية والاحتقار علي أبداً. أما إذا تعلق الأمر بالعدالة أو المبادئ فيمكنني أن أطلق النار على الإله نفسه».

«آه!».

«أقول الحق يا سيدة مان».

«كانت القتيلة صديقة عائلتنا».

«أكانت تعيل أحفادها؟».

«أطفالها وأحفادها يا سيدي. مثلي!».

«وهل أراد أن يسوق ثانية بعد ذلك؟».

«من الذي أراد أن يسوق ثانية؟».

«سائق التكسي، السيد..... الذي تشفقين عليه هكذا».

«لم يكن سائق التكسي رجلاً، كانت امرأة. السيدة تيش، جدة».

«وهل أراد السيدة تيش بعد موتها أن يسوق؟».

«السيدة تيش روح مؤمنة، إنسانة وديعة طيبة، وجدت ميتة، وليس مذبوحاً بل م - ذ - ب - و - ح - ة!».

«لم يعد الموتى يا سيدة مان كما كانوا سابقاً، إنهم يريدون أن يقودوا. لقد تركت عمي السيد بوداك منذ عدة ساعات بتوقيتكم على أحد المفترقات بسكين في عنقه، أي مذبوحاً وميتاً. ولم أستطع أخذ المقود من يده!».

«أكان المذبوح شقيق أبيك أم أمك؟».

«أبي وأمي يا سيدة مان».

«وهل كانت الجريمة نكراء؟»

«جريمة سياسية بذيئة يا سيدة مان. مما يعني عدم وجوب البحث عن إشهار السكين في علم التشريح المرضي، بل في السحر، في الغيبيات وعلم النجوم والسياسة الاقتصادية. أنا من قتل السيد بوداك - إن لم يكن اسمه هذا في السكتش فقط - أنا الذي لا تزال يداي داميتين. ولا أعلم لماذا فعلت ذلك، وكيف سيعرف الآخرون! قتلت بعده ثلاثة من إخوتي. في الحقيقة

طاروا وحدهم إلى الهاوية. وأنا أعلن مسؤوليتي عن قتلهم. لم يكونوا ذاهبين للنزهة طبعاً في ذلك الطقس والتاريخ بل ليلحقوا بي ويعيدوني إلى قصر الخنازير!».

«قصر الخنازير!» ضحكت من قلبها، حتى اهتزت أسنانها القديمة المهترئة.

«اختراعك جيد...».

«لا أعرف الاختراع يا سيدة مان. أحدثك فقط بالذي حصل. أما ماذا سيحصل!... هل يمكنني أن أكمل؟».

«لا».

كنا على أطراف المدينة، نعلك المخدر، نأكل النقانق الحارة وقوفاً. سهوت عدة مرات، وكدت أهوي. أمسكتني السيدة مان. كنت أمسك أوراق النقد من فئة مئة المارك بيدي اليسرى مفرودة كورق اللعب. اقترب بعضهم منا ببطء. أعادتني السيدة مان للمرسيدس. ابتدأت أجراسهم تدق ثانية مما ذكرني بالجبل.

«نسيت اسم مدينتكم الصغيرة يا سيدة مان».

«هذه أولم ملكة جمال الدانوب».

«ألديكم كنيسة يا سيدة مان؟».

«أولم مدينة الكنائس».

«كم أريد أن أصلي بعد كل ما حصل لي خصوصاً بعد جريمتي الأولى. سأطلب الغفران من الرب لأنني أنهيت حياة عمي السيد بوداك، ثم إخوتي

الذين لا أذكر الآن أسماءهم. أرسلتهم إلى الهاوية. ليحررني - أقصد الرب - من الحقيبة السوداء التي حدثتك عنها أثناء تناولنا الطعام. سأصلي للرب كي لا يسمح للناس الأقوى والأفهم أن يشتروني ويبيعوني ويتاجروا بي كأموال منقولة. سأطلب منه أخيراً أن يعيد لي صحتي، روحي وقوتي، علّي أستطيع العودة إلى وطني وبيتي الذي فقدته من زمن».

«يستطيع الإنسان المؤمن أن يصلي في السيارة. سأخرج إذا رغبت بذلك، أو أخرج أنت. وسأنتظرك».

«نحن لا نجرؤ على الافتراق يا سيدة مان، ولا بأي ثمن!».

«إذاً صلِّ هنا. لن أسمعك. حرام أن تترك أباك، في طقس كهذا بدون سلام ولا صلاة».

«أود الصلاة في كنيسة أرثوذوكسية، بروتستانتية، والأكثر في الكنيس أو الجامع».

«ولماذا ليس في كنيسة طبيعية من كنائسنا؟».

«ملاحق أنا ومتجمد يا سيدة مان».

«يمكننا أن نجرب...».

صلّبت، وزمّت عضلات فمها حول شفتيها المشوربتين، وضغطت مداس البنزين. أرتني الكنائس، وشرحت لي. لم أكن أعرف في أي وقت من النهار نحن بتوقيتهم. كان الوقت ليلاً في حساباتي. عاد الإلهام لي، قوتي الوحيدة.

«ما هذا الخازوق يا سيدة مان؟».

«كاتدرائية مونستر، عجيبة أولم وأكبر من كل العجائب!».

«كأنها مبنية من جليد وظلام».

«لماذا لا تصلي قليلاً؟».

«أستطيع الصلاة هنا يا سيدة مان» كنت أرتجف، وأنا ألامس ياقتي المبللة وصدغيّ المنتفضين.

«يا سيدي الشاب، ما دمنا هنا فمن الأفضل أن نذهب إلى الباب الرئيسي» قالت لي وهي تمد يدها بعد أن صارت على الرصيف: «هناك سيسمعك ربنا كأفضل ما يمكن».

«وهل يصلي الآخرون لأبيكم على هذه الطريقة يا سيدة مان؟» سألتها، وأنا أسير بجانبها واثقاً. «كل يوم!» قالت، وهي تمسك بي، محاولة توحيد خطواتنا.

«أريد القول: ليل نهار!».

«كل الكاثوليكيين؟».

«يأتي إلى هنا كل الذين يسرقون، يقتلون، يرتكبون أي خطأ في أولم، للاعتراف. فيسمعهم أبونا بأناة، ويغفر لهم. غالباً ما أسوقهم بعدها وهم نظيفون وقد خففوا آثامهم».

كانت تقودني. تفوح منها رائحة الدخان والبطيخ المحمض مثل أمي. حدثتني عن الاعتراف والركوع على الركبتين. أحببتها، ورغبت لو أرتمي في أحضانها. نبهتني كي أحترس على أوراقي المالية ذات مئة المارك، وهي تغمغم والمطر يهطل بغزارة.

«يا سيدة مان!» همست بود وتعلقت برقبتها: «ألا تـرين أن الكاتدرائيـة تبتعد أكثر فأكثر؟!».

«بضع خطـوات فقـط يـا صـاحب الـروح الخطـاءة!» شـجعتني وهـي تحملني.

تذكرت كولار المجري، الذي أكد دائماً أن أفضل طريقـة لقتـل الألمـاني هي قتله بالتدريج. وخفت أن ألتذّ وأقذف قبل الوصول لعجيبـة أولم أكـبر من كل العجائب.

«نحن أمام الباب الرئيسي!» تنفست بعمق، وهي تنزلني عن ظهرها.

«وبما أنني لست في وضع يؤهلني لتقبيل الباب يا سيدة مان، فـماذا يجـب أن افعل؟».

«صلّب وصلِّ، وسوف أقبل الباب!».

«لا أستطيع رفع يدي يا سيدة مان. إنها تقيح، مهددة في كل لحظة لينفـر الصديد منها. وقد تتقيئين ثانية».

«سوف نتساعد».

«إنها تؤلمني يا سيدة مان، آه!».

«لقد رفعت لك يدك. صلب. الكاهن ينظر إلينا!».

«نحن نصلب بثلاث أصابع فقـط يـا سـيدة مـان، ولـيس بكـل الكـف مثلكم. الإبهام عندنا أهم الأصابع، وأنا فقدته! انظري، كان هنا، ثم قطعوه ورموه للملكة جمال الخنازير جوزفينا. لقد أكلته أمامي. لا أريد إخافتك بهـذه الحكاية. يكفي أنك تقودين».

«صلّب باليسرى!».

«قوانين ديننا صارمة لا تسمح بشيء كهذا يا سيدة مان. سيكون ذلك حراماً كبيراً. وأبونا لا يغفر مثل أبيكم».

«وأنا التي حملتك وسحبتك كل هذه المسافة!».

«لو رآني يرمولاي خائراً ومسكيناً بهذا الشكل، واقفاً أتبلل أمام الكنائس الكاثوليكية، لحدث شر خطير واحتقرني، ولكان هذا بالنسبة لي أبشع من رصاصة في الجبين!».

«ومن هو؟ أي راع للخنازير هو؟».

«سأموت على يديه يا سيدة مان، أو أنه سيلفظ أنفاسه على يدي! هذا مكتوب علينا! يرمولاي ليس كائناً من كان! يرمولايّ يبيع ويشتري الرجال بالجملة، وليس بالمفرق مثل غيره. يرمولاي ليس بولخا! ليرمولاي جيش مرتزقة أبيض كبير مكون من شباب يشتهون الموت لأجله. سيأخذني يرمولاي حينما أشفى لأصبح أحد غوريلياته. خصوصاً حينما سيعلم أنني لم أنحن وأصلّب بكل كفي أمام أبوابكم المبللة!».

«عن أي غوريلا تتكلم؟».

«أنت تسوقين غوريلا يا سيدة مان. غوريلا - قاتلاً! كل من ملكني سابقاً كان ممتناً. فكيف سأصبح عند باشوشكا يرمولاي!».

«أليس الغوريلا قرداً؟».

«القرد هو شمبانزي يا سيدة مان. والغوريلا إنسان!».

«ما دمت غوريلا أيها السيد، فمن أي قومية أنت؟».

«سينائي يا سيدة مان».

«أول مرة أسمع عن هذا الشعب».

«يبدو أنه شعب جديد تماماً يا سيدة مان. يؤكد بعضهم أننا تزاوجنا في سيناء مع القبائل، فأصبحنا كما نحن عليه الآن. ويقول الآخرون إن القبائل تلك خرجت منا، لهذا ترينها قوية. القبائل هناك تدعي العكس. وحسب رؤية أحد المؤمنين بالغيب ومربي خنازير، فنحن السينائيين كشعب مواز.. سلبي، يجب أن نُباد».

«لا تكلمني عن السينائيين أكثر».

«لم أميز في حياتي بالمعرفة يا سيدة مان. أنا أشعر فقط. لقد بات معروفاً لدي أن قوانيننا، نحن الشعب السينائي، حادة جداً، وأن ديننا نظيف وعريض مثل قبيلتنا، مثل الصحراء التي أخذت الريح والرمل والشمس منها كل ضار وحقير وكريه. والمهم بالنسبة لنا هو الشرف والعدل والانتقام. إنها أهم من أبنية الكنائس والأبواب المختلفة والعتبات المتآكلة. لا يحب إلهنا السينائي أن يركع أحد أمامه وأن يكذب ولا أن يُصلى ويُرجى ويُتباكى، ويُوعد. إنه لا يغفر يا سيدة مان. ومهما ذرفت من الدمع فهو يفضل القتل. الإله السينائي هو رجل حقيقي!».

«السينائيون» همست السيدة مان مندهشة، وهي تقود ببطء، وتنظر من طرف خفي إلى أوراق النقد ذات مئة المارك في يدي. بللني العرق. عرفت أنه بإمكاني الاحتفاظ بالسيدة مان في وضع التوتر وقتلها في الشارع أو داخل السيارة فقط. كنت أضخّم الرزمة المصنوعة من أوراق مئة المارك بإضافة أوراق جديدة لها من صدري. عبأت السيدة مان ساعتها، تأوهت، واشتكت بأنها تعيش أسوأ من السيدة أرنولد. كنا في المرسيدس.

«أيوجد في مدينتك يا سيدة مان معمل للآجر؟».

«أولم مدينة الآجر!».

«أوصليني إلى هناك».

«أينتظرك هناك أحد؟».

«سينائيون يا سيدة مان. يعرفون أنني في وقت ما سأحضر إليهم. وأنني لا أملك مكاناً آخر أذهب إليه حتى لو أردت».

«وهل السينائيون شعب محب للآجر؟».

«يؤكد عمي، السيد بوداك، الذي كان عالماً ومربي خنازير، أن قبيلتي هي الوحيدة سينائية، وليس قبيلته. خدعة كبيرة. قبض ثمنها سكيناً في رقبته! فالقتلة ضحايا أيضاً يا سيدة مان. السينائيون بشر دون وطن ولا مستقبل، بدون أهل أو سقف فوق رؤوسهم. إنهم محبّو الآجر، يحفرون في كل أراضي ألمانيا متسكعين، مشردين، مجانين تتمرنون بهم، إنهم لصوص وفلاسفة منحرفون، إنهم أولادنا المرضى المساكين!».

«أأوصلك إليهم؟» استدارت ونظرت إلي ملياً، حتى خبأت جفونها المستهلكة عينيها، ما عدا الحدقتين «هناك ستخرج؟».

«قوديني إليهم أيتها السيدة مان الرائعة! قوديني إلى هناك أو اذبحيني. سأكون أول سينائي بالنسبة لك! انتقمي هكذا للسيدة تيش الفقيرة. لكن استخرجي السكين من رقبتي بعد الذبح، حتى لا أخيف الناس عند مفارق الطرق، مثل عمي السيد بوداك!».

كانت فاغرة الفكين، مهيأة الفم للصراخ. للعض. تمالكت نفسها.

«معمل الآجر. براكات. سينائيون!».

«كم الساعة بساعتك يا سيدة مان؟».

«كما بساعتك: ٢٣.٣٥ دقيقة!».

«التاريخ؟».

«لا يزال التاريخ ١٠/ ٤/ ١٩٧١. بتقويمنا طبعاً».

«وكم يطول يوم كامل في الحرية يا سيدة مان؟».

كانت الأمطار تنهمر فتعبق رائحة الأرض والآجر وبراكات السينائيين. تصارعنا أنا والسيدة مان. تصورت في البداية أنني أريد إنهاكها، فلم ترغب تجاوز اتفاقنا. رغت وأزبدت مدعية أن مبلغ / ١٠٠٠ مارك/ هو كثير. حاولت إعطاءها كل ما استطعت أخذه من دكان الزهور في المحطة، ومن صالون الحلاقة وبائع السكاكر.

«ألف مارك ألماني لك يا ملائكة أولم» صحت بها، وأنا أقف على رجلي بصعوبة «وأحد عشر ألفاً للفقراء أحفاد السيدة تيش الفقيرة، التي قد أكون قتلتها!».

بكت السيدة مان. حشوت النقود في جيبها وأكمامها وصدرها.

كانت تنوح. سيطرت عليها بكلام ناعم، وقبل سينائية، ويد مشوهة، تقيأت بسببها مرتين أثناء القيادة. أرجعتها خلف المقود، ووضعت منظم السرعة للوراء.

«ميتة أنا» قالت وهي تضغط دواسة البنزين بقوة رجل «م. ه. ز. و. م. ة!». «بالنقاط يا سيدة مان!» صحت خلفها: «بالـ - ن - ق - ا - ط!».

كانت السيدة مان الألماني الثاني بالنسبة لي.

- ٧ -

دست في الأرض الموحلة. كنت أسحب جزمتي بـصعوبة. يخيـل إلي أن كل كومة آجر هي خرائب الكنـائس الـشرقية، جحورنـا بـدون مرمـر ولا كتابات. وحينما وقعت أرضاً وزحفت، كان ضـوء حقيبـة دراكـولا يـسير موازياً لي ويتقلـب. لم أعـد أخافـه. وصـلت إلى نهـر كبـير. غـسلت يـدي والسكين ووجنتي. خاطبت النهر كأنه نهرنا وليس نهرهم البارد. كان للنهر ضفتان. وكنت كإنسان مواز حقيقي من عالم تحت الأرض، أسير أحياناً على ضفة وأحياناً على الأخرى.

رميت الكاب في النهر، والقبعة المقرفة، والـساعة ذات الوقـت الغريـب بين عقاربها. قادتني الضفتان إلى ساحة المعمل. كان هناك الكثير من الآلات والآجر المشوي والتبن.

«يا عمال الآجر! إخوتي، أيها الرجال!» همست، وأنـا أنحنـي أمـام عتبـة إحدى البراكات:

«أيها الأصدقاء هل يمكنني الدخول؟». كان عازف الأكرديون يونانيـاً، وكان الثاني والثالث شبيهين بالإسبان أو العرب العـاملين في ورشـة الـسيد بركشير. كانت أمامهم فتافيت الخبز، بيرة بافاريـة، ثـوم مـن الجنـوب، أمـا الرجلان اللذان فهما همهماتي فقد وضعا بينهما امرأة ضخمة حبلى.

«أيها السينائيون، الدورية خلفي! إذا وقعت بأيديهم ثانيـة فـسيعذبونني ويذبحونني بمنشار مثلم! لا تسمحوا لهم...».

«ادخل!»

«ضمدوا يدي، اربطوا جبيني. ماء!». أعرف أنني بكيت وقبلت عتبة بيتهم السينائي المقدس بينما كان اليوناني يعزف.



الفصل السابع

حياة العمال الأجانب العائلية والعاطفية

- ١ -

رفعت يدان قويتان شابتان رأس مارك وأراحتاه على الوسادة. ألبسوه بزة عمل كعمال الآجر، وحشروه بين العمال الأجانب المهدودين وزوجاتهم الخصبات، اللواتي انهلن على يده، حتى اختلط الأمر عليه وكأنه موجود في غرفة تعذيب بارون الخنازير. ولم يدر أن شفتيه تحركتا تسألان:

«من أنتم، أيها الناس الطيبون؟».

«أقول لك ثانية، أنا امرأة اسمي مارجا. ومذ أتيت إلى براكتنا أعدت ذلك وقلته عدة مرات».

«تابعي يا مارجا».

«هذا الجالس فوق رجليك اسمه دانيل، عامل بناء معروف من كنينا - دلماتيا - يوغسلافيا. وهو هنا في أولم، مثلنا كلنا، عامل آجر. ولو أنك عرفت ضخامته لما رفست برجليك!».

«وماذا يكون دانيل لك يا مارجا؟».

«دانيل زوجي، أحبه كالعين في الوجه!».

«ماء يا مارجا».

«وذاك الذي يمسكك من كتفيك هو كوزما، عامل صيانة طرقات ومدهن المدرسة في كنينا قبل الحضور إلى ألمانيا. وهو ليس أقل من دانيل في شيء!».

«وماذا يكون كوزما لك يا مارجا؟».

«زوجي هو الآخر، الشرعي! وأنا مخلصة له كإخلاصي لدانيل. أحب كوزما كعيني الثانية!».

«الآن أتحدث أنا، دانيل. أكرر لك، لتحفظ: مارجا امرأتي، مثل ما هي امرأة كوزما. مارجا زوجتنا ولا نملك أنا وزوجها القانون أو القوة لنفترق عن بعضنا. التقينا بها وأحببناها كأخت لنا في معمل الآجر هنا في ألمانيا. آه لو تعرف مدى جمال عينيها!».

«قل يا دانيل».

«بلون الكدمة، عميقتان مثل نهر اليادران في كاربنا!».

«تابع يا دانيل».

«يداها وساقاها طوال، ملونة بالنمش والأخوال. كلها كبيرة وكلها صغيرة. تعرف أن تتكور ككرة من الصوف، كأنها لا تملك عظاماً ولا عموداً فقرياً. لو أنك تعرف إلى أين تنساب جدائلها الصفراء مثل التبن، الطرية مثل الحرير! وكيف يليق لها الجنين، جنيننا وجنين الرب!».

تأتأ كوزما شارحاً عن الحياة المثلثة العائلية الشريفة، قال أفكاراً فقط. ذكر الاقتصاد، النظافة، الأخوة، الغربة. وقد ابتدأ حديثه حول فظاعة وانحطاط إنسان يبول أو يبصق على أرض غريبة. عندها قرع أحدهم الباب.

كان مارك مستلقياً، يداه تعبتان، وعظامه مهدودة. كانت حفرتا عينيه وحفرتا أذنيه ملأى بالعرق. وكان بإمكانه سماع صوت ثلاثتهم ينكشون الأرض وهمساتهم حبلى بالخوف. وتأكد أن كلاً من دانيل وكوزما قد أمسك بيده البلطة هذه المرة أيضاً بينما أمسكت مارجا بعصا طويلة لها

رأس معقوف يشبه النصلة. وبشيء من وعي لم يفقد كله بعد، تعرف مارك على الأصوات التي كررت نفس الكلام والأفعال لليلة العاشرة أو الخامسة عشرة. لم يخفوا أنهم صربيون، صربيون سابقون. كانون يصححون كلام بعضهم البعض، الواحد تلو الآخر، كان الأول من ضواحي بلغراد، والثاني من حدود بلغاريا، والثالث من تسيتينيا. وكلهم بنفس الكنية: بتروفيتش[1]، كما أراد دراكولا. لقد استورد حوالي خمسين رجلاً مختطفاً، حتى وجد هؤلاء الثلاثة. وهم بالكنية على الأقل ثلاثي إقطاعي ملكي كما قال. تفاخر الثلاثة بأنهم المنتقمون، وبأن أوسمة فرانيفيتش قد أُهديت لهم. فهم مارك أنهم يعملون غوريليات منذ زمن عند شخص أكرايني بدين، مدمن وبكّاء، اسمه ديميتر مازوركا، يحتل اليوم مكان بوداك. وتفاخروا مرة: «نحن دليل قائم بأن الصربيين، الصربيين السابقين اليوغسلاف ذوي جوازات السفر الحمراء، يمكن أن يصبحوا وأن يظلوا أوستاشي بكل قلوبهم!» وقد أكدوا لأحدهم بأنهم سيسبقون بعصبيتهم وتطرفهم وجنونهم الدلماتينيين الثلاثة السابقين، فورتيتش ودازلينا وبركلو، وبأنهم عظمة الجنون الجديد لعهد جديد. لكن مارك لم يعد يتفاجأ من شيء.

«أيها الناس، عمن تبحثون عندنا ثانية؟» أجابهم كوزما. وأضاف:

«في هذا الوقت!».

«بتروفيتش الأول:

«عن الإنجليزي. لا تتظاهروا بالبلاهة!».

---

1 - كنية عائلة إقطاعية كانت مقربة من الملك قبل قيام الجمهورية في يوغسلافيا. - المترجم -

«وماذا يفعل الإنجليزي عندنا نحن عمال الآجر الفقراء!» قال دانيل «اتركونا ننام. غداً سنحفر ونعتل!».

بتروفيتش الثاني: «إذا لم يكن إنجليزياً فهو يلبس كالإنجليزي: كاباً، كرباجاً، ساعتين، جزمة، بنطال خيال. سمعنا أنكم تخبئون واحداً مثله!».

«عندنا حتى الآن لا يوجد رابع».

بتروفيتش الثالث: «كيف لا يوجد؟!».

«لا يوجد في الغرفة أحد آخر غيرنا نحن الاثنين وزوجتنا الشرعية مارجا. اخرجوا!».

بيتروفيتش الثاني: «لا يوجد مكان نذهب إليه بدونه!».

«أيها الناس أنتم تدقون على باب خاطئ. اذهبوا وإلا فسوف تسيل الدماء!».

بترفيتش الأول: «قيل لنا إنه ينام عندكم ويتفسخ. نحن نبحث عنه في كل ألمانيا، النمسا، سويسرا. إنه بدون إبهام!».

«بتروفيتش الثالث: «نريد إخباره بأمر ما. بصحبتنا طبيب. فإذا كان يتماثل للشفاء فسيعيد له الروح!».

«لن نعطيكم إياه حتى لو كان هنا!» قالت مارجا «أبداً».

بتروفيتش الأول: «ولماذا يا تشوش؟».

«لأنكم تنهبون العمال الأجانب الفقراء!» قال كوزما «تأخذون الإتاوة، مثل الأتراك في عهد العبيد! الذي لا يعطيكم ٣٠ أو ٥٠ أو ١٠٠ مارك شهرياً، يكتب عليه الشقاء! تؤكدون أنكم تعملون لأجهزة أمن مختلفة،

وبهم تهددوننا! تختطفون أطفال العمال الأجانب، تبتزون أهلهم، حتى إن الكثيرين من فقرهم وقهرهم رفعوا أيديهم على أنفسهم!».

بتروفيتش الثاني: «أهذا ما نفعله فقط؟».

«تقذفون تحت العتبات جرائد اللاجئين السياسيين الهاربين، منشوراتهم ومناشيرهم. ولهذا يجب أن ندفع بعض الماركات. واضح في تلك الأوراق من هو المطلوب ومن الذي سيقتل. الذي يقبض على هذا وهذا مكافأته كذا وكذا. الذي يخبر عنه فقط كذا وكذا. تدعون على تلك الأوراق لثورة ضد يوغسلافيا، كأنها ليست وطنكم مثلما هي وطننا. تدعون لتسميم مياه الشرب، لحرق بلغراد من طرفها الغربي!».

بتروفيتش الثالث: «نحن ندعو شفيهاً أيضاً!».

«لن نكون معكم!». لم يعد بالإمكان إيقاف كوزما ولا استغاثة مارجا. كانا يرتجفان.

«أيها الناس نحن مسرورون هنا. صحيح أننا نحفر الأرض ونجبل الطين بأيدينا، صحيح أننا نأكل ونتغوط بأرض غريبة، صحيح أننا نتحول إلى أرض ألمانية، كله صحيح، لكننا لن نكون معكم!».

«بتروفيتش الأول: «تشوش، إذا سلمتم لنا الإنجليزي بدون إبهام فسنعفيكم من الإتاوة والإرهاب. سنترككم تنامون وتنتظرون ابنكم الحرام بسلام!».

«أيها الناس، ليس عندنا!».

بتروفيتش الثاني: اسمعوا حفيف ورقة الـ ١٠٠ مارك! هي ثروة لفقراء معدمين مثلكم. تعني عربة طفل مستعملة، خِرَق أطفال مستعملة، كل شيء مستعمل ومهلهل ومعلوك، لولي العهد ابنكم!».

«لن ينفع ولو لوّحتم بملايين الماركات».

بتروفيتش الثالث: «ما دام الأمر كذلك سنحطم سعادتكم أيها الفقراء!».

«يا إلهي!» استغاثت مارجا من وراء الفرن «آه.. يا إلهي!».

«مارجا» تخيل مارك أنه يهمس لها «قولي لزوجيك كوزما ودانيل أن يسلماني. ليأخذني البتروفيشيون! قتلت عمي السيد بوداك، ثم ثلاثة إخوة. ولا أحسب السيد بركشير والسيدة مان، وآخرين. كلهم يبحثون عني الآن. يسألون إلام سأقتل. أجيب إنني لا أعرف. فظيع أنني أفكر هكذا وأجيب، أفظع من القتل يا مارجا. إذا خرجت من هنا فسوف تتمكنين من الولادة بشكل أفضل!».

- ٢ -

انهمر المطر بغزارة. ولامست أغصان لم تورق بعد نافذة البراكة. ولو أن الموقد لم يهدر لسمعنا نحن الأربعة أغنية عمال الآجر في البراكة المجاورة وصوت أخذ الإتاوة بالإكراه في وسط الساحة. زعق القطار هادراً يشق قلب الليل جانب نهر الدانوب. وإذا استنتجنا الأمور بناء على البكاء والحشرجات فإن البتروفيشيين كانوا يختطفون أحدهم. تجمع دانيل ومارجا وكوزما حول فراش مارك وحدثوه كيف تزوجوا وعقدوا قرانهم:

«أمسكنا أيادي بعضنا نحن الثلاثة، وذهبنا لقنصليتنا في ميونخ. وقتها كنا نعمل هناك في حفر نفق القطار. قلنا له: أيها السيد القنصل كذا وكذا أنا

دانيل بوبوفيتش، مواليد كنينا - دلماتسيا عام ١٩٤٥، من أب ستانكو وأم تبرانا. قوميتي صربي، ديني أرثوذكسي. أصرح أنني أريد الزواج من مارجا يوفانيتش الواقفة عن يميني».

«يا دانيل ليس لدى القنصل مانع من ذلك». كان القنصل رجلاً عاقلاً من مناطقنا، يدخن الغليون، قال من خلال الدخان: «هذا الآخر هو الشاهد أليس كذلك يا دانيل؟».

«إنه زوج أيضاً أيها الرفيق القنصل. ألا ترى؟. تابع أنت يا كوزما».

«أيها الرفيق القنصل كذا وكذا. أنا كوزما زاكورا، عامل أجنبي، مثل دانيل، مواليد كنينا - دلماتسيا عام ١٩٤٥، من أب فينكو وأم كاترين. قوميتي خرفاتي، وديني كاثوليكي، أصرح أيضاً أنني أرغب الزواج من مارجا يوفانيتش، الواقفة على يساري».

«أيها الرفيق القنصل كذا وكذا، أنا مارجا يوفانيتش، عاملة آجر في ألمانيا منذ أن عملا، هما، في هذه الصنعة. مولودة في بنكوفاتس جانب كنينا - دلماتسيا عام ١٩٤٥، من أب إيليا وأم ميليتسا. قوميتي صربية وديني أرثوذكسي. أصرح أنني أرغب الزواج من دانيل وكوزما الواقفين إلى جانبي».

«تتزوجين الاثنين يا مارجا؟!!».

«نعم الاثنين يا رفيقنا القنصل!».

«مارجا، حتى الآن لم أرَ زواجاً كهذا، ولا سمعت بمثله».

«سنعقده نحن يا رفيقنا القنصل».

«مارجا، ليس لدي صلاحية لعقد أي زواج، خصوصاً كهذا. لا أن أعقده ولا أن أحله».

عندها نظر دانيل إلى مجسم الكرة الأرضية، وخريطة يوغسلافيا التي غطت الحائط كله وقال بثقة:

«أيها الرفيق القنصل كذا وكذا، لا يمنعنا أحد من الاستمرار في العيش هكذا، بدون شرف ولا شرع مع مارجا. لكننا نعيد لك هذا الحق! نحن الثلاثة من عائلات دلماتينية محافظة وخجولة، نحترم القانون دائماً والنظام، ولا نريد أن يسمع أهلنا في الجنوب أي نبأ سيء عنا. لهذا نصرح أمامك...».

«بماذا يا دانيل؟».

«إننا نريد أن نصبح زوجاً واحداً مستقيماً لائقاً».

«وماذا يصرح كوزما؟».

«إننا نرغب أن نكون ما قاله دانيل، ثم يكون أب، فيما إذا حصلت الولادة مصادفة».

«كوزما ولماذا تعتقد بأنه لن يحصل ولادة؟».

«بسبب خط السكة الحديدية، يا رفيقنا القنصل كذا وكذا، مخيف أن تكون تحت الأرض. ومارجا لا تحمل ولا تجر أقل منا!».

«يا مارجا وماذا ترغبين أنت؟».

«أن أكون لهما نفس ما كنته حتى الآن، بل وأكثر، يا رفيقنا القنصل كذا وكذا. أن أكون زوجة لهما أمام القانون! أريد أن يُكتب هذا ويُعرف أنه قد

كتب فعلاً. لأصبح أماً طيبة للطفل الذي سيملك أباً حقيقياً يوغسلافياً، حامياً له...».

«وماذا ترغبين أيضاً يا مارجا؟».

«أن أطبخ لهما يا رفيقنا القنصل كذا وكذا. أن أغسل لهما، أن أمشطهما وأداعبهما، أن لا أقيم أي فرق بينهما. أن نعطف على بعضنا البعض. ندفئ وحدتنا، احتقارنا، الإرهاب الذي نتعرض له. والأهم يا رفيقنا القنصل أن ندخر ونوفر!».

«أيها الناس، لا أعرف ماذا نفعل».

«أنا، دانيل وكوزما. نحن الاثنين رجل محترم. ونوافق على أن نكون أباً. نحن لسنا كبعض سكان البراكة المجاورة. يجب أن يحصل هكذا كما نقول يا رفيقنا القنصل!».

«أولاً...».

«لا تتهرب يا رفيقنا القنصل، ولا تذكر لنا اللوائح والقوانين، ماذا يمكن وماذا لا يمكن، لو كان هناك عدالة وحق وقانون، لما فارقنا أوطاننا أصلاً وبيوتنا نحن الثلاثة! ضعيفة هي الفائدة من القانون والحكايا. تقول الأوراق والوثائق؟ أية أوراق؟ لم نكذب بشيء، ولن نكذب. لا نعرف الكذب! أما الوثائق التي تذكرها، فلا نملك ولا نستطيع تقديم إلا بطن مارجا! لهذا، أخرج الدفتر واكتب، اكتب كتابنا! فليكن ما هو حقيقة أمام الرب وأمام الناس!».

«أعيدي التفكير يا مارجا».

«لا نفع في التفكير وإعادته يا رفيقنا القنصل كذا وكذا. اكتب كتابنا، حتى لا أفطس من الحياء!».

«أيها الناس لست مفوضاً».

«نحن نفوضك، نحن حفارو نفق السكة الحديدية. وكل المصاريف حول الكتابة والإمضاء والأختام والنسخ ندفعها نحن، الزوج».

«وماذا سيحصل لو رفضت؟».

«شر!».

«أي شر؟».

«سنلاحقك بالمعاول والرفوش. سنصل إليك! سيحدث هذا تأكد. يجب أن تعرف أننا لسنا من أولئك الذين يرمون على بيتك وقنصليتك القنابل، حتى بت لا تجرؤ على الدخول إلى المرحاض وحيداً. سنصفعك على ذنبك وقفاك إذا لم تكللنا كزوج وزوجة!».

«وأين هم الشهود؟».

«نريد أن تشهدوا وتوقعوا أنتم، كل العاملين هنا يا رفيقنا القنصل. وهكذا ستصبح أمورنا موثقة. بعدها سنجلس في أي شاحنة ونذهب إلى الغداء في المحطة أو أي مطعم عمالي. لنشرب، ونبارك حظنا. لنغني بحرية في وطن غريب. لا يتزوج الإنسان كل يوم يا رفيقنا القنصل كذا وكذا. لهذا يجب ألا يرتجف لكل قرش أو مارك!».

«مارجا، أترغبين بقول شيء؟».

«يقف أمام القنصلية مصور، من العمال الأجانب أيضاً، عامل آجر من صقيلية. لم يجرؤ على الدخول. يخاف من الألغام والرصاص كما يقول».

«أتريدون أن يدخل؟».

«اسمه ألبرت، خاتم زواجنا لديه. اشتراه زوجي من المجمع الكبير. وثوب الزفاف الأبيض، صحيح أنه مستعمل لكنه بتاج له تول. وبزتا الزوج المستعملتان أيضاً. وعلبة فيها «فراطة» وأمشاط ومرايا وأدوية قديمة حصلنا عليها هذا الصباح لأبينا، فور خروجنا من تحت الأرض واغتسالنا. ليحضر ألبرت كل ذلك، وليصور».

«يصور ماذا يا مارجا».

«كيف نقسم اليمين بعضنا لبعض أنا ودانيل وكوزما. يمين الولاء والوفاء منهما لي، ومني لهما. يمين الرفاقية والأخوة، سواء في الغرفة أو الحارة. يمين النظافة والعناية في حالة مرضنا بأي وباء معدٍ أو أي جرح من أعدائنا. نحن نوقع، وألبرت يصور كيف نقبل بعضنا البعض في الجباه والعيون!».

«وكم صورة تودين يا مارجا؟».

«مئة يا رفيقنا القنصل كذا وكذا!».

«أترغبين بالتقاط صورة معي؟».

«الأولى والأخيرة معك، وبشكل تكون فيه خريطة وطننا يوغسلافيا ومقدساتنا وراءنا، والورد ومسدسك أمامنا على الطاولة، حتى يروا في دلماتسيا أننا كنا محاصرين حينما عقدنا القران وتصورنا. وإننا كنا مهددين بلعلعة الرصاص في كل لحظة. وإذا لم يأتني الطلق بعدها يا رفيقنا القنصل كذا وكذا سنرقص الدبكة. انظر إنه الإيطالي! صوّر يا ألبرت، صوّر كل شيء...».

- ٣ -

كانت السماء تمطر. وكانت النافذة مبللة بالقطرات. أنار مصباح مثبت على عمود في الساحة ثلاثة أجساد طويلة ناعسة لعمال أجانب. انتصب بين اثنين منها بطن مارجا، كبيراً كمجسم الكرة الأرضية عند القنصل. هاجت عاصفة في أولم. لا بد أن مهيجتها كانت حيوانة بوداك المخاطية ذات القوائم. كان مارك - وهو مغسول بعرقه ومنهار - يراقب الخيالات المرتسمة على الحائط، البادية كهيئات لمخلوقات شريرة. تخيل أنه حتى يستطيع النهوض يلزمه سنة - سنتان. وحينما توقفت الريح والعاصفة التي تلفح مدينة أولم، سمع صوت القطار المسرع، كغول يطارده من الجبل ليسقطه في صرعة خنزيرية دامية!

تمت الولادة، دون أن يعرف مارك متى. وقد أعاقته استغاثة مارجا وزعيق الطفل عن سماع صوت البتروفيشيين وهم يجمعون الإتاوة ويسجلون الاشتراكات الإجبارية على صحيفة السياسيين والهاربين. كانت مارجا تخبط بيديها في بركة نتنة من الدم. فتساءل الجيران ترى ما الذي تحتها.

«بنت، بنت!» قالت اليونانية وهي تقفز حاملة الطفل بمستوى جبينها المجنون، طفل عمال أجانب اقتُلع لتوه من بطن أمه. كانت تدور معه في كل الجهات «بنت، بنت، بنت!».

«فتاة!» صاحت الإسبانية بغرابة مفرطة وضربت رجليها بالأرض «ليحرسها الناس الطيبون ومريم العذراء الأولمية!».

كان الهواء يهز الأغصان والأسلاك ومصباح الساحة، حتى وصلت الخيالات فوق مارجا وتحركت لتصنع شكلاً إنسانياً معذباً، خنزيراً، آلة كمان.

ولا بد أن اليونانية والإسبانية قد تعاقبتا ليلاً على حراسة مارجا، حينما كان مارك وحيداً، مختبئاً وراء خزانة وستارة. كان يسمع ضيوف الليل وهم يدقون على النافذة، ويصرون بقفل الباب.

بتروفيتش الأول «مارجا، كيف حال ابن الزنى؟».

«أيها الناس للطفل أب كما أملك أنا زوجاً».

بتروفيتش الثاني: «كيف؟».

«لقد عقدنا القران وهو ما لا يمكن أن ينمحي أبداً!».

بتروفيتش الثالث «مارجا وأين هما زوجاك؟»

«في العمل الإضافي، مع صاحب العمل. انتقلا إلى مكان آخر! منذ سبعة أو ثمانية أيام جاءا - الزوج - وذاقا حساء البطاطا، عانقاني وقالا: مارجا حبيبتي، يجب أن نذهب إلى كولن؟ قبّل الأب الطفل وبكى من شدة الفرحة. وعدني: سنحضر من فرانكفورت عربة طفل، حتى لو كانت جديدة، وحتى لا تضطر طفلتنا للنوم بعد اليوم في سلة الكلاب! أوصياني - الزوج - أن أحرس العتبة وأن أنتظركم بهذه القبضة الحديدة المدببة إذا دخلتم بالقوة!».

بتروفيتش الأول «مارجا. لم يحصل كما تقولين. لم يرك الزوجان حتى اليوم التاسع من تلك الليلة حينما ولدت. لا يعلم الأب ما الذي وجدوه

تحتك. من يعلم ما كان قائلاً فيها لو أروه الفتاة. مارجا لا تجنّي. أخذناهما من معمل الآجر مباشرة لسيارة الصالون!».

«أين هما الزوج؟ أحي هو الأب؟».

بتروفيتش الأول «لا يزال حياً يا مارجا. إنهما يحملان صورة الزواج ويبكيان. رأيناك على صورة مع القنصل. وراءكما صورة وطنكم المشؤوم يوغسلافيا، الذي سننقض عليه قريباً! يقول الأب إنه بعد عقد القران أصبح يرغب بالحياة أكثر من ذي قبل، ويتمنى أن يبدو كل شيء طبيعياً. - الزوج - يستغيثان، يقولان إنهما ينتظران ويرغبان برؤيتك ومداعبتك» «أيها الناس ومتى سيأتي؟».

«هذا يعتمد عليك يا مارجا. سلمينا الإنجليزي وسوف نتحدث بلهجة أخرى. ستحصلين على حليب بودرة، حفاضات مستعملة للطفل، خبز معفن. لن نناديك بعاهرة صربية أرثوذكسية، كما أنت بالفعل، بل مارجا فقط. وسنرفع سعر الإنجليزي!».

«افعلوا ما تريدون».

بتروفيتش الثالث «ألا تسمعين كيف نخشخش لك بورقة من ذوات الـ ١٠٠٠ مارك؟!».

«خشخشوا!».

بتروفيتش الأول: «إذا لم تساعدينا بالحصول على الإنجليزي، لن يعود زوجاك ثانية، أو سيعودان مشوهين، ولن تجدي مكانا تقبلينهما به. سنستبدل دماءهما، ونخيط لهما ذنب خنزير. سيتحركان على أربعة، سيخوران بدل الكلام. أيمكنك العيش مع خنزيرين؟».

«نعم!».

بتروفيتش الثاني «مارجا تخبئين القاتل، ستتحملين المسؤولية!».

«خربتم العتبة، لا أفهم شيئاً، لم أره، أي ذنب وأي قطع لسان وأنف وآذان. اسألوا الإسباني. ستفقد طفلتي وعيها. اذهبوا، اذهبوا، اذهبوا إلى اليوناني وانظروا عنده. أي دم خنزيري، لا أفهم، أي استبدال، هذه صودا حجرية، سيبزغ الفجر، الآن سيأتيا زوجي.. آه!».

- ٤ -

كان الوقت ليلاً. وكلما مد مارك يده الصحيحة تجاه الصحن القرميدي المليء بذنب ولحم حيوان، كان يشعر باشمئزاز ودوران في رأسه. كان يعرف أزمته ويميزها وينتظر اضمحلالها. نظر إلى الفتاة الراقدة في سلة الكلاب وهي تكاغي، فشعر بقلبه يمتلئ دماً وفرحاً. همس لمارجا بأن زوجيها سيعودان حيين بدون علائم خنزيرية. كانت السماء تمطر. سمع صوت أقدام، صريراً حول قفل الباب. كانت مارجا تنتظر متوترة والقبضة الحديدية المدببة ذات الشوكات في يدها. كانت أصواتاً نسائية:

«مارجا، نحن نشتري أطفال العمال الأجانب!».

«اشتروا، أيتها النساء».

«مارجا، افتحي لنا. سمعنا أن طفلتك صحيحة، كبيرة الحجم مثل أبيها. سنشتريها».

«أيتها النسوة لينقطع لسانكم!».

«١٥٠ ماركاً يا فقيرة. هذا المبلغ ثروة بالنسبة لك! اشترينا من بعض الأمهات أطفالاً بسعر أقل بـ٥٠ ماركاً. يهبط سعر هذا النوع من اللحم يومياً يا مارجا!».

«اذهبوا إلى الشيطان الذي أرسلكم إلي!».

«مارجا سنعطيك ٢٠٠ مارك! التقت بك السيدات العاقرات، الألمانيات والنمساويات اللواتي أرسلننا إليك عدة مرات. أعجبتهن جدائلك الناعمة. قلن إنك أجمل من رهوانة. لهذا لا يندمن على النقود من أجل طفلك. يهدونك إضافة للـ ٤٠٠ مارك ثمن الطفلة ١٠٠ مارك بقشيشاً لك. تعرف السيدات زوجاك، وأخذن مقاس الأب. افتحي الباب، لنعدّ لك النقود، لنقتلع سلة الكلاب! ولن تري وجوهنا أبداً، إلا إذا ولدت طفلاً آخر!. لن نؤذيك يا مارجا، كما لم نؤذ الأمهات الأخريات من البراكة التي بجانبكم!».

لم تبك مارجا.

«أعطنا إياها يا مارجا ولن تكوني مسؤولة أمام أحد. الطفلة ابنة زنى، صنعت هنا، وهي غير مسجلة في أي مكان، أي هي فعلياً غير موجودة. ستكونين أجمل بدون الطفلة ومرتاحة أكثر، هكذا قالت لنا السيدات. ولن يستطيع أحد أن يبصق بوجهك، ولا أن يقول لك حاملة أولاد الزنى الصربية! لا تفكري كثيراً يا مارجا. أعطنا إياها!».

«أيتها النساء. وماذا سيقول الزوج والأب؟».

وقف مارك بصعوبة على قدميه، مرتجفاً تحت غطاء طاولة تدثر به تتعرق رقبته وجبينه. كانت أحشاؤه تفور تجاه حلقه كلما حاول التنفس بعمق، أو

الخطو تجاه سلة الكلاب والطفلة التي تبكي بداخلها. سمع صوت قطار الليل المبلل، كانت القاطرات مليئة بالخنازير من كل العيارات والأعمار والألوان. كانت يده تتقيح. ارتمى على الأرض. ولم يعِ إلا أنه كان يضم الطفلة إلى صدره ويزرع جبينها بالقبلات.

- ٥ -

بتروفيتش الأول «مارجا لقد أرسلنا زوجاك إليك لنتفق».

«أيعلم الزوج والأب أن الطفلة لا زالت حية ومعافاة وشبعانة. وأنها تشبههما؟».

بتروفيتش الثاني: « - الزوج - يعرفان كل شيء، خصوصاً أنك لم تعطِ الطفلة للعاقرات البائسات الألمانيات ولا بـ٥٠٠ مارك. أي عيب هذا يا مارجا! تذكري أننا لا نطعم الألمان، بل هم الذين يطعموننا! يعرف الأب أنك لم ترضي بتسليمنا الرجل فاقد الإبهام، الذي عرض عليك من أجله ١٦٠٠ مارك!».

«أيها الناس جيد ما داما يعرفان كل ذلك».

بتروفيتش الثالث «لقد أرسلنا زوجاك يا مارجا. لقد أمر الأب أن نحمل الطفلة فوق». بتروفيتش الأول: «إلى الجبل يا مارجا. إنهما هناك في مناورة خاصة. وحينما ينتهيان من التعبئة سيذهبان بعيداً. لهذا يريدان رؤية الطفلة. ولآخر مرة كما يبدو».

«أيها الناس أين سيذهبان؟ ألسنا على الشاطئ؟».

بتروفيتش الثاني: «السويد هي نهاية هذا العالم يا مارجا، وليس ألمانيا. ألمانيا هي البداية فقط. سيذهب الأب والزوج إلى الشمال!».

«الزوج - لن يتركاني أبداً».

بتروفيتش الثالث: «أعطني الطفلة يا مارجا، ولا تهتمي لزوجيك. لا تخافي، سنغطيها. سيارة الصالون دافئة. وسيبذر الأب لنفسه طفلة أخرى».

«أيها الناس لن يمكنكم لمسها إلا من خلال جثتي. ابتعدوا».

بتروفيتش الأول «٦٠٠ - مارك يا مارجا! هذا القدر من الذهب لم نعطه لأي أم أخرى حتى الآن!». «أنتم أفظع من تلك النسوة العاقرات».

بتروفيتش الثاني: «لقد فوضنا البارون الذي تواجد زوجاك في جبله وواديه مرتين، وكل مرة لمدة أحد عشر يوماً، أن ندفع ١٠٠ مارك أكثر! ألا يعني هذا شيئاً بالنسبة لك؟ كم أنت طماعة وشرهة يا مارجا!. البارون هو في الوقت نفسه محام وحاكم، وروح وجسد، كل شيء بالنسبة لنا. إنه يحب الأطفال الأصحاء، يفضل اللحم السلوفيني الجنوبي الطازج. سيقلم لطفلتك أظافرها، ويقطع أصابعها الواحد تلو الآخر، سيفتح ويغلق شرايينها. لهذا لا تهتمي أنت لصحتها. سيشويها سيشويها وهي حية. وما لن يستطيع أكله، ستمزقه جوزفينا، خنزيرة أقداركم جميعاً أنتم الجنوبيون!».

«ومن هو ذلك البارون».

بتروفيتش الثالث: «إنه ضابط، خسره جيشه، وخسر هو الجيش. وبينما ينتظر قدوم طفلتك، يقضي بقية وقته بتنظيف السيوف القديمة والخوذات. يجرب في الفناء طقوس الانتصار والعودة. يحصي الميداليات من القرون الوسطى، والجماجم والإبهامات. يزيل الصدأ عن الصلبان المعقوفة

والعادية، يزيل العفن والوقت الذي سار ضده! إنه عالم يخترع أمراضاً جديدة. ويصنع من الحشائش الكرباتية والبلقانية الأدوية، التي يعرف مقدماً أنها لن تفيد أحداً. سيعزف فوق جسد مولودك الخطيئة! وسنغني نحن أغان حماسية لن نتمكن في حياتنا من فهم معانيها». «لن أعطيها».

بتروفيتش الأول: «حتى لو زدنا القروش في كفك؟».

«تكفيني القروش التي يرمونها لي في معمل الآجر».

بتروفيتش الثاني «لن يُرمى، بل لن يُنقط لك بعد اليوم بشيء في معمل الآجر يا مارجا». «المالك رجل جيد، يحبنا ويحمينا. نحترمه ونفعل كل ما في طاقتنا. ذهب زوجاي إليه عدة مرات في بيته. وقد دعاني المالك أنا أيضاً، كضيفة، لأنظف وأقحط له الأراضي. لقد تصور زوجي ما بين السيارة ومعمل الآجر، وعانق الأب كأنه ابنه الحقيقي، وليس كعامل آجر يوغسلافي!».

بتروفيتش الثالث: «والمالك أيضاً معهما في الجبل. رماه مروضنا أمام الخنزيرة السوداء، فرم أذنيه، ثقب أنفه، وقطع إبهامه الأيمن. وفي الليلة التالية شوى صدره بنضوة حصان مشعة، وغير له دمه مرتين لرفضه طرد العمال اليوغسلاف من معمله!».

«ولماذا هو أيضاً؟».

بتروفيتش الأول: «يصاب أستاذنا بالكَلب، خصوصاً عند رؤية الألمان المشابهين لرب عملك السابق. الألمان الذين يطردون حاكمنا من ألمانيا، بل من أوروبا كلها. يقولون إنه قد استضيف عندهم لمدة طويلة، وإنه قد أشعل الدماء بينهم وبين شعوب كثيرة. لا يفهم هؤلاء الألمان أن المحامي

قد جاء إلى هنا بالتحديد ليزرع الخلاف. وإنه سيمكث - ط - و - ي - لاً! أين نذهب نحن والحاكم، بجيشه وخنازيره، بدون جبال الألب والجليد! لا نفهم لماذا يسمينا هؤلاء الألمان: الظلام، الطاعون، السرطان القديم! كأننا لسنا نور الموت الأخضر، الذي ينير دروبهم وأوديتهم. تصوري!».

«وهل كان معلمنا أول ألماني تأخذونه؟».

بتروفيتش الثاني: «إنه ثالث مالك لمصنع آجر مذ أتينا إلى باروننا كصربيين سابقين بدل الخرفاتيين. ما نفع الأبنية وتكويم كل هذا القدر من المواد ما دامت الأرض تقترب من نهاية دورتها الرابعة. لقد غرقت حتى الآن ثلاث أطلنتيدات، بكل ما حوته من قصور وطرقات!».

«يأكلني الهم على معلمنا المسكين مثلما يأكلني على زوجي».

بتروفيتش الثالث: «أعطنا الفتاة!».

«لا. ولو فقأتم عيني».

بتروفيتش الأول: «بيعينا الطفلة. ناولينا إياها. ملعونة أنت وذلك الذي بذرها في أحشائك! ستتسولين في ألمانيا بدون عينين! سيغتصبك الأتراك والجزائريون والإيطاليون! وسوف تضعين ابن سفاح آخر، إن لم يكن كهذا فسوف يكون أسود!».

كانت مارجا تبكي.

بتروفيتش الثاني: «بيعينا الطفلة بـ٧٠ ماركاً، ولن نقول لأحد إنك تخبئين الإنجليزي بدون إبهام. أعطنا الطفلة وسيكون زوجاك هنا قبل الفجر..».

- ٦ -

قرعوا بعد ذلك باب اليونانيين. وكان مارك قد أصبح أقوى وأثبت على رجليه، وقف بجانب النافذة، ونظر إليهم من ظهورهم. كانت سيارة الصالون الشيء الوحيد المغمور بالضوء، وكان محركها يهدر، وكان البتروفيشيون بأثواب الفرانيفيتش. ولم يتمكن مارك من رؤية ما يحملونه بأيديهم. كان الرجل الرابع الذي ناداه البتروفيشيون مرة «يا سيد ديمتر» ومرة «أيها الأكرايني التعيس» يلبس بزة عمال المتاحف. كان ديمتر عملاقاً منتفخاً مسلحاً بسيف على خصره، يتعثر وهو سكران جانب سيارة الصالون ذات اللوحات المموهة. يتصاعد منه دخان أسود، ويصدر عنه صوت بج - بج - بج.. وكان البتروفيشيون يدقون باب اليونانيين بعنف دون أن يستديروا إليه، ولا أن ينتبهوا إلى عذابه بحمل هذا الكرش المليء المهدد بالانفجار. عرض البتروفيشيون مذكرات بافيليتش الأرجنتينية بنصف سعرها، بأجزائها المكتوبة بالإسبانية قبل موته، والتي - كما همهموا - كانوا مضطرين لاختراعها وتأليفها. كانوا يعرضون رسائل هتلر المعروفة عن الأطفال في مركز إكثار النسل والحيوانات المنوية، المكتوبة بأيديهم، والمغلفة بجلد خنزير لم يحلق شعره. والأجوبة الملتزمة بشدة التي قيلت أمام الفوهرر. المحددة والموزونة والمنتقاة من جوزيف فرانس ومختاراته السوداء. وذكروا اسم ديمو الأب وديمو الابن وهم يعرضون مذكرات ثلاثة من المبارزين، مؤكدين أن هؤلاء الشبان الشجعان الفرنسيين قد استشفوا مجيء وقت العنف السياسي. كان البتروفيشيون يرهبون الناس

بحشرات مجنحة مكتشفة حديثاً ومصنعة في الجبل البافاري، وجراد سام بمنقار، مهمته تصحير أوروبا وتسميمها أولاً، ثم محق الكرة الأرضية كلها بما فيها البحار.

«لا نتكلم اللاتينية» همهم اليونانيون من الطرف الآخر، بينما كان البتروفيشيون يتفاخرون بالتقاويم الجديدة لنظام جغرافي يكون مركزاً للعالم كله. وبطاقات معايدة عليها رسوم مخروطية لأعماق الأرض وجوفها، ومناشير وملصقات يحثون فيها حتى اليونانيين على الثورة المسلحة ضد يوغسلافيا. وقد أكد البتروفيشيون، أن خرائطهم هي أرخص الخرائط في ألمانيا وأفضلها لأنه - ما عدا الماء والصقيع والشمس المطموسة بالصدأ - لا يشاهد عليها أي شيء آخر.

«لدينا الكثير من الحفر غداً!» أجاب اليونانيون، وهم يصدون الباب «ا - ذ - هـ - ب - و - ا». عندها، قفز الأكرايني ليساعد البتروفيشيين: «الإتاوة، أيتها الحيوانات اليونانية!».

لم يفهم اليونانيون معنى ذلك. ففسر لهم ديمتر مازوركا المتلحي، المشرئب كحيوان مفترس، أن الإ - ت - ا - و - ة تعني نوعاً من أنواع الضريبة. وأضاف والبتروفيشيون «لـ - ق - د - ر - ك - م الحزين الملعون. إنها رسوم لرؤوسكم الغبية المفجور بها. تعويض عن الحياة في عالم الغرب الحر، ١٠٠ مارك لكل جلد من جلودكم الجربانة أيها العمال الأجانب اليونانيون، إضافة للتبرع الاختياري للصرف على البركشيريين».

انهار الباب اليوناني. سمعت أصوات الاستغاثة والصياح وتحطم البلور والأواني والأخشاب. حتى تمكنت مارجا، الفاقدة لوعيها من شدة الخوف،

والسلة على صدرها، وهي خلف الستارة، أن ترى كيف يقترب بتروفيتش الأول بسيارة الصالون من درج اليونانيين.

ارتشت أثواب الفرانيفيتش التي يلبسها البتروفيشيون بالدم، وأمكن رؤية صلعاتهم الداكنة بعد حسر قبعاتهم. وكان بيتروفيتش الثاني والثالث يقودان الأكرايني ديمتر الجريح بينهما. كانت عيناه الثوريتان تغربان كمن ينازع وهو يدهن بمخالبه الدم على وجنتيه وذقنه. توقف عن الهمهمة بج/ بج/ بج ليجعر موتوراً وحاقداً:

«يا - ع - ب - ي - د. إ - ت - ا - و - ة..».

ولم يكن ديمتر مازوركا قد لاحظ أن بلطة يونانية تسارع إلى جمجمته.

- ٧ -

لم تكن المرأة العاملة الأجنبية التي اشتروا أو خطفوا أطفالها الأصحاء موجودة تلك الليلة. سمع صوت القطار والماء المرتطم على شاطئ ما وهو يضرب الصخور. لم تعد يدي تقيح، استطعت تحريكها، والعناق بها، ووضعت السلة التي رقدت بها طفلة مارجا في الزاوية.

لم أعد أحلم بالخنازير السوداء، ذات الأذناب الحصانية والقرون والوردة البيضاء بين عينيها. لم أعد أحلم أنهم يرمونني عارياً ونازفاً أمام جوزفينا. كنت أستعد للذهاب. لبست بزة عمالية نظيفة وناشفة. وكنت لا أكاد أقف على قدمي. لكنني كنت فخوراً بقوتي، بمقاومة روحي ورغبتي في تصفية حسابي مع إخوتي ومع كل الناس كما يجب. غرست خلف حزامي سكين قصاب.

كانت مارجا تجلس فوق صندوق خلف المدفأة. عيناها زجاجيتان، ووجهها متوتر ومنتفخ. وكانت تشخط بشوكات القبضة الحديدية ساهمة حول القفل. لم أكن أعرف كيف أفارقها. أكدت لها أن ديمتر والبتروفيشيين لن يدقوا بابها بعد الآن. نشقت وجعدت وجهها. ولكي أعيد لشفاهها البسمة كررت أن دانيل وكوزما صحيحان وسالمان وأنهما على وشك الوصول. ولم تسمح لي مارجا بالذهاب قبل الفجر. كانت تدعوني: أخي. وانا أختي. رغبت عند الفراق أن أحكي لها عن حياتي العائلية والعاطفية.

جلست على حافة السرير حتى لا أرتمي ثانية، ووضعت يدي اليمنى التي تُشفى على كتفها. سمعتني باهتمام الإنسان الذي يستشعر وقوع المحظور... «كان ذلك في تلك الليلة البشعة يا مارجا بعد الخروج من الفندق وقبل اللقاء بالسيدة مان. لقد درج الرجل - الكشك ورائي على عجلات لا ترى، ولم أعرف لأي مكان التجيء. لم يرهب تهديداتي. كان يجيبني بأنه سيجتث عنقي قبل أن أصل أنا إلى عنقه. بكيت وكنت أستغيث داعياً بقلبي. كان الرجل - الكشك قد زين نفسه بالأجراس والألعاب والسكاكين. قدم لي كيساً للفحم، ونصحني أن أدخل فيه برضائي. وددت لو أقتله، أو أطعنه، من خلال صحفه السياسية للاجئين. وهذا ما قلته صائحاً. ركض ورائي هاجماً حتى قفزت داخل أحد صالونات المحطة المخصص للآلات الأوتوماتيكية للعب القمار. توقف عند العتبة فارداً ذراعيه، مبرزاً كرشه إلى الأمام، حتى إن أحداً لم يستطع الدخول بسببه.

كنت ألهث يا مارجا، يغطيني العرق، وينهكني التعب والإعياء. احتلني شعور بنهاية سعيدة، رغبت أن أغني، لكنني لم أجد مع من. لم يعد الرجل

الكشك موجوداً بالنسبة لي رغم تهديده. كنت محاطاً بآلات العزف الأوتوماتيكية، وآلات لعب القمار، وآلات أوتوماتيكية أخرى. اشتعل خيالي وثقتي بأن كل شيء سينتهي بدون إراقة دماء. وقتها رأيت فوريتتش، وبركلو، ودازلينا.

كان يقفون وسط صالة الألعاب ينظرون إلي باستغراب. ومنذ ذلك الوقت لم أعد أحبهم. كان فوريتتش منتعلاً جزمة خيال، كالتي تشاهد في أماكن بيع الأثريات، ومرتدياً قميصاً نظيفاً بياقة عريضة حول عنقه، وفروة طويلة من الجلد الصناعي مختصرة. كان ملتهب الوجنتين، أحول، حتى إنني لم أميز أكان ينظر إلى يدي المهيأة لتنفجر أم إلى الألماني الشرقي اللاجئ السياسي الهارب والمختطف الواقف عند العتبة.

كان دازلينا سميناً، كله عقد، محني الجبين، عريض فتحتي الأنف، عيناه سوداوان، مزروعتان بعمق، مليئتان بالفزع والأسرار التي لا تنمحي منهما ولا حينما يضحك. كان كل ما عليه ضيقاً ودامياً.

كان لباس بركلو رسمياً أكثر من تلك الليلة حينما استلماني من كولار. وقف عابساً يتنهد. كان رجلاً نحيفاً متطاولاً، كمالك الحزين، بصدر ملتهب مسطح، وكتفين متهدلتين، ككل الذين على شاكلته وبقده، على ياقته شعار، وفي جيب معطفه منديل مدمى.

«أيها الإخوة، يا إخوتي الطيبين» هكذا صرخت بهم يا مارجا وأنا أفرد يدي نحوهم. كانوا ينظرون إلي متصلبين كالموتى، لهذا استمررت بصورة أقوى: «أنتم أحب الإخوة إلى قلبي. تعالوا إلي!» لم يتحركوا من مكانهم. كانوا كالمهزومين، وهم يتابعون بأعينهم فقط كل حركة مني. احتلني شعور بالسعد، وشعرت بالدم يتدفق إلى يدي المريضة وصدغي حتى فمي.

لم أستطع لجم لساني. كنت أضع النقود ماركاً بعد مارك في ثقب آلة اللعب الأوتوماتيكية. عرضت عليهم اللعب والربح. طرت إلى لعبة كرة القدم الكهربائية، وضعت «الفراطة» التي لم أستطع التخلص منها. سجلت أهدافاً، وكنت أفضل في الدفاع. حشرت الماركات بآلات الصواريخ والنجوم الأوتوماتيكية، خلقت زحاماً جهنمياً واصطدامات على طرقات الغرب المتوحش، أطلقت من البندقية، وأصبت. هجمت على جاك بوت، وصرخت لهم لنقتسم الربح. كانوا ينظرون إلي بصمت. قذفت كل ما ربحته تحت أقدامهم. حشرت ماركات في آلة الموسيقى الكهربائية، وهززت الآلة، أمرتها أن تغني بسرعة شيئاً فرحاً ومن بلادنا شرق الجنوبية. فانسابت أغنية حزينة كالندب بلغة مقرفة بالنسبة لي. ركلت الآلة بقدمي، ثم نطحتها برأسي، حتى ابتدأت تعزف سيرتاكي يونانية، صرخت من الفرحة، حتى خيل إليهم أن صاصة قد اخترقتني.

ثم هدؤوا، كانوا كتماثيل شمعية.

«لنرقص!» قدمت لهم يا مارجا يدي، كل نفسي: «لنتصالح، يا إ - خ - و - ت - ي - !». «الألمان هم إخو - ت - ن - ا» قال فوريتتش الهائج هامساً.

«يرفض الألمان أخوتنا يا فوريتتس المسكين!» صرخت لدازلينا وأنا أرقص. «الألمان لا - ي - ر - ي - د - و - ن! اسألهم إذا جرؤت!».

«الألمان... سيأتي الوقت..».

«أبداً، إطلاقاً يا بركلو. الألمان يا أخي ع - ق - ل - و - ا».

«إذاً لا إ - خ - و - ة لنا».

اندفعت بي القوة. كان قردي المجنون أصلب وأصلب، أراد الخروج من رجل البنطال. رقصت السيرتاكي بنشوة، حتى حسدني زوروبا في قبره. تشنج القرد المجنون حتى أصبحت أنط ضده، مثلما كنت في بادتولز بوتكنيك وروزن هايم، مع نيكو ماراش وسابلياك. «يا إخوتي، أتريدون أن أحكي لكم كيف قتلتم في الحادثة؟».

سكتوا ونظروا إلي.

«لو عرفت كيف وبأي شيء لكنت ساعدتكم!» قلت لهم وهم مسمرون في أماكنهم كتماثيل الشمع: «يا إخوتي، كيف يمكنني أن أستبدل دماءكم؟» وقد خيل إلي أنهم ذابوا وانسابوا، وأنهم قد هلكوا من كل شيء. «من يمكنه أن يعيد لكم د - م - ك - م؟ أنا لا أملكه! إذا أردتم دمي هيا لنـ - ت - ق - ا - س - م أيها التعساء!».

كانوا ساكتين ينظرون إلي.

كنت في قمة الانشراح والشبق يا مارجا، في قمة قواي الفنية. كانت آلة العزف الكهربائية تغني شيئاً من عندهم، لكنه جيد. كنت أرقص الستيب، أخترع الجنون حول التماثيل الشمعية الثلاثة حتى خرج قردي المجنون من رجل البنطال كما حدث لي حينما كنا في كيل. وقعت. كنت الوحيد الحي بين الماكينات والألعاب. وكان كل شيء مهيأ لي ولسعادتي المريضة. كانت آلة العزف الكهربائية تهتز، تجن معي. هكذا أردت! كانت كل آلات اللعب تعمل وتهدر، حتى حطمت الكرات الملتهبة كل الأهداف المموهة، وصارت أماكن التسجيل ترسم أرقاماً بالملايين. ربحت في ملعب السباق الكهربائي. كنت أطير من آلة إلى آلة وأنا أرقص التسيب. كنت أروع مهرج

ومجنون. أطلقت من كل الأسلحة المتاحة في الوقت ذاته، حتى تحطمت وتناثرت كل النجوم والأجرام السماوية والأعداء الفضائيين، ولم يبق إلا القليل لأنفجر أنا أيضاً!

عندها استدرت ونظرت باتجاه الباب. كان الرجل - الكشك - يحمل في يديه حيوانة لها بوز آكل النمل، إضافة لكيس الفحم. تساءلت من أين أتى أشمداي لذلك الألماني الشرقي العجيب، ولا زلت أتساءل. وبما أنني كنت أراه من خلال الدمع، فقد بدا أكبر بمرتين مما هو حقيقة. كان يتدحرج نحوي، وحدثني قليلاً بلغته الجديدة. حسبت أنه على اتفاق مع إخوتي الشمعيين الثلاثة الذين كانوا ينظرون بهدوء. سحبت من كمي سكين الجزار هذه ولوحت بها. أصبته في كرشه، خلال جرائده وإعلاناته، تماماً كما أردت.

ركضت لأراه ميتاً. وفجأة كأنني أفقت. توقفت كل ماكينات اللعب في الصالة. كان يسمع بعض الصدى. وقفت فوق الجثة المرعبة النازفة وبكيت، كأني لا زلت في نشوتي وغيبوبتي. لم يكن الرجل - الكشك، بل آكل لحم بشري آخر شرق أوروبي، عض لسانه بين أسنانه القديمة، وعيناه تشرقان وتغربان. كان مصاباً من خلال الجرائد السياسية المكتوبة بحروف شارليتسا[1]، خلال طبقة الخبز التي حملها فوق خصره، حينما لوحت بالسكين وهدفت. وعندما سحبت السكين من الخبز، توقف الشحاذ عن الانحناء والارتخاء فوق جرحه. كانت آلة العزف الكهربائية تغني شيئاً مطوطاً مزّاً شمالياً. تقلص فورتيتش وبركلو ودازلينا حتى النصف، وجرت

1 - الحروف الروسية المستعملة في بعض دول شرق أوروبا. - المؤلف -

على خدودهم دموع من شمع. هربت يا مارجا بمحاذاة السكة الحديدية، ووصلت إلى معمل غاز. وشاء القدر أن أصطدم بامرأة. وقعنا فوق بعضنا على كومة نشارة.

«اعذريني يا أختي» قلت لها بلغة كالتي أخاطبك بها «أنا آسف!».

«اسمي ماريا» قالت وهي تعانقني لكوني يوغسلافياً ولست شيئاً آخر.

«أنا مارك» أجبتها وأنا أجذبها إليَّ أكثر، اسمي الفني يانيس دورسو، سالونيك - اليونان. كم أنت باردة يا أختي!».

«ارتجف يا أخي طيلة الليل هنا» همست وهي تداعبني «كنت سأتجمد لولا القطارات التي تمر من هنا ذاهبة إلى يوغسلافيا، ألوّح للمسافرين، أكلمهم، أغني لهم فأشعر بالدفء».

«من أين أنت يا ماريا؟».

«من ضواحي مدينة ريكا - يوغسلافيا، يا يانيس دورسو - اليونان.» وأضافت:

«صنعتي هي أن أكون خشبة».

«لعلك فقدت عملك؟».

«كما ترى».

لا أعرف ما فعلناه أنا وهي يا مارجا، وفمانا وآذاننا مليئة بالنشارة. كنت داخلها كما كانت هي داخلي. سألتني «أتملك أحداً في هذه الدنيا يا أخي؟» «أنت يا ماريا يا حبيبتي. أنت وواحدة أخرى مثلك».

«أهي يوغسلافية يا يانيس دورسو؟».

«تشيكية يا ماريا. اسمها يانوش نوفاك، نمشية تلك التعيسة!».

«وأين هي الآن؟».

«ضائعة في ألمانيا، كما أتسكع أنا يا ماريا، تحمل في بطنها ابني الأشقر منذ أربع سنوات أو خمس. تتساءلين لماذا لم تلده حتى الآن. منعتها يا ماريا وقلت لها: احملي طفلنا يا تشيكيتي الذهبية حتى نجد الخلاص، المخرج، أي طريق نظيف! أطاعتني، وستحمل ذلك الطفل إلى الأبد يا ماريا لأنه لا يوجد لنا نحن اللاجئين السياسيين والهاربين أي خلاص، قد يأخذونه من أحضاننا، أو في أحسن الأحوال سيعطوننا ثمنه ١٠٠ مارك!» أبعدت النشارة الكلاب عنا يا مارجا. وكنا قد بدأنا لتونا الحديث عن الطفل الذي صنعناه بعد منتصف الليل. ضاعت ماريا، كما ضعت أنا. لقد واتاني الحظ تلك الليلة حينما وجدتكم ثلاثتكم أنت وزوجيك. ترى هل قابلت ماريا حبيبتي أحداً؟.

حكيت لك يا مارجا عن كل شيء في حياتي العائلية والعاطفية. ما تبقى لا يستحق الذكر. كلّي عذاب وقهر وألم، وعلى الأغلب صحراء متجمدة. أنا وأنت متشابهان قليلاً يا مارجا، أنت لك اثنان وأنا لي اثنتان!. انهينا مسألة القومية والدين على أفضل وجه. صار جزء مني تشيكياً عندما قابلت يانوشا والجزء الآخر خرفاتياً بعد تلك اللحظات مع ماريا فوق النشارة. وأنت يا مارجا أصبحت أفضل من ذي قبل، ما دمت قد تسكعت وحيدة في هذه البلاد الواسعة. مارجا، أنا ذاهب...».

«سيبزغ الفجر بعد قليل» قالت، وهي تنظر إلي متوجهاً نحو الباب. «مارجا. الطفلة ليست هنا!» همست وأن أشير إلى سلة الكلب الفارغة. لقد تركوا ورقة كتب عليها الرقم ١١ وأول حرف من اسم جوزفينا!».

كانت عينا مارجا مجنونتين وزجاجيتين، وجدائل شعرها الناعم مفرودة، ووجهها ملتهب بشفتين مليئتين متشنجتين. بيدها القبضة الحديدية المدببة. نظرت إلي وأنا أضع على كتفي فروة زوجها.

لم تسمعني.

- ٨ -

كان الصباح يتفجر فوق أسطحة أولم المخاطية ومداخن معاملها. وكان النور يفترق عن الظلام، عن الأرض المجدولة بشبكات السكة الحديدية وعقدها. تهيأ لمارك أن الروح والتفكير السليم يفترقان عن الجسد المشوه المليء بالعار، الذي يتفسخ ويتعفن. تحركت القاطرة تحته وهو مطروش بالفحم. كان سعيداً لأنه يتحرك ثانية. وبدت له الحياة ممكنة ومقبولة، وهدفه بأخذ الثأر ممكن التحقيق. المهم أنه قد أصبح فوق الأرض بمتر أو بمتر ونصف!.

«مرحباً يا نهر الدانوب!».

حيا النهر بيده الملفوفة بالشاش واليود، وشاحنة رسم على ظهرها علم يوغسلافي، والبحارة الذين كانوا يقفزون على سطح سفينة. «صباح الخير أيتها الشمس!» همس للكرة البرتقالية التي كانت تشرق خلف الجبال «دفئيني، أعيدي لي الشجاعة والأمل، يا شمسي الآتية من الشرق!».

كان القطار ينهب المسافات، كأن خنزيراً أسود ذا وردة بيضاء على الجبين في إثره. «أود لو أنضم إليكم أيها الشباب الأحرار والسعداء» وأضاف «حتى لو انضوينا تحت راية علمنا الثلاثي الألوان الذي لا

تلاحظونه. حتى لو ذهبنا إلى الوطن الذي خنته وهجرته دون سبب وجيه! إلى بيتي الذي لم أملكه في حياتي، إلى عائلتي التي يجب أن أعيد لها شرفها!».

أطلقت الشاحنة بوقها. وتوارت الأمواج. لم يعد هناك دانوب ولا شواطئ. كان البحارة يقفزون على ظهر السماء. يعرضون عليها الفتاة المشردة التي هربوها. وكان مارك يعرف أن القطار يسحبه هذه المرة أيضاً في اتجاه خاطئ، إلى الغرب... كان مستلقياً على جنبه فوق الفحم. حاول أن يزيل بيده المضمدة ذنب الخنزير عن عينيه اللتين تعودتاه، علّه يرى الشمس.

بكى من أجل طفلة مارجا.



الفصل الثامن

كيف وجد المحقق أشباش حياته في خطر؟

لم يترجل أبي عن حصانه الأبيض أبداً.
ستاش باندوروفسكي، بولندي، أفضل من يغرق الموتى.
من هو ريتشارد قلب الخنزير؟

حديقة فيلا في بريمن. تتفرع من موضع النافورة عدة طرقات خضراء. سور حجري. الطاولة والكراسي من جذوع شجر السنديان. تظهر على المسرح هيئة آدمية ملفوفة، يداها طويلتان، وجمجمتها مسطحة. غوريلا! تعود بعدها للخلف وتغيب في الظلام. نتابع نحن الذين نتمتع بجمال الحديقة، الحركات الحذرة لشخصين يدور بينهما حديث ممتع جداً.

الليلة خريفية تنذر بالعاصفة.

- ١ -

أشباش: «يا سيد لازاريتش، أين وجدت قاتل السيد بوداك؟».

لازاريتش: «في قعر الشارع أيها المفتش، بين أكياس القمامة. أين يمكن أن يقع لاجئ سياسي من الشرق؟ كان طويلاً، نحيلاً، ملفوفاً بأسمال عمال أجانب، جميلاً كما يمكن لإنسان تعيس من جنوبنا أن يكون. جبينه مرتفع ينضح رجولة، شعره أجعد مموج حاد وأسود، عيناه واسعتان غامقتان، حاجباه كثيفان مقفولان هناك حيث تبدأ عظمة أنفه الحاد».

أشباش: «هذا الوصف معروف لدينا».

لازاريتش: «يده اليمنى مضمدة. فكرت أنها جريحة أو مثقوبة. قلّبته. رفسته برجلي. وجهت الكلام لنفسي أكثر مما وجهته له: «كأنك من صور الأيقونات! وتفطس على مزابلنا الألمانية» وانطلقت مذعوراً أهتف للبوليس. رأيته يقف على ركبتيه ويستنجد بلغتي: «أبي لا تبتعد». وبما أنه ناداني بكلمة أبي فقد أثارني لدرجة البكاء. انحنيت، لمست جفنيه الداميين بقفازي «أتعلم أيها اليوغسلافي التعيس بأي مكان تنفصل روحك عن الجسد؟» تأوه، وفهمته بصعوبة «مثل أرواح الآخرين يا أبي» وخيل إلي أن أمره لن يطول. لم يكن يملك القوة ولا لذرف دمعة. في ذلك المساء الماطر ظهرت أمام عيني أقدارنا أكثر من أي وقت مضى، ظهرت في صورة واحدة شرحتها لكم. صورة لم أرها قبلاً مذ ابتدأت أتسكع بدون وطن. إنها أقدارنا كلنا نحن الجنوبيين السابقين، الباحثين في الغرب، وخصوصاً في ألمانيا عن الخبز والعدل والحقيقة، بل والحب فوق كل ذلك. «أبي لم أعد أصدق غيرك» همس لي. شيء ما ربطني به. ذكر القطارات، بعض الإخوة، الحقيبة السوداء، وقتها لم أستطع حتى الافتراض ماذا سينجم عن ذلك اللقاء بالمصادفة».

أشباش: «لا يؤمن البوليس بالمصادفات يا سيد لازاريتش. من أرسل لك مارك؟».

لازاريتش: «لا أعلم».

أشباش: «وكيف سار أول حديث بينكما؟».

لازاريتش: «سألته من قص إصبعه. قال: الغول. ولم أعد أبحث الأمر. فاللاجئ السياسي والهارب يفضل القتل فوراً عن الاستجواب. لا يعرف

اللاجئ السياسي أو الهارب أبداً أين هو ولا أين يذهب. كانت يده تتقيح، رأيت ذلك فوراً لأنه كان يلتهب كله. وبينما كنت أقوده بالسيارة إلى البيت عرفت أنه قد شوّه ببلطة قديمة يسميها هو بلطة نمساوية. وقال وهو يبكي إن البلطة كانت صدئة ومثلمة ثم أغمي عليه».

أشباش: «وهل وصف لك مكان حصول كل ذلك؟».

لازاريتش: «يظن في بافاريا، في مكان ما من جبال الألب، في حظيرة خنازير تحديداً. وإن آخرين قد تعرضوا لذلك أيضاً، في إطار طقوس دينية - سياسية دائماً، ومع أغاني من حروب قديمة. هناك رأى الشاب التعيس أعضاء مقطوعة، دماء وأمعاء. ولهذا يجب أن نتفهم كل ما فعله الشاب التعيس بعد خروجه من ذلك القصر الخنزيري الجهنمي».

أشباش: «يا سيد لازاريتش أنت لا تجد له العذر فقط وإنما تغبطه أيضاً».

لازاريتش: «يا حضرة المفتش إنني أغبط كل فنان، كل شيء طبيعي متكامل. وأحتقر الهواة الحمقى الجبناء. مارك لص ما له مثيل، ساحر لم ترَ عيناي مثله. كان ينتظر السفن وقطارات الليل واليخوت لينقض عليها. ستذكر خزائن الحديد والجيوب طويلاً في مدينة بريمن تلك اليد الشهيرة بدون إبهام».

أشباش: «وما الذي كنت تفعله حينما كان ينهب؟».

لازاريتش: «كنت أفكر به، وأخاف أن يخطئ في مكان ما، ويقتل».

أشباش: «يا سيد لازاريتش أكنت تعرف كل ما كان يفعله؟».

لازاريتش: «لم يخف عني شيئاً. كان يرسل نقوداً لعاملة آجر في أولم، وما تبقى كان يحفر ككلب ويخبئه».

أشباش: «أكنت تحرضه؟».

لازاريتش: «لم أخف عنه أن البزات الضيقة القاتمة تليق له. وربطات العنق الملونة، أن كل شيء يليق له، بل والطريقة التي يضع فيها يديه الماهرتين في اللعب».

أشباش: «وفي القتل أيضاً».

لازاريتش: «أظن أنه أحبني في البداية. مرة وقبل انطلاقه لجولته الليلية، علمته: حتى عندما تضحك يا مارك تظهر في عينيك كل عذاباتنا السلوفينية البلقانية. لهذا: نظارات سوداء، قفازان من جلد الغزال، حقيبة دبلوماسية، تظهرك أسعد! اذهب يا بني إلى سباقات الخيل مثلي! راهن. يحب الألمان أن يخسر غيرهم. اذهب للسينما كثيراً، للبارات، لمعارض الكلاب والزهور والمفروشات. امتدح نفسك دائماً! ولا تترك مباراة كرة قدم واحدة، وشجع الفريق الذي تشجعه الأغلبية. واصرف ووزع، لديك الكثير، وستعوضه كله، كما عوضته أنا الذي اشتريت أولئك الرجال بسعر زهيد!. أطاعني يا حضرة المفتش. كان يتأنق، وكان أشبه بموسيقار من لص أو محطم خزائن ومهرب. كانت فتيات بريمن يطرن وراءه، خصوصاً عاهرات الميناء!».

أشباش: «يا سيد لازاريتش، أتعرف أحداً من أصدقائه، أقصد من المشتركين معه؟».

لازاريتش: «أحدهم فيكتور أرتينوفيتش، ذلك الذي خانه على حدود يوغسلافيا – النمسا. وتصور، يريد مارك اقتلاع عينيه لمجرد أنه خانه. وأكثر ما حدثني عن كولار المجري. وللأسف لم يكتب لي أن أصادفه».

أشباش: «كولار اسم مجري فعلاً. من يمكن أن يكون؟».

«لازاريتش: «يا حضرة المفتش، كولار ظاهرة. فهو يؤكد أن كل لغات وسط أوروبا هي لغاته الأم. ويقال إنه يتعلم السويدية، والدانماركية، والبورسية، ويتفاخر أنه يعرف البرتغالية والإسبانية منذ نعومة أظفاره، حتى بدون أن يتعلمها. إنه من سوبوتيتسا! إحدى عجائبنا الجنوبية، شيء لا يمكنكم أبداً أن تملكوا مثله. كولار هو الملك دون سواه! دينه أرثوذوكسي مثل ديني، لكن هذا لا يشكل حائلاً ليبيع ويشتري ويتاجر ويسمسر بالرجال. يفسر لك علمياً بأن أفضل تجارة اليوم هي التجارة بالبشر، حتى إنها أفضل من التجارة بالحيوانات. يؤكد أنه في الغرب الذي يتحرك به كسمكة في الماء لا تزال تسيطر شريعة القرون الوسطى والتخلف وتجارة الرقيق. حينما يقول المجري اشتريت ٧٠٠ كغ لحماً نيئاً وبنصف السعر! فهذا يعني حصوله على عشرة ضحايا لاجئين هاربين جدد. وهو مثلي لا يحب الأموال غير المنقولة!».

أشباش: «يعني أن هنالك سوقاً رائجة؟».

لازاريتش: «لا أحد مثل كولار يعرف تعاسة البشر. ولا أحد مثله يستطيع أن يكسب منها، نقوداً طبعاً. فإذا ما عرف أنك قتلت أحداً أو سرقته فهذا يعني أنك أصبحت ملكه. سيشتريك بصورة مباشرة أو غير مباشرة لا فرق. وسيعمل منك المدين الدائم لأجهزة الأمن».

أشباش: «وأين يتجول المجري الساحر؟».

لازاريتش: «لا يخرج من مجمعات اللاجئين السياسيين والهاربين. يتجسس على طول حدود الدول الأوروبية الشرقية، يستقبل أولئك الذين يختارهم

لجيشه الأخضر. في البداية يغريهم، يزين لهم، يلبسهم، يقودهم معه للشراب والعهر. ثم يبدأ معهم السرقة والإجرام بأنواعه. يهجمون على القطارات الليلية الفخمة، يتعلقون بالقاطرات كالجراد الأسيوي. يسرقون بطيش، يختطفون، يحطمون كل ما في طريقهم. ويعطي لسارقيه نسبة مئوية. يقال إنه في مكان ما من ألمانيا يشيد بناء لا يعرف شكله والهدف منه. يسميه برفق: حائطي الأسود! فإذا كنت ضابطاً جيداً فستجد حتماً في أحد الدوسيهات ما هو مذكور عن هذه العجيبة المجرية البنائية للاجئ سياسي هارب!».

أشباش: «وكم عدد جيشه المرتزقة؟».

«لازاريتش: «هو نفسه لا يعرف يا حضرة المفتش! إنها كتائب من السياسيين اللاجئين والهاربين من الشرق. يوعدهم بجوازات سفر لأعالي البحار، وأراضٍ هناك، جنة وجنون حلو في نصف العالم الرأسمالي. يوظف بعضهم. وريثما تصل وثائقهم المنتظرة، يعملون لعرابهم ليل نهار. حتى تبدأ لدى بعضهم أمراض الأعصاب. خصوصاً هجمات الصرعة، يمكن من الخوف أو الجوع والانهيار والقتل. عندها يبيعهم المجري كأي بضاعة كاسدة، بأي سعر كان. هكذا فعل مع مارك، الذي لا أعلم سبب بحثكم عنه عندي».

أشباش: «وأين يذهب كل هذا اللحم الآدمي؟».

لازاريتش: «للإرهابيين أمثاله. لأناس مرضى باتالوجياً، لأولئك الذين لا يمكنهم العيش بدون دم وعنف وقتل. للمنتقمين الذين سيهجمون غداً على سوديتا عن طريق أود وراونيس، على أثيوبيا، على القرى، على ليبيا والجزائر. إنهم يمولون عصابات الكونترا في أمريكا الجنوبية وهندوراس، ومنتجي

القهوة. كم أرسل منهم لفيتنام وموزامبيق وأنغولا. يخاطب المجري جيش المرتزقة الأجانب بكلمة أنت. يؤمّن لقادة القبائل السود، للملوك والجنرالات، غوريليات بيض وجلادين بيض. يملك كولار سرية من القتلة المأجورين، يتجولون ما بين الكونغو تشاد وروديسيا. أما العبيد الذين ليسوا لتصدير طويل، الذين هم للحذف من الجدول فإنه يبيعهم لدراكولا...».

أشباش: «أي دراكولا يا سيد لازاريتش؟».

لازاريتش: «يا حضرة المفتش قلت في البداية إن ما يهمك هو القاتل مارك فقط، والآن تريد الحديث عن الغول!».

أشباش: «مهتم أنا بعلم الغيب والسياسة أكثر من علم الجريمة».

لازاريتش: «دراكولا اسم نطلقه شرطياً على ذلك المغوار، شخصيته غير محددة العمر، يبدو أنه ينبعث من عقد إلى عقد، من قرن إلى قرن، لا يتغير بل يتكيف، لا يمكنه أن يشبع ولا أن يرتوي. يجتر بطاطا مدقوقة وأعشاباً حية، وإذا لم يتوفر ذلك يعلك التراب ويقرض يده الخشبية. يقولون إنه يفوح برائحة الصدأ والعفن، برائحة الأماكن المهجورة غير المهواة. يعيش حالياً في قصر مهدم، مع ألف بركشيري. لديه غوريليات يقف الرئيسي منهم خلفه دائماً، يقرأ المخطوطات والتقاويم والاستقراءات المستقبلية. أما الثلاثة الآخرون الذين يتجولون في ألمانيا فإنهم يختطفون فقراء أوروبيين وخصوصاً سلوفينيين، ويقودونهم إليه. عندها يهمر، يجعر، يقطع لبعضهم أنوفهم، ولبعضهم آذانهم، وغالباً ألسنتهم، وللجميع بدون فرق الإبهام الأيمن. لقد أعمى الكثيرين منهم. ودعنا من ذكر كل الذين تركوا عظامهم على الجبل. لقد استحق الذين استطاعوا الهروب منه حقيقة الدخول في التاريخ، في الموسوعات الأدبية واستحقوا الاحترام».

أشباش: «مثل من مثلاً؟».

«لازاريتش: «مثل مارك قاتلنا!».

أشباش: «قاتلكم يا سيد لازاريتش؟».

لازاريتش: «حسناً قاتلي!».

أشباش: «إذا نستطيع اعتبار مارك خروفاً وديعاً بالنسبة للبارون. ولكن أرجوك لا تقل إنه من هنا، فهذا سيزعجنا نحن الألمان».

لازاريتش: «ليس من هنا يا حضرة المفتش، لا تخف. السيد الذي بدأنا الحديث عنه هو إنجليزي. وحش عجيب إنجليزي، من جزيرتهم، جزيرة الغيلان! يوجد حوله عدة سير ذاتية متوازية. يسمي نفسه في كل منها ريتشارد بريت ألبيون. لقد وقعت في يدي عدة صفحات من أحد تقاويمه. كان اسمه فيها ريتشارد قلب الخنزير. يشرح بكل اللغات الأوروبية بما فيها اللغات المنقرضة، عن حوادث ابتدأت في القرن الرابع عشر. لقد ولد بريت كساكن جزيرة ملعونة إبان غرق أوروبا وكل خيراتها وقيمها. فأهاج الخلاف، ووسع الشر والمحسوبيات والامتيازات، وسبب حروباً صغيرة. يؤكد أنه في عام ١٣٢١ قد حضر جنازة الجيري دانته واللاجئين المغتربين. ويمتدح نفسه بتصريحه آنذاك: الشيء الوحيد الخالد هو الكراهية وجهنم. في عام ١٣٣٦ أو ١٣٣٧ أثناء الحرب ضد فرنسا، استطاع أدوارد الثالث الإنجليزي أن يؤمن المعونة لأمراء الراين الجنوبي بواسطة دراكولا، والمعونة لمدن فيلاند، بل وحتى للودفيك البافاري. وهكذا ابتدأت حرب المئة عام، حرب ريتشارد بين الإنجليز والفرنسيين. تناول الحلويات مسروراً، وهو يرى كيف يحرق الإنجليز بيوت الفرنسيين حول كالايس، ويهدمون

كنائسهم. وكيف يقتلون الآباء والأمهات والمواشي، ويغتصبون الأطفال الذكور. وكان ريتشارد ضد الصلح بين إنكلترا وفرنسا. وقد نعت ادوارد الثالث الذي رفض عرش فرنسا عام ١٣٦٠ بالمتخاذل الضعيف. لقد فرح بريت كطفل حينما انفجر الطاعون عام ١٣٥١ في القارة الأوروبية، الطاعون المسمى بالموت الأسود. وفرح أكثر بعد عامين حينما داس الأتراك لأول مرة فوق أراضي أوروبا وتخطوها. في عام ١٣٦١ كانت جنازة عالم الغيب الألماني يوهانس تاولر. وفي عام ١٣٦٥ قدم الجزري[1] نفسه كأنه يوهانس تاولر وذلك أثناء جنازة عالم الغيب الألماني الثاني هنريك سويس، وصدقه الألمان! أما موت بيدور القاسي عام ١٣٦٩ فقد هزه من أعماقه. ذلك أن الاتحاد بين كاستيلو وفرنسا هدد مصالح الإنجليز على البحر. وكرر في جنازة بوقاني بوكاسيا عام ١٣٧٥، ما قاله في جنازة فرانشيكو بترارس بعام قبل ذلك. وبوجود ريتشارد في شبه جزيرة أبنينكا لم يكن بعيداً عن البلقان، فوثق بالأتراك، محطمي ومزيلي أوروبا، كما وثق عام ١٣٥١ بالطاعون. في عام ١٣٨٩ شرح للسلجوقين كيفية محق الصربيين في سهول كوسوفو وعلمهم كيفية إبادتنا، نحن الصرب المرفهين! وبعد أربع سنوات أي في عام ١٣٩٣ حطم أتراك ريتشارد البلغار بنفس الطريقة. أما في عام ١٣٩٤ أو ١٣٩٥ فقد سمح البابا بونيفا تسيا الرابع ببدء الحرب الصليبية ضد آسيا وذلك بناء على رجاء من الملك سيغموند الهنغاري الخائف. تلك الحرب التي لا تزال قائمة مع المسلمين. لقد كان ريتشارد ولا زال ضدها

1 - الذي أصله من الجزيرة ويقصد به ريتشارد قلب الخنزير أي جوزيف فرانس أو الغول أو بريت ألبيون. - المترجم -

ومعها واستقبل بفرحة كبرى خبر هزيمة الصليبيين الفرنسيين والبولنديين والهنغاريين والألمان على يد الأتراك عند سهوك نيكو عام ١٣٩٦. في تلك السنة أمحت كل مثاليات الأمراء الغربيين، واقتطع البلقان عن أوروبا مرة وإلى الأبد! وقد تطابق هجوم العثمانيين من الشرق مع هجوم الجزري من الغرب، فانتشى الغول بالنصر. لقد وصل إلى باريس عام ١٤٠١، وكان في حفل تأسيس القصر كورد أمورس. وكان أول ما هاجمه الرواية حول الوردة. استل القلم بعدها وكتب. أراد أن يؤكد أن إصابة الملك كارل الرابع الفرنسي بذلك المرض الروحي الصعب عام ١٣٩٢ كانت من تخطيطه وبفضله. أما خطط الشعر التي كان يرسم الإنجليزي لها فقد قوضها المغوليون وقائدهم تيمورلنك عندما قتلوا الأتراك قرب أنقرة عام ١٤٠٢. وقتها أزيح الحجر عن قلب أوروبا. لكن بريت ربط ذلك الحجر بعنقه ورمى نفسه في اليأس، وتفرغ لعلوم الكيمياء. أراد أن يخترع مرضاً مساوياً للطاعون. وهكذا دخل في القرن الخامس عشر وهو مهموم جداً، تلك الهموم التي لا أريد أن أحدثكم عنها يا حضرة المفتش.

أشباش: «يا سيد لازاريتش، سلمنا مارك!».

لازاريتش: «يا حضرة المفتش، سلموه أنتم لي».

أشباش: «ولماذا تريده؟».

لازاريتش: «لقد سرقني قبل ذهابه، وكتب لي: أترك لك الخواتم والمجوهرات! سجل عندك: لقد أرسل الـ ١٥٠٠٠ مارك لعاملة الآجر من أولم! وأخذ مني مسدساً تذكارياً. لهذا أريده يا حضرة المفتش».

أشباش: «وماذا ستفعل به إذا وصلت إليه يا سيد لازاريتش؟».

لازاريتش: «لقد أعطيته ثلاث مرات، وفي كل مرة ١٥٠٠٠ مارك يا حضرة المفتش، ليرسلهم لعاملة الآجر الفقيرة من أولم. ولكي يهرب منكم».

أشباش «يا سيد لازاريتش متى رأيته آخر مرة؟».

لازاريتش: «عندما عاد من هامبورغ. كان ذلك بالنسبة له حياة جديدة. أذكر كيف سرّح شعره مثل المسيح. وكان كل ما عليه رسمي وثمين، باريسي، بلون بنفسجي. وكان يقلد المجري. ولم نتكلم في حياتنا كما تكلمنا وقتها يا حضرة المفتش. لقد جرى بيننا الحوار التالي:

«مارك حبيبي لا تزال هذه الصورة تريك مدينة زغرب في شهر آذار عام ١٩٤١.. والمطر. إنه يوم لا ينسى، ترقينا به أنا وأبوك وبنفس الأمر، ريدوف سلافيشا ماركوفيتش لعريف، وأنا الضابط لازاريتش لرائد في الجيش الملكي اليوغسلافي!» نظر إلي باحتقار وكراهية يا حضرة المفتش. وحتى لا تكون خاتمتي كخاتمة السيد بوداك، فقد توقفت فوراً عن تصفح الألبوم «مارك حبيبي في هذه الصورة يرى أبوك بشكل واضح. نحن هنا على حدود ألمانيا - يوغسلافيا! انظر يا بني كيف ننتظر الهجوم. ولا يمكن رؤية الألمان هنا لأنهم كانوا يختبئون دائماً، لهذا لم نستطع تصويرهم!» عبس ثانية يا حضرة المفتش، لكنني تابعت بصوت يذوب رقة وحناناً:

«مارك حبيبي، هذه أوضح صورة: سلافيشا ولازار على حدودنا الشمالية ننتظر رصاصات اللؤم المجرية. كان أبوك شاباً قوياً شجاعاً، ولم يكن يفارق بوقه. انظر كيف ينفخ عازفاً مارش على نهر الدرينا. كان يحرض الآخرين، وأنا بعيني السكر والشوق لصربيا. كان أبوك سلافيشا

يضع وراء أذنه دائماً ورقة نقدية بمئة دينار ملوثة بدم عسكري. أذكر ذلك كأنه البارحة. وحينما أنهى سلافيشا نفخه على البوق وهو غارق بدموعه وعرقه، وقع في أحضاني. وقتها هجم الألمان علينا، وكانوا مموهين كمجريين. يا للشيطان، لم يسمح الألمان لنا أبداً أن نشبع أو نغني أو نتصور كما نريد!».

«لم يكن سلافيشا هكذا بالازارتيش!» صاح مارك باكياً، ذلك السارق القاتل محطم الخزائن الشجاع حبيبي: «يا عمي. أرني الصور الباقية أم أن ذلك صعب عليك؟».

«حبيبي مارك. كان أبوك مشهوراً في الهرتسك أيضاً. انظر يا بني، إنه المايسترو، كلهم يسيرون من خلفه وخلف بوقه. كنا نغني: تأهبوا يا جتنتسي[1]! وجدنا الألمان بعد ذلك العرس في منتصف الليل. كنا فوق الأرامل العفنات. قبضوا علينا وربطونا. ولم تنفعنا تصريحاتنا إننا مع الملك وضد الثورة وإننا ألد أعداء الشيوعيين، بل أكثر من الألمان أنفسهم. كنا بالنسبة لهم بلقانيين حقراء وقتلة إرهابيين، سواء أكنا حمراً أو زرقاً أم خضراً، يستثنى من ذلك الأوستاشي أعضاء الجيش الأسود. وكل ما عداهم يجب محقه بغرف الغاز بأسرع ما يمكن. بكى سلافيشا الشجاع كطفل من أجل البوق، فبكيت أنا أيضاً من أجل سلافيشا، وبكى الجميع. وقد وجد بين الألمان إنسان بالمصادفة، أعاد لسلافيشا البوق وربت على

---

1 - هم بقايا جيش الملك في صربيا بعد فراره. نظموا أنفسهم تحت قيادة الجنرال ميخائيل دراجفيتش وكانوا يطلقون اللحى. قاموا بفظائع شنيعة. اتفقوا مع هتلر حتى قضى عليهم الثوار بقيادة تيتو. - المترجم -

كتفه. في القطار كنا عدة مئات، ويمكن ألـف. ومـن سراجيفـوا إلى أوسـنا بروغ سافرنا طيلة خمسة عشر يوماً. وكنا سنفقد عقولنا لو لم يكن سلافيـشا معنا وأغانيه التي تصلح للنوم!. أمام معسكر التعـذيب كـوتس لاكـر فقـد سلافيشا وعيه من شدة العزف. بكينا من أجلـه ومـن أجـل أنفـسنا. بكـى الألمان أيضاً، لكن من التعب والسهر وقمل البوسنا وصيبانها وحشراتها!».

«ألم يركب دائماً على حصان أبيض يا لازاريتش؟» سألني مارك. «يا بني، تلك الصور لا أملكها!» كنت حزيناً يا حضرة المفتش وآسفاً عليهما الاثنين. قبلت الصغير في جبينه، كما فعلت مع الأب مرات عديدة قـبلاً. «يجـوز أنـه كان يملك حصاناً أبيض».

«لازاريتش. وهل كان هناك من يستطيع أن يرقيه؟».

«كم أحببت ذلك يا مارك! كان يستحق!. أقول متأكداً عن نفسي إنني لم أستسلم أو أتعرى، وإنني رائد في جيش جلالة الملك بيـتر الثـاني كـاراجور جفيتش، الذي سمعت أنه يتفسخ حياً، أو أنه مات كمدمن منذ فترة، أو من مـرض الزهـري، أو مـن حزنـه عـلى الـوطن الـذي انحـرف عـن الطريـق القويم!».

«وأين يمكن أن يوجد سلافيشا الآن!». سألني مارك.

«كتب لي، قبل عدة سنوات، من كلوكس بورغ عـلى حـدود الـدانمارك. قال إنه حزين من الوحدة، وإن ظهره يؤلمه، ولن يكمل السنة. وبأن الطقس ماطر دائماً. يتقابل في بعض الأحيان مع أحد البلغار كما كتب. كـان انعـدام التفاهم والخلاف بين الناس يعذبانه أكثر في مدينة ملـدورف، لهـذا غـضب من شلونيك - هو لستاين، ومن كيلا وغورديسا، وترك الـشمال وعـاش في

قرية صغيرة قرب آخن. ومن هناك وبخ وشتم الإنجليز جداً. الإنجليز الذين خانونا والتفتوا إلى الثوار. هذا ما قاله سلافيشا، ومعه حق، بعد أن ثبتت لديه الدلائل القاطعة. أهو نفس السبب الذي يرغمهم اليوم لإرسال عملهم المغلوبين بمئات الآلاف إلى الغرب، خصوصاً ألمانيا. لقد سمى البركشيريين السود بأحرف الجرليتسا! ولم يقصر سلافيشا بشتم الأمريكان، بل وكل الناس! لهذا عولج في باد هونف. مرضه العظام ثم العظام، والسبب أوسانبروغ! ثم من هبوط المعدة، مرض عازفي البوق. في باد هونف بحث في الإنجيل عن الأغاني الشعبية الصربية البطولية،عن نيغوش[1]. وكان يريد الحصول بأي ثمن على التاريخ! تاريخ الحرب العالمية، ومن إصدارات الشيوعيين أنفسهم في الجنوب. وهو متأكد بشدة أن اسمينا، اسمه واسمي، سيوجدان في قائمة المهزومين. بعدها توقف عن مراسلتي يا بني».

«أهو حي؟».

«نعم. كما وتحدث مع أبيك أشياء عجيبة دائماً. فهو لم ينزل عن حصانه الأبيض أبداً! ولا زال أبوك يا بني يركض والسيف مسلول في يده، منقضاً على البلغار! يموت الآباء معنا يا مارك، ونادراً قبل ذلك. وعندما يموتون قبلنا يسمى ذلك تراجيديا كاملة».

أشباش: «كفاني روما نتيكية السياسيين الهاربين السلوفينيين الجنوبيين يا سيد لازاريتش!».

لازاريتش: «أنا لا يكفيني يا حضرة المفتش. فمنها أعيش!».

---

1 - أشهر الشعراء الصربيين الوطنين. - المترجم -

أشباش: «لقد مللت من أحزانكم القرباطية السلوفينية! هذه التعاسة التي ولدتم وتعيشون بها أنتم اليوغسلاف! هذا الشر والتعصب الأعمى الذي لا يخلو من رقة وعذوبة في حقيقته. إنكم تنقلونه إلينا نحن الألمان!».

لازاريتش: «وهل يمكن نقل أي عدوى للألمان؟».

أشباش: «إذا لم تدلنا على مارك أو على أبيه، فسوف نعتبرك، وبكل الحق، شريكاً في قتل السيد بوداك. لدينا الكثير من الأدلة».

لازاريتش: «يهدد الشرطة الحقيقيون باليمنى، بينما يفعل ذلك أنصاف الرجال والفروج أمثالك أنت باليسرى!».

أشباش: «أرى أننا نتخاطب بلغة المفرد؟».

لازاريتش: «هذا لا يسري عليك!».

أشباش: «لا تنسى يا سيد لازاريتش أنني أطلق بكلتا يدي دون اختيار اللحظة والمكان والحائط».

لازاريتش: «إنني أسرع منك أيها المفتش الكاذب أشباش! قف ولا تتحرك يا تومباس ولا تغرب بعينيك، انظر إلى فوهة مسدسي! وأنا أيضاً لا أنتقي... اللحم!».

أشباش: «صعقتني يا سيد لازاريتش».

لازاريتش: «سبعة أيام يا تومباس وأنت تدور حول بلدة بريمن. أخبروني بمجيئك. كم انتظرتك!».

أشباش: «لماذا كل تلك الحكايات والمقدمات إذاً؟ كان باستطاعتك أن تقتلني فوراً».

لازاريتش: «كنت أحدث نفسي ولا أحدثك أنت يا تومباس. أفعل ذلك عادة حينما أكون وحيداً. حينما تكلم نفسك، مثلي أنا اليوم، تتفشى الحكاية وتنتشر، وتصبح أجمل، وبذلك تكتسب ماهيتها وسببها، وعندها فقط تصبح حقيقة. تومباس، أيها اليوغسلافي التعيس، قم على رجليك. إذا كنت أنا رائداً في الجيش الملكي، فلست رجل دين كاثوليكياً محشواً بالقش لتركع أمامي. ضع يدك اليمنى على الطاولة!».

أشباش: «أرجوك وأتوسل إليك لشيء واحد فقط...».

لازاريتش: «أرني أصابعك. لماذا تخبئها!؟».

أشباش: «يدي بجانب يدك اليمنى، يا حضرة الرائد».

لازاريتش: «أين إبهامك يا تومباس التعيس؟».

أربع أصابع فقط. تلك الأكف اليوغسلافية الحزينة ينقصها الإبهامات، رمزها واعتزازها وشرفها!».

لازاريتش: «أهو الجبل البافاري يا تومباس؟».

أشباش: «نعم أيها الرائد. قصر البركشيرين. ومن حوله الأودية وكلاب دراكولا المسعورة الجربانة، مما يجعل الخروج والخلاص مستحيلين!».

لازاريتش: «جماجم أطفال، أحذية، حقائب مدرسية على الأرض. جذع شجرة مدمى، سلاسل صدئة، دوائر للربط، آلات التعذيب، بلطة إنجليزية أو نمساوية، إن لم أكذب، شُحذت آخر مرة عام ١٩١٨. موزارت، بارتوك، براهمس، في صالة الكونشرتو المليئة بالدخان والخفاش وفراش الليل».

أشباش: «والقسم؟ لقد أقسمت يا حضرة الرائد. قال لي ريتشارد قلب الخنزير: أيها الخرفاتي، أنت مبعوث الرب. لقد شويت صدرك بنضوة الحسان

الملتهبة. ومن تلك اللحظة لم أتحرر ولم أشف. ولن أتحرر أو أشفى! سأموت وأنا أسعل وألامس الحرف الملعون الذي حفرته النضوة على صدري».

لازاريتش: «لماذا لا تهرب؟».

أشباش: «هربت مرتين ووصلت حتى النبع لا أكثر! لا أستطيع الركض. ولا أملك شيئاً لأدفع ثمن نفسي كما دفعت أنت. لقد أطلق ورائي الخنازير والكلاب».

لازاريتش: «ألم يستبدل دمك أيضاً بدم خنزيري؟».

أشباش: «لقد فعل شيئاً أيها الرائد، لكني لا أعرف ماذا فعل».

لازاريتش: «أرسلك لتقتلني؟».

أشباش: «بل لأختطفك كما أعلم وأستطيع. وهددني: إذا لم تحضره لي تكون قد كتبت ووقعت صك موتك. أما إذا وجدته فستحصل على ١٠٠ مارك ورأسك هدية!. لم أفهم، لكنني هززت رأسي، وانطلقت إلى هنا».

لازاريتش: «وماذا يريد دراكولا مني؟».

أشباش: «لتحل مكان المرحوم السيد بوداك».

لازاريتش: «ومن يلعب ذلك الدور الآن يا تومباس؟».

أشباش: «ديمترو الأكرايني أيها الرائد. والبارون غير مسرور منه. يمرض ديمترو دائماً ويسعل، ويتعلل بأنه من الرطوبة والدخان في الجبل قد مرض بالربو».

لازاريتش: «أليس هو ذلك السمين التعيس ذو البلطة اليونانية في جمجمته؟».

أشباش: «نعم أيها الرائد. لقد أطلق لحيته وشعره. لهذا يسمونه في القصر راسبوتين».

لازاريتش: «ألا تزعجه البلطة؟».

أشباش: «لا، أيها الرائد. لقد نشروا قبضتها وبقيت النصلة في رأسه فقط! إنه لا يشبع ولا يخاف ولا يشعر. وحينما لا يوجد عرق ولا بيرة، يسكبون في فمه حليب خنزير حامضاً، أو بنزيناً أو نفطاً. فيجعر، يغني، يرقص، يقف على رأسه، فيجلسه الرجال. يبكي ويريد قلع عيني نفسه. وهذا كله ينرفز البركشيريين، والصربيين أيضاً».

لازاريتش: «أي صربيين؟».

أشباش: «الثلاثة القائمون مقام فورتيتش وبركلو ودازلينا. البتروفيشيون الذين يلعبون سكتش الأوستاشي بشكل رائع».

لازاريتش: «لا أفهمك يا تومباس. أي بتروفيشيين؟..».

أشباش: «اسمهم بتروفيتش الأول بتروفيتش الثاني بتروفيتش الثالث. ومنذ أن قص آذانهم وقطع إبهاماتهم واستبدل دماءهم بدماء خنازير، ابتدؤوا يستوعبون البرنامج وفقراته أكثر. ويدرسون بسرعة من التقاويم وكتب وصايا تربية الخنازير. أصبحوا أكثر طاعة لأهدافهم الإرهابية الجديدة. إنهم يوغسلاف بجوازات سفر حمراء، وهذا يعجب الحاكم. نهاراً يحفرون نفق قطار ميونخ، وليلاً يقتلون، ويذبحون، ويختطفون. وقد فاقوا بوحشيتهم الدلماتينيين الثلاثة. يعشقون الأثواب الفرانيفيتش، يصلّبون بكل يدهم مثلنا، ولا يتحملون رئيسهم ديمتر الأكرايني!».

لازاريتش: «كيف ذلك؟».

أشباش: «لم يعمّد الأكرايني كاثوليكياً بعد أيها الرائد. يعتبرون هذا سبباً! قال أمامهم مرة إنه يود الذهاب من الجبل، حتى لو قفز في النار. أرادوا أن يذبحوه ويرموه للبركشيريين. لم أسمح لهم! يؤكدون أن ديمتر إنسان جيد، ضعيف، بكّاء، لا يجيد الجّلد كما يجب. يهزؤون منه دائماً لأنه مريض ولأنه سيموت جاهلاً. في الحقيقة كان الصربيون سيكرهونه حتى لو كان صحيحاً. يريد الصربيون أن يدوسهم رَجُلهم، وفي أبشع الأحوال رجل روسي مثلاً، لا أكرايني مخنث مشوه وسكير».

لازاريتش: «وكيف حصل عليهم؟».

أشباش: «من شاندور كولار يا حضرة القائد. وقد حصل كولار على الأكرايني من نصاب تشيكي، كلحم آدمي حي بدون ثمن. واشترى الصربيين من روماني يدّعي أنه شاعر من شعراء الموجة الحديثة. أعطاه من أجلهم ١٥٠٠ مارك، وعدة أزواج من القرباط البولنديين، وثلاثة ألمان شرقيين قرباطاً سياسيين أيضاً. وقد أهدى المجري كل هذه الباقة من التعاسة البشرية إلى الإنجليزي في عيد ميلاده».

لازاريتش: «عيد ميلاده الألف؟».

أشباش: «لا أعرف بالضبط يا حضرة الرائد. أظن أنهم تكلموا عن العيد المئتين. وقد سُرَّ ريتشارد بالثلاثي الصربي الأرثوذوكسي كما سُرَّ سابقاً بالرباعي الخرفاتي الكاثوليكي. شكر حظه طويلاً، وعزف، ثم تكلم عن العوالم الموازية، القرون والأفكار. وسمى نفسه مالكوريدو[1] السياسة. ولم أفهم!».

---

1 - بالإسبانية تعني المحبوب البشع.

لازاريتش: «تومباس، ولماذا يتجسس علينا إلى هذه الدرجة ما دمنا إخوة؟».

أشباش: «يا حضرة الرائد. إنه يفرّق كل ما يمكن تجميعه وتوحيده. يرسلني عليك وهو مؤمن بشدة أنك ستقتلني. المهم بالنسبة له أن يضع في رقبة الصربي الأرثوذوكسي خرفاتياً كاثوليكياً، وبالعكس. علماً بأنه ينظر إلى الاثنين على أنهما ماحقان سابقان، أي من الشعوب المنقرضة. كما ويصنف ضمن الشعوب المجرمة الشيطانية السلوفينيين والأكرانيين والسلوفاك. ثم يقول: وكل قبائل البلطيق والفلاشكي. أما المجريون والإيطاليون والبولنديون فهو يتحملهم على مضض لأنهم لا يقدرون على الصمود أمام أحد كما يقول. وبجانب الفرنسيين يكره جداً الروس، التشيكيين، الإسبان والألمان! ويضعهم في المئة سنة الأخيرة على عنقه ويضع نفسه تحتهم كاللغم، يلعب سكتشهم، حتى يغرقهم، أو على الأقل ليجلب العار لهم أمام العالم. يقول إنه كان محظوظاً في ذلك رغم اتفاقه مع الألمان الجدد المبعوثين!. وكما كان في القرن الرابع عشر يا حضرة الرائد، فإن الإنجليزي يحب الأتراك فقط. لديه ثقة عمياء في قذارتهم وروائحهم غير المهواة، رائحتهم الكريهة والسفلس. ومنذ فقدانهم لمستعمراتهم صار يكرههم أيضاً. في ضواحي شتوتغارت وقف يهذي أمام الناس إن الأناضوليين في ألمانيا ليس لهم معين ولا حام، إنهم متجمدون محتقرون. لهذا يدعي حبهم ودعمهم، يداعبهم ويساعدهم لاحتلال العالم ثانية! يقال إنه لا يوجد في بافاريا وميونخ من يستطيع طرد العمال الأتراك من عملهم. أما الأوروبي الذي يحقر أو يبصق أو يؤذي تركياً فسوف أرسل له رسالة أو طرداً بريدياً مع الخنزير الأسود ليذهب معه إلى الجحيم! هذا ما كشفه صراحة منذ فترة في أحد الاجتماعات اللاهوتية للمنتقمين وعلماء الفلك والأبراج».

لازاريتش: «يا تومباس لو أنك أحضرت سيرة واحدة من سيره الذاتية لتركتك تعيش».

أشباش: «يا حضرة الرائد أي فترة من حياته تنقصك؟..».

لازاريتش: «لا أعلم أي شيء حول سفريات ريتشارد في أوطان الدانوب. يقال إنه كان في فلاشكا وترانس سيلفانيا، وإن جزر الكاريب أعجبته. وكان يريد قتل الأمير الروماني فلاداتيبس الدراكولا الحقيقي بسبب الآسيويين أيضاً، لقد أوقف دراكولا، وهو أكبر مسيحي وأوروبي في عصره، الأتراك بنجاح. ذبحهم، غرسهم فوق الرماح أحياء وأحرقهم. أما الذين امتنعوا عن السجود له فكان يخيط طرابيشهم على جماجمهم. وكان أكثر ما روّع الجزري الفظاظة والعنف ضد الأتراك. وحصل مبارزة. ولم يذكر ريتشارد أيهما قتل أولاً، وفي أي مكان. ولم يضايقه أن يقدم نفسه باسم الأمير البلقاني وكنيته ولقبه، ولمدة عقود وقرون. علماً بأنه لم يكن أهلاً لهذا الاسم!».

أشباش: «أمسكت بيدي هاتين عشر صفحات من أحد تقاويمه..».

لازاريتش: «أين هم؟».

أشباش: «بعتهم يا حضرة الرائد لصاحب مكتبة في أحد بيوت الثقافة بأكرانيا حتى ألجم جوعي».

لازاريتش: «بكم؟».

أشباش: «٢٠ مارك يا حضرة الرائد، وبزة نصف عمر على البيعة. كانت الماركات مزورة لهذا نمت في سجن ميونخ عدة ليال مع اللصوص. ولو قتلتني لما عرفت مصير البزة».

لازاريتش: «سأقتلكِ فعلاً يا تومباس!».

أشباش: «يا حضرة الرائد لقد سجل على تلك الأوراق كل قرنه العشرين. أعرفه عن ظهر قلب: يؤكد ريتشارد أن أفضل طريقة للقتل في قرننا الحالي هي الـ - ن - ص - ي - ح - ة! لقد نصح ك وك الدوق فرانس فرديناند في عام ١٩١٤ ليذهب إلى ساراجيفو[1] لاجتماع السلوفينيين الجنوبيين حتى يثقب في ٢٨ تموز برصاص الصربي، وتبدأ الحرب العاهرة المضحكة العالمية الأولى. وكرر على أكثر الصفحات دهناً الأقوال المترجمة التي - كما يدعي - تبادلها مع الإمبراطورة المستقبلية صوفيا. في شهري نيسان وأيار ١٩١٤ تنبأ بأنها وزوجها سيمحقان ويبادان بطريقة خنزيرية في سراجيفو! وحتى يغرق أوروبا نصح هند نبورغ العجوز أن يسلم السلطة لأدولف هتلر. سمع هند نبورغ الكلام وأطاع. وحينما لم يرضخ الألمان ودار السؤال حول تقرير مصير القارة لم يبخل ريتشارد بنصائحه على سكان الجزيرة. نصح تشمبرلين أن يهدي هتلر تشيكوسلوفاكيا، وبهذا أمن تشمبرلين لنفسه مكاناً كأكبر معتوه في تاريخ إنجلترا الحديث. ونصح ريتشارد أحد الضباط من إدارة الأبنية في الجيش الفرنسي أن يبدأ ببناء خط ماجينو التعيس. ونصح موسوليني وهتلر أن يهجما على البلقان وروسيا. وهجما. فتجمد نصف جيشهما هناك وأصاب النصف الباقي الجنون! نصح وارسو أن تبدأ الثورة، وبدأتها لتذبح! نصح بيا الثاني عشر والعديد من الكاردينالات والغوريليات أن يتصوروا مع أفراد عصابة القمصان السوداء التابعين لموسوليني ومع الجزارين القتلة من

1 - بلدة في يوغسلافيا البوسنا قتل فيها الملك الفرنسي فرديناند وزوجته صوفيا أثناء زيارتهما لها واعتبر ذلك شرارة اندلاع الحرب العالمية الأولى. -المترجم-

أبيسينا[1]، وبهذا جلب العار حتى للكرسي المقدس! وكان لدى ريتشارد خطة جهنمية ليهدم متحف أوروبا. ونفذها من خلال الأمريكان السكارى المعتوهين، فهدموا باريس وبراغ وفيرنتسا ومدناً أخرى مشابهة، كانت كل الجهات المتصارعة تحتفظ بها للمنتصر كائناً من سيكون. ونجح في أن يهمس للضابط المناوب في قيادة القوات الجوية الأمريكية على الجبهة الغربية في بريفتون - إنجلترا أن يرسل إلى درسدن ألف قاذفة وأن يزيل من الوجود في ليلة واحدة ١٣٥٠٠٠ إنسان وصورة».

لازاريتش: «توماس كيف تريد أن أقتلك؟..».

أشباش: «يا حضرة الرائد أهدني حياتي، وسوف أعمل لحسابك كل ما كنت مرغماً على عمله لحساب ريتشارد وقومه».

لازاريتش: «ما هو؟..».

أشباش: «سأسرق وأنهب العمال الأجانب اليوغسلاف. وسأضع في جيوبهم صلباناً معقوفة وعادية، ثم أرميهم من القطارات وهي مسرعة في الوقت الذي يغنون فيه!. سأنقض على براكاتهم، أنهب طعامهم، بزاتهم. رسائلهم. سأختطف أطفالهم».

لازاريتش: «وماذا أيضاً يا توماس؟».

أشباش: «وسأستمر بالمهمات الخاصة! لقد ذهبت إلى يوغسلافيا!».

لازاريتش: «قل يا توماس!».

أشباش: «كنت في يوغسلافيا ثلاث مرات يا حضرة الرائد. وفي المرة الرابعة منعني وجع العظام والربو والجبل! حرقت الغابات في أسترا، ليكا،

---

1 - الحبشة، أثيوبيا. - المترجم -

كوردوم، حوالي زادار، شيبنبك، دوبروفنيك. نسفت جسرين في الهواء، أحدهما على نهر أونا والثاني على نهر كوراني. لبست مثل فرانيفيتش، ووزعت المناشير على الناس لبدء الثورة العامة حول بوكينا وسبليت. كانت المناشير مكتوبة بلغة موازية - تراءى لي إنها غير موجودة، منقرضة، سابقة. ولم يبقَ إلا القليل ليسحلوني. وكنت أحث السياح الألمان والنمساويين والسويديين ليهربوا من الشاطئ الأدرياتيكي. كنت أخيفهم بمرض الجدري الأوروبي، الكريب الآسيوي، اليرقان العربي، وأكبر نجاح حققته يا حضرة الرائد كان مع القمل والصئبان والجرب والعث، التي أنتجها ريتشارد من بذور تركية في مدجنته السرية. أما الكنائس في زغرب وسارجيفوا وبلغراد، ومحطات القطار والمشافي العامة والمدارس والملاعب، وفيما بعد الشوارع فقد زرعتها بعدة كيلو غرامات من تلك الحشرات التركية البارعة. وهذا ما أصابهم أكثر من زلزال سكوبيا. وسمعت أنهم ما زالوا يحكّون ويغتسلون، ينفخون ويحمّرون!».

لازاريتش: «تومباس، لماذا نسفت في الهواء أحد عشر قبراً يوغسلافياً؟ حتى طارت العظام في السماء كما تقول».

أشباش: «يا حضرة الرائد الرقم ١١ هو رمز الشر الرهيب، العنف السياسي، الموت بالإكراه!».

لازاريتش: «وما الذي تعرفه أيضاً عن ذلك؟».

أشباش: «ذبذبات الرقم ١١ - كما يقول - قمرية. لا أفهم! وحسب ما يقول هيدون يا حضرة الرائد فإن الرقم ١١ يعني الغنى. أتساءل أي غنى؟ غنى الجنون! يعتقد الدكتور واستكوت أن هذا الرقم يمثل العهر، وهذا قد

يكون صحيحاً. ومنذ نشوء العالم لا يوجد أحد كالناس القدماء كره هذا الرقم، فأحد عشر يعني أول زوجة لآدم، عاقر، أي شيطان مؤنث! ويخبرني حدسي يا حضرة الرائد أنني سأموت والرقم ١١ على شفتي! وبينما كانوا يدربوننا على الهجوم على سفارة يوغسلافيا في استوكهولم، أكد أحد المدربين، الذي يعمل نهاراً كمروض وحوش، أن الذاهب في طريق مؤشر بالرقم ١١ سيرى وجه الله ويعيش للأبد. أي خدعة يا حضرة الرائد. إن الحادي عشر بالنسبة لي رمز للشر والقدر الحزين للاجئين السياسيين والهاربين».

لازاريتش: «تومباس، لماذا هجمت على غرفة العظام العائدة لنا ولإخواننا؟».

أشباش: « هكذا أراد الإنجليزي، يا حضرة الرائد..».

لازاريتش: «تومباس حبيبي الغبي، ريتشارد ليس إنجليزياً، وليس إيرلنديا، وليس من فلس، رغم الاعتقاد السائد بأنه جاء من جزر الغيلان إلى هنا».

أشباش: «إذاً ما هو ذلك الملعون؟ وما هو كل سحره الخنزيري؟».

لازاريتش: «يا تومباس، ريتشارد أكثر من إنجليزي! إنه القرف الأبدي، وقدرنا كلنا نحن الذين نعمل من اليوم إلى غد. تذكر وانقل عني لكل ذلك العالم بأن أسماءه التي ألصقت به حتى اليوم لم تعد منذ اليوم سارية المفعول».

أشباش: «وماذا بقي يا حضرة الرائد؟».

لازاريتش: «بقي لنا أن نتحزر حوله يا تومباس. أن نستشف الحكايات حول قوته وعارنا نحن اللاجئين السياسيين والهاربين».

أشباش: «وماذا يعني ذلك الرقم ١١ الخنزيري الشيطاني؟».

لازاريتش: «تومباس لقد أوغلت أنا في الجنون إلى أبعد مما وصل لـه أي من اللاجئين السياسيين والهاربين. فحصت تاريخه بالتفصيل في القرن الحادي عشر. رأيت طريقاً يقود إلى قرنين عكسيين إلى الوراء. ويعلم الله أين كنت سأصل لو أنني لم أتوقف! ألا ترى يا تومباس أن أفكارنا المريضة وشعورنا الجريح تقود كلها إليه؟ نحن نأتي إلى العالم لنصبح ضحاياه. نتعذب بطريقة خاطئة. نعود إلى أوطان غريبة قبل الوقت، بينما هو، ولا أدري ما اسمه، الوحيد لذي يَـ - تَ - كَ -يّ - ف. تومباس هذا الظلم يقودني لليأس!».

أشباش: «يا حضرة الرائد، أعرف في أية قرية بافارية سيتحدث بعد مساء الغد. سيكون موضوعه خالداً أيضاً: أكزما الخنازير السود كأساس للنظرة المستقبلية للعالم. وسوف يخرج البتروفيشيون من أكياس القنب خنزيراً بافارياً على وجهه قشور ليعرضوه في الاستراحات وما بين المعزوفات الموسيقية والعروض العلمية. يؤكد ريتشارد أنه قد أنتج جذاماً أيضاً. ورغم معرفتي بأن ما سأفعله مضحك وعبثي وبدون أي أمل، فإنني سأطلق النار عليه!».

لازاريتش: «تومباس. لم تعد قناصاً موثوقاً. ترتجف! لقد عبرت الخمسين وتشبه الجدة العجوز!».

أشباش: «يا حضرة الرائد. اغلط ولو مرة في عمرك. أنا ضائع مهدود بدون دم آدمي في عروقي، ينخرني السوس! فارحمني. ارحم هذه الجثة الحية اللاجئة!».

لازاريتش: «افتح ركبتيك! رأسك للأعلى! هكذا!».

أشباش: «أرجوك يا حضرة الرائد أن تهديني حياتي، أستحلفك باسم الحقائق، بوصفنا شعوباً وبشراً متساوين أمام ريتشارد وأمام التعاسة وأمام الرقم ١١. باسم أخوة اللاجئين السياسيين والهاربين!».

لازاريتش: «افتح فمك!».

أشباش: «مسنود أنا على الحائط يا حضرة الرائد. انظر إلى فوهة المسدس. انتظر مؤمناً بكرم أخلاقك، أخلاق المشطوبين من سجل الناس. مشرئب أنا! التصقت يداي ومؤخرة رأسي بالحجر كأنني المسيح!».

لازاريتش: «وهل اعترف المسيح بالرقم ١١؟».

أشباش: «يا حضرة الرائد لقد رفعوا المسيح وانزلوه عشر مرات من فوق الصليب».

لازاريتش: «لقد دقوه إحدى عشرة مرة يا تومباس!».

أشباش: «يا أخي، الرحمة! لا.. لا.. لا.. إحدى عشرة..».

- ٢ -

لازار لازاريتش، أشيب ضعيف، طوله متران، مهدل الكتفين، ذو ذراعين طويلين غير طبيعيين، وعينا نسر مرهق. نظر في فوهة مسدسه الأوتوماتيكي ماركة ستشكين مع كاتم للصوت. انتظر حتى ترتبت أفكاره الجليدية أبداً وقلبه الملتهب، ثم سحب الزناد. ولم يذكر أنه تصرف تصرفاً مغايراً منذ أن ابتدأ يطلق النار على اللحم الآدمي، ويخنق بيديه ويبقر

بسكينه حتى اليوم. وقبل أن تلعلع أصوات الرصاصات الإحدى عشرة ابتدأ جسد تومباس السمين والمتهدل يموت ويتراخى ثم ينهار. قفز تومباس فوق الأرض، تأوه وانفجر الدم. لم يتحرك لازاريتش. التصق تومباس بالحائط متخيلاً إنما يعرج إلى السماء. وصوب لازاريتش بهدوء، برصاص المسدس الستشكين النافر كالموت خلال أصابع معمدة، سحب الزناد بسبابة يمناه المشوهة الذليلة، في اللحظة التي خيل إليه فيها أن الجثة المفجوعة فاغرة الفكين سترتمي تحت قدميه، وبرصاصة واحدة في الجبين انهار تومباس كالمقصوص واستكان تماماً. وبما تبقى من الرصاص، بخمسة عشرة رصاصة أخرى ثقب لازاريتش حنجرة القتيل. وبناء على كل القوانين والتعليمات البلقانية ذُبح تومباس تماماً وبكل المعاني.

وبإشارة من لازاريتش ظهر من خلف الحائط الذي يفصل الساحة عن الحديقة والممرات الهادئة، غوريلا أحدب أطرش وأخرس هو غوريلا لازاريتش. إنه ستاش باندوروفسكي، بولندي. همهم، وشنج قبضته التي لم تكن أصغر من حجر طاحون. أعطى لازاريتش إشارة أخرى فانقضت الخلقة العجيبة القصيرة العرجاء السكرى فوق الجثة، بعد أن تفحصت المكان جيداً بما فيه المصابيح على الأعمدة.

نفض الأحدب جيوب تومباس: سكين بنابض ماركة هتسكلر وكوخ، قبضة حديدية مدببة بنابض، قفازات مع شفرات، سلك لربط الأيدي والأرجل، سلك لفقوء العيون، قطن للخنق الناشف والمائي، أوارق ثبوتية بوليسية باسم ولف كانك الدكتور أشباش، وجواز سفر نمساوي باسم كارل بند. وبصعوبة اقتلع وعدّ بعض مئات من الماركات.

قبض لازاريتش بقرف على تركة تومباس. كانت صورة القتيل موضوعة على كل الوثائق بصورة مدهشة متقنة. ابتسم لازاريتش. وأعطى النقود والمنديل المدمى والنظارتين السميكتين لستاش، وأخذ ما تبقى تحت إبطه وسار.

وبهدوء مصطنع تمشى لازاريتش بمحاذاة البناء والسور السلكي المتمم له. وسار باتجاه مدخل أعز فيلاته في بريمن، المخصصة أولاً للأصدقاء، للصيادين والضيوف، تلك الفيلا التي لم تجرؤ عائلته على معرفتها. تسلل الضوء الخافت إلى مداخل الطابق الأرضي الطويل الذي تطل إحدى نوافذه على الحديقة، والثانية على الشارع والمدخل الرئيسي.

لم يكن لازاريتش يعرف تأنيب الضمير: «صراع الضمير هو للذين يملكونه، والذين يملكونه يصطدمون مع الذين لا يملكونه، ومن هنا تحدث كل تلك الدراما على هذه الكرة الأرضية المسكينة» كان يقول ويضيف: «لا أعرف الخطيئة ولا أعترف بها!». لم يكن لازاريتش يعترف بشيء إلا بالخوف. وكان يكرر بأن كل شيء يعتمد على الخوف وعلى البرودة، البرودة التي تكبل موقفه الآن وهو ينظر إلى البولندي الذي يحزم جسد تومباس مع الآجر والأحجار بكل دقة وبدون روح، البرودة التي تتجمع الآن حول بطنه وظهره، البرودة التي كان يشتري بها الناس ويبيعهم ثم يشتريهم ثانية ليبادلهم أو يهديهم مثل العديد من الآخرين. كان يفعل كل ذلك ببرود وهدوء وكبرياء. كان يحتقر الناس لأنهم أبعد ما يكونون عن الكمال. لهذا اعتبر الناس إما للاستعمال والاستغلال مثل ستاش أو للإغراق مثل توماس.

رمى البولندي الكيس فوق الشاحنة. وكان هناك بعض النفايات والأحجار والتراب. سوّى الرمل بالرفش ثم غسله وهو ينشق. لملم

الرصاصات الفارغة وأعطاها للازاريتش. ثم غسل الغوريلا الأعرج مخالبه من البركة، اغتسل وتمشط، وصعد إلى الشاحنة التي كان يسوقها أحدهم ليجلس جانب جثة تومباس.

تمشى لازاريتش جانب الحائط. كان يتنصت. كان يفرح كطفل وهو يسمع أبواق التحية من البواخر، والريح تجلب رائحة كريهة لأسماك شمالية ميتة.

كان البولندي يلهث، ملوثاً بالطين. ركع ثم حنى رأسه وهمهم. مما عنى لديه أن الحجارة والتراب والكيس قد أغرقت. امتدت يد لازاريتش بهدوء إلى مؤخرة رأس الغوريلا تداعبه، وكانت هذه أفضل هدية للوحش إذا لم نحسب الخمس عشرة زجاجة بيرة وليتراً من العرق التي كان يحصل عليها باندوروفسكي كتحية المساء.

«ستكون هذه الليلة حارة فقط للمحقق أشباش!» قال لازاريتش في نفسه وارتجف. اقترب أحد مرافقيه وحماته، مهيب الطلعة، ليلبسه معطف الفرو المصنوع من جلد خروف آسيوي. وسار الثاني وراءه يقوده إلى غرفته السرية جداً والمصفحة.

كان الهاتف يرن.



الفصل التاسع

في بريمن تزهر الورود

- ١ -

في كل مرة يدخل فيها مارك إلى غرفة لازاريتش المريعة، يتذكر كيف استطاع هذا الأشيب المتطاول، الواقف جانب النافذة، ينظر إلى الحديقة والنوافير والحمام، أن يغنى ويشق طريقه في ألمانيا هذه بعد الحرب...

حلّت نهاية العبودية والأسر. وأخرج الإنجليز الهياكل العظمية الحية من مخيم التعذيب كونسر لاجر أوسانبروغ. لم يرغب لازاريتش وسلافيشا والدمارك الذهاب لأي مركز تجمع، وخصوصاً للقطارات التي كانت تجر الأسرى السابقين تجاه الشرق والبلقان.

«أيها الرائد، سأذهب حينما تذهب!» قال سلافيشا.

«أيها العريف، أريد البقاء هنا وأعرف سبب ذلك» قال لازاريتش بهدوء ولهجة ذات مغزى وأضاف:

«أما أنت الذي لا يمكن أن تكون نملة فيمكنك العودة بحرية إلى الوطن!».

«سيأخذونني إلى المشنقة بدون محاكمة يا سيدي الرائد. أخاف الحمر كما أخاف النار».

«سلافيشا. من أي شيء يمكنك أنت أن تخاف؟».

«يا حضرة الرائد سيعرفونني من بوقي، سيقولون كان سلافيشا يعزف نافخاً بإلهام. وسيعتقلونني!».

«سلافيشا. أتوافق أن نبقى في ألمانيا؟».

«أوافق يا حضرة الرائد لكن ليس إلى الأبد، وإنما إلى ما قبل النهاية. يجب أن نموت في الجنوب، في أوطاننا كائنة ما كانت. سيكون هناك أدفأ لعظامنا وأرواحنا، ستكون أرض القبر أطرى بجانب كنيسة ما هناك».

«سلافيشا هيا لنتزوج!».

«أنخون عائلاتنا يا حضرة الرائد؟ لدي زوجة مخلصة، وولدان كليرات الذهب سيتحطمون بدوني».

«سلافيشا، وأنا يوجد من ينتظرني!».

«يا حضرة الرائد لنعد إلى أهلنا».

«سنراسلهم يا سلافيشا. سنكذب عليهم! وسيفهموننا. وسنظهر أننا نفهمهم. سيعيشون في الفقر ونحن في الحرية. سنرسل إليهم ألبسة مستعملة وأحذية مستعملة، أدوية، قهوة، سجائر. سيكون ذلك لهم مع السلامات الحارة من البعيد كفاية. إنهم أفضل وأنظف منا، سيغفرون».

«وإذا لم يغفروا؟».

«هذه دراما تخصهم وحدهم!».

«ودرامتنا يا حضرة الرائد».

«إذا قررت الذهاب معي فأطعني!».

«لا أستطيع العيش بدون قائد، سأتبعك يا حضرة الرائد».

«سلافيشا إنه الشهر الثاني لنا بدون سلاسل. لم يبق إلا القليل ليزهر الكرز!».

«نعم، كرزنا!».

«لن نتسكع أو نضيع أكثر!».

«يا حضرة الرائد. ألم تقل إننا نحن السلوفينيين خلقنا لحياة القرباط المتسكعين، اللاجئين السياسيين والهاربين، للألم والعذاب الذي لا يمكن اجتثاثه من قلوبنا وعقولنا ودمائنا».

«سلافيشا لنبحث عن سقف! عن سرير ألماني دافئ لكل منا!».

«وما الذي سنفعله بالحزن واليأس والقهر؟».

«سنترك العذاب السلوفيني الذي ليس له دواء لغيرنا، للألمان مثلاً!».

«يا حضرة الرائد. لا يوجد سقف لن أبكي تحته، ولا فراش لن أرتجف فيه. لن ينفعني العناق بعد اليوم. لنعد إلى الجنوب...».

«كل ما علينا خلّفه الحلفاء، كما أنه جديد ونظيف. بينما يلبس المدنيون الخرق فنبدو أمامهم كالآلهة. لهذا سيشعرون بضرورة الدفع. ريثما تأتينا القوة والرغبة والعنف!».

«نعم يا حضرة الرائد».

«سلافيشا لم يعد في ألمانيا رجال! مجانين نحن إذا لم ندبر أنفسنا في زمن الأرامل الألمانيات. الآن أو أبداً! يجب على الألمان أن يصلّبوا أمام خصيات الرائد والعريف اليوغسلافيين، أن يغنوا!».

«أنا حزين لأجلهم يا حضرة الرائد. نساء مسكينات!».

«سلافيشا. ما دام الرب قد وهبك فسعّر نفسك غالياً. على الأقل حتى يصل شبابهم».

«ماذا سنفعل وقتها؟».

«نذهب مع الحديد العتيق!».

اتجها من أوسانبروغ صوب الشرق باتجاه هانوفر، ثم باتجاه الشمال لبريمن. من كنيسة لكنيسة ومن مقبرة إلى مقبرة. كانت كل ينـدر ساشن خراباً، كل النسوة في السواد، والرجال مفقودون أو مختبئون.

«هذه أريدها، هذه لا أريدها» كان الرائد يغني بينما ينتظر سلافيشا مع بوقه ليرى أي الأفخاذ ستحط عليها مخالب لازاريتش لمدة أطول. «لحم أنجيلا أقسى مما أشتهي، أفخاذ بيترا أطرى مما أريد!». ظلّا عند الأرملة مارتا فالراف، التي دخلت لتوها في الستين من عمرها، أكثر من ثلاثة أشهر، حتى وصل أخوها كورث بدون إحدى رجليه خارجاً من الأسر الإنجليزي، بعد الظن أنه قد مات في النورماندي. وقد هددهما كورث بكل الشباب الباقين والكلاب من بادموند. بكت مارتا وهي تذكر الاسمين السلوفينيين العزيزين بصعوبة. أراهما كورث بندقية الصيد ذات الفوهتين وأزبد قائلاً إنه سينتقم لشرف أخته المهدور ولساقه المقطوعة.

توقف الرائد ومرافقه الخاص في ميبن، على حدود هولندا. فاستبدلت المرأة أورليكا القوية القصيرة، الأم لأربعة أطفال مصابين بالهستريا، خلال الليل، صورة زوجها يوركن – الذي مات في معركة ستالين غراد بجانب قدور الطعام – بصورة لازاريتش. وبذلك تحايلت على الصليب. وكان كل شيء مهيأ للعرس. فوصل أقرباؤها من هولندا حاملين طروداً مليئة

بالألبسة والأحذية والطعام الأمريكي. وانتصبت المعركة من أجل سلافيشا الذي كان يتفحص بوقه ليل نهاره ويوقظ الديوك من السقيفة التي خصصت لإقامته.

«كل بلدة ميبن ضد عازف البوق اليوغسلافي» قالت أورليكا المتأهبة النمشية: «ينفخ في البوق بدل أن يتزوج!».

«يؤلمني قفاي من أجل سكان ميبن يا أولي» صاح الرائد «لا يوجد غيري لهذا العازف المقدس والمعذب. أنا ولا أحد غيري....».

«ومن أنت يا عزيزي؟».

«ضحية ألمانية يا أولي! هيكل عظمي حي من أوسانبروغ. والآن إنسان بدون وطن ولا مستقبل، لاجئ سياسي، صائم، راهب!».

«أأنا وحيدتك، أم مرافقك الخاص المضحك؟».

«الراهب مع بوقه يا أولي».

لم يكد لازاريتش يكمل قوله حتى قاد عريفه باتجاه الشمال. ولم ينتظر ليتمكن أقرباء أورليكا الهولنديون ولا الكاهن الكاثوليكي من تفسير ما حصل. ولا يذكر أحد في ميبن - بل في بندر ساشن كلها - أن شخصاً قد هجر امرأة مع أربعة أطفال وهي حبلى في شهرها الخامس.

في شهر مارس ١٩٤٦، قابل الرائد لازاريتش ومن خلفه سلافيشا في مقبرة بريمن السيدة كاسبار العرجاء، المتوسطة العمر. كانت ماريا تبكي زوجها فريتز يوم الاثنين من كل أسبوع، ضحية القصف الأعمى لدول الحلفاء - كما قالت -. وكانت السيدة كاسبار تستعين بعصا.

«سلافيشا. ماريا هي ما أشتاق له!» قال لازاريتش.

«يا حضرة الرائد. إنها تمشي بصعوبة».

«هذا هو المهم يا سلافيشا. لن تستطيع اللحاق بي!».

«يا حضرة الرائد. إنها تبكي فقيدها فريتز بحرقة».

«سلافيشا. هذا أفضل دليل بأنها لا تزال يُفجر بها جيداً!».

في يوم الاثنين التالي وجدتهما السيدة كاسبار على قبر فريتز. كانت السماء تمطر قليلاً. وكان سلافيشا ينفخ في البوق لحناً عسكرياً صربياً من الحرب العالمية الأولى، ولازاريتش يبكي بحرقة مدعياً أن ذلك من أجل السيد الزوج الذي قصّر أولئك السكارى من جنود الحلفاء عمره الخير. وظل يصلّب ويذرف الدمع حتى عرضت عليه السيدة كاسبار أن يقترب ليقف تحت مظلتها.

ولم يخرج لازاريتش من تحت مظلتها رغم وداعهما لفريتز وانطلاقهما سائرين خلال المقبرة. كان عن يسارها، يوازي خطواته معها. وحينما كانت تتعثر كان يتعثر أيضاً من باب التضامن. وكان يحقّر أمامها سلاح الطيران الإنجليزي الذي فقد إنسانيته، وهو يُحكم وضع عصا المارشالية تحت إبطه. وكان سلافيشا يسير وراءهما مبللاً وساهماً، وهو ينفخ في البوق ألحاناً صربية عاطفية قديمة. ومذ كانوا في المقبرة، علم لازاريتش أن المرحوم فريتز كاسبار، التاجر الكبير، قد ترك وراءه ولداً مريضاً بالربو، معتوهاً اسمه دولف وعمره ستة عشر عاماً، توقف نموه. واحتارت لأنها لا تعرف من سيستلم المخازن التجارية في مركز المدينة، والعديد من المساكن الموزعة من فيندورف وشواس هاوس حتى أوستر هولز وهملينكن. وتابعت وهي تسمع العازف المنتشي - بأنها قد تستطيع بصعوبة وبدون أدنى شهية أن تشرف على الطواحين ومعمل الغاز والمخازن التجارية في أولدن بورغ.

سألها لازاريتش عن عمر أبيها. فقالت إنه في العقد الثامن من عمره، وإنه غير قادر كما كان سابقاً، ليدير مقهى في القرية. كما أن أختي الصغرى أوتا غير مستعدة ولا تريد أن تشرف عليه، رغم أنها أرملة أيضاً. وكان لازاريتش يسمع ويحسب. أما عن الأراضي والأملاك في ثوردن هام وبادزويشن، فليس عندها أدنى فكرة عما ستفعله، وأن هذا ليس واضحاً حتى للآخرين. ولا أحد يعرف كم ستساوي الأموال غير المنقولة في وقت هذا الانكسار المريع.

وكما ادعى أنه تاجر أباً عن جد كان يهز رأسه. «ومن أجل هذه الموهبة الربانية فقد وظفوني في قسم الأركان لجيش يوغسلافيا الملكي» وفسر لها بأية سرعة سيستطيع إنماء وتوليد هذه الأمول لعائلة كاسبار فيما لو لم يدخل الروس بريمن أو الأطلسي. قفز كطفل اعتمر قبعة بيرت إنجليزية وكاد يثقب مظلتها. قفز ثانية أمام البيت الكبير لعائلة كاسبار حينما أسرت له ماريا بمعرض الحديث عن عدم وجود أي كاثوليكي في عائلتها أو عائلة فريتز الذي مات قبل وقته، ولن يكون!. وإنها ملتهبة العاطفة لأن الله أرسل لها هذين المؤمنين ليقدما لها العزاء في محنتها. مؤمنان من الدين الأرثوذوكسي الشرقي النظيف. دعت الرائد للشاي. أما المؤمن المقدس فقد بقي أمام الباب الرئيسي ينفخ عازفاً أغاني صربية عاطفية.

وقبل أن يتزوج لازاريتش من ماريا، بدأ العمل لعائلة كسبار. وبسيارة ذات لوحات أمريكية، هرّب القهوة والسجائر والأسلحة. انتعشت عينا ماريا، وواظبت بعد ظهر كل يوم اثنين على الذهاب إلى المقبرة، لتجلس طويلاً في ذلك المكان الذي تعرفت به على الرائد اليوغسلافي.

أما انتقال ماريا من الدين البروتستانتي إلى دينه، وزواجها منه، فقد نُفذا في أحد الأقبية في أوسانبروغ، في كنيسة صغيرة أرثوذوكسية للقديس جورج، وذلك بعد موت والد ماريا بستة أشهر، وفي الذكرى الثانية لاستسلام ألمانيا الهتلرية يوم ٩/ ٥/ ١٩٤٧. أما شاهدا الزواج فقد كانا سلافيشا وفلادا بارباش، سائس الخيل، بوجه كالمطرقة، وأنف متهدل، ونظارتين سميكتين، ويدين طويلتين.

ركب معهما بسيارة جيب من أوسانبروغ الكاهن ستافروفور، وايفو سيكوليتش، وآذن الكنيسة الأرثوذوكسية الذي وسخ كل جدران بيت عائلة كاسبار، خصوصاً تلك المساحة التي كان لازاريتش يعتزم الإقامة بها مع عروسه العرجاء.

أصبح أفراد عائلة كاسبار الرومنتيكية مجانين من السعادة. ولم يكونوا قد رأوا كما يرون الآن كل هذه النظافة للنوافذ والمراحيض والعتبات. وقد ابتدؤوا منذ العرس، الذي استمر خمسة أيام وخمس ليال، بتعلم بعض الكلمات والأغاني والرقص الآتي من شعب الرائد الحار. ولم يعرف الكسباريون ماذا ينتظرهم، لذا كانوا مبتهجين فقط. وكان لازاريتش يحضر لهم الهاربين السياسيين فقط، الروس السكارى غالباً، والرومانيين، والصرب، واليهود الخيريين. كان يحسب معهم، يعربد ويعهر. وكانت النقود تهطل والكسباريون سعداء، لكنهم متفاجئون على كل حال.

وكان العرابان متفاجئين أيضاً، سلافيشا الذي ابتدأ الجيران والعابرون يتذمرون من بوقه، وبارباش الملقب بالبومة، والعامل كغوريلا مؤقت للازاريتش وسكرتيره الراكض يتقدمه دائماً. كان الخوف من الأسر ثانية يكبل بارباش، والخوف من معدته الهابطة ومن الدود البلقاني في أمعائه. ولم

يعد العرابان يجرؤان على الصعود إلى سيارة الرائد الجيب. ولم يكونا يعرفان ماذا ينقل لازاريتش بواسطتهما من فيل هم شافن وهامبورغ وكوكسا هافن. ولا كيف حشرهما وهما مشدوهان من الفظاعة في المخازن الرطبة على شاطئ نهر الفاسار كي لا يستطيعا الذهاب إلى المدينة إلا بأمره وعلمه.

لم تدم السعادة الزوجية للكسباريين طويلاً. ذلك أن دولف ابن العشرين عاماً، والذي لا زال كتلميذ في الابتدائية يُخفَّض ويُلَفّ بالفوط حتى منتصف ظهره، قد غرق في المسبح في باد داري باركن، وهو يصيح القنابل.. القنابل، أمام عيني ممرضة وأستاذه. سار سلافيشا في الجنازة، وكان البوق منظفاً منعماً ومهيأً. لهذا طرد سلافيشا وبارباش من المقبرة، فبكى سلافيشا وبارباش بحسرة وألم وذهبا إلى مكان ما. وقد بحث عنهما لازاريتش بعد عام ونصف كي يشيعا بقايا ماريا الراحلة بنفخ البوق والتبجيل والمارشات الصربية الشاعرية. ولم يجدهما. كان بارباش يعمل كفران على حدود الدانمارك، بينما عمل سلافيشا مع بوقه في مدينة كيلا كفران ومهرج وسائس عند عائلة كوردسي. اما الرحمة والهدوء الأبدي في العالم الآخر لروح ماريا الأرثوذوكسية فقد توسلها آذن الكنيسة سيكوليتش بين الألمان الأغراب البروتستانت. وأصبح الأب سيكوليتش الكاهن الخاص للازاريتش، وعمّد أوتا النحيفة ذات الشعر الأحمر، شقيقة ماريا وأرملة التاجر من أولدنبورغ كارل كراوت، أرثوذوكسية، وزوجها من لازاريتش في تريستا - إيطاليا، في الكنيسة الصربية للكاهن سبيريدون فاعل المعجزات. وبعد أقل من عام على العرس عمّد الأب سيكوليتش وليدهما. وبعد الطفل الأول اسكندر أتى الثاني بيتر، وبعدهما الطفلة سيمونيدا. وقد تواجد الأب سيكوليتش أيضاً عند لازاريتش عندما حفرت تحت إشرافه

أساسات الفيلا في شوا وهاوس ورطبها للبركة بالنبيذ والعرق، وهي نفس الفيلا التي يوجد بها مارك الآن. وقتها سأل الأب سيكوليتش عن عازف البوق سلافيشا وعن المريض بارباش الذي كانت روحه في عالم الغيب، وسأله عن الكثيرين من رفاقه الذين كانوا معه في مخيم التعذيب أوسانبروغ. أجاب لازريتش:

«أبتي. لا وقت لديَّ للمتسكعين الضائعين والعاطلين عن العمل».

«وللمعذبين؟».

«أبتي. يكفيني قرفاً. أنا تاجر».

«لقد أقسمنا في مخيم التعذيب أن يكون أحدنا وفياً للآخر فيما لو كُتبت لنا الحياة، أن نتعاون ونحافظ على بعضنا. وقلنا: «الخائن سيموت»».

«أبتي. لم يعطني أحد شيئاً حتى الآن. كانوا يأخذون مني فقط. ولن أعطي بعد اليوم».

«يا لازاريتش. من لا يفي بوعده ويمينه سيعاقبه الله والناس على حد سواء».

«أبتي. أنا لا أخاف الله. ومع الناس أتحارب مذ وعين لنفسي وللرب».

«لازاريتش. لو كنت مكانك لخفت من الناس الذين كانوا في الجحيم، والذين بكل الحق قد لا يغفرون. واعلم أن إيمانهم هو أعدل انتقام».

«أبتي. كأنك تهددني».

«أذكّرك وأنبهك فقط، بأن الناس الحقيقيين لا ينسوا بسهولة هكذا. وأذكّرك بأن الشرف والأخلاق خالدان مثل الشر الذي تنتمي إليه».

«أبتي. لقد وصلت هذه النظرية إلى أنفي».

لم يعد الأب إليه. مات على عتبة الكنيسة الأرثوذوكسية في مكان قريب من مخيم التعذيب السابق أوسانبروغ. كان على ركبتيه والصليب بيده. حتى ظن الجميع أنه كان يرجو الرب ويصلي لأرواح الآلاف من الأسرى، وحياة اللاجئين السياسيين والهاربين المشردين المنتشرين في كل ألمانيا. ولم يزعجه أحد. سحبوه بعدها ورموه على المزبلة.

«هناك مكان كل مدين لي» قال لازاريتش.

كان الأب سيكوليتش يفضل الجلوس دائماً في الزاوية جانب النافذة، هناك حيث يقف الآن لازاريتش. تلك الزاوية التي زينها الأب بنفسه: أيقونات أرثوذوكسية روسية، صربية، يونانية، ورومانية، رتبها حول صورة المسيح. ثم وضع الحكام الصربيين من القيصر روشان القوي حتى الملك اللاجئ السياسي بيتر الثاني كاراجورجفيتش. ثم وضع القنديل الذي يشعل ليضيء ناعساً بدون انقطاع. في تلك الغرفة كان لازاريتش يعقد أعمالاً تجارية بالملايين، ويحيك المؤامرات والجرائم في آن معاً، مما أوجب أن تكون الغرفة كلها صربية من المقاعد الثلاثية الفخمة المصنوعة من خشب الجوز المحفور الدالماتيني، والسجاد ذي الألوان الزاهية من شرق صربيا، وحتى تمثال نيغوش والأعلام من الجبل الأسود، والقبعات برمز التاج الملكي، وكل التحف والتذكاريات والبنادق على الكامين والجدران.

وكان أكثر ما يشد انتباه مارك الصورة المؤطرة الكبيرة المنارة من لمبة على مكتب لازاريتش، التي ظهر فيها خلف مقود سيارة جيب بلوحات أمريكية ومن خلفه عشرون رجلاً من اللاجئين السياسيين والهاربين. بينما وقف الأب سيكوليتش يخطب بهم ملتحياً والصليب في يده: «يا أبنائي الوطن

والبيوت» وأضاف «خصوصاً أنتم يا من حُكم عليكم بالفقر والمرض والوحدة والغربة».

«أبتي. وماذا تنتظر أنت!؟».

«أن أذهب إلى الجنوب مع آخر واحد منكم».

«أبتي. سمعنا الكثير مما لا يسر».

«يا أبنائي. لم يكن الجبناء وحدهم قتلة في الحرب الأخيرة. انظروا إلى يدي التي أدعوكم بها، إنها مدماة أكثر من أياديكم».

«أبتي أترسلنا إلى معتقلات الموت الشيوعية؟».

«بل للوطن يا أبنائي».

«وهل يوجد بديل للوطن؟».

«لا يوجد. الوطن مقدس لا يعوضه شيء».

«أبتي. الوطن حسبما ترى مثل الإله».

«يا أبنائي، الوطن ليس مثل الإله، الوطن هو الإله».

«أبتي. لا يزال الوطن أحمر حتى الآن».

«أيها التعساء مثلي لا تسألوا الوطن عن لونه. اذهبوا إليه وقولوا عن كل ما أخطأتم به نحوه، ولا تخفوا شيئاً. إذا ذبحت أحداً قل للوطن إن الشر فار بقلبك، وإنك اشتهيت الدم الآدمي، وإنك لن تفعل ذلك ثانية. إذا كنت قد أحرقت منزلاً، قل نعم لأنني أحببتُ الحق واللهب، ولن أكرر ذلك ثانية. يا أبنائي الوطن كبير وقلبه ما له حدود. سيغفر لكم. لا شيء مثل الوطن يمكنه تحويل شاربي الدماء وحارقي المنازل إلى ملائكة».

«أبتي. تعرض علينا العذاب».

«ونحن مخلوقون للألم أيها الأبناء. نحن سلوفينيون، وبهذا يكمن كل قدرنا. لو أننا أتراك مثلاً لما عرفنا الألم. سنجتاز الدنيا من خلال الألم فقط، العذاب والضربات، حتى نصل إلى الأخلاق والنظافة. كأن الوطن الذي أُرسلكم إليه لا ينزف ولا يتعذب. تقولون إنه أحمر، وإنهم يغلقون الكنائس هناك ويهدمون القبور ويحفرونها، وإنهم يحقرون عاداتنا الشعبية والمسيحية».

«أتذهب للأسر معنا؟».

«سأذهب معكم يا أبنائي، كما ذهبت حتى الآن. لا أسأل عن السجون والمعتقلات، ولا العذاب الذي سأتعرض له. المهم أننا هناك في الجنوب، في أوطاننا».

ارتعد الجميع خوفاً، ما عدا الرجل الجالس وراء مقود سيارة الجيب ذات اللوحات الأمريكية. وفكر مارك... لو أن العجوز لا زال حياً لأرسلني معهم إلى الجنوب، إلى سجون وطني وشعبي، ولما كنت مضطراً لأقتل وأذبح في ألمانيا هنا. شاهد ستاش باندوروفسكي، ذلك البولندي المخيف يدخل غرفة لازاريتش كلص أعرج معتوه، ويقبّل يدي سيده المطلق المليئة بالخواتم.

«وهكذا أيها العجوز الذي لا تخاف العقاب، ويا أبي الذي لم أتمكن حتى الآن من إيجادك، أنا مضطر لمتابعة الطريق، والسكين في جزمتي، والقبضة الحديدية المدببة في كمي..».

- ٢ -

وكلاعب البوكر جمع لازاريتش الصور من فوق الطاولة كورق اللعب ثم خلطها وفردها ثانية أمام مارك وباندوروفسكي وقال:

«أيها القوادين، لنكرر: مَنْ مِنْ هؤلاء العشرين، يجب أن يكون الليلة ملكنا؟».

نظر مارك إلى الصور. كان هناك العديد من الموتى:

أندرو البناء، صربي دلماتيني من قرى زادار، مخلوق جبينه واطئ، شفته كالأرنب، طويل العنق رفيعة، كأنه خُلق للخنق - قال ذلك لنفسه - عمل لعدة سنين خلت غوريلا للازاريتش وقاتلاً لديه. وكل ما حصل عليه من لازاريتش، سكر به ولعب القمار. رفض الانصياع واجداً العذر في البيرة والوحدة والشوق إلى دلماتسيا. وقد جلده لازاريتش عدة مرات ليكون عبرة للغوريليات الشباب، حتى أُصيب أندرو بالصرع من كثرة الضرب. «لنساعده» قال لازاريتش وقبّله في جبينه.

في اليوم التالي لوى البولندي عنقه في مرحاض محطة القطار في كيلا.

ماشان أنجوس، ملازم في الجيش الملكي اليوغسلافي، وأكثر هيكل عظمي حي نكتة وطرافة في معسكر أوسانبروغ. عمل في أولدن بورغ لوقت قصير كرئيس للمطبخ اليوغسلافي. وحتى لا يفتتح مطبخاً آخر في برنرهافان، وثالث في ولسن هورست، وحتى لا يعمل كما عمل حتى الآن في السمسرة بالمسدسات والسكاكين ذات النابض والقبضات الحديدية، أرسل

إليه لازاريتش الثنائي الأسود. كان مارك يحرس الطريق ويرتجف. وكان أنجوس قوي العصب رغم كهولته. اقتلع خشبة القاطرة ولوح بها، لكنه وقع من ضربة سكين. وعاد البولندي إلى بريمن وفكه مكسور والحياء يأكله.

كان السابع والعاشر من الطرف الأيسر الأخوين موتابوفيش، رادان وفاسيل وكانا في وقت من الأوقات يجمعان الإتاوة للازاريتش ويغشان أثناء لعب الورق، ويعملان كنادلين. أما سبب قتلهما فليس لأنهما أرادا الاستقلال وفتح مطبخ بلقاني يطبخان فيه الفاصولياء اليابسة والفطائر في بادسكبيرغ، ولا لأنهما باعا الأيقونات من كنيسة القديس باولو، بل لأنهما تكلما في حالة سكر شديد وأفشيا أسرار كل ما يفعلانه أثناء البيع في شركة البلقان للاستيراد والتصدير أمام بعض رجال الشرطة، وبعض المخبرين من اللاجئين السياسيين.

وكان أسهل على البولندي أن يقتل رادان وفاسيل، في الغرفة الصغيرة في أحد بانسيونات هامبورغ، من أن يسيطر على بيرن بيرونوفيتش الخامس عشر من اليسار، اللاجئ السياسي الجديد، الذي قال عنه لازاريتش إنه مرسل من البوسنا ليتابع ويراقب ما نفعله نحن الكبار، وذلك منذ الوقت الذي ابتدأ يعمل فيه لدينا كحمال للتفريغ الليلي، لتلك البضاعة الذاهبة إلى تركيا وبلاد الشرق الأوسط، عن طريق شركة البلقان للاستيراد والتصدير. حلف بيرونوفيتش وأقسم إنه لا يتجسس لصالح ساراجيفو، بل يسرق وينهب فقط.

وصاح واستغاث حتى اضطر باندوروفسكي، وقبل الوقت المحدد، أن يحشر في فمه وعنقه سكيناً. ولا زال القبو في براكو مليئاً بأشياء مسروقة حتى الآن، ولا زال بيرونوفيتش في بركة من دمه.

أوقف لازاريتش أصبعه على أول صورة ملونة مـن اليمـين ظهـر عليهـا رجلان، وقف البولندي لدى رؤيتهما محتقناً يهمهم. كان أولهما فلادا بارباش الذي لم يكن على أي من الصور فرحاً ومنشرحاً كما على هذه الصورة، وقـد فتح أزرار قميصه. كان بدون كتبه، حتى شوهدت عيناه وذلك الشيء الذي يخفيه عن كل الناس. وكان بدون قبعة الصيد التي يعـشقها، حتـى بعثـرت الريح شعره الكثيف الأشيب. وكان بارباش يعانق بيمناه رجلاً تركيـاً عـلى الصورة، وفي اليسرى كان يُحيي القطار المنطلق بسرعة. بدا ذلك واضحاً من هيئة المسافرين الذين مدوا أبوازهم من النافذة. وكان لازاريتش يقول كلـما سحب صورة من تلك الصور نفس ما قاله هذه الليلة:

«بارباش بارباش، سيكلفك هذا العناق مع رجلي التركي غالياً».

كان التاجر التركي الكبير من أزمير ملا يوسف تتـاروغلو عملاقـاً عـلى ساقي قزم. كان يبدو إذا جلس والمسبحة في يده ومشرب الـسيجارة في فمـه أطول مما وهو واقف، هكذا كان يصفه لازاريتش في سـاعات غـضبه. كـان تاتا روغلو ملتحياً، يعتمـر قبعـة بحـرف عـريض. وكـان يـذّكر الآخـرين بتولوس لاوروس العملاق. كان أبوه مكدونياً وأمـه بوسـناوية، لهـذا كـان يقول إن ساراجيفو وسكوبيا أحب إليه من استمبول وأنقرة. وكان غالباً مـا يحـضر إلى لازاريـتش في سـيارته الـرولس رويـز الـسوداء، ومـن حولـه الغوريليات الأناضولية. وكان يمول العمال الأجانب الأتراك بلحـم الغـنم والدهن والجلود عن طريق شركة لازاريتش، بواسـطة شـاحنات الـبرادات هنشل الضخمة، ويستلم مـن شركـة البلقـان للاسـتيراد والتـصدير مئـات الأطنان من الجبنة الأمانية والزبدة والبيض الهولنديين والعسل الـدانماركي، وأشياء أخرى كثيرة يهربها داخل الخزانات السرية إلى آسـيا الـصغرى. لقـد

دُهش لازاريتش: ما الذي يجمع زبوناًهاماً كالتركي مع شخص قصير النظر وغبي مثل بارباش؟.

كان ستاش باندوروفسكي «بو» يمسك الصور الملونة بمخالبه بنفس الطريقة التي أمسك بها قديماً رأس بوشكو يوفانوفيتش المحطم الدامي، ذلك الضابط في أركان الجيش الملكي اليوغسلافي المنحل، والجثة الحية من مخيم التعذيب أوسانبروغ رقم كذا وكذا، الذي دفع عمره أخيراً أثناء ثالث محاولة على التوالي لاغتيال الرائد المشرك لازاريتش. حصل ذلك بعد سبعة أيام من الزيارة التي قام بها لازاريتش إلى شخص آخر مهزوم ويائس برقم على ظهره اسمه تومباس، وبعد شهر واحد من محاولة رجل يوغسلافي ليفعل ما لم يستطع أحد من اللاجئين السياسيين والهاربين القدامى فعله، والذي كان مارك يعرفه من زرندورف كجاسوس ثلاثي ومريض بالسرقة.

«فلادا بارباش» قال لازاريتش لبو. كان بو صاحياً وغير سكران ما دام يغيّر وقفته من رجل لرجل.. وقد استعان لازاريتش بحركات وجهه ويده وهو يضيف: «البومة يابو، البومة. التركي لا. أبداً.. أ – ب – د – اً».

أمسك البولندي الصورة، وبعينه الصحيحة عاين بارباش، الذي بدا فارداً يديه وكمي معطفه النمساوي الأخضر، يعانقه ملا يوسف تتارغلو ويقبله بشفتيه البنفسجيتين المتورمتين دائماً. وقد برزت عيناه الجاحظتان الغامقتان المسكونتان بذعر مزروع فيهما منذ الولادة، ومرارة تجمعت خلال حياته في قعرهما. تهيج بو، واستدار تجاه لازاريتش ومارك بالجزء الآخر من رأسه المسطح والعين الصغيرة المتشنجة وهو يهمهم. قال مارك:

«يا خالي لازاريتش لا أريد أن أدمي يدي ثانية».

«مارك، الذي يحذف الناس من قائمة الأحياء هو بو لا أنت. ماذا كنت ستفعل لو كان العكس؟».

«أريد أن تكون الجريمة الأخيرة لي».

«وماذا أيضاً؟» سأل لازاريتش بلجهة متعالية جبارة، واتجه صوب القنديل والأيقونات وهو يحجب جزءاً كبيراً من خريطة يوغسلافيا الملكية.

«كفاني علم الغيب وعلم الأبراج السياسي وسحر اللاجئين السياسيين والعبث المجنون. وأريد التحرر من كل شيء، وأن أغتسل. أريد أن أفعل شيئاً طبيعياً ومحترماً، بدون دم، حتى لا يستطيع أحد أن يميزني عن أولئك العمال الأجانب الذين يعملون ويرسلون لأهلهم».

«لا زال الوقت باكراً لشيء كهذا يا مارك».

«يا خالي لازاريتش ألم أدفع ديني حتى الآن؟».

«إضافة للبومة بارباش يجب أن يقضي على واحد آخر، ذاك الذي يزعجك أنت لا أنا».

«قد يكون فيكتور؟».

«فيكتور».

«إذاً أنت تعرفه أيضاً».

«من الحكايات فقط. أعرف أنه خانك على الحدود، لذا فهو يستحق رصاصة حجرية منك في جبينه! وأعلم أنه راح يسيح بعدها متسكعاً، حتى وصل إلى أكبر أسرّة فرنسا ومطابخها. وصل للقمة! يقولون إنه أصبح غنياً، إنه قد نسي لغته الأم وأصدقاءه كذلك، وإنه أنكر مسقط رأسه.

يقولون: واحد فقط في باريس. إنه فيكتور، فيكي أريتون لي سلافي، ألا ترى أنه قد غيّر اسمه واختصره».

«متى سأذبحه؟».

«البومة بارباش على القائمة أولاً».

«أيمكنني بعد ذلك الذهاب إلى والدي؟ كمكافأة!».

«الجائزة هي ذبح فيكتور!».

«يا خالي. أنا كائن بشري. لم أجنّ تماماً بالغيب والسحر الأسود. أريد رؤية والدي! لماذا تحرموني هذا الحق الطبيعي؟ أنا ابنه، كما هو بالنسبة لي أب كيفما كان».

«أولاً: البومة بارباش لمصلحتي ونشوتي. ثانياً: فيكتور لنشوتك. وفي تلك الأثناء سيكون أبوك سلافيشا قد عاد مع بوقه ثانية إلى أوروبا».

«وأين يتسكع الآن؟».

«أستراليا، نيوزلنده، إفريقيا الجنوبية، كندا، الأرجنتين، أمريكا. في كل مكان يعيش ويتعذب به شعبنا. يقدم سلافيشا الكونشرتو، وينفخ لهم مارشات وأغاني، ويغني بصوته المجروح الناشف من يومه، ويجمع التبرعات نقداً أو بشكل آخر».

«لمن؟».

«للأسرى العجزة المرضى من أوسانبروغ وللمتطرفين السياسيين الذين يفجّرون في يوغسلافيا وعائلاتهم. للعمال الأجانب الذين يوافقون على شتم ولعن الوطن الذي جاؤوا منه، أولئك الذين لم يدبروا أنفسهم في الغرب بعد».

«أأستطيع محق بارباش فوراً؟».

«تبدو مستعجلاً كأنه أساء إليك».

«هدفي فيكتور. هذه هي السكين!».

«بارباش جوزة صلبة يصعب كسرها. ومذ شعر أنني أتصيده أصبح حذراً. ربما كانت مسائل علم الغيب وتحضير الأرواح تعينه جداً!».

«يا خالي. قل لي فقط أين يتحرك!».

«القطارات! أمضى عمره وهو مجنون بها. حدثني كيف كان ينظر إليها وهو طفل من عشته التي ولد بها في هرتسك، حينما ظن أنه باق إلى الأبد في ذلك الجبل الصخري الأجرد. واليوم يملك بطاقة مجانية لكل الخطوط الحديدية الألمانية! لذا تراه لا ينزل من فوق العجلات لأنه لا يثق بالأرض ولا يصدقها. ويقول إنه يقرأ النجوم من القطار ويسجل بدقة كل ما يهمس لها وكل ما تجيبه به. وبما أن النسيان من طبعه تراه يمسك بالقاطرات كلما أراد أن يتذكر شيئاً هاماً. حتى إنه لا يجرؤ على الغناء إلا حينما يسمع صفير القطارات ولا يتخذ قراراته الهامة إلا حينما يرى تحركها، فينهي الصفقات، يعقدها أو يرفضها على سكة القطار، أحياناً في محطات صغيرة. إنه ينام في القطار، هذا فيما إذا تجرأ ذات مرة وأغمض عينيه».

«أيتبعه غوريلا؟».

«لا يقتني بارباش أي شيء مكلف. يؤكد أن كل ما يهمه موجود في الأعداد الموجودة عند أيسيدور كوزمينسكي. إنه يدرس ذلك الكتاب ويضيف إليه أو يحتفظ به فوق صدره. علماً بأنه يطلق النار بكلتا يديه».

«وأين هو الآن؟».

«تريد القول بأي رقم يبحث الآن؟».

«أين هو؟».

«في مكان ما من القطار».

رن الهاتف. نفث لازاريتش دخانه ورفع السماعة. وسمع صوت المتحدث من الطرف الآخر:

«ما دمتم حريصين وقد تابعتموه من هامبورغ، احترسوا الآن ألا يلمحكم أو يراكم. لتصل الوردية فوراً. توزعوا على المداخل حول المراحيض. وليذهب اثنان إلى خط القطار. حاذروا المسافة المطلوبة. الـ - م - س - ا - ف - ة! أقول لكم».

أعاد لازاريتش سماعة الهاتف. أطفأ اللفافة، وتنهد، وقال إنه حزين لعدم تمكنه من مرافقتهما إلى محطة القطار الرئيسية. وقال إن البولندي مستقر وغير متهيج وإن هذا فأل جيد.

كانت قوة غير واضحة تسيّر بو. توقف عن علك التبغ وإصدار الروائح النتنة، وفيما وضع له لازاريتش، كما وضع لمارك، في جيب بزته الجاهزة عدة أوراق من فئة الـ ١٠٠ مارك، قبل عرابه من يده ثم نطح رأسه بحرف الطاولة، فداعبه لازاريتش.

رفع الحقيبة الدبلوماسية المليئة بالطعام من فوق السجادة، ووقف خلف مارك كغوريلا أبله وعبد. ودعهما لازاريتش حتى الباب.

كان السائق الذي اصطحبهما إلى المحطة قوياً وشريراً، لم يتركهما لحظة. كان يسير خلفهما بحرص.

بحث مارك وبو عن البومة. ولم يكن لبارباش أي أثر.

احتل مارك شعور بعدم الثقة والهدوء. اشترى صحفاً ومجلات ألمانية وصحيفة التايمز، مثلما كان يفعل مع نيكو ماراش وشاندور كولار حينما كانوا يسيحون في بافاريا.

وكاد يتوقف لشراء صحف اللاجئين السياسيين والهاربين التي يسميها لازاريتش صحف مرضى السلفس، لكنه خاف أن يثير انتباه أحدهم تجاهه وتجاه بو. اشترى سجائر ولباناً وسكاكر بطعم النعناع.

تطابقت أوصاف بارباش على وصف لازاريتش له. كان ينتعل حذاء عميقاً وبنطالاً عريضاً ومعطفاً نمساوياً عتيقاً، وقبعة من جبال الألب عليها الكثير من شعارات جبال الألب. أذناه مشرئبتان، وخداه تجعداً باكراً، أنفه معقوف، وقد فضحت أوصافه أصله الجنوبي الذي لم تسايره الحياة ولا ضحك له الحظ. كان يدخن الغليون، وقد أمسك الحقيبة الدبلوماسية القديمة بقوة جاحظاً بعينيه خلف نظارته السميكة، وفي يده كتاب الأرقام المغلف. كان يسير متخذاً خلفه الحائط دائماً. رآه البولندي فلبس قفازيه بصورة غريزية.

«يا خالي إلى أين تتوجه البومة من بريمن؟» سأل مارك لازاريتش قبل أن يخرج.

«لدى البومة في أولدن بورغ صلة وصل، حقيرة لكنها صلة وصل على كل حال. إذا انطلق إلى هناك فلن يستقبل منتصف الليل حياً. يتبعه آخرون لا أنتما فقط. لديه مستودع سري في مدينة فيل هلمن شافن. لقد بدأ عمله بالسلاح والدهنة ولحم الغنم للمحمديين مع عصابة ابتدأ يخونها دون أن يدفع لها إلا القليل. سيساعدكما أحد تابعيه إذا لزم الأمر، لا تخافا. ستعرفانه من خط القنب الأسود الملفوف حول خصره. من ناحية أخرى قد يذهب

البومة إلى هامبورغ حيث لديه جيش مرتزقة خاص. سيبيعه، ويسلم فوراً خمسة عشر لاجئاً هارباً مسكيناً من الشرق، اشتراهم قبل شهرين في زرندورف، أغبياء مأذخوذين نضجوا تماماً لأنغولا وموزامبيق.

وليس مستبعداً أن يذهب إلى بريماهافن فقط. معروض عليه هناك، وبسعر رخيص جداً، سبعة سلوفاكيين. هم الآخرون جثث حية من زرندورف. سيشتريهم بارباش وهو لا يعلم أنهم ملكي. فإذا لم تستطيعا أنتما الاثنان القضاء عليه في بريمرهافن، فسوف يذبحه السلوفاكيون المذكورون الذين أفهمتهم أن بارباش هو - تشيكي!».

«لو كان الأمر بيدي لقضيت عليه فوراً». قال مارك وهو يفكر كيف يقترب من موت إلى موت ليصل إلى فيكتور. «أنحن مضطرون لتركه يخرج من بريمن؟».

«المهم هو شبكة البومة يا بني. لهذا يجب أن ندعه يسافر أطول ليستقبل أناساً أكثر. ستحفظان كل وجه يقابله من الآن إلى أن يموت. المهم أن لا نسمح له بالاجتماع مع الأرقداش[1]».

«ولماذا لا ننهي التركي أيضاً؟».

«تتارغلو منجم للذهب. إنه يبحث في الأعداد أيضاً. لكن بطرق مناسبة أكثر من بارباش. سترى».

وحتى يتغلب مارك على خوفه، سار والبولندي وراء بارباش بجانب نوافذ البيع وطوابير الناس المنتظرين. وكل ما أقلقه عدم ظهور الرجل صلة الوصل في المحطة بعد.

---

1 - بالتركية: السيد، الصديق ويقصد به ملا يوسف تاتا روغلو. - المترجم -

رأى مارك بارباش. وشاهد الندبة المنحدرة من عظمة الوجنة مارة بعظم الفك القوي لتنتهي وتضيع تحت الياقة. لا بد أنها كانت حديثة العهد ما دام لم يلمحها على صور لازاريتش.

اقترب السائق من مارك والبولندي، وبصحبته جنوبيان طليا شعرهما بالزيت حتى لمع وتسطح. كانا يلبسان الجينز وسترات ضيقة من الجلد الصناعي (المجعلك).

«يسافر البومة إلى ميونخ عن طريق هانوفر وكاسل وفرانكفورت» قال الأول بلهجة دلماتينية، وأعطى مارك بطاقتي سفر.

«أيتبعه أحد؟» سأله مارك متجمداً.

«أنتما الاثنين» قال الآخر، وهو يكشف عن لثة زرقاء وأسنان منخورة. «حظاً سعيداً».

ذهبت غوريليات لازاريتش المؤهلة كقناصة أيضاً. استل بارباش من جيب صدارته ساعة حديدية كبيرة وقارن وقته مع ساعة المحطة. كانت الساعة قد جاوزت السابعة مساء. استدار برأسه وعقد حاجبيه. في عينيه سحابة عكرة. دخل قاطرة ميونخ، بعد أن سمح لمارك وبو وعدة مسافرين آخرين بالدخول قبله. ثم جلس قرب النافذة.

أخذ مارك والبولندي مكانيهما في الزاوية المقابلة بجانب المخرج، حتى يتمكنا من رؤيته. زعق القطار، واهتزت القاطرات. وقد خيل لمارك أن بارباش ضعيف البنية كأنه عظمة بشرية ناشفة. كان بارباش يغني بصوت خفيض. ذكر أحدهم من الرصيف كنية مارك الجديدة، فالتفت مارك بحذر ليرى سائق لازاريتش في هذا القبر البريميني البارد.

- ٣ -

كانت الثقة تعود لمارك متوافقة مع تسارع القطار. كان بو نائماً. وكان مارك منذ هانوفر قد غطى الجزء المشوه من وجهه وفمه ورأسه بطرف معطفه. اقترب اثنان من المرافقين ذوي الشوارب من بارباش، وكان يسيل من فم بو مزيج من اللبان والتبغ والشوكولا والسكاكر برائحة النعناع معاً.

تذكر مارك حكاية لازاريتش:

«اشتريت ستاش، بو، من صديقي البولندي وزميلي في معسكر التعذيب فيوتلد الذي يتبعه، بسبب خيانته، نصف جهاز المخابرات في وارسو بعد الحرب، في كل خطوة يخطوها. لهذا اضطر للذهاب إلى شيكاغو، وهناك قتل منتقماً رجلاً مهماً منهم، صحيح أنه روسي لكنه رجل على كل حال.

كلفني بو ١٠٠ مارك كاملة. أما فيتولد فكان قد حصل عليه هدية من بولندي آخر. ولا بد أن ستاش قد عاش في بولندا تحت الأرض لأنه يملك كل صفات وأخلاق عمال المناجم، فهو يحيّيك بطريقة مسرحية عند كل نزول لتحت، حتى لو كان ذلك لمتر واحد أو مترين تحت الأرض. الكلمة الوحيدة التي يمكنه نطقها بلسانه المشلول هي «بو» ولا أعلم أتعني لديه المشروب أم الأم أو الوطن؟! وأظنه كان مؤمناً قبل أن أشتريه وأبدأ بجلده بالسوط. حينما يخنق إنساناً أو يسحق عموده الفقري أو جمجمته بكلاباته ومخالبه، يفكر أنه قد قام بعمل جميل. ولقد وجدت له اسماً وكنية من أجل وزارة الداخلية: باندوروفسكي ستانيسلاف - بو».

كان القطار ينهب المسافات تجاه كاسل. وكان بارباش يدخن سجائر رخيصة. تذكر مارك كيف حصل على جواز سفر، وإجازة سياقة، وبعض الأوراق الثبوتية الأخرى من زرندورف.. من وقت لآخر كان يأتي إلى لازاريتش رجل خشن العظم، أسمر اللون، طويل القامة، من غرب صربيا، اسمه دراجو أداموفيتش. كان يعمل لدى لازاريتش حمالاً لإنزال أثقل الأشياء وتحميلها. ولم يكن بمقدور أحد أن يجاري بو بشرب الكحول إلا هو. وفي ميناء فورد كانوا يتذكرون أداموفيتش بالأغاني والصياح الآسيوي. وقد اضطر لازاريتش عدة مرات أن يشرح له ويجلده بحبل قنب مبلول أمام مارك وبو بسبب عصيانه.

«أبحث عن السعادة يا عمي لازاريتش» كان يصيح مستغيثاً.

«أفي ألمانيا؟ في الشمال؟» صاح لازاريتش، وهو يجلده. «كأنني أتاجر بالسعادة يا أولاد الكلب!».

كان أداموفيتش يهدأ ويرضخ ريثما تزول الآلام والورم. وقد وجده البولندي والسكين الفلندية في صدره وبطنه جانب القنال، هناك حيث كان يرمي التراب والحجارة والنفايات. سحبه ومدده بجانبه على السرير. كان أداموفيتش يموت طيلة اليوم التالي. فقال لازاريتش إن الوقت قد تأخر بالنسبة للطب، وإن العمالقة الجنوبيون مثل أداموفيتش قد كتب عليهم أن يموتوا معذبين، وأن يتفسخوا على مزابل الشمال.

«ولماذا بكى طويلاً؟» سأل مارك لازاريتش.

«أكد أنه ابن زنا» قالها لازاريتش بنغمة حزن كاذب، وهو يرفع عن الأرض أوراق أداموافيتش مضيفاً: «كان يريدني أن أتبناه وهو صاح،

وعندما يسكر يهجم علي بالسكين، وكان يتأتئ بأنه يفعل ذلك لتأكده أن أحداً لم ولن يبحث عنه!».

ولم يكن أداموفيتش قد سلم روحه كما يجب، ولم تبرد جثته، حينما حزمه بو مع الحجارة والآجر داخل كيس ورماه في سيارة الصالون. ساق مارك السيارة أكثر من نصف ساعة تحت المطر خلال السيول. وبعد عدة أيام استلم أوراقه الثوبتية مع صورة له ثبتت بإتقان في نفس المكان الذي كانت فيه صورة أداموفيتش سابقاً.

في الساعة العاشرة وخمسين دقيقة بالضبط توقف القطار في كاسل. استيقظ بارباش والغليون لا زال بين أسنانه، واتجه إلى النافذة. وبإشارة من قفازيه دخل إلى مقطورته رجلان: الأول سمين، باكستاني أو هندي، بلباس أوروبي، محني الظهر، وبيده حقيبة دبلوماسية. والثاني يوغسلافي، كانت مهمته كما لوحظ فوراً، أن يقدم السمين ذا الأسنان البارزة إلى رئيسه الجديد بارباش، وأضاف: والنجم الكبير.

غرّب الأسمر بعينيه، ووعد أنه لن يتأخر ثانية بإرسال صمغ الأفيون والحشيش، كما لن يتأخر بالدفع. ولم ينجح حتى موعد انطلاق القطار أن يلطف بشكل من الأشكال غضب وفظاظة بارباش الحذر المتعالي. كان يخفي الندبة الكبيرة بطرف شاله وياقته العالية، متخذاً وضعية معينة وهو يشيعهم إلى الباب ويعود لمكانه. ولم يعد رأسه الشبيه برأس الطير السابح في الدخان يبدو مشوهاً ولا بشعاً.

بدا كرأس إنسان معذب ضحكت له الأقدار منذ فترة وجيزة فقط تمزقه النشوة المفاجئة منذ زمن. أما الشخص اليوغسلافي الذي قاد الرجل الشرقي

المتراخي من يده كطفل مذنب آتياً به إلى مدينة كاسل فقد كان اسمه بوكودونوشا. جاء من زرندورف، وكان يعمل عند أحدهم. ومرة هجم على كولار بسكينتين. وكان دونوشا سلوفينياً من بلدة على حدود يوغسلافيا - المجر عمل لوقت طويل كغوريلا لرجل سلوفيني آخر اسمه يانس تروتلو، المعروف بين التجار بأنه لا يشتري إلا المنهمكين المهدودين المحذوفين من السجلات، والهاربين من الشرق. كان يداويهم على طريقته ثم يبيعهم. وكان يحلم بتكوين عصابة للسرقة يفرغ بواسطتها بنك شتوتغارت كله ويحوله إلى صحراء. وقد تبعه عدد من المجريين والألبانيين والقرباط والفلاحين وواحد تشيكي مريض بالصرعة. لكن أياً منهم لم يرغب أن يصبح غوريلا له. وهكذا تفرقت العصابة.

وقد عمل بوكود دونوشا فترة لحساب لازاريتش والتركي تاتا روغلو، كغوريلا للتركي، رغم أنه كان يرجو الجميع أن لا ينادوه بهذا اللقب. كان يصاحبه إلى الكراج في أوبرفيلاند حيث تقوم الفيلا التي اشتراها التركي لعمله السري الليلي. وبما أن دونوشا كان محني الظهر، مزرقاً ومكدوماً من القتل، فقد كان يقف وراء سيده وهو مستعد لتقطيعه بأسنانه.

وعندما شاهد التركي كيف يكوم مارك وبو القنابل البلاستيكية والأجهزة الجهنمية في القعر المزدوج المصنع داخل المرسيدس وسيارة اللورد الأمريكية ذات اللوحتين التركية واللبنانية، رمى للسلوفيني كروز سجائر وشوكولا وراحة الحلقوم. كان دونوشا يتلقف الأشياء دون إنزال يده عن المسدس الأوتوماتيكي الذي تشبث به ككلب. وهذا ما أضحك التركي ملا يوسف تاتا روغلو. كان يمكن للقعر المزدوج في المرسيدس أن يتسع، فيما لو انتبها، من عشرين إلى مئة مسدس فالتر عيار ٧٦.٥ ملم أو ١٠٠٠٠٠

رصاصة معلبة. وكان يمكن للسيارة الأمريكية كباخرة بذنب عتيق أن تتسع لـ١٥ رشاش براونينغ، إضافة لما يستوعبه القعر المزدوج والخزانات الخاصة من الطرفين وتحت المقاعد. وكان دونوشا يحترس ويحافظ على الماوسر الأوتوماتيكي خلف خصره، بينما يقوم بسحب الطرود الثقيلة والكبيرة حتى القنال. تلك الطرود التي كتب عليها: زجاج كريستال! احترس. وقد فقد مرة في القنال علبة تبغ تركية، بينما كان يصيح على مارك وبو «أيها البوسناويان!».

وذات مرة، بينما كان مارك وبو يكومان المسدسات الفالتر والرشاشات البراونينغ ويحملانها في أحد الكراجات المستأجرة بمدينة هوشتنيك، أطلق السلوفيني النار على بعض الخرفاتيين ليجعل من أجسادهم مناخل ظاناً أنهم مكدونيون. ثم اختفى. وقيل فيما بعد إن دونوشا قد أتم صفقة العمر في هامبورغ حينما اشترى وبسعر زهيد عشرين فتاة ألمانية شمالية وهولندية ودانماركية تتراوح أعمارهن من تسعة حتى ثلاثة عشر عاماً وباعهن لتاجر في السعودية. وقد ربح السلوفيني ثلاثة أضعاف ما ربحه بصفقة الأطفار الذكور البروسيين الشقر، وضعف ما ربحه بصفقة المعتوهين ومرضى الجذام والمصابين بالعنّة، الذين حصل عليهم بدون أية تعويضات حينما أحضروهم له من ألمانيا الشرقية. حتى ابتدأت تحاك حوله في عالم الإجرام وتحت الأرض في ألمانيا الحكايات والقصص الخرافية عن تلك الأموال والاختراعات الرهيبة.

وهكذا نسي الجميع، هذه المرة أيضاً، الخرفاتيين الذين أصبحت أجسادهم مناخل. وقيل إن الانتربول خلف دونوشا. لكن دونوشا المحترس دائماً، السريع أبداً، لم يقع في أيدي البوليس الدولي. «لقد اشتراهم»

قال لازاريتش. «ثم باعهم وربح فيهم مضاعفاً» صاح التركي متمماً، عندما استخدم مكان دونوشا رجلاً سلوفينياً آخر أرخص منه، مكدونياً اسمه سيمون ذو العين الواحدة.

- ٥ -

كان لازاريتش يملك مزرعة في بلو من فلد، تصل حدودها حتى نهر الفاسار.. فيها مجمع متكامل من الهنغارات والكراجات والمستودعات، وأبنية للسكن والعمل. ولم يكن الدخول إليها ممكناً إلا بعد تحقيقات عديدة واستجواب، وتفتيش أحياناً. كانت المزرعة مسورة مثل فيلا شواهاوس التي انطلق منها مارك وبو قبل عدة ساعات، بحائط سميك وأسلاك شائكة يوصل بها لازاريتش الكهرباء أحياناً

«لماذا يا سيد لازاريتش؟» سأله موظفو البلدية حينما جاؤوا للكشف.

«لتقتل الطيور النوردية النهمة». أجابهم، وهو متأكد أنهم لم يفهموا شيئاً.

وقد وظف لازاريتش شخصاً مسلماً فائق البشاعة من تيتوفو على المدخل ذي الحواجز الكهربائية قائلاً لموظفي البلدية:

«حتى يذكرني بأوسانبروغ، مخيم تعذيب السلوفينيين. فهموا قصده، وكانوا ضد ذلك، وهددوه بالقانون.

«أيها الألمان. أيملك ضحاياكم السلوفينيون الحق في اقتناء الكلاب؟» سألهم بصوت مرتفع قدر ما استطاع.

«الكلاب نعم يا سيد لازاريتش!».

وحتى ينتقم منهم بأقصى ما يستطيع، ويعكر صفو حياة سكان البلدة، اشترى لازاريتش عشرين كلباً ألمانياً ماركة «حارس الغنم»، وخمسة عشر كلباً بوليسياً، وخمسة عشر كلباً بأنف أفطس. وكان يطعمهم بنفسه أحياناً وينزههم ويهيجهم حتى يصل العواء الجهنمي لبلدة فيكيساك. وحتى أمسك موظفو البلدية رؤوسهم غيظاً. وكان لازاريتش يشرب نخب ذلك.

كان ملا يوسف تاتا روغلو أغلى شريك للازاريتش وأكبر متعامل معه. وكان من عادته أن يصل حوالي منتصف الليل بشاحنات البراد ماركة هنشل وحمولة عشرة أطنان. وكان العمال المناوبون يقودون الشاحنة المتجمدة حتى آخر هنغار بقيادة لازاريتش شخصياً، حيث يساعدهم مارك وبو في عملية الحمل والتفريغ. وكانت الخراف البيضاء تُنزل بصفوف إلى المستودع، فتشبه نفقاً طويلاً متجمداً. بينما تُعزل الخراف التي يشير إليها التركي بعصاه داخل سيارة صالون خاصة.

كانت الخراف المذبوحة والممهورة بخاتم مسلخ إزمير وختم شركة البلقان للاستيراد والتصدير تذهب من هنا إلى العمال الأجانب الأتراك والعرب في شمال ألمانيا والدانمارك والسويد. أما الخراف التي عزلت في سيارة الصالون فتذهب إلى غرفة خاصة، تلك التي كان يقف على بابها سيمون ذو العين الواحدة وإصبعه على زناد الماوزر، فيخرج التركي منها قطعاً ثقيلة ملفوفة بالسولوفان، ويسلمها للازاريتش، الذي يشمها بدوره ويرتبها ويسجلها. كان اللحم الذي استخرجت منه المخدرات يفوح برائحة بشعة، فيرمى أمام الكلاب دون تقطيع بأمر من لازاريتش: «حتى

يكون العواء أشد وأطول. وحتى يُسمع نباح حراس الجدران اليوغسلافية وكنوزها إلى بحر الشمال» يقول هذا معجباً بمنظر الكلاب وهي تتذابح.

كانت شاحنات البراد ذات اللوحات الإزميرية تصل تباعاً وتتكاثر، حتى أصبحت تصل مرتين أسبوعياً، حاملة في كل مرة أكثر من خمسين كيلو غراماً من صمغ الأفيون أو الحشيش. وكان لازاريتش يزنها ويسجلها ويسوقها بنفسه للتصنيع. وقد سجل مرة في دفتره بأن رجلاً شبه عار، حافياً، جائعاً حتى الموت، لاجئاً سياسياً أو هارباً على الأغلب، قد وقع من البراد، وقد امتلأ فكاه الفاغران وفمه وأنفه بالجليد. وحتى تلك اللحظة لم يكن لازاريتش قد فهم سر تلك الموهبة والقوة عند التركي، فسأله بشكل عارض:

«من يمكن أن يكون هذا الرجل المتجمد؟».

«بلغاري، بلغاري مقمّل!» ضحك التركي قائلاً، وطلب أن يُرمى هذا البلقاني الوسخ أبعد ما يمكن عن أغذيته المحملة للأتراك. وبإشارة من لازاريتش وضع مارك وبو البلغاري المتجمد في البراد الكبير، مع اللحم الذاهب للجزائريين. تلك الليلة أخرجا من بطون الخراف المذبوحة مئة كيلو غرام بالضبط من صمغ الأفيون، وخمسين كيلو غراماً من الحشيش بقوالب خضراء عليها خاتم وإمضاء والرقم ٩٩٩، مما يعني جودة النوع.

كانت شاحنات البراد تذهب بعد إنزال الخراف إلى القنال، حيث يلتقي تحت سقف الكراج لازاريتش وتاتا روغلو وسيمون ذو العين الواحدة فقط. وكان مارك وبو يفرغان القوالب من قعر الشاحنات، بينما يعمل سيمون ذو العين الواحدة على جهاز أوتوماتيكي موضوع جانب الشاحنة

فوق القنال تصل عليه فوق شريط متحرك القوالب والطرود المعنونة ببطاقة:

«زيت، بورسلان سهل الكسر!». ومع كأس من الشاي وبعض النكات القديمة كان لازاريتش وتاتا روغلو يراقبان كيف يتم ذلك الإفراغ الليلي.

كان من عادتهما أن يبدأا بالمسدسات التشيكية ماركة سكوربيون م عيار ٧٦٥ ملم. وكان مارك وبو يأخذان عدة مئات منها إضافة للذخيرة ويرتبانها في القعر، ثم يلحمان القعر بالأكسجين، ويدهنان المكان بالقطران للتمويه. ثم ينتقلان للمسدسات الروسية ستيشكين أ ب م (٩ ملم) قصير، بقبضة يمكن استعمالها كمحفظة له مثل مسدس السكوربيون.

«عدد الروس مثل عدد التشيكيين»[1] قال التركي وهو يشرق الشاي ضاحكاً من نكتته:

«والألمان ثلاثة أضعاف!». كانت الأسلحة الألمانية مسدسان أوتوماتيكيان ماركة هكلرو كوخ ف ب ٧٠ عيار ٩٠ مزدوج مع قبضة محفظة. وذكر تاتا روغلو بأن لا شيء يعيب الإيطالية أيضاً. وطلب الإسراع في تحميل كل سيارة بألف مسدس أوتوماتيكي ماركة ليركر عيار ٦.٣٥ ملم بفوهة واحدة، وماركة بيرتا بفوهتين، وماركة برينارديلي ٢٢ ل/ عيار ٧.٦٥٥ ملم. وكان هناك إنجليز وإسبان وسويديون، يعرضها لازاريتش ويرفضها التركي.

«لم أجربها بعد!» قال وهو يضحك.

---

1 - يقصد الأسلحة.

ثـم ينـتقلان مـن الأسـلحة الأوتوماتيكيـة إلى المـسدسات الرشاشـة م ب ماوزر، و ب م براونينغ، و ب م فالتر، ألف قطعة مـن كـل منهـا. هكـذا أمـر التركي ذو الساقين القـصيرتين، المتـشبث بكلاباتـه المـشعرة بالمـسبحة في يـد وفنجان الشاي بالأخرى. أما المسدس الرشاش البلجيكي ماركة عوزي عيار ٩ مزدوج، المعروف في ألمانيا باسم م ب ٢ فلم يكن ليعجب التركي جداً نظراً لصناعته بامتياز إسرائـيلي، لكنـه كـان يأخـذه لرواجـه بـصورة جنونيـة بـين القبارصة والأتراك واليونانيين المقيمين في تركيا. ولهذا أخذ منـه ألـف قطعـة. أما ماركة هكلر وكوخ أو ما يسمى ب م ٥ فكان مخصصاً لشبكات اسـتمبول وأنقرة وبيروت، فأخذ منـه ثلاثـة آلاف قطعـة. وحيـنما كانـا يـصلان لماركـة «تومي كان» عيار ٤٥ أ س ب «١١ ملمتر» يقفز التركـي الـشبيه بتولـوس - لاوروس بمسبحته وسيجارته الغليظة. وكان فعلاً في وضع الوقـوف أصـغر منه في وضع الجلوس. قطب حاجبيه لأن الشاي لم يكن مُحلى كما يجب.

كان يقول: «أما فلاحو الأناضول، وحراسي في مزارع الأفيون، فلم يعـودوا يذهبون حتى للتغوط بدون المسدس الرائع (تومي كان) موديل ٢٨!».

ولم يكونوا يكدسون المسدس الرائع (تومي كان) في القعر المزدوج فقط، بل وفي جدران برادات هنشل الضخمة، مع ذخيرته، والقنابـل البلاسـتيكية والديناميت، والجبنة والزبدة والعسل الذين كانـت شركـة التركـي إخـوان تـشتريهم مـن شركـة البلقـان للاسـتيراد والتـصدير وتـسحبهم إلى آسـيا الـصغرى، وكانــت توضــع الــذخيرة والإلكترونيـات وألبــسة الجنـود الاســكندنافيين ومحطـات الراديـو، والعديـد مـن الأسـلحة والوسـائل المخصصة للإرهابيين على يخت لازاريتش أولاً، ثم تسافر على قارب خـلال نهر الفاسار.

- ٦ -

في فترة ما صارت شاحنات البراد هنشل تصل بصورة أقل. كان لازاريتش يتنهد حين وصولها بحسرة. وكانت كميات الحشيش وصمغ الأفيون تقل داخل لحم الغنم. ولم يعد تاتا روغلو يأتي إلى لازاريتش مع غوريلا أو اثنين، بل كانت تصاحب سيارته الرولس رويز سيارة جيب مليئة برجال ذوي أبواز كالثعالب، وأجسام كالعمالقة. دون أن يحاولوا إخفاء فوهات أسلحتهم وسكاكينهم وساطور الجزار على خصر كل منهم، عن رجال لازاريتش. وقد حدث في تلك الغرفة الصربية، مع شاي لم يشرب بعد، الحديث التالي. وكان مارك قد وضع رشاش الماوزر على فخذيه مختبئاً في الغرفة المجاورة المعدة أصلاً للتنصت وتسجيل ما يدور:

لازاريتش: «لحم الغنم يقلُّ يا أرقداش».

تاتا روغلو: «أيام صعبة تمر».

لازاريتش: «فسرّ!».

تاتا روغلو: «يتوجه أتراكي السابقون الوسخون الذين كانوا كلحم الغنم الذي يأكلونه اليوم في ألمانيا لأكل لحم الخنزير، لأكل الصابون!».

لازاريتش: «أتراكك وأتراكي أيضاً يا أركاداش. لنساعدهم. كم مرة تحدثنا عن ذلك!. أما فيما يختص بحضارة ألمانيا وأوروبا عامة، فإن أولئك التعساء الآتين من آسيا الصغرى كأنهم لم يلمسوا. ليصحبوا بعد عودتهم من أوروبا الغربية إلى بيوتهم أتراكاً أبشع من الأتراك هناك!».

تاتا روغلو: «نعلم نحن الاثنين كم كان جهلهم ذاك مناسباً لنا. المهم أن نسبة الأتراك الذين يكتسبون العادات الغربية تدعو للانزعاج. إنها تزداد مقتربة من العدد واحد!».

لازاريتش: «كما تقل يا أرقداش نسبة ما يصلنا مع لحم الغنم. عالمك الأفيوني يشح، ومزارعك التي تعطي تتقلّص. حتى إن آخر صمغ كان من النوع الثالث. والحشيش مثله. بينما ترخص بضاعتي بالنسبة لك يوماً بعد يوم!».

تاتا روغلو: «وأنا لست الذي كنته يا صديقي. تأتي أجيال من الشباب الأسرع. كما أصبحت إزاحة الناس من طريقك اليوم أمراً أصعب».

لازاريتش: «أيمكنني أن أساعدك بأي شيء؟».

تاتا روغلو: «الأمل الوحيد لي هو الله!».

لازاريتش: «ألهذا وسعت جيشك الحامي؟».

تاتا روغلو: «نزل الوحي عليّ ليلاً وأمرني بذلك قائلاً إن الألمان سينتقمون مني بأي ثمن!».

لازاريتش: «يا أرقداش. لم يعد الألمان يقتلون. لقد أصبحوا اليوم بفضل الناس أمثالي وأمثالك مدمنين على المخدرات والسموم. لهذا لنتركهم بسلام ولو لدقائق».

أضاف وهو يأخذ بعض الأوراق: «أنزلتُ أسعار الجبنة والزبدة والعسل، ثم البضاعة الإلكترونية، وأسعار بعض الأسلحة والذخائر مع المتفجرات أيضاً. وهو ما أفعله من أجلك فقط».

تاتا روغلو: «سلحتُ نصف ليفانتنا»[1].

لازاريتش: «وهل تسمح أن يُسلح النصف الآخر أحد غيرنا؟!».

تاتا روغلو: «لقد توضح لي منذ فترة خطورة ما نفعله».

لازاريتش: «يعني لا تريد؟».

تاتا روغلو: «لا أعني أني لا أريد. لكنني لا أجرؤ!».

لازاريتش: «لم يفتش أحد أي شاحنة براد من قوافلك حتى الآن، ولن تفتش بعد اليوم. ألا يذكرك ذلك بشيء يا أرقداش؟».

تاتا روغلو: «قل».

لازاريتش: «وما الذي سنفعله بها أوصيت عليه؟».

تاتا روغلو: «أعطه لغيري».

لازاريتش: «لا يوجد لدي غيرك!».

تاتا روغلو: «إذاً دبر نفسك».

لازاريتش: «وإذا لم أدبر نفسي؟».

تاتا روغلو: «أغرقه في نهر الفاسر!».

لازاريتش: «احترس يا أرقداش كيف تتاجر بالرقيق الأبيض. الألمان حساسون حينما يتعلق الأمر بأطفالهم، وخصوصاً القصّر والشقر الذين باتوا صنفاً غالياً من أصنافك العديدة. إذا قبضوا عليك، أو حينما سيقبضون عليك، لا تذكر اسمي. نحن لا - ن - ع - ر - ف بعضنا!».

1- كل المنطقة الواقعة شرق المتوسط.

تاتا روغلو: «لم أقل إني لن أتاجر مع هذه الشركة الصربية العريقة، بالعكس..».

لازاريتش: «لندع الحكايات عن الشرق يا أرقداش! كلانا نمتهن حرفة يذهب من أجلها المبتدئون، أو كما تقول الشباب الأسرع، وراء القضبان!».

تاتا روغلو: «قد أكون مديناً؟ قل فقط».

لازاريتش: «وهل يوجد إنسان غير مدين للصرب!».

طال الحديث حتى منتصف الليل. كان التركي يرتجف. وبقيت قطعة الكاتو دون لمس، والشاي لم يشرب. وقد عرض لازاريتش عليه الصداقة ثانية، وتصفية ما بينهما. لكن التركي تظاهر بأنه لا يفهم ما يعني. وحتى عندما قال لازاريتش إن الخيانة أحطّ نصير، لم يتزحزح التركي. لكنه حينما ابتدأ يخبره أن أحدهما قد أصبح قاب قوسين من الرقم ١١، تشبث ملا يوسف تاتا روغلو بلحيته بصورة غريزية.

تصافحا طويلاً. وذكرا إضافة للرقم ١١، أرقاماً أخرى، عبرت أحياناً عن الألغام وثانية عن الخنازير السود بوردة بيضاء على جباهها. ثم ذهب التركي.

«أرقداش. أنت تخونني مع بارباش». قالها لازاريتش لنفسه حينما بقي وحيداً. وصاح يدعو مارك ليأكل ويشرب كل ما كان على الطاولة «في المرة القادمة سيكون لنا تصرف آخر يا ملا يوسف تاتا روغلو» قالها وهو يبتسم، ويضيف الزيت في القنديل الناعس الذي ينير بصعوبة تلك الجباه الغاربة للملوك والمنتقمين الصرب.

- ٧ -

كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف تماماً بعد منتصف الليل. وقف مارك بجانب النافذة ينظر إلى شبكة السكك الحديدية المبللة المتشابكة. خُيّل إليه أن القطار على وشك الوصول إلى محطة فرانكفورت، ولم يبق سوى عشرين دقيقة. لقد توقف عدة مرات مصدراً صوت الفرملة. ولم يكن على الرفوف أي شيء يمكن وقوعه، فالمقصورة فارغة ألا منه ومن بارباش وبو. كان بارباش يتأبط الحقيبة متعباً يدخن، ناظراً إلى الجهة ذاتها التي ينظر إليها مارك. وكانت محض أعجوبة لأنه لم يرملا يوسف تاتا روغلو.

كان التركي يقف مبللاً على خط السكة الحديدية، في مكان يبعد حوالي مئة متر عن مدخل المحطة الرئيسي. لم يكن خلفه أحد مما جعل مارك حائراً. وبينما كان القطار يفرمل مصدراً صوت احتكاك العجلات على السكة، داخلاً بمقدمته وهيكله ببطء تحت سقف المحطة، تمكن مارك أن يرى بصورة أوضح رأس التركي الضخم المنتفخ، وحقيبته الدبلوماسية، التي كادت تلامس الأرض.

تفحص مارك بهدوء كل المقصورة، ثم القاطرة والقطار. وأحس أن الدم يتدفق سريعاً في عروقه. لم يخرج أحد، كما لم يقترب منهم أحد. نظر إلى بارباش بعطف شديد. كان يشبه البومة فعلاً، وقد وضع أعداد ايسيدور كوزمينسكي المدهنة على صدره. اقترب بو بسرعة من بارباش. ارتجف مارك بهدوء. وهاجم (بو) ضحيته بسرعة وقوة كالبرق. سمع صوت تأوه مغلق وخافت، وارتمت أعداد كوزمينسكي وإصدارات السياسيين

والهاربين في برلين على الأرض، وقد انفتحت على الصفحة المنحوسة رقم ١١. لم يشخر بارباش، حتى خيل إلى مارك أن بو قد غير فجأة طريقته في القضاء على الضحايا. لقد أسدى لضحيته ضربات مميتة فورية. ولمدة دقيقة كاملة كان يفعل شيئاً ما بالجثة، وهو يموهها بظهره، يهزها ويفتشها. ثم حشر بو تحت معطف بارباش النمساوي بعض الصحف الصادرة في استمبول وإزمير، والعديد من الرسائل المكتوبة بالتركية، وبعض الملصقات والمناشير، وقائمة بأسماء بعض اليونانيين المحكوم عليهم بالفناء من فوق الأرض الألمانية، تماماً كما أمروه. لوح بعدها بالسكين عدة مرات.

كانت الصفحة رقم ١١ مدماة. اقتلع الحقيبة الدبلوماسية من يد الضحية وهمهم، ثم توقف أمام مارك.

لم يكن التركي على السكة الحديدية. ولم يستطع مارك أن يشرح ذلك لبو. سارا إلى الأمام، كأن شيئاً لم يحصل في المقطورة خلفهما. عندها رأى بو التركي، فأسرع. ارتجف مارك. كان التركي يشق طريقه بهدوء عبر الناس المزدحمين، حتى إنه كان يغني. ثم مر ملا يوسف تاتا روغلو بجانبهما وبيده الحقيبة الدبلوماسية.

حينما دخل تاتا روغلو في المقطورة ثم المقصورة الفارغة من المسافرين، انحنى بو أمام مارك ولوح بكلاباته. قصرت قامة التركي الملقب بتولوس - لاورس أكثر بعد أن ضرب من الخلف في نقرته. وللحظة غطاه بو وموهه بصدره وطرفي معطفه. كان العملاق القزم يفوح برائحة البول والغائط. انتزع بو منه شيئاً وكومه في صدره وجيوبه. كان ملا يوسف تاتا روغلو يعلك اللبان.

دخل مارك بالحقيبتين الدبلوماسيتين الثقيلتين مع بو إلى مراحيض المحطة في فرانكفورت. واضطر البولندي لغسل بقع الدم عن كمه، وأن يسرح شعره ويهدأ قبل أن يقفل مارك عليه باب المرحاض من الخارج.

نظر مارك بشوق كبير إلى بداية شارع كايسر اللماع، وهو يحس أن قلبه قد هبط إلى قدميه. تذكر نيكو ماراش وشاندور كولار، وتلك الأوقات عندما كان يجهل فيها كل شيء عن اللجوء السياسي والهروب وفلسفة الأرقام والعنف.

كان موعد انطلاق القطار الذاهب إلى كاسل وهانوفر وبريمن بعد عشرين دقيقة. اشترى مارك بطاقتين ودزينة من صحف ومجلات اللاجئين السياسين والهاربين، ومجلة التايمز، وذهب ليسحب من المرحاض أسعد وأكبر وأتقن جلاد في جمهورية ألمانيا الاتحادية...

- ٨ -

تلفن مارك يطمئن لازاريتش من المحطة أولاً. ثم جاء إليه. كان يقف بانتظارهما في الغرفة. اقترب منهما وضمهما بقوة، مثل تولوس - لاورس. وكاد بو أن يقع على الأرض من شدة القبلات على الجبين.

كان الوقت صباحاً، والبولندي يهتز.

قضى بو على كل المشاريب الموجودة على طاولة لازاريتش وكل السندويش وكل فناجين الشاي. ثم وقف يعد مكافأته. كانت: مسبحة التركي، ساعة جيبه الذهبية، محفظته المليئة بآلاف الماركات والشيكات،

مشرب سيجارة ذهبي، خاتمه، مسدسه نصف الأوتوماتيكي، مسدسه الثقيل ٤٤ ا ب م ٤٤.٠ ماغنوم ٩.٧٠ ملم. قفازاه المليئان بالشفرات، دفتر هواتفه وعناوينه، سكينه النابض، وأخيراً مجموعته من الصور الملونة للأطفال الذين كان قد اشتراهم لتوه، والفتيات الألمانيات والهولنديات القاصرات، وذكور تتراوح أعمارهم بين الثامنة والرابعة عشرة، مع قائمة بأسعارهم، واسم التاجر في آسيا الصغرى.

بعد القضاء على آخر ليتر من العرق، رتب بو على الطاولة: غليون بارباش الذي لا زال ساخناً، قبضته الحديدية المدببة المصنوعة خصيصاً لتوضع في الجزمة أو الكم، بيضة بارباش المسلوقة والملفوفة بكيس من السلوفان مع الملح، مسدسه العوزي مع خزانه بأربع عشرة رصاصة عيار ٩ مزدوج، صحفه السياسية المكتوبة بحروف جرليتسا، محفظة نقوده المليئة بالوثائق والرسائل والصور لرجال ألمانيين شرقيين مصابين بالعنة، ومعتوهين وعميان مهيئين للبيع، ساعة جيبه التي كان يحبها مع سلسلة من الذهب المزيف مشغولة في تريستا، منديله، الأثقال التي كان يستعملها لشد شاربيه وشعره وخصيتيه، أذنيه المشرئبتين الملفوفتين بأعداد من ايسيدور كوزمينسكي.

«بو. يكفيني أذن واحدة من البومة» كان لازريتش يقول لنفسه أكثر مما يقول لبو الذي كان يدخن. وأضاف، وكأن القاتلين الماحقين لأرواح البشر، المرهقين والمبللين لم يكونا أمامه، «وكم حدثتك أيها المسكين أن لا تدير لي ظهرك، أن لا تسرق مني الأتراك والأكراد والباكستانيين...».

- ٩ -

لم يكن جسد بارباش قد برد بعد، ولم يكن الدود في مقابر فرانكفورت قد نهشه، حينما ابتدأت محاولات القتل والهجوم تتوالى على لازاريتش. لقد انفجرت قنبلة هناك بجانب النافورة، مكان ما انطرح تومباس بالضبط، حيث يجتمع لازاريتش مع رجال الأعمال في تجاراته العديدة ومديري الأملاك المختلفين، لتنثر في الهواء كل الكراسي والطاولة المصنوعة من شجر السنديان. ولولا وجود مارك هناك لاستطاع رجل هرم، هيكل عظمي من أوسانبروغ ومشرد ما بعد الحرب، أن يفرغ في رأس لازاريتش كل خزان مسدسه «ماركة فيزا». تعرف لازاريتش إلى الفاعل. كان أحد أصدقائه القدامى في أكاديمية الجيش الملكي اليوغسلافي. أعادوا لآكل اللحم البشري هذا مسدسه «ماركة فيزا» وبداخله رصاصة واحدة داخل الحجرة. ثم اشتروا له بطاقة قطار في الدرجة الثانية حتى فينا، بعد أن دسوا في صدره بعض (الفراطة)، ولباساً دافئاً وأدوية. أفرغ هذا اللاجئ السياسي الهارب تلك الرصاصة الوحيدة الباقية في جبينه، في محطة ميونخ الرئيسية، بعد أن صاح بأعلى صوته: إ - ح - د - ى - ع - ش - ر - ة!!.

وقد يكون الرجل المنبثق من الظلام، الذي قذف نفسه على سيارة لازاريتش، هو دونوشا أو آخر شبيه به لكن سيارة لازاريتش المرسيدس كانت مصفحة، ذات زجاج مقاوم للرصاص وعجلات من الكومورام. وقد تفاخر القاتل بأنه لم يتسلح عمداً، وأنه يريد ذبح لازاريتش بأسنانه،

ذلك الحقير الخائن لزملائه من أيام الحرب وأيام الأسر، والقاتل الذي يمحي من على وجه الأرض كل منافسيه التجاريين بعد الحرب.

انقض مارك والسائق ليحميا لازاريتش. ومن اصطدامه بجسديهما، انعكس هذا المنتقم المنتحر ككرة لحمية. فأطلقت الغوريليات الباقية النار من مسدساتها في الظلام. وحتى هذه اللحظة لم يتوضح لديهم أربعتهم بعد كيف نجا المجرم وهو فاغر الشدقين. وقتها استوعب مارك كم كان بارباش مهماً، وكم هي المشاكل والمصاعب التي سببها قتله. ومنذ تلك الليلة توجب على مارك أن يرافق سيده المطلق في كل خطوة، ومسدسه الأوتوماتيكي ماركة هكلر وكوخ تحت إبطه.

وقد صدرت الأوامر لمارك أن يراقب كل حركة من حركات ضيوف لازاريتش المجتمعين هذه الليلة، مثل الليالي السابقة، للتباحث في أمور ليس لها حل، في تلك الصالة المستقيمة الزوايا، المصفحة المعدة للاجتماعات فوق الغرفة الصربية. كان ما يشبه اجتماع القمة، اجتماع الصرب الضائعين في الأوطان والقارات. كانوا ثمانية هذه الليلة إذا لم يحسب عدد المرافقين والسائقين والغوريليات. قال الرجل ذو اللكنة الدلماتينية: «منذ اجتماع القمة في العام الماضي اختطف الموت ثلاثة منا». كانت جدران غرفة الاجتماعات مزينة بالسجاد من الوطن وبسيوف قديمة، وخوذات نمساوية مثقوبة، وخناجر اغتصبت من الأتراك، وصور الأمير قائد جيش الجتنيك الشهير من الحرب العالمية الثانية، ورسومات شخصية لكل أفراد العائلة المالكة كاراجورجفيتش.

وكان القنديل مضاء أمام "الأيقونات المختلفة عن أيقونات الغرفة السفلية وقد تجمعت حول التاج الصربي الأعلام المهترئة من أيام الحرب مع الصلبان والتواريخ.

تباحث الرجال الكهول المرهقون الذين لا زالوا يحتفظون بهيئة رسمية وهامة، في محاولات اغتيال لازاريتش، الشارد المهموم، الذي برزت من خلفه في منطقة نصف مظلمة صور الحكام الصربيين الأبطال والمعلمين والكهنة. كان بين الكهنة قائد الجيش الملكي في الوطن المرحوم الجنرال دراجا ميخايلوفيتش، بنظارتيه التروتسكيتين وقبعته العريضة ولحيته الخفيفة. ووقف على الصورة الأخرى الملتقطة في الأكاديمية العسكرية في سانت كيرو، زميل دراجا في الغرفة والمبادئ شارل ديغول، الذي كان الشخص الوحيد غير الصربي في تلك الغرفة المكفهرة من الدخان وعلوم الغيب.

«أخي لازاريتش، أي موقف يجب اتخاذه بالنسبة لآخر المتغيرات في يوغسلافيا؟».

سأل المندوب الكندي ذو الأسنان المعدنية واليد الخشبية والعينين الفزعتين وأضاف:

«أتعرف يا أخي؟».

«لا أعرف».

«إذا نحن لا نزال على موقفنا المعروف، بأننا ضد الشيوعية والأخلاق والفوضى العامة التي سببتها الشيوعية وجلبتها، يجب أن نحارب بالمسيحية النظيفة الجديدة، أي بالأرثوذوكسية. ولا نزال عند موقفنا الذي اتخذناه قبل

خمسة عشر أو ستة عشر عاماً في مدينة بادشوارتو، نفس المكان الذي بنينا فيه تلك الكنيسة الكبيرة الضخمة، التي ستبقى مفتوحة ليل نهار للعمال الأجانب والفقراء والهاربين من الجنوب إلى ألمانيا الاتحادية». قال افرام راكان الرائد الصربي السابق، والآن صاحب مقهى ومعمل لصناعة النقانق، بصوته المتشنج. وأضاف وهو يدق على الطاولة بخواتمه ومخالبه ويشوح بعينيه: «ألا زلت تعتقد يا أخي لازاريتش أن فرانكفورت هي المكان الأفضل لمؤمنينا الصربيين كمركز مالي وحربي في ألمانيا الغربية؟».

«لا أعرف».

«إذا أنفقأت قرحة يوغسلافيا الحقيرة الملعونة، وكل الدلائل تشير بأنها ناضجة لذلك، فمن أي الجهات سنسارع لمعونة الوطن المجرد من دينه وحريته؟ أمن الجنوب من جهة اليونان؟ أم من الشمال من جهة إيطاليا؟ أم من النمسا؟ التي هربنا عن طريقها عام ١٩٤٥ ونحن نستنجد بالمسيح لحياة ملكنا بيتر الثاني؟ أنت غني وحكيم يا أخي لازاريتش. أرى فيك روح القديس سافا. لذا أخبرنا، وكن واثقاً بأن رأيك سيؤخذ في الاعتبار».

عرض الكاهن ستافرو الكيتش من شياغو والملقب بـ فاظر جيري على الموجودين صليباً ذهبياً ثقيلاً كان على صدره، ومسدساً أوتوماتيكياً «تومي كان» عيار ٤٥ أ س ب. كان فاظر جيري إنساناً ضخماً طوله متران بأنف كالنسر، وعينين انعدم فيهما الإيمان. توجه نحو شخص آخر متجاهلاً لازاريتش المتجمد المهدود من همومه، الواقف أمام القنديل. وكان الشخص الآخر ذا شاربين أشيبين معقوفين للأعلى، معتمراً قبعة من الجبل الأسود على رأس لا يناسبها، اسمه ماتولوباردا حالياً أرجنتيني ومرب للأغنام والثيران والخيول قال: «إخوتي، لقد أحضرت لكم مظلة».

- ١٠ -

انفتح الباب، وشاهد مارك، الواقف جانب لازاريتش كجندي في حراسة ليلية، أحد الغوريليات الذين كان يعرفهم قبلاً، من تلك الليلة في بريمن حينما صدوا دونوشا الهائج. أحس كأن الشمس تدفئه. انتصب لازاريتش بسرعة، وأعطى إشارة بأنه سيعود فوراً واتجه صوب الباب.

«من هو؟» سأل لازاريتش غوريلاه.

«قزمنا» قال الشاب وابتسم.

«آه، تاتا روغلو!» قال لازاريتش للغوريلا: «هاته لغرفتي».

توجه الشاب إلى المدخل الرئيسي. نزل مارك من السلم الخلفي للغرفة المعدة للتجسس، وأشعل المسجلات الثلاث كلها. واستطاع من مكانه رؤية غوريلا آخر ينزل من سيارة الرولس رويز ذات الأعلام التركية الصغيرة على مقدمتها، ليسحب تاتا روغلو ويحميه بالمظلة.

توسد الرشاش الأوتوماتيكي هكلر وكوخ حضن مارك. وتذكر كيف تمكن من تصوير اليد اليمنى للأب فاظر جيري بواسطة كاميرا خفية. لقد استغرق ذلك مع تعيير الضوء والعدسات، والبكاء على الشباب المسيحيين الأرثوذوكس والصربيين، أكثر من ساعة. كان بعضهم يفهق وينشج من البكاء «لم نكد نخرج نحن الصرب من الاستعباد التركي حتى وقعنا في شبكة السحر الكاثوليكي الأسود. وهاكم الدليل!» تابع الآخرون: «لو أننا من البروتستانت!».

كان البعض يغيبون عن وعيهم. امتدت اليد الفاقدة الإبهام فوق المخمل الأخضر على الطاولة، وتماسكت كي لا تسحب الرشاش الأوتوماتيك. وبينما كانوا يصلبون، تذكر مارك عمه بوداك والسكين التي بقيت في عنقه.

استراحت يد مارك على مخمل الطاولة، بعد أن عمل لكل منهم عشر صور على الأقل. رددوا أنه من المستحسن نشر الصور في كل الصحف الصربية الصادرة في العالم الحر، وأن يكتب تحتها: كيف ستنتقم هذه اليد المشوهة الذليلة؟

فكر مارك بوالده، وتحول حزنه إلى غضب، والغضب إلى كراهية لم يستطع التحرر منها. كان يود أن يقتل، أن يغرس السكاكين في رقاب بشرية، ثم يتركها هناك.

خمشوا خدودهم، ندبوا، تشنجوا ونشجوا، كانوا يقبلون أيقونات لازاريتش وأحياناً يقبلون الأرض. كانوا يستغيثون بالقديسين الأرثوذوكس، بالإله.

ثم تحولوا إلى الهجوم والإنزال في يوغسلافيا. وقالوا إنهم سيهجمون من الجبال والأنهار، ليفتحوا عيون الشعب. سيسيرون رافعين الأعلام مع الصلبان أمامهم وهم يغنون.

كان الكاهن الكسيتش يردد معظم الكلام بصوته كهدير المحرك مضيفاً:

«وعندما يفتح السرطان اليوغسلافي النتن، ويتنفس الشعب الهواء النظيف والحرية، لحظتها فقط يمكنه أن يقرر مع من يريد أن يكون..».

- ١١ -

تظاهر تاتا روغلو بالارتياح وهو مضروب، مزرق ومنتفخ، ينتع حقيبته الدبلوماسية الجديدة ومسبحة في يده. جلس في المقعد الفخم. وحتى يعطي الحديث سمة خاصة، قال إن هذا المقعد الضخم مخصص له منذ خمسة عشر عاماً. أما المضيف فقد صب الشاي لاثنين.

تاتا روغلو: «يا صديقي لقد وقعت في محنة كبيرة. ولو أن أحداً غيري كان في موقفي لأطلق النار على نفسه في صدغه، أما أنا فكما ترى أشرب الشاي كأنني أشتهيه!».

لازاريتش: «علمت يا أرقداش بما حصل منذ تلك الليلة. من أول لحظة!».

تاتا روغلو: «أتعرف على الأقل ما حصل؟ أم ما ذكرته الصحف فقط؟».

لازاريتش: «كل شيء!».

تاتا روغلو: «إذا كيف يمكن أن تسير الأمور بيننا، أنا وأنت؟».

لازاريتش: «كن واضحاً».

تاتا روغلو: «أنت بدون وطن، بدون أصدقائك من أيام الحرب والأسر، بدون رفاق. وأنا بدون وثائق!».

لازاريتش: «لا يدور الحديث اليوم عني وعن وحدتي، بل عنك وعن العلقة التي أكلتها».

تاتا روغلو: «سرقوني!».

لازاريتش: «بإمكانك أن تدفع ثمنه وتأخذه».

تاتا روغلو: «لا أعلم من أين أبدأ. لمن أتوجه وكيف. يحتلني اليأس والحزن».

لازاريتش: «ماذا قلت للبوليس؟».

تاتا روغلو: «أهرب منهم كما يهرب الشيطان من الصليب!».

لازاريتش: أرقداش، احمد الله لأنك لست في سواد القبر. رأفت بك الأيدي التي قضت بوحشية على بارباش، رجلنا الفقير العاقل، وتركتك تعيش أياماً معدودة».

تاتا روغلو: «آه كم أتمنى لو كنت محظوظاً وانتهيت مثل بارباش!».

لازاريتش: «لا ترتجف. كل ما أخذ منك هو عندي!» قالها حذراً وهو يبعد فنجان الشاي.

توجه إلى الطاولة، وأخرج بعض الأشياء من الخزانة الحديدية. كان صوته هادئاً جداً، مسطحاً بل وذكياً: «أرقداش هذه حقيبتك الدبلوماسية الزرقاء المعروفة بإشارة الهلال والنجمة، ومحفظة نقودك من جلد الثعابين الآسيوية السامة مع آلافها النقدية التي لم تمس، والشيكات مصحوبة كلها بالإيصالات والوثائق التي تدين».

تاتا روغلو: «أية إدانة؟».

لازاريتش: «وهذا مسدسك الرائع ٤٤ أ ب م عيار ٤٤. ٠ ماغنوم، لكن بدون رصاص. كي يمكنك أن تعيش هذه الليلة البريمينية الغائطية. وجواز سفرك، وجواز سفر الرجل اليوغسلافي، الذي إذا صدقت فراستي، مات

منذ عامين. ومجموعة صعور الفتيات المراهقات الألمانيات الجميلات، والذكور، رقيقك الأبيض. وهذه صور بأحدث تاريخ: تبدو على إحداها أنت مع الباكستاني الذي باع وروّج لك أكثر من مئة كيلو غرام من صمغ الأفيون في الشهر الماضي وحده. الثانية أنت مع بوكو دونوشا الذي لا زال وللمرة الثالثة يؤرقني. على الثالثة أنت مع بعض الأكراد أو العرب لا أعلم! وعلى كل منها بارباش الهادئ المؤمن الذي يخاف الله مع أعداد أيسيد وركوزمينسكي، وهذه البطاقة الملعونة المدماة. إن أكثر الصور أخذت في حقل الرمي: أنت ملا يوسف تاتا روغلو والمرحوم بارباش، مع المجرمين الملونين من الشرق الأوسط وآسيا الصغرى وشبه جزيرة الهند، تجربون الأسلحة. لقد وصلتم كما أرى إلى البازوكات وقاذفات اللهب. وكله من خارج شركة البلقان للاستيراد والتصدير!».

تاتا روغلو: «هل تريني الصور أم تعيدها لي؟».

لازاريتش: «يمكنك أخذ جواز السفر والخاتم ورسائل زوجتك بدون تعويض».

تاتا روغلو: «والباقي؟».

لازاريتش: «الباقي سأتصفحه بهدوء في ساعات فراغي».

تاتا روغلو: «إذا لم يكذبني حدسي فالباقي هو نثريات لا قيمة لها».

لازاريتش: «أرقداش حتى تعرف كل ما كان في جيوبك وصدرك وحقيبتك الدبلوماسية، أعطيك فوتوكوبي». يقترب منه لازاريتش ويريه: «هذا كيف كنت تخبر بارباش بأنك أحضرت له مئة كيلو غرام من صمغ الأفيون، ونفس الكمية من الحشيش في قوالب، وثلاثة برادات هنشل مليئة بلحم الغنم. أعرف متى حصل ذلك! ألم يحصل حينما كنتُ أنتظرك بفارغ

الصبر؟. على الورقة الثانية، - لماذا لا تقرأ بصوت مرتفع؟ - يخبرك بارباش أنه هيأ لك ٢٠٠٠ روسي - أقصد مسدسات ماركة ستيشكين - وتشيكي، أقصد مسدسات سكوربيون، وإيطالي، أقصد مسدسات ليركر. تجيبه أنك استلمت البضائع المذكورة، إضافة لأسلحة ماركة فالترومازور أبوريتا. ومني لم ترغب بشراء أية بضاعة إيطالية!. ولم تختلفا وتتبارزا! من أجل المراهقات الألمانيات الشماليات والاسكندنافيات، ولا من أجل الأولاد البروكسيين الشقر. أعلم أن لأطفال بارباش سوقاً رائعة في بيروت والكويت وبغداد، وأنهم كانوا أغلى من المعتوهين الألمانيين الشرقيين الذين حصلت عليهم من بوكو دونوشا!. حلمتما، أنت والمرحوم بارباش، بتصنيع صمغ الأفيون، وبحثتما عن صيدلي لذلك اسمه فينيتا، دون أن تعلما أنه ينام منذ خمسة أشهر في أحد سجون بافاريا!».

تاتا روغلو: «كلهم مخطئون، وأنت الملاك!».

لازاريتش: «لا يوجد طريق ولا دليل يقود إليّ. لا أبحثُ، وبخط مكتوب، عن أي صيدلي اسمه فينيتا، ذلك التشيكي المخادع اللاجئ السياسي! هيا أثبت عليَّ أي شيء!».

تاتا روغلو: «وكيف حصلت على كل ذلك؟».

لازاريتش: «حينما هجم عليكما المجرمون في ميونخ، أنت وبارباش تلك الليلة، كان يتبعكم شرطي. كان يبحث عن الباكستانيين! وحينما اختفى اللصوص والقتلة الذين قاموا بالاغتيال هاربين في قطار فينا، أخذ الشرطي من بارباش الميت ومنك أنت المقطع المشوّه كل ما رآه هاماً ومفيداً للتحقيق والمحكمة. وبما أن الشاب يعمل لحسابي منذ زمن طويل هو وآخرين كثيرين غيره، فقد عرض عليَّ كل هذا الصيد الثمين مقابل عشرة آلاف

مارك فقط. أعطيته الضعف، دون أن يرف لي جفن. ليس بقصد إخفاء جثة اليوغسلافي عن رجال الأمن، بل أكثر من ذلك، لأحمي صديقي التركي من المحكمة والعقاب الشديد، أنت. ألم تصبح مديناً لي بعد كل هذا أمام الله والناس؟!».

تاتا روغلو: «لا أملك الكثير الآن».

لازاريتش: «ستعوض بلحم الغنم والحشيش ودموع الأفيون!».

تاتا روغلو: «وبأي شيء آخر؟».

لازاريتش: «ستشتري!».

تاتا روغلو: «وإذا لم أرضخ؟».

لازاريتش: «ستنام في السجن سنوات طوالاً، حتى تنسى إنك قد عشت في الحرية أبداً!».

تاتا روغلو: «أي شيء يدينني أكثر؟».

لازاريتش: «البلغار».

تاتا روغلو: «أي بلغار؟».

لازاريتش: «البلغار الميتون! أولئك من برادات الهنشل!».

تاتا روغلو: «مَنْ مِنَ الناس في هذا العالم لا زال يهتم بالبلغار النتنين المقمّلين اللاجئين السياسيين والهاربين؟!».

لازاريتش: «أنا يا أقدارش!».

تاتا روغلو: «أين هم؟».

لازاريتش: «ها هم يحتجّون عليك من الجليد، هم تسعة وعشرون بالعدد!».

تاتا روغلو: «أي جليد؟ جليد من؟».

لازاريتش: «جليدي أنا!».

تاتا روغلو: «أمن المعقول أنك لا زلت تحتفظ بهم؟».

لازاريتش: «بل إنني أزورهم. أحمل لهم الشاي. أتحدث معهم. أسألهم كيف يعيشون في الغربة؟ وهل يكتبون الرسائل لأهلهم في الوطن؟ يجيبونني: نريد رأس التركي!».

تاتا روغلو: «وماذا يعنون بالنسبة لك ما دمت تحبهم هكذا؟».

لازاريتش: «الذكرى يا أرقداش. الذكرى لك وللسنوات التي كان فيها ثقة بيننا، حينما لم نكن نخون بعضنا مع بعض المغامرين».

تاتا روغلو: «آه».

لازاريتش: «ملّا يوسف، لا زلت أذكر فرحتك الطفولية. لم تكن تخبئ عني شيئاً. كنت تحكي لي عما تفعله مع البلغار، أولئك الفقراء اللاجئين السياسيين والهاربين وهم يملؤون براداتك الهنشل الضخمة بلحم الغنم، وكيف تغلق الباب وتأمرهم أن يضعوا الرصاص على الأقفال. لقد أهديت المرحوم بارباش ثلاثة منهم، امرأتين وطفلاً. هكذا تقول إحدى رسائله. لكن بارباش لم يملك حتى الآن جليده، لهذا تفسخت أجسادهم وتعفنت في أقنية الصرف الصحي لمدينة بريمن».

تاتا روغلو: «مساكين هؤلاء البلغار... مساكين! كانوا من أجل قشرة خبز تركية، من أجل سقف فوق رؤوسهم، يجرون ويحملون وينتعون عندي ليل نهار. كانوا عبيدي، كانوا عبيداً أبشع من أجدادهم الذين حكموا أجدادي. كنت أبيعهم وأشتريهم، وأحياناً أستبدلهم بالمواشي،

ببضائع أخرى. كنت أفعل بهم كل ما أريد وما أستطيع فعله. كانوا مسرورين جداً في مهزلتهم هذه وفقرهم وعذابهم. «سنقبّل رجليك، نلحسها ونغسلها» كانوا يقولون وهم يبكون «فقط لا ترسلنا إلى الوطن الأم!». كانت إزمير مليئة بهم، وكان الناس يبصقون عليهم وهم حفاة مهلهلون كالمجاذيب. وكان مسموحاً لمن يشاء أن يرمي بلغارياً في البحر. أما أسعارهم فرخيصة جداً تستطيع القول إنه لا سعر لهم!».

لازاريتش: «لهذا سيكون سعرهم غال هذه الليلة يا ملّا يوسف!».

تاتا روغلو: «ساعدني يا صديقي! كن رفيقاً، كما كنت حينما بدأنا من لا شيء، وعندما كان كل حجر عثرة!».

لازاريتش: « وحينما أقسمنا لبعضنا على الوفاء».

تاتا روغلو: «يا صديقي، لنبدأ كل شيء من جديد! ولن نسمح لأي كان أن يدخل بيننا! سنقتل كما كنا نقتل وقتها».

لازاريتش: «من ق – ت – ل – تُ يا أرقداش؟!»

تاتا روغلو: «لنحافظ على الأتراك من أوروبا ومن الصابون الألماني! لننسَ كذب البلغار وخداعهم! سلّح أنت البلقان وآسيا الصغرى والشرق الأوسط.. حتى الباكستان والهند! وأنا سأنشر الروائح الكريهة للحم الغنم والشحم والدهن والجلود. سأسمم كل جمهورية ألمانيا الغربية والدول الإسكندنافية وهولندا بالمخدرات، وأشوههم كلهم، أقصد أولئك الذين لا زالوا يحتفظون بشكل آدمي!».

لازاريتش: «هل أفرغت البرادات الهنشل التي كنت قد خصصتها للمرحوم بارباش؟».

تاتا روغلو: «إنها بانتظارك أيها الرائد!».

لازاريتش: «كم عددها؟».

تاتا روغلو: «خمسة من ذوات عشرة الأطنان وستة من ذوات العشرين طناً. أحد عشر! في كل منها خمسون كيلو غراماً من صمغ الأفيون، (صنف أول). والحشيش سيصل في الأسبوع القادم».

لازاريتش: «وأين هي؟».

تاتا روغلو: «أول ستة في هامبورغ. الباقي في براكو، والدنبورغ، وفيل هلم شافن».

لازاريتش: «وكم بلغارياً بداخلها؟».

تاتا روغلو: «ولا واحد. تصور!».

لازاريتش: «وكيف ذلك يا أرقداش؟».

تاتا روغلو: «لم أحمّل البضاعة بنفسي. والغوريليات لا يعرفون حتى الآن أحب شيء إليّ».

لازاريتش: «أيمكن جلب البرادات فوراً لبريمن؟».

تاتا روغلو: «كيف لا يا حضرة الرائد!».

لازاريتش: «أريد أن تسير أنت شخصياً وراء كل براد، وأن تدخلها تحت سقف شركة البلقان للاستيراد والتصدير وأنت بسيارتك الرولس رويز!».

تاتا روغلو: «كأنك لا تعرف أن قدمي لا تصلان إلى مداس البنزين وأنا في وضع الجلوس!».

لازاريتش: «أرقداش. مذكور في إحدى رسائلك أن هذه الوجبة من إحدى عشرة ناقلة مدفوعة القيمة».

تاتا روغلو: «لم يكن المرحوم بارباش يحب الدين!».

لازاريتش: «وأنا الآن لا أرى موجباً..».

تاتا روغلو: «وليكن هذه المرة أيضاً كما يريد الصربيون!».

لازاريتش: «لماذا لم تقل لي فوراً إن الثمن مدفوع؟».

تاتا روغلو: «كنت سأقول الآن!».

لازاريتش: «تخادع ثانية!».

تاتا روغلو: «كيف يمكنني أن أعيد الثقة؟».

لازاريتش: «بالشراء».

تاتا روغلو: «أؤمر يا حضرة الرائد. أسمعك وأحفظ وأدون!».

لازاريتش: «أرقداش، ما عدا المسدسات، ستشتري ١٠٠٠ قطعة ماركة (وان ويسون كولت) عيار ٣٥٧ ماغنوم. و٢٠٠٠ قطعة ماركة (كولت دتكتيف خاص) عيار ٩ ملم. و٣٠٠٠ قطعة (كولت مانش أوفيترس). وكلها تستوعب في خزاناتها ست رصاصات. إنها مثل البنادق!».

تاتا روغلو: «ليس لها سوق».

لازاريتش: «مهمتي أن أوفرها لك، ومهمتك أن تدفع وأن تسوق».

تاتا روغلو: «لا أحد يريد مسدسات بخزانات دوّارة».

لازاريتش: «ملّا يوسف، كم مرة حدثتني أنك تسيطر من إزمير على كل ليفانتا، وأن كل شيء تحت أنفك، وبإمكانك أن تبيع كل ما يُطلق وكل ما يقتل! وأذكر كيف ضحكنا حينما شرحت بأنه لا يوجد كردي أو تركي أو عربي لا يرغب بامتلاك مدفع سويسري صغير خفيف لا ينتر إلى الخلف!».

تاتا روغلو: «كثير عليّ».

لازاريتش: «الكثير هو عندما يضربونك فقط».

تاتا روغلو: «أكل هذه البضاعة؟».

لازاريتش: «اشترِ، ثم دبّر نفسك!».

تاتا روغلو: «وإذا لم أدبر نفسي؟».

لازاريتش: «أغرق نفسك في البوسفور».

تاتا روغلو: «حسناً سأقذف نفسي في البوسفور».

لازاريتش: «ستكون البنادق الهجومية اكتشافاً رائعاً لشعبك في آسيا الصغرى، للإرهابيين الباكستانيين الجدد. يتسع السلاح البلجيكي (الناتو فان) والملقب بملكة الجمال في خزانه لـ ٢٠ طلقة عيار ٣٠٨ خذ ٢٠٠٠ قطعة!. الألماني (هلكر وكوخ جـ ٣) ليس أسوأ من البلجيكي خذ ٢٥٠٠ قطعة!. الروسي (كلاشينكوف أك ٤٧) يتسع خزانه لـ ٣٢ طلقة عيار ٧.٦٢ ملم وله عند الملونين سوق رائجة وخاصة خذ ٥٠٠٠ قطعة!. بالنسبة للسلاح الروسي فالذخيرة لا تصنع في بلجيكا وسويسرا فقط بل وفي يوغسلافيا التي تمر منها كثيراً. السلاح الأميركي من فيتنام المشهور باسم م ١٦ عيار ٢٢٣ خذ ١٠٠٠٠ قطعة. هذا السلاح العجيب والغريب يطلق ١٠٠٠ رصاصة في الدقيقة!. وعلى ذكر الأمريكان، ستشتري عدة مئات من بنادقهم الأوتوماتيكية ماركة ستوفر وتحصل معها على ذخيرة من الفيتنامية م ١٦. والألماني م جـ ٤٦ ليس أسوأ منها خذ ٢٠٠٠ قطعة. كل الأسلحة الأوتوماتيكية لها منظار قناصة، حتى لا يتعب رجال قناصتك السود أعينهم! وها نحن وصلنا إلى البازوكا وقاذف اللهب، كبداية خذ ١٠٠ قطعة من كل منها. وليذهب كل هذا إلى الجنوب مع الجبنة الدانماركية والزبدة الهولندية، ومع الرقيق الأبيض، الألمانيات القاصرات، والعسل!».

تاتا روغلو: «ولماذا كله دفعة واحدة؟».

لازاريتش: «لدي عذري!» لم يكن في صوته نغمة تهديد «متوفر لـديَّ يـا ملا يوسف!».

تاتا روغلو: «لم أخف في حياتي خوفي الآن».

لازاريتش: «كلما أكثرت من الشراء قـل الخطـر. كـم مـرة أفهمتـك أن الذين يقعون هم المبتدئون، الخونة، ثم الذين لا ينصاعون».

تاتا روغلو: «لم أرتجف في حياتي هكذا!».

لازاريتش: «سأكون خلفك!».

تاتا روغلو: «عجيب أنك لا تعرض أشياء أخرى».

لازاريتش: أبيعك لسيارتك الرولس رويز محطة راديو اسـتقبال وإرسـال مع جهاز للشيفرة ولفك رموز الـشيفرة. وهكـذا سـتعرف دائـماً، إن كـان في رأسك عقل، متى يكون البوليس في إثرك أو ينافـسك، أو أي رجـال عـصابة يتبعونك. كما لا أسمح أن تكون سيارة رجل صديق هام مثلك بدون هـاتف، بدون تلفاز! سيركب لـك عـمال الكهربـاء كـل هـذه الأشـياء غـداً. بعـدها ستشتري راداراً ليختك الرائعة في إزمير، يكون راداراً من النوع الذي يستطيع البحث عن رادارات أخرى وتعطيلها. ماذا تـشكل بالنـسبة لـك عـدة مئـات الألوف من الماركات، أنت الذي بقيت حياً، والذي لا تزال ثانيـة تقـف عـلى قدميك إضافة إلى أنك حر، وما دام الأمر يتعلق باليخت والنعيم؟!».

تاتا روغلو: «وما شأني بكل هذه الآلات إذا كنت لا أكاد أعـرف كيـف أدير قرص الهاتف...».

لازاريتش: «ا - م - ل - ك... املك!».

تاتا روغلو: «ما دمت مضطراً لشراء كل ذلك وتوزيعه حسب معرفتي وفني، فلن أنس عدة أطنان من أقوى المتفجرات وأكثرها دماراً، خصوصاً الديناميت والقنابل البلاستيكية! وهذا لن أرميه في البوسفور ولا في البحر الأسود. إن هذا الـ ت. ن. ت مخصص لوطنك يوغسلافيا!».

لازاريتش: «يوغسلافيا وطني بقدر ما هي وطنك يا ملا يوسف، بل هي وطنك أكثر مني، تسافر من خلالها وتوسخها».

تاتا روغلو: «سأنسف لك بلغراد في الهواء، فويفودنيا، شوماديا، كل صربيا الـ - م - ق - د - س -ة!».

لازاريتش: «أرقداش، بالنسبة لي، اغرق واخنق واذبح هناك في الجنوب كل ما تصل إليه يدك وتستطيع إمساكه. فقد أصبح واضحاً لي منذ زمن أن الصربيين بدون ملك مثل الروس بدون القيصر، بدون رأس، حيوانات لا تستحق شيئاً أفضل من الـ ت. ن. ت. لتركي مثلك. لكن احترس: إذا لحقوك فلن تفلت منهم ولو كان تحتك مئة رولس رويز!».

تاتا روغلو: «وماذا سيكون من أمر وثائقي وأوراقي؟».

لازاريتش: «سأعطيك إياهم ورقة بعد ورقة».

تاتا روغلو: «مئة عام؟».

لازاريتش: «مئة عام!».

تاتا روغلو: «ولماذا كل هذه السرعة؟».

لازاريتش: «ينتظرني ضيوف هامون فوق، مسيحيون! لم أعد أملك وقتاً لك، ولا أنت تملكه يا ملا يوسف».

تاتا روغلو: «أنا أملك الوقت».

لازاريتش: «كيف تملكه وأنت مضطر لتكون قبل الفجر على الأوتوستراد؟ ستصل اثنتان من الشاحنات البراد ذات العشرين طناً. إذا لم تحرف مسارها إلى بريمن فإن دونوشا يا أرقداش أو أي أحد من عصابة بارباش سيقودها إلى الشمال!».

تاتا روغلو: «وهذا تعرفه أيضاً؟»

لازاريتش: «لماذا لم تخبرني عنها بنفسك؟ تخادع ثانية!».

تاتا روغلو: «سأحرفها. في الأولى خمسون كيلو غراماً من دموع الأفيون. وفي الثانية سبعون».

لازاريتش: «بدل المدافع الصغيرة الخفيفة السويسرية بدون نتر!».

تاتا روغلو: «وماذا سنفعل مع البلغار؟».

لازاريتش: «لا أعلم يا أرقداش فجأة قفز سعرهم».

تاتا روغلو: «كيف لا تعرف... ما الذي ستفعله بهم؟».

لازاريتش: «حسناً سنضعهم في درجة تجمد أقوى، مع لحم الغنم المخصص للجزائريين!».

تاتا روغلو: «يا حضرة الرائد، يا سيدي الرائد، أتريدني إضافة لكل هذه الشعوب أن أحلم بالبلغار الملعونين؟».

عندها رأى مارك كيف مدَّ لازاريتش يمناه، ناسياً أن يخفي الدموع بنظارته السوداء. أخذها تاتا روغلو مصافحاً. ولكان تركها، كما أخذها، لو لم يقربها لازاريتش من شفاهه السمينة الناشفة من الخوف.

نظر التركي إلى الأعلى عبر خواتم لازاريتش. هناك حيث أضاء القنديل منيراً الوجوه العابسة للقادة الحربيين والملوك والكهنة. انتظر تاتا روغلو.

لكن عيني الرائد كانتا تأمران. وبتلقائية نظر تاتا روغلو، وهو يقبل اليد، هل يراه أحد آخر، إضافة للكهنة. وفكر مارك أن التركي لم يكن مضطراً للانحناء باحترام بعدما قبلها. وشاهد كيف اجتمعت الغوريليات فوراً وبأيديها معطف التركي من جلد النمر.

أدخل تاتا روغلو رأسه في القبعة الروسية الكبيرة كقبعة الدكتور جيفاكو، وسار خلف غورلياته.

- ١٢ -

«يا إخوتي، لم أعد متردداً. أنا مع فكرة بناء الكنيسة!» صاح لازاريتش وهو يقفز داخل صالة الاجتماع يتقدمه مارك.

كانت المظلة الأرجنتينية «ماتالوبارد» مفرودة على الطاولة والكراسي والأرض. وقد سجد عليها ماتا بدون قبعة مع ثلاثة آخرين يشخرون. أما الأربعة الآخرون فكانوا مشغولين بلعب البوكر. كان فاظر جيري أكثرهم اهتماماً باللعب واضعاً مسدسه «تومي كان» بجانب كومة الدولارات. ورغم يقين لازاريتش أنه لن يسمعه قال:

«يا إخوتي، فرع فرانكفورت موافق على بناء الكنيسة الأرثوذوكسية».
كان الورق يتناثر.

«يا إخوتي، كنيسة القديس سافا سيبنيها لنا، صدقتم أم لا، واحد ت - ر - ك - ي!».

الفصل العاشر

لكل أوديسته.
اهرب إن لم يكن لديك بيت.
عزيزي (بو) المسكين.
ماذا سيحصل للصليب السينائي؟

«لازاريتش، أصبح واضحاً لديك أنني سأقتلك الليلة؟».

«أرى يا مارك. أعلم أنك لا تلبس قفازيك هباء. هادئ أنت، جليدي، كما علمتك».

«غريب. حينما كنت أربطك بهذا الكرسي الثلاثي لم تتحرك، ولم تتفوه بكلمة. كيف؟».

«ما دمت قد أوقعتني أرضاً وبدأت تربطني بالحبل، قلت لنفسي: ابن الزنى هذا، الغاضب، لا يمزح. لماذا لم أقاوم؟ كنت أريد مساعدتك هذه المرة أيضاً!».

«كيف يا لازاريتش؟».

«بأن أكون هادئاً. ولن تضطر، كما اضطررت في مرات كثيرة سابقة أن تشهر السكين أو البلطة. ولتبق لك أيها الجرو البلقاني الوسخ ولو جريمة واحدة على الأقل كذكرى جيدة في ألمانيا. هذا ما قلته لنفسي حينما كنت تنتزع أسلاك الهاتف، وتتأكد من الأقفال وتبحث في القبو».

«لازاريتش لو كنت مكانك لاستغثت».

«أتيت يا مارك في الوقت المناسب! نحن في البيت وحدنا، إذا لم نحسب (بو) الذي يحتضر. لدى غوريلياتي ليلة عطلة، تشرب، وتعهر في الميناء. نحن الآن بدون اتصال مع العالم الخارجي فلماذا أستغيث؟ كم مرة قلت لك إنني لا أريد الموت فاغر الفم، بشعاً ومتعرقاً».

«لازاريتش. تتكلم وكأنك تعرف كيف وبأي وسيلة سأقتلك».

«أثق بذوقك يا ابن الكلب، بخبرتك. مؤمن بأنك إنسان لن يعاد!».

«وماذا ستجني من كل ذلك يا لازاريتش؟».

«ستجني أنت أيها القواد! أنت الذي لا تملك شيئاً. أليس هذا شيئاً؟».

«يا عمي هل تمتعت وعشت كما تريد؟».

«بل أكثر. أقولها بصدق. حسب قناعتي، كان يجب أن أفطس في شهر نيسان ١٩٤١ مع يوغسلافيا الملكية. التي خدمتها وكنت وفياً لها من القلب. وكل ما بعد ذلك كان مضحكاً، نكتة سوداء رخيصة، حياة بدون مبادئ حقيقية!».

«لازاريتش، تتكلم كأنك لم تمارس مهنة جيش المرتزقة الأسود مع اللاجئين السياسيين والهاربين، أو علوم الغول وتحضير الأرواح. كنت فرحاً ومنتشياً حينما حدثتني آخر مرة عن تعمقك وذهابك بعيداً في بحوثك واكتشافاتك حول حياة ريتشارد الموازية وشروره. امتدحت نفسك بأنك بت تملك الأرقام والمعلومات والأوصاف التي شوهد بموجبها الخنزير الأسود ذو الوردة البيضاء على جبينه لأول مرة في القرن الخامس بعد الميلاد. كنت تلك الليلة أشد بأساً يا عمي، أقوى».

«أيهـا القـواد، تـأتيني في الوقـت المناسـب! لتقـصر تعبـي وإشـباعي واشمئزازي من الحياة التي ليست أي شيء سـوى خنزيريـة. نعـم يمكننـي التوسع حول ذلك لو أيقنت أن واحداً منحطـاً مثلـك يمكـن أن يفهمنـي، وإذا تأكدت بأنني لن أفسد عليك سعادتك».

«فسر أيها العجوز!».

«أهي نكتة أن تقتل إنساناً اكتفى وتعب من كل شيء؟».

«يا عمي. سيان عندي أن تحب الحياة أو تكرهها».

«ماذا تنتظر إذاً؟».

«يجب أن نتفاهم. لا أستطيع أخذ روحك هكذا...».

«يا لتعاستي من طريقتك! يا لتعاستي من قاموسك وحركاتك!».

«لازاريتش. افترض أن لك رغبة أخيرة».

«يا ابن القحبة. من أنت حتى تسألني سؤالاً كهذا؟!».

«لازاريتش مرات كثيرة رددت أمامي أنك من عمرك في حرب مع الحياة واتحاد مع الموت...».

«اخرس تحققت كل رغباتي.. حتى الأقدم منهـا، وهـي أن أمـوت عـلى يدي إنسان ساعدته وأحببته!».

«ألم يكن ذلك عطفاً؟».

«أعتبره كيفما كان. ألـيس رائعـاً أن يقتلنـي حيـوان رفعتـه مـن الوحـل وعملت منه أطلال إنسان. ماذا تريد أكثر؟».

«لازاريتش. على كل...».

«أكره على كل، إذاً، حينما!».

«لازاريتش. أريد أن أقص عليك كيف افترقت عن سينائيّ. عن فيكتور وعن أبي سلافيشا».

«هذا ما يفعله آكلو لحوم البشر!».

«لازاريتش. إذاً أحدثك عن نفسي أمامك. هكذا فعلت أنت أمام عيني حينما كنت تتهيأ لقتل تومباس، لتعمل من جسده مصفاة. دعني أوفيك دينك!».

«أحزين أنت من أجل تومباس؟».

«أجل!».

«مسكين تومباس! كان يستوعب الأمور متأخراً دائماً. لو قابلته الآن، لقبلته في جبينه!».

«لقد شرحت لتومباس أن الحكاية تكتسب أهميتها ومعناها فقط حينما يحكيها الإنسان لنفسه. لنفسه لكن أمام الآخرين! عندها تتفرع الحياة وتصبح أجمل. أذكر ذلك حينما كان تومباس يرتجف».

«أيها الحقير ابتدأت تغزوني بسحرك!».

«لازاريتش. اصطدت فيكتور حول هامبورغ ثلاثة أيام وثلاث ليال. لقد صوروا فيلماً عنه وعن حياته في كنيسة القديس باولي، فيلماً عن الغوريليات اليوغسلاف التي تقتل في الغرب كل يوم أكثر. «إن لم تزل يا فيكتور رجلاً، احضر لمكان كذا وكذا في الوقت كذا وكذا».

كتبت له. حشوت المسدس، شحذت وقبلت السكين، ووقفت انتظره. جاء ذو الشعر الأحمر. فتح أبواب سيارته ذات اللون الفضي ماركة (أستون

مارتي) على مصراعيها. صاح كما صحت أنت قبل قليل: «أطلق... ها أنا».
«فيكتور أي لباس هذا؟» سألته مستغرباً يا لازاريتش وجلست بجانبه
«ترى بصحبة من أنا؟».

«فيكتور. ليس هنا». قاطعته وأنا أغرس فوهة المسدس بين أضلاعه.
«يجب أن نجد مزبلة ما كما يليق بنا». تابعت وأنا أفكر بمزبلة كروس لابن
عند ميونخ.

«لا تضع الوقت أطلق هنا واستمر بطريقك».

«ق - د السيارة» صرخت به صرخة لا يستطيعها أحد غيري تلك
الليلة. «فيكتور أعرف أين سأذبحك وكيف». قاطع لازاريتش الحكاية
قائلاً:

«مارك، يا ابن القحبة كان يجب التخلص من ذي الشعر الأحمر بسرعة
كما كان يفعل هو بالآخرين. أي مزبلة وأي جنون منك. كان المفروض أن
تتخلص منه في مكانه!».

«لازاريتش. خرجنا من البلدة إلى الأوتوستراد بصعوبة. انعطفنا بعدها
باتجاه بريمن. كان يقود بغير توازن، مختلاً، حتى إنني اضطررت لمراقبة
المقود وعداد السرعة والفرامل. كانت عيناه مظلمتين، وحاجباه مفروقين
لكنهما جميلان، خصلات شعره الخرنوبية الحمراء الطويلة مسرحة، وقد
أظهر المكياج ندبة سكين حديثة، امتدت من طرف شفته اليمنى حتى رقبته.
بدا كأنه أصغر سناً عما كان عليه تلك الليلة، حينما هرب مني على حدود
يوغسلافيا - النمسا بالقطار اليوناني».

«ضحيتك تسمعك بصعوبة». قال لازاريتش. فتابع مارك متغاضياً:

«كان فيكتور ينتعل جزمة من جلد ثعابين الصحارى، ويرتدي بنطالاً من قماش الفيلس المضغوط بلون فضي، على كتفيه وصدره كاب ذو شعرة طويلة من جلد العنزة بلون أزرق وياقة عريضة من جلد الثعلب. على يده اليمنى بدون إبهام سوار مطعم بالبلاتين والشناشيل تخشخش، وعدة خواتم من النحاس. وعلى اليسرى ساعة منبه كبيرة كساعات عمال السكك الحديدية الجيبية، فوق سوار القميص المصنوع من الحرير الصيني الخام ذات أرقام فوسفورية وعلامات الأبراج. على صدره صليب ثقيل من الفضة القديمة، إضافة لأيقونة أرثوذوكسية بإطار دخاني تغطي كل أزرار الصدرية البنفسجية».

«أي سينائي هذا». قال لازاريتش ساخراً «أي فزاع ومخيف».

«فيكتور إذا بقي لي أو لك عدة لحظات في هذه الحياة، فاحترس كيف تقود» قلت له خائفاً ألا ندخل في حائط ما.

«ومتى كانت الحياة تهمني يا مارك؟» ثم أسر لنفسه «كانت تهمني في البداية فقط حينما كان عمري تسعة عشر عاماً مثلك. كنت مستلقياً في سجن بلغراد «تسه - زه» في المنفردة، جانب غرفتك. كان لنا شيفرة، كنا ننقر بدون انقطاع، الحياة والهروب بأي ثمن، ثم الحياة! لكن كل شيء ينسى بعد الخروج. لا تبق جاداً كما كنت. تهبك السنون شكلاً وروحاً كالضفادع. شيء ما بداخلك ينكسر. فتدعوك كلمة الانتقام للضحك. ويشغل دماغك اجترار الطعام والشراب بدون حساب. تنام كثيراً وطويلاً وتحلم أنك شاب فقير ونبيه، وأنك تقول: باسم حريتي! ثم يأتي الوقت صعباً ومراً وهادئاً بدون أمل فتصبح غير مهتم بالنجاح والحياة. تصبح بوضع تقول فيه

لنفسك كما أقول أنا الآن: أسرع إلى نهايتك أيها المجنون. أيها المفجور فيك!».

«فيكتور منذ متى وأنت على هذه الحال؟» سألته.

«مارك. أطلق!» صرخ وهو يرفع يديه عن المقود «حينما تقتلني ستصبح كل الأشياء مفهومة لديك!».

«إذا لم تكن تعرف فأنا أعرف!» قلت دون أن أحاول وقف تدفق الذكريات:

«ليّنتك القطارات كما ليّنتني. أول مرة غلبك كولار المجري، عندما اشتراك بـ ٣٠٠ مارك من الروماني. جسوا عضلاتك وركبتيك وخصيتيك، ليروا هل تساوي قرشاً أكثر. دفعوا ثمنك زهيداً، وقبضوا ثمن شبابك (فراطة)! وكله أمامك أنت الذي تصورت فتح الغرب بطريقة أخرى. لقد استغلك المجري لوقت أقل مني. كنتما تغيران على مراكز البريد في القرى، ومجمعات البيع والمخازن التجارية. اختطفتما أطفال الألمان، سرقتما كلابهم وقططهم وببغاواتهم. وكان المجري يكوّم!. هربت منه - إذا صدقت معلوماتي - مرتين. باختصار لم يكن يتركك لتعيش وتعمل وحدك. وجدك أول مرة في زرندورف باسم روسي، مريضاً ومثخناً بالجراح. وحتى تتخلص منه بعت نفسك لغيره، لمعتوه كان يشتري الشباب من مراكز التجمع مثل زرندورف والقديس سابا، ثم يبيعهم لمروجين أكبر. لكن المجري لم يسمح لهم بأن يقودوك إلى ساحات حرب أنغولا وموزامبيق وفيتنام. كنت تعجبه. أصبحتما تسيحان في ألمانيا والنمسا وسويسرا، تسرقان وتحرقان. كان المجري مغرماً بالدم واللهب، وكان يقارنهما! وكنت

أحياناً في هذه الفرقة وأحياناً في تلك من فرقة العديدة، ومرة في الثلاثي المحترف للقتل. هربت باتجاه الشرق مع سلوفاكي هو الأفظع من تلك المجموعة. وصلت حتى ليوبن - النمسا. لكن المجري وصل إليكما. دفع السلوفاكي ثمنك أمامك ٢٥٠ ماركاً، وأعطاه معتوهاً قرباطياً على البيعة. واستمررتما بالغش والاحتيال والسرقة والاغتصاب في المقاهي الراقية والبيوت التي لم يجرؤ المجري بالهجوم عليها مع مشوهيه ومرضاه بالسفلس. في وقت من الأوقات كنت الذي لا يُمسك ولا يمكن لجمه! كنت تطير داخل أبنية البريد، توثق الموظفين، وتفرغ الخزائن. تطلق فوراً! لكنك عندما كنت ترى دماً، أمعاء إنسان، خصيتين مقطوعتين، تبدأ بالرجفان. وكي لا تعمل بعد اليوم بخطف الأطفال، وكي تموت بوقتك، قفزت أمام كولار في نهر ايسار. لكن المجري سحبك وباعك في الليلة نفسها بـ ٥٠٠ مارك لعمنا المرحوم بوداك».

«بوداك!» صاح واقشعر بدنه.

«فيكتور. لا بد أنك خسرت كل ثقة الناس والإنسانية، ما دام ريتشارد قلب الخنزير قد شوه يدك بالبلطة النمساوية المثلمة على جذع شجرة! وأصعب شيء كان بالنسبة لك هو حينما ابتدأ باغانيني بافاريا المطلوس كله بالقشور الخضراء، وهو يلبس خوذة حديدية من حرب قديمة، يعزف فوق لحمك السلوفيني المدنس! وكانت الخنازير تجلس على أذنابها وأقفيتها وهي تدخن، تمثل أفضل جمهور يستمع لهذا الكونشرتو. أحياناً، كان يسمع صوت روك.. روك! تصفيق البركشيريين وتحيتهم! وكان الغول في فترات الاستراحة يرطب جرحك ببول الكلاب وبراز الدجاج..».

«مارك. توقف». استغاث فيكتور يا لازاريتش. عندها شعرت بالحزن عليه، كما أشعر الآن بالحزن عليك.

«فيكتور. فعلوا معي الشيء نفسه» تابعت وأنا أريه يدي اليمنى بدون إبهام، واضعاً إياها على المقود بجانب يده، «وإضافة لذلك كانوا يصيحون ويزيدون لتمت يوغسلافيا، أمنا التي خناها وتركناها دون سبب وجيه. فيكتور انظر كيف تبدو يدانا حزينة، تلك التي كانت في وقت ما مليئة بالكبرياء والقوة والشجاعة، نحن شباب بلغراد السابقين!».

«مارك إذا لم تطلق، إذا لم تقص رقبتي كما فعل بوداك بإبهامي فسوف نصل بريمن قريباً».

كان ينشج. قال من خلال الدمع: «لا أود الذهاب هذه الليلة إلى لازاريتش».

«وما شأنه معي ليأتي إلي أو لا يأتي؟» سأل لازاريتش.

«تجارة!».

«في حياتي لم أتعامل مع ذلك المحتال الحقير!».

«لازاريتش لقد اشتريته وبعته ثلاث مرات. هرب منك، فجلد عارياً أمام غوريلياتك الباقية. ولم تكن معه أفضل مما كان كولار أو بوداك بشيء. كنت ترسله لينقض على الناس، مثلما كنت ترسلنا أنا والبولندي. ذكر لي أسماء كل الذين أجبر أن يهجم عليهم بالسكين وخيطان القنب وأكياس الخيش، كلهم من أصدقائك أيام الحرب والأسر. مرة واحدة فقط كنت إنساناً تجاهه».

«متى أيها القواد؟».

«حينما توغل في القتل والدم بعيداً. ركع أمامك على ركبتيه واستغاث بأنه لا يستطيع القضاء على منافسيك بعد اليوم، على الناس الواثق أنهم لا بد سيكشرون عن أنيابهم أمامك ذات يوم مهما طال الزمن. أولئك التعساء الذين لم تكن حياتهم في هذه الحياة بعد الحرب أفضل من تلك التي كانت بين الأسلاك في الأسر في معسكر أوسانبروغ. أصبحت ترسل لهم غوريليات أخرى، وحولت فيكتور لفرع المخدرات. صرت ترسله خلال ألمانيا والنمسا وإيطاليا وهولندا والدول الإسكندنافية وبن لوكس، ليحمل الحشيش ويوزعه، خصوصاً الهيروين، الذي كنت تصنعه مع صيادلتك وعبيدك من صمغ الأفيون الذي يحمله التركي. وهكذا، سائراً على حافة الهاوية، تعرف فيكتور على لندن، لوس أنجلوس، أوتاوا!. كان يركض خائفاً منك. مكث في باريس أطول فترة. هناك سارت أموره كما يجب. كان عند الممثل آلان ديلون للتجربة. وعندما كان يحميه من الكورسيكانيين، ارتمى مغموراً بالدم على الرصيف. حتى إن ديلون ش - خ - ص - ي - اً سحب السكين من ظهره ثم أخذه ليصبح الغوريلا رقم واحد لديه والدوبلر[1]. وبدأ فيكتور يظهر في الأفلام. وكان يموت في أكثرها. واحد غيرك كان تركه وغسل يده منه، ذلك التعيس الذي ضحك له الحظ. لكنك يا لازاريتش على العكس ابتدأت تتعقبه وتقف في طريقه وتهدده وتبتزه. وحددت له الإتاوة، ولم تكن أقل من التي حددها له بوداك ليأخذها عن طريقه إلى ريتشارد قلب الخنزير!».

---

1 - ممثل ثاوني يقوم باللقطات الخطرة في الفيلم بدل الممثل الرئيسي. - المترجم -

«مارك. قل كيف - ق - ت - ل - ت ذلك المعلم العظيم ذا الشعر الأحمر؟».

«مارك. أخي. اخنقني». كان يصيح يا لازاريتش. لا أزال أسمع صوته «اخنقني أو اذبحني ما دمت لا تريد أن تطلق؟».

«لا أريد!». أجبته.

«للشيطان إذاً. ماذا تريد مني؟».

«أن تتذكر يا فيكتور كيف تركنا بلغراد والوطن في تلك الليلة الباردة».

«وهل تذكر شيئاً؟» سأل لازاريتش.

«نعم يا لازاريتش. وحتى الآن لا أعرف من أين جاءه ذلك الدفء. «يا وطني، اسمك لم يعد يهمني!» ابتدأ ينشد مثل تلك الليلة «هيا نصفي أنا وأنت حساباتنا، خذ كل ما أعطيتني. أعيد لك اسمي أولاً، فحررني من قدرك وظلامك. لقد غدوت ضدك أيها الشامخ بدون قلب، إنساناً هامشياً مدموغاً بالدجل والغيبية، ينخر بداخلك. فيا وطني اللعنة، يا تفاحة كبيرة وناضجة، دع الدودة تخرج منك، وابق شامخاً لتنمو وتكبر وتصبح أجمل تفاحة في هذا الكون...».

«أغنية شيوعية هابطة.» قال لازاريتش: «كيف ق - ت - ل - ت - ه؟».

«لكنتُ تذكرتُ يا لازاريتش كل شيء لو أنني استطعت - مع أفضل الأمنيات والرغبات - أن أضغط على الزناد. تذكر كل شيء قائلاً: ودّع الآباء والأمهات أبناءهم المسافرين في طريق لا رجعة منه. ولوحت الأخوات للإخوة الذين كانوا يخجلون من أخواتهم الفقيرات البلقانيات، لهذا كانوا يتصايحون: انطلقي أيتها القطارات فوراً تجاه الغرب الموعود. كان

أغلبهم يتعللون بأنهم ينشدون الربح الأوفر، وأنهم انطلقوا إلى هنا ليجدوا آباءهم، أنتم الخونة، الذين لم تعودوا أبداً إلى أعشاشكم وبيوتكم. تذكر فيكتور الأطفال المصابين بالرشح من طول الوقوف على إسمنت المحطة، الذين كانوا يبتهلون وهم يتسولون الصدقات ويمتدحون ألمانيا وسويسرا. وحينما وصل إلى فتاة صغيرة كانت تدعو أمها وترجوها أن تعود بسرعة من التسول في هولندا، بكى يا لازاريتش. مثل تلك الأمور لا يمكن لأي كان أن يتذكرها!».

«امتطال القواد الأشقر كحمار». قال لازاريتش.

«ستعيش يا فيكتور، ستعيش». صحت به، وبدا كأنه لا يفهمني. كان مستسلماً ويداه فوق رأسه، مستنداً على عمود بجانب الأوتوستراد يشير إلى طريق العودة لهامبورغ. سألني لماذا لا أعاقبه «فيكتور عش وكن واثقاً أن يدي لن تمتد إليك حتى لو اقتلعت عيني!». قلت له وأنا أصوّب على صدره.

وتصور يا لازاريتش، حتى هذا لم يفهمه، بكى كما يبكي المدمنون.

«فيكتور كيف سأطلق النار وأنا أحسدك وأغبطك من أول يوم». تأتأت، وأنا أرفعه عن الأرض.

«فيكتور. أود أن تقودني كأخ أكبر لنسوح في هذا العالم البارد الذي فقد روحه. أن تشتهر وتغتني، وتنشر صورتك في الصحف. أن تسطع كنجمة سينائية من وطننا فوق هذا الطين والخراب الغربي!».

«خدعك!» قال لازاريتش.

«وحتى لا يرتمي ثانية على ركبتيه، حملته يا لازاريتش من تحت إبطيه. وانطلقنا. لم يكن يعرف أنه سينائي. قال: «مارك. اسمي فيكتور يعني في

علـم الأرقـام: ٤ - ٩ - ٢ - ٢ - ٦ - ٩ أي مـا مجموعـه ٣٢. وهـذا هـو عمري. حينما تضع الاثنـين مـع الثلاثـة تـصبح خمـسة، أي فظاعـة. باللغـة الصينية تعتبر ذبذبة الرقم ٣٢ نفس ذبذبـة الكوكـب ميركـور. وبالنـسبة لي فالرقم ٣٢ هو رقم الخيانة، الخيانة التي تستحق العقاب!» عندها توضـح لي يا لازاريتش من سممه بالمخدرات أول مرة، ومن سممه بالأرقام وكـل مـا لديكم من علم الغيب والغائط!».

«مارك. لو أنكما لم تخرجا بسرعة عـلى الأوتوسـتراد لـشرح لـك الـذئب فيكتور كل ما يعرفه عن الرقم ٥. ولو أنك لم تخرج من السيارة لفسر لك أن الرقم ٥ بالنسبة لهم متقمصي الأرواح هو رمز الولادة من جديد!».

«بزغ الفجر يا لازاريـتش، وعبـث الهـواء بخـصلات شـعره الـشقراء. «فيكتور أحبك». صحت به وصفقت باب السيارة بعنـف. «وأنـا أحبـك» نطق وهو يعدّ شيئاً. تذكرت القسم الذي قطعناه على أنفسنا، أحـدنا أمـام الآخر في السجون «أخي، أيها المجنون الجريح، أخي» همست له وأنـا أنظـر إليه كيف ينطلق «احترس يا أخي»... وذهب. وأصبح واضحاً لي أن عينـي لن تشاهداه ثانية. وشعرت أنني أوجد ثانية في ذلك الظلام اللاصق الرهيب لعالمكم الإجرامي هذا».

«كفاني حكاياكم القرباطية!» قال لازاريتش.

«لازاريتش. الآن سأقص عليك كيف اجتمعت وافترقت عن مرافقـك الخاص، عازفك بالإكراه سلافيشا، أبي. حيـنما وجدتـه تأكـدت مـن عـدم ضرورة البحث عنه أصلاً، ولا أن أتعذب كل ذلك العذاب لأجله».

«لعله هو الآخر مثل بوداك، أصبح يجعر روك... روك.. روك بدل قـول نعم ولا..؟».

«لازاريتش. بل كان أكثر إضحاكاً من صورك. أشيب، محني الظهر، أعرج، ببزة وقّاد وخادم في دار العجزة التابعة لكنيسة القديس يعقوب. لم يستطع سلافيشا وهو الرقيب لمدة طويلة أن يستوعب من يكلمه، ومن يعانقه»...

«أبي، أبي الرائع» بكيت وأنا أقول له «أين أنت يا قدرنا وحزننا!؟». ولم أستطع الانفصال عنه من العناق.

«أبي!».

«أيها السيد، هذه أوسانبروغ. أوسانبروغنا» تابع بصوت فيه دفء لم أفهمه أو أعيه. وأشار بيده إلى الضباب والدخان الذين توسدا الأسطحة ومداخن المعامل، «حينما يكون الطقس مبتهجاً ومشمساً، تستطيع من هنا رؤية الحقول التي ارتفع منها باتجاه السماء مخيم تعذيبنا المشهور».

«أبي، أية معالم أثرية هي؟».

«أذهب إلى هناك كلما كان لدي يوم عطلة». «لماذا؟».

«انفخ». قال وهو يداعب بوقه المتدلي من عنقه كما على صورك. «لا تزال توجد هناك آثار الأسلاك الصدئة والآجر».

كانت عيناه تعكسان ذلك الضوء الذي أخافه. «عادة أركع وأنفخ عازفاً حتى أصاب بالغيبوبة، وحتى تتبخر من ذهني تلك الصور، أحياناً أحصل على كل شيء من السياح الألمان لشراء سجائر وصحف وشموع».

«سينفخ سلافيشا في العالم الآخر أيضاً» قال لازاريتش. «وحان وقت الغداء. كان حاجبك وعبدك وخيالك يا لازاريتش يأكل واقفاً، يمسك

قدر معكرونة صغيراً فوق البوق. قال باهتمام «أتصدق أنني حتى الآن لم أجلس مع الألمان على طاولة واحدة» وأضاف والهياكل العظمية تراقبه كيف يجتر: «ليبقوا هم على تفكيرهم يا سيدي. يظنون أنني حينما أناوب نافخاً إنما أحترمهم وأحبهم أكثر» رجوته يا لازاريتش ألا يتعذب بهذا الشكل، أن لا يحقر نفسه. لكنه وقف بعد انتهاء الغداء يغني، وينفخ عازفاً شيئاً ناعماً مرهفاً بلقانياً من قرانا حتى يهضم الألمان طعامهم أفضل. أراد أن أنضم إليه. ولم أكن أعرف كيف كان يخلط الكلمات المجرية والروسية والتشيكية مع الألمانية. أُعجبت الهياكل العظمية بذلك. كانوا يمرون بجانبنا، يربتون على أكتافنا. أما أولئك الذين لا زالوا على أقدامهم أو كانوا في العربات، فكانوا يتركون فوق كفه أو يدسون في جيبه بعض (الفراطة) حتى إنني حصلت على ٥٠ قرشاً. وشاهدت كيف ينحني لهم حاجبك يا لازاريتش، وكيف يتمنى لهم بتمازج لغوي عجيب هضماً جيداً وقيلولة هانئة بعد الظهر. بعدها كان ينفخ لهم ليناموا وهو يغني: شلاف، شلاف ماين كيندشن شلاف[1]. سرت وراءه في الممرات الضيقة، أعكّزه خائفاً أن يخطئ في مكان ما أو يقع. كان يمشي من باب إلى باب وهو يهمس بأغاني النوم أو ينفخ عازفاً بهدوء من ثقوب المفاتيح».

«كان سلافيشا بوضع يؤهله لينوّم كل اللواء السادس». قال لازاريتش «حتى إنهم كانوا يموتون أسهل وهم يسمعونه في أوسانبروغ».

«جلس على المقعد بانتباه وسط الساحة» وقال «سيدي يجب أن أشكر الله لأنه وهبنا يوماً بدون ربح ولا أمل، بدون أية تغيرات عموماً».

---

1 - نم، نم، يا طفلي، نم - بالألمانية. - المترجم -

قبلته رغم تعجبه الشديد وهو يدفعني عنه، ويهرب مني. «قبلته في جبينه العبد الأجعد الواطئ!».

«لا يحب سلافيشا من عمره القبلات والتقبيل» قال لازاريتش وهو يرطب شفتيه الجافتين. وأضاف:

«وكيف افترقتما؟».

«أرجوك إذا بقيت في ألمانيا أن تحضر لزيارتي ثانية» قال: وأراد أن ينفخ لي أيضاً «أجل.. أجل... واحد هو معسكر أوسانبروغ» أنتعش حينما أخبرته أنني سأتوظف في مكان قريب من السهول التي أرتفع فيها الدخان حتى السماء، كما قال، منبعثاً من معامل حرق الجثث، فحمله الهواء كثيفاً إلى مخيم التعذيب أوسانبروغ.

«أبي. أليست مدينة أوسانبروغ بالنسبة لك مدينة المدن وتاج العالم؟ مثلما هي أوديسا لفرومكين؟».

«لكل أوديسته».

«قاتلة روحه!».

«واحدة هي أوسانبرغ!».

«أبي، تتكلم كأنك مولود ومعمّد بين تلك الجدران والأسلاك الملعونة. كأنك لم تتعذب وتُهَن في مكان آخر!».

«يا سيد، خلقت أنا لـ أوسانبروغ!».

«أبي، وظهرك المحني؟».

«وأين كانوا سيحنونه لي أفضل مما حنوه في أوسانبروغ؟ ولا في أي مكان!. أين كانوا سيخمصون أضلاعي ألف مرة وهم يطرّونها كما فعلوا في

أوسانبروغ؟ ولا في أي مكان! أين كانوا سيشوون أسفل قدمي ثم يسفحون الملح فوقهما كما في أوسانبروغ؟ ولا في أي مكان!».

«أبي. تتحدث عن أوسنابروغ كأنك لم تخرج منها خطوة واحدة!».

«ولم أخرج» قال يا لازاريتش. مددت له يدي. «أول حياة، تلك المؤقتة، لا تُحتسب!».

«أبي، ألم تسيح مع بوقك في أستراليا، ونيوزلندة، والأرجنتين، وكندا، والسويد، وأمريكا، في كل الأوطان التي يعيش، أقصد يموت بها أهلنا؟».

«يا سيد، من قال لك هذا؟».

«لازاريتش».

«آه رائدي الذي لن يتكرر أبداً. فعلاً السيد الرائد أفضل من يعرف أن قدم خادمه ومرافقه الوفي المطيع لم تطأ أرضاً غير ألمانية».

«إذاً لم يعزف كونشرتو اللاجئين السياسيين والهاربين الضائعين، ولا كونشرتو العمال الأجانب المنهكين؟ ولا جمع التبرعات نقداً أو كأحذية مستعملة وألبسة عتيقة أو ككتب كنائسية أو كصحف يصدرها اللاجئون السياسيون والهاربون؟» سأل لازاريتش متعجباً.

«يا سيد. أنا أنفخ للألمان فقط». هكذا قال يا لازاريتش.

«مارك، كان يجب أن تصفعه! لأنه كاذب. ثم أي جمهور انتقاه هذا الذي تدعوه أباك!».

«زرته بعد سبعة أيام، في الساعة التي حددها لي. وكان لتوه قد أنهى شلاف ماين كيندشن شلاف. كان يلبس بزة عتيقة من جيش يوغسلافيا

الملكي. وكانت الخوذة الحديدة الواسعة مثقوبة من الرصاص. وقد وضع رتبة العريف الباهتة اللون على كتفيه. لهذا عرفته فوراً، وحزنت. ولم يتأثر أحد عندما خرج يسحب من الطرفين حقيبتين قديمتين ثقيلتين. أصلحت له وضع الحقيبة على ظهره، والقبعة على رأسه، تلك التي كلما انحنى للأمام وقعت بفعل الثقل فوق أذنيه. ولم أسأله عن وجهته بكل هذا الحمل من المعدات الحربية. بل مشيت كغوريلا بجانبه، وسمعته كيف يسعل وهو يشتم الإنجليز الحقراء. كان أكثر اطمئناناً من المرة السابقة. كان التعصب يلمع في عينيه وصوته وهو يتحدث كيف وجد مأواه بعد كل ذلك التسكع والضياع والعذاب في ألمانيا. توقفنا عند آخر مقعد في الحديقة. حاولت أن أخفي عنه بكتفي الأفق والطريق المؤدي إلى أوسانبروغ. لكنه كان دائم النظر إلى هناك. ولم أستطع أن أحافظ على هدوئي. «أبي. لقد خرب بيتنا هناك في الجنوب. ساعدنا!» نظر إلى حقائبه، وأمعن النظر في حقيبة الظهر التي وضعها على الأرض. وشرح لي أن سبب هلاكنا هو أننا لم نعد نؤمن بالإله. قلت له: «أبي، ديني، إليك نتجه في صلواتنا». عبس وقال إنها صلوات كافرة. عندها فقط أردت أن أضربه فعلاً!».

«أيها السيد، من الذي انهار أولاً؟» سألني يا لازاريتش.

«أنت يا من بعت روحك». قلت له وتابعت: «عاد كل الآباء في شارع ساراجيفو من الحرب ومن مخيمات الأسر. ووصلت صناديق الموتى، العظام في الأكياس، البزات المدماة والأغراض، الميداليات. أنت الوحيد لم تأت. لو أنهم أحضروك ولو ميتاً!. شاع خبر في شارع سراجيفو بأنك اعتُبرت مجرم حرب، خائناً، وأن الشعب سيحاكمك!».

«أمن أجل البوق؟». قال لازاريتش «ليجتروا غائطهم!».

«أبي. مرت المظاهرات في شارع ساراجيفو، كانوا يهتفون ضد الخونة. قالت أمنا: أعرف سلافيشا جّيداً، أعرف روحه. سيعود. وسوف يجمعنا معاً ويدفئنا! بتنا نفكر فيك ونتخيلك. وكنا نقفز حول أمنا حتى لا نرتجف من البرد والخوف. كنا أنا وأختي ميرا نقول: لقد وجد امرأة أخرى وأطفالاً. وكانت أمنا تلبس ثيابك، وتضع قبعة السيرك، وتضع تحت إبطها بيت البوق فارغاً. وكانت تتحدث بصوت متغير: ستسمعون الآن كيف جرت الأمور في الأسر!. اختنق شارع سراجيفو بالمتظاهرين. كانوا يهتفون، ونحن نسمع من حكايات أمنا عن عذابكما وقهركما فقط. كان المتظاهرون ضد الطابور الخامس. ونحن نعانقها ونرجوها: توقفي عن الأمل، نافخ بوقنا لن يعود. بعدها تأكدت هي أيضاً مما نقول. ولم تعد تدعي أنها تعرفك في قعر روحك. كانت تكنس في مطاعم الضباط وتحضر لنا ما يرمونه. ثم ابتدأت تجلب الضيوف. في البداية كان يأتي المشوهون، أولئك الذين هم بدون عيون، وأحياناً بنصف رأس. كانوا يتركون الطعام وسط الغرفة. قالوا حتى يُشاهد ويُعرف من أحضره. وقالوا وهم يدورون حول مرافقيهم: امرأة حلوة لخائن. لا بد أنه يحرس في لندن كنوز الملك وتاجه الكارجور جفي!. وكان العميان ينتفضون من الشهوة، بينما ننظر أنا وأختي ميرا إلى صور زفافكما المؤطرة بإطار رخيص يتدلى فوق الوسادة. ثم يذهب العميان ليكونوا على رأس المظاهرات. وكان الآخرون مثل العميان أيضاً ضد تشرشل وأمريكا وكل الغرب. ابتدأ المشوهون بدون أيد وأرجل يحلّون في ماخورنا بدل العميان. كانوا مختلفين عنهم. كان عازفو الأوكرديون يتركون آلاتهم أمام بابنا حتى يرى الناس في شارعنا المليء بالغناء والعزف ما الذي يحصل بالداخل. ولم

يكونوا بخلاء. كانوا يعطوننا بعض الحطب، ويخرجون من جيوبهم وأكياسهم بعض قطع الفحم، وهم يؤكدون مجيء أيام أفضل. كان شتاءً قاسياً حينما ابتدأت ميرا تسعل دماً. قالوا: السل. وماذا يعني السل لنا نحن الذين طردنا الألمان والإيطاليين! لقد طلبوا يا أبي من أمي أن تلبس معطفك العسكري، وهي عارية تماماً، وأن تصبح: يسقط الملك بيتر الثاني كاراجورجفيتش اللاجئ السياسي والعاهر! ولم يرغبوا بممارسة الجنس مع أمنا إلا فوق المعطف. كان أسفها على المعطف العسكري أكثر مما على الملك. أبي، لا أعرف هل يمكنك تخيل الفظاعة التي تبدو فيها الجثث بدون أضلاع ولا جلد ولا أكتاف. هذه الفظاعة المشوهة المليئة بالشهوة والشبق والانتقام!؟..».

«أعلى معطفي العسكري؟!» سأل مندهشاً.

«أبي. كان المنتصرون يتناقصون كل يوم في قبونا. كانوا يموتون - كما قيل في شارع سارجيفو - من الجراح وتلوث هواء المدينة وقلة الحركة. بكينا ثلاثتنا من أجلهم ومن أجل رومانتيكيتهم! صار يأتي إلينا بدلاً عنهم عمال المحطة والمسافرون وبائعو السوق السوداء والغشاشون. كانوا يعرضون بضائع رخيصة من تريستا، وكونسروة أمريكية وأدوية. وكانت الوالدة تلبس المعطف العسكري، وأحياناً تضعه تحتها. ولم يكونوا يجيدون الغناء مثل المشوهين، لذا كان صعباً علينا تحملهم. لقد فزروا فكيها بقبضاتهم، وأجبروها وهي في ذلك الوضع أن تصفّر عنوة، وأن تشخر وتصيح كيف ستنهار الشيوعية من تلقاء نفسها، أو أنها ستبهت وتموت. بعدها كانوا يرمونها فوق بزتك! وكنا نبكي أنا وميرا من أجل العميان وفاقدي الأيدي والأرجل، ونسمع أصوات المتظاهرين الذين كان يهتز

شارع ساراجيفو تحت وقع أقدامهم. وكان المتظاهرون ضد ستالين، وكانوا أحياناً يصطادون تابعيه ويسوقونهم لأماكن مجهولة».

«هل تطاولوا على ستالين؟!».

«أبي. أكثر ما أذكر عامل التمديدات، ذا الرقبة المعوجة. كان اسمه ماتانيتش. كان يسرق الدقيق ويحضره لنا. وكان الوحيد الذي احترم معطفك العسكري، كان يصلّب أمامه. لذا كنا نحتفظ بمعطفك وخوذتك معلقين على الحائط قرب الأيقونة. مرة قبّل طرف البزة وقال من خلال الدمع إن الملكية والملك خالدان، وإنه لن يوجد مطلقاً بعد اليوم قماش كهذا ولا تفصيل كهذا. كان ذلك في تلك الليلة التي حمل فيها على ظهره كيساً من طحين الذرة، في وقت كان يصيح فيه المتظاهرون: تريستا لنا وليست إيطالية! عندها جمعنا بدلاً عنك - أنت الذي كنت في مكان ما تنفخ - حوله وقال: أعرف كل شيء عن سلافيشا! أرانا صوراً شاهدنا عليها كيف يجرركم الحلفاء وكيف يطعمونكم كالطيور. أجبرناه أن يرتدي ثيابه قبل أن يحدثنا. قال: سأحدثكم إذا أعطيتموني ميرا! وكانت ميرا قد أكملت لتوها الثانية عشرة من عمرها. وحينها لاحظ انقباضنا أنا وأمي، أخذ طحينه واتجه صوب الباب. لكن ميرا اقتربت منه. كومها تحته فوق كيس الطحين. أبي، كنا سعداء أنا وأمي لأننا عرفنا أنك لا زلت حياً. ومن تلك الليلة لم يعد بإمكان ميرا الانتصاب جيداً. ولم تتوقف عن إمساك بطنها. بكى ماتانيتش وهو يداعب ميرا، وقال إن الأمر نفسه قد فعلوه مع بناته بينما كان هو في أوسانبروغ. ساعدناه ليلبس ثانية، كان يرتجف كلّه ويقول: «كاد سلافيشا أن يعود معنا إلى هنا لولا ذلك الرائد لازاريتش، لقد سحبه وراح باتجاه الاطلسي!» همس وهو يرسم خارطة ألمانيا فوق الطحين، مشيراً إلى

أوسانبروغ النجمة فوق كل النجوم. وقتها انفجرت الحقيقة يا أبي أمام عيوننا. ماذا، ومن انتقيت بدلاً عنا!».

«كيف كنتم كطلاب أيها السيد؟» سألني يا لازاريتش.

«قبل أن تتم ميرا سنتها الرابعة عشرة خرجت إلى الرصيف، لتكسب عيشها. ثم انتقلت من محطة القطار إلى المقاهي الأفخم وصارت الآن أغلى بغيّ بالعملة الصعبة في بار الماجستيك، رغم أنها حتى الآن لا تستطيع الانتصاب جيداً. ولها نفس نظراتك اللئيمة».

«وأنتم؟».

«أبي، أنا اغش، أسرق وأنهب، ألعب القمار، أعمل قواداً وأختطف. لا يوجد لي مثيل كغوريلا. صار إشهار السكين أسهل علي من قول صباح الخير!. ذبحت بوداك في حالة دفاع عن النفس، لكن بكل سرور. هربت بعدئذ كي أجدك وليس لأن روحي عزيزة علي!».

«كان من الأفضل أن تتابع الطريق إلى الدانمارك».

«أب حقيقي غيرك كان بكى الآن!».

«لا يوجد أب حقيقي بدون ابن حقيقي أيها السيد. أحزن على بوداك وعلى اللاجئين السياسيين الهاربين أكثر من حزني عليكم جميعاً في الجنوب».

«لماذا يا أبي، كيف؟» صرخت في وجهه يا لازاريتش، وارتجفت مثل المصاب بالملاريا. «ركعنا، ركعنا نهائياً!» كان يضحك. ذكر اسم بوداك بحزن. وحتى الآن لا أعلم إن كان قد فهمني «عائلتك يا سلافيشا لم تعد - م - و - ج - و - د - ة!».

«لتنمحق ما دامت بهذا الضلال».

«أتبصق علينا أيها الشيطان اللاجئ الهارب!».

«كيف لم تتفسخ العائلات الأخرى أيها السيد؟ كيف ركعت عائلتكم فقط وانهارت؟ لم أسمع بشيء كهذا منذ زمن طويل».

«لأن كل الآباء عادوا، أو على الأقل كتبوا أنهم قادمون، كان الآخرون يعيشون بالأمل!».

«أي أمل! أرجوك لا تضحكني. يكتبون ويكذبون أنهم قادمون. أين هي الإنسانية في ذلك؟ أليس من الأشرف أن تنمحي نهائياً بدون أثر؟».

«أبي، يا عدالتنا، اعذرنا واغفر لنا». عانقته يا لازاريتش. ووضعت رأسي هناك حيثما تدلى بوقه.

«عم تتحدث؟» سألني وهو ينهض.

«كانت زوجتك الفقيرة التعيسة تسميك: العدالة. كررت ألف مرة: إذا غفر لنا سلافيشا، ذلك القديس في الأسر، فكأن العالم كله قد غفر لنا! لهذا أرجوك يا أبي أن تفهمنا. اغفر لنا وسوف نغفر لك!».

«ماذا ستغفرون لي أيها السيد؟ ألأنني لم أركع مثلكم أنتم في الجنوب أمام المتظاهرين المشوهين بدون أيد؟ أمام العميان وعمال التمديدات الصحية؟ لقد تذكرتم متأخرين في الجنوب الأخلاق والحب والعدالة. وقتها كان القطار يسرع باتجاه هامبورغ!».

«مارك، لقد امتطاك سلافيشا أفضل مني!» قال لازاريتش.

«ما هذا يا أبي؟» فتحت الحقائب، وفككت حقيبة الكتف. رأيت آجراً «قالوا إنك تجرها دائماً. وإنه قد أغمي عليك وأنت تجرها. كنت تنوح في

السقيفة وتخمش خديك متأكداً أنهم لا يرونك ولا يسمعونك حتى لا يضحكوا عليك!».

«للآجر علاقة بكم أنتم الجنوبيين».

«كيف؟».

«يجب أن أعترف لك أيها السيد بأن الشوق إليكم غالبني مرات عديدة هناك. وكنت كلما احتلتني تلك الآلام أرغب بالطيران. انفصلت عن الأرض عدة مرات ويدي تشير إلى الجنوب الشرقي، والريح تعبث بأكمامي وبزتي العسكرية فيمتلئ قلبي دماً. أتطير يا سلافيشا؟!. كنت أوبخ نفسي وأنا أفكر كيف يسيل لعاب سكان كنيسة الكاهنِ يعقوب من أجلنا أنا وبوقي، أتطير أيها العريف اليوغسلافي!؟. كنت أتساءل بينما كانت العناكب والطيور تدخل فمي! آه.. أية سقطة، وأي عار للكتيبة السادسة!. كنت فوق الشجرة عالياً، وكنت أتصور أن وجهي قد ابتدأ يتطاول ليصبح منقاراً. يا إلهي، لا تسمح لي أن أطير إلى أناس لم يتحملوا!! أعدني عن ذلك الطريق الخاطئ، أنت أيها القادر على كل شيء، مكّني حتى نهايتي القريبة لأنفخ شلافن ماين كيندشن شلافن!. أنزلني الرب من فوق إلى تحت وهو يهمس لي أن أكوّم آجراً ألمانياً وحجارة، أو أي شيء من أرضهم، حالما أشعر بالشوق للجنوب السلوفيني. سمعت كلام معلمي، وبفضله لم أطر إلى الجنوب، هناك مكان ما انسفح العار على معطي العسكري!».

«أبي، ولماذا تحملها اليوم؟».

«كنت أنتظرك أيها السيد».

«ترتجف يدانا!».

«ليس من السهل أن تنتظر إنساناً قادماً من مكان بعيد جداً. إنساناً يريد أن يتابع».

«أكل هذا الثقل؟!».

«عندما لبست هذه البزة الرسمية الاستعراضية، التي ألبسها حينما أنفخ أشياء حربية وكنائسيه، أيقنت أن شيئاً ما يمكن أن يحدث. طبعاً أنت تعرف كيف ولماذا؟. وحتى لا أستنجد ثانية بحاكمنا الألماني فقط نتعت وحملت هذا. أخاف من الطيران لأن الطيور دائماً بازدياد! ولا أعرف هل يمكن لهذه البزة الأخيرة أن تتحملني. ثم إنني لا أريد الوقوف عند كنيسة القديس يعقوب مع شخص يداه داميتان ومشوهتان».

«أبي لن نطير في السماء. سنذهب بالقطار!».

«لقد حلفت القسم ثلاث مرات حتى الآن. أول مرة: حينما أخاطوا لي رتبة العريف الملكي على هذه البزة هناك في الجنوب. المرة الثانية لجلالته، ملك يوغسلافيا بيتر الثاني كاراجورجفيتش في صربيا، ثم في مقهى أوسانبروغ حينما أتى لينحني إجلالاً فوق عظامنا. والمرة الثالثة حينما دخلت إلى بيت الله كنيسة القديس يعقوب. وبالنسبة لعازف بوق الكتيبة الثالثة فإن القسم الرابع لا يوجد ولا يمكن أن يوجد!».

«أيعني أنني سأذهب بدونك؟».

«وحيداً ستصل أسرع يا سيدي».

«أبي، خذ أربع آجرات ورتبها. قل هذا أنا! وهذه زوجتي وأم أطفالي التي لا زال يوجد أمل بالخلاص لها.

وتابع: «وهؤلاء ابني مارك وابنتي ميرا! وسوف يكون ذلك كافياً لنقيم سند العائلة».

«معقول؟».

«أرفع الآجرات. لا تتكاسل!».

«لا أستطيع».

«كيف لا تستطيع. اللعنة على مئة من آلهتك السياسية الهاربة. أهذا عمود فقري أم خازوق؟! افعل ذلك لحب زوجتك على الأقل!».

«أي حب؟».

«ر - ت - ب الآجر!».

«يا سيد، دع الآجر بسلام. أنا بحاجة إليه».

«ما دمت تحبه هكذا دعني أعيده إلى السقيفة، كي لا تتعذب. قل تلك الكلمات فقط حتى أُفرح أمي!».

«هذه الآجرات لم تعد ضرورية لي. لتبقَ حيث هي. لن تعاودني تلك الهموم والعذابات. سأبقى من الآن بدونها في أوسانبروغ. سآخذ حقيبة الظهر فقط».

«أبي سأساعدك».

«يالي من مساعدتك أيها السيد!» قالها بسخرية يا لازاريتش. ذكر بوداك، وقدره اللاجئ السياسي، ولم يبقَ إلا القليل ليبكي. رغبت أن ألطمه بقطع الآجر.

«لا تأت بعد اليوم. وسيكون من العقل أن تنسوني جميعاً. ج - م - ي - ع - اً».

«توصيك أمي بإمكانية العودة في أي وقت تـشاء». كنـت أمطهـا كلمـة كلمة. «قالوا إنك حُذفت من قائمة الخونـة، وبإمكانـك أن تـنفخ عازفـاً في مقاهي المحطة ومطاعمها، مثل الزمان الأول!».

وتصور يا لازاريتش، ابتدأ يعزف مارش على نهر الدرينا للعجائز وكأنه لا يفهمنـي «أبي، يمكنـك أن تبيـع اليانـصيب، أحجـار القداحـة، أعـلام النوادي!». تفاعل المشوهون معه، وانتشت الهياكل العظمية. كانوا يضربون بأيديهم ويمشون مشية عسكرية. «أيها العجـوز كجثـة، اذهـب لـتراك مـرة فقط، ثم عد إلى هؤلاء القردة المجانين!».

«أيها الأصدقاء، اطردوا هذا الـسيد!» صـاح مـن بوقـه. «لا أعرفـه ولا يقربني، ك - ا - ذ - ب. أرسلوه من الجنـوب ليتجـسس علينـا، ليـسجلنا ويعدّنا...».

«أبي لمن ترسل السلام؟».

«لكل الكتيبة الـسادسة!». قال واستمر بالعزف، وحاول الانـسجام مـع نغم المارش الذي يعشقه.

«المشاة!» ثم لوّح بيده حينـما ظهـر عـمال النظافـة والنظـام مـع كلابهـم القوية.

«سنلتقي ثانية، أيها الماجن العجوز!». بكيت وابتعدت إلى الوراء هارباً، ورأيته من خلال الدمع محنياً أكثر.

«مارك، أهو ذنبي لأن أباك الذي أوجدك قد طردك؟» سأل لازاريتش.

«لازاريتش، لماذا لم ترسلني إليه قبلاً؟».

«كنت أعرف أنه ينتظرك وهو حزين، لهذا أجلّت الموضوع، أحببت أن أطيل عمرك الطبيعي قدر الإمكان».

«أي عمر؟».

«أردتك أن تعيش قليلاً بسرور قبل أن تقع ثانية، أن تشبع من الدماء. لهذا كنت أرسلك لتساعد البولندي. كنت تعجبني!. بينما جعلت منك الرغبة للقاء أبيك مخلوقاً إنسانياً تراجيدياً. الآن عدت إلى نقطة الصفر!».

«لازاريتش. سيبزغ الفجر!».

«سيبزغ، لكن على غيرنا أيها الحقير!».

«لازاريتش، سأبدأ من البداية!».

«هذا ما يريده كل المجرمين!».

«سأقول لأمي وأختي أين سلافيشا. وسأصطحبهم إلى كنيسة القديس يعقوب. وسوف تعترفان أمامه، وترجوانه أن يداعبهما في شعرهما. لا بد أنه سيفهم، ويسمح لنا أن نتصور معه، وهذا شيء رائع! يمكن أن يخفق قلب العازف بين أضلاعه إن هو رأى زوجته. أليس سبباً كافياً لأعيش بضعة أيام أخرى بدون غيبيات وتمحيص في علم أبراجكم السياسية الملعونة؟».

«سيفوتك القطار حتى ذلك الحين!».

«سأجمع شمل عائلتي!».

«لن تصل. يتبعك أمر القبض عليك!».

«بل اثنان يا لازاريتش، أحدهما لك والثاني من أجلك!».

«طبعاً أيها الشقي! البوليس خلفك! والأهم أن غوريليات بوداك وراءك أيضاً، وجبل رينشارد. قلت لهم إنك تأتي إليَّ أحياناً، وإنني سأبقيك عندي.

يريدون قذفك أمام الخنزيرة السوداء، ليشاهدوا كيف تقطعك! أسمع شيئاً. إنها غوريلياتي على الأغلب. ستكون ملكها إذا لم تسرع. سيقطعونك إرباً إرباً».

«لا تهتم يا لازاريتش، سأقتلك بهدوء!».

«أتدرك لماذا تفعل ذلك؟».

«ليس لأنني أريد القتل كما تظن. أنا ضعيف وجبان، مسكين ترتجف يداه ثانية، لست بطلاً. لا أقتلك لأنك ظلمتني أكثر من الباقين. واحد غيرك لم يكن ليرفعني عن تلك المزبلة، أو لكان رفعني وبصق علي ثم رماني ثانية لأتفسخ حياً وتفوح رائحتي لكل الجهات. لو أن غيرك وجدني لكنت انتهيت أمام جوزفينا من زمن. أنت رفعتني وأوقفتني على قدمي. شجعتني. «اقتل واسرق وانهب، احترس من الأثر فقط!» قلت لي بدفء كأنني ابنك. ولم تطلب مني أية نسبة. حتى إنك لم تستغلني كما كنت تستطيع!».

«إذاً تقتلني دون سبب واضح؟».

«لا يا لازاريتش، أنت يجب أن تقتل!».

«مارك، فكرتك هذه أكثر ظرافة، أصيلة، أذكى من فكرتك حول تجميع شتات العائلة في كنيسة القديس يعقوب».

«لازاريتش، سمعتُ أنني ابتدأتُ أقرفك. لماذا لم تقل لي؟ كنتُ ذهبت، فأنا لا أحب بريمن أصلاً. كان بإمكانك أن تطردني من العتبة، ككثيرين غيري، خصوصاً أولئك الذين أقسمت لهم على الوفاء في مخيم التعذيب وتعاهدتم على الأخوة والمساعدة بين بعضكم البعض».

«لم أستطع من أجل سلافيشا».

«لذا أطلقت عليه الكلاب، حينما كانت روحه في أنفه وأنت تطلب منه أن ينفخ عازفاً في عيد ميلادك! هو يغفر، أنا لا!».

«مارك لنترك ذلك القرف مرة وللأبد!».

«لازاريتش، لا أفهم لماذا بعتني!. كان أكثر ظرافة لو أنك أهديتني ليرمولاي باشوشكا بدل أن تطلب ثمناً لي ١٠٠ مارك. حتى إن الروسي دفع لك المبلغ على قسطين!».

«لقد ولى عهد الرومانسية، حينما كان الناس يقدمون الهدايا لبعضهم. اليوم أصبح للإنسان سعر. عموماً يرمولاي أفضل من ريتشارد!».

«لازاريتش. طعنتني في قلبي حينما كتبت ليرمولاي إنني ابن بغيّ، وأخ أخت ضائعة، وابن أب رقيب يوغسلافي مجنون يشتري من الألمان القمامة!».

«وهذا ما أكرره!».

«كأنه لا يوجد خلاص لي ولعائلتي».

«لا يوجد!» قال لازاريتش «أسرع، طاولة الكتابة والخزانة مفتوحتان. خذ المجوهرات والخواتم، خذ كل الكنوز وبعها!».

«جئتك لنتحاسب، وليس لنقتسم الصفيح والحجارة».

«يوجد نقد مقداره تقريباً ١٠٠٠٠٠ مارك ألماني».

«ليبقى كله لأولادك».

«لا يعرف أولادي ما يملكون!».

«لازاريتش عدد اليتامى لم يكن زائداً في أي وقت من الأوقات».

«إذاً كنت محقاً، حينما قلت للروسي إنك تقتل غريزياً، إنك شارب دماء. حيوان جنوبي يشعر وتفوح روائحه، إنك لا تملك أسباباً إنسانية، إنك غول!».

«لازاريتش، اتفقنا أن لا نذكر الأسباب» قال مارك وألقى نظرة على الأشياء من حوله.

ابتدأ مارك يبحث ويفتش في الطاولة. رجاه لازاريتش أن لا يمزق ويرمي تحت نعليه علم الكتيبة الثالثة الذهبي الممنوح له كجائزة. لم يرغب مارك بأخذ أي من السكاكين والمسدسات. نبهه لازاريتش بأن أحدهم يقرع بعنف على الباب الرئيسي. وضع مارك المسدس العوزي على خصره مع كاتم الصوت ووضع الخزان تحت المعطف.

«العصر الحجري الحديث!».

«نعم يا لازاريتش أنا من عصور ما قبل التاريخ! لكني سأعيد لعائلتي اسمها وشرفها. حتى لو اضطررت للقتل حتى النهاية!».

«أبالحجر؟».

«وبالحجر إذا لزم الأمر. ألديك واحد».

«مارك، من يقتل بالحجر فمن الحجر سوف يموت».

«لازاريتش، يمكننا الحديث هذه الليلة بدون الإنجيل!».

نظر مارك إلى القنديل الناعس الذي يضيء الأيقونات والدفاتر والملوك. كان هنالك صليب من شجر السنديان بحجم الإنسان، مسنود على الحائط،

كان ملا يوسف تاتا روغلو قد اقتلعه من أحد القبور الصربية المهملة على حدود بلغاريا وأهداه للازاريتش بمناسبة عيد ميلاده التاسع والخمسين في العام الماضي. ولم يكن الصليب المغسول بالمطر والشمس والريح يحمل أي اسم أو كنية، بل أرقاماً فقط تتوافق مع عام مولد لازاريتش، لهذا سرقه التركي وهرّبه إلى بريمن. «ليذكرك التركي بصربيا البعيدة التي خسرتها للأبد!» قال مارك. وكان لازاريتش يميز هذه الهدية عن كل الهدايا التي تلقاها منذ مجيئه إلى الغربة.

«لديّ صليب لا يملك أحد مثله». كان يمتدح نفسه أمام زملائه وضيوفه ومنافسيه في العمل.

«مارك، كأنك لا تجيد القتل» قال لازاريتش.

«المهم ألا يكررك أحد».

«اعترف أن تاتا روغلو أرسلك لقتلي».

اقتلع مارك الصليب ورفعه فوق رأسه بصعوبة. علت الأصوات في الخارج، بينما انهمرت الدموع على خدي لازاريتش.

«أهذه الدموع للحياة؟ للثروة؟».

«بل للصيب أيها الساقط!».

«لازاريتش، لن يصيب الصليب شيء!».

«حمله ووسخه التركي القزم أولاً. والآن تمسكه أنت المقرف أكثر من الإزميري النتن!».

«لازاريتش. توقفنا عند الرغبة الأخيرة».

«لو لم يكن الأمر مضحكاً لتوسلت للإله ألا يجمعني في ذلك العالم مع الهاربين واللاجئين السياسيين».

«وماذا تتمنى لي؟».

«أن لا تغتسل أبداً من دم بوداك ودمي. وأن تبقى إلى النهاية كما أنت. وأن يحاكمك أولئك الذين يحاصرون البيت!».

«سيكون الأمر سهلاً معهم!».

«وأرغب أن لا تتمكن أبداً من جمع شمل عائلتك، عائلة العريف...».

«لوح مارك بيديه، وبكل قوته هوى بالصليب على مؤخرة رأسه. ارتمى لازاريتش مع كرسيه ثلاثي الأرجل على الأرض. كان العجوز هادئاً تحت صليبه، يسبح فمه وخصلات شعره في بركة من الدم. وللحظة كاملة وقف مارك في منتصف الغرفة يسمع صوت ارتطام الأغصان في النوافذ.

وبدت له غرفة لازاريتش أكبر، واسعة ومضيئة.

اقترب مارك من القنديل وركع. ولكان صلّب لو لم يغط القفازان كلاباته القوية. نظر من مكانه بخشوع وإيمان إلى الصور المؤطرة: كان يقف بجانب سلافيشا مع بوقه، الأب سيكوليتش، بارباش، دونوشا، وجميعهم في ثياب مهلهلة من أوسانبروغ، والعديد من الذين حاولوا في سني ما بعد الحرب بتر رأس لازاريتش الخائن.

«انتقمت لكم أيها المعدمون السينائيون» همس مارك خائفاً من تدفق شعوره، وذلك الدفء الذي تفشى في عروق رقبته وصدغيه. «ما لم تستطيعوه أنتم أيها التعساء بدون وطن ولا أصدقاء فعلته أنا ابنكم بدون إبهام!».

نظر للازاريتش كيف يستريح ويُعتصر. تابع يخاطب نفسه: «وكما ترى يا عمي وجدت السبب لوحدي، سبباً مناسباً في وقت مناسب!». ثم خاطب لازاريتش بينما كان يهيء مسدسه العوزي وحبل القنب والسكين: «يا حضرة الرائد، احترس في العالم الآخر من الكلمة التي قطعتها على نفسك أمام الرقباء، ونافخي الأبواق والرفاق. كن عادلاً أمام أولئك الذين عبروا الجحيم، أو لا زالوا على قعره. وهناك أيضاً ستُضرب بالصليب الشرقي السينائي!».

علت أصوات رجال سكارى تصيح باسم لازاريتش، فتذكر مارك المختطفين الثلاثة الذين اختطفوه في تلك الليلة البافارية الجهنمية ووقفوا يصفرون لبوداك، واحتلته قشعريرة. لم يجرؤ على فتح النافذة ليرى أياً من الغوريليات يطرق الباب الرئيسي بهذه الشدة. راقب مارك للحظة الغوريليات من نافذة السقيفة تحت السطح. كانوا ثلاثة، إذا لم يحسب ذلك الجالس وراء مقود سيارة المرسيدس المصفحة يزمر ويرسل إشارات ضوئية وهو يغني خلال المطر.

كان الأول: فيدوكوفاج. عرفه مارك قاتلاً مزهقاً لأرواح البشر ومخبراً منذ أيام زرندوف، ثم من هجوماته العديدة على ضحايا لازاريتش. كان كوفاج يفعل ما يأبى (بو) عن فعله. كان ملك جمال جنوبي بأسنان منخورة وشعر مصقول، وهو الذي أراهما تلك الليلة في محطة بريمن الضحية بارباش. يقال إنه لا يوجد مساحة قدم من جلده لا يملؤها الوشم أو ندبات الجروح. مرة أسرّ لمارك:

«حلمي أن أحرق كل القرى الكاثوليكية جانب زادار[1]».

سأله مارك: «وماذا بعد؟».

قال وهو يبكي: «أن أقفز في النار، ووداعاً أيها العالم الذي دمغني قبل وقتي!». وكان الوحيد بين غوريليات لازاريتش الذي يمكنه أن يغلب بالمصارعة (بو) باندوروفسكي نفسه.

«يا إخوتي، سموني تيبرو». كان يرجو كلما سكر: «أقصر من اسمي، وهو مجري!».

سألوه: من هو؟. قال: «قبل خمسة عشر عاماً هربت وصديقي تيبور من يوغسلافيا، تحت القاطرة وبين نوابضها. في وقت ما كنا نغني أغاني للحرية والغرب الذي ولدنا من أجله. سكت المجري في مكان ما من النمسا. ففكرت أنه يستذكر كلمات نتابع بها الأغاني. في ميونخ سحبوه ميتاً وفمه مليء بالحجارة والصقيع!». ومن تلك الليلة أراد كوفاج أن يسموه تيبور أو تيبرو. اشتراه لازاريتش بـ ١٠٠ مارك من واحد اسمه فاركا. حينما سلمه إياه قال: «لازاريتش، أطعمه لحماً غير مشوي!» وأطاع لازاريتش كلام موزع أفيونه في ميونخ، وأصبح يقدم لكوفاج جزءاً من اللحم الحي والعروق والعظام المخصصة للكلاب.

وكان الثاني: ميراش يابلان، الشاب الذي يحاول الآن الوصول إلى النافذة من الطرف الأيسر للباب الرئيسي. كان قبل أن يصبح غوريلا للازاريتش ومزيلاً للبشر من طريقه، يشرّح عادة في القطارات. تذكره مارك من محطة فينا: «نقطتي التي أمثلها هي أنجح من نقطتك كمريض صرعه!»

---

1 - بلدة على البحر الأدرياتيكي اليوغسلافي. - المترجم -

كان يقول. ولم يكن في العالم شخص يكره الأتراك مثل يابلان. وكانت لديه خطة لمحقهم. كان يتابعهم غالباً من الدانمارك حتى حدود يوغسلافيا. يسرقهم ويرميهم أحياء من نافذة القطار. اشتهر بين اللاجئين السياسيين والهاربين والعمال الأجانب اللصوص والنشالين المحترمين كأفضل من يجد الأيقونات الأرثوذوكسية وشمعدانات الفضة القديمة الأثرية وكتب الأديرة البلقانية. في مكان ما بين سالونيك وأثينا في اليونان فقؤوا عينه. ومن وقتها لم يعد يتفاخر بمعرفته لليونانية. وكتعويض عن عينه أخذ من لازاريتش عشرة أيام عطلة وقبلة في الجبين و٢٠٠ مارك الماني. وأصبح يابلان وهو مشوه هكذا أسرع وأعنف بكثير، بحيث يمكنه ذبحك قبل أن ترمش بعينك!.

وكان الثالث: نايدن بابايا. كان من بودونافيا. ذهب في بحثه عن لمبات قديمة ومكاو وإطارات قديمة للصور، حتى جزر الكاربات. وعاد من هناك بالربو، ومن النمسا بأوجاع المفاصل. وهكذا اشتراه لازاريتش مريضاً ومنهكاً من أحد الموزعين من هامبورغ كلحم سلوفيني رخيص. وقد أكد الموزع تادوش للازاريتش أن بابايا درّة فريدة، وأنه أحد الأبطال الباقين على قيد الحياة من جيش المرتزقة الأجانب الذين فتحوا صدورهم أمام الفوهات الصومالية في جيبوتي وخلصوا شارل ديغول من موت محقق. وحينما لم يكن بابايا سكران، كان يحكي للازاريتش ويعدُّ له كل ما كان يلبسه في ذلك اليوم التاريخي الذي لم يُقتل به.

وقبل أن يقرر مارك عدم الخروج من الأبواب، بل النزول هابطاً بمحاذاة المزراب إلى الأرض، ومن ثم الهرب من طرف النافورة تجاه السور

والحديقة، لاحظ كيف يخرجون من المرسيدس رجلاً رابعاً. كان اسمه سوتير بوبوفيتش، هيئة بشرية بأنف ضخم، من حدود رومانيا، محتال، غشاش، خفيف، لاعب لا مثيل له. يقال إن سوتير - وهو مبلول يسكنه الرعب والظلام - قد نهب وبحث وفتش تحت كل حجر في منطقته، وعندما هرب من يوغسلافيا وأصبح في محطة ميونخ، استراحت كل القرى ما بين نهري تيسا والدانوب. وقد عمل أطول وقت في المجموعة التي كان زعيمها مكدونياً شهيراً بسرقاته المسلحة العنيفة للعمال الأجانب اليونان واليوغسلاف حول أولم وانفولد شتاد. وكان كولار وقتها يبحث عن شخص خفيف وحاذق لعملية حائط برلين. عرض المجري من أجله جرزة نقود، أقل من ١٠٠٠ مارك. لكن المكدوني رفض بيعه، وقال إنه لا يبيع سوتير ولا بـ ٢٠٠٠ مارك. صباحاً وُجد المكدوني ميتاً، بدون عينين ولا أذنين ولا عضو تناسلي. ولم يُظن بأحد. وانطلق سوتير يعمل لحسابه الخاص. حتى إنه انتصب أفضل. ولم يرغب بالانضمام إلى كولار. وقد تشاجر سوتير ودونوشا بسبب أمور تافهة، فرمى دونوشا السكين وأقسم إنه سيذبحه بأسنانه كما ذبح غيره بهذه الطريقة. وقد توصل دونوشا ليغرس أسنانه فقط في أنف سوتير، تلك الأسنان المشوهة للاجئ سياسي قديم. ومن وقتها أصبح سوتير محنياً أكثر وأشد انغلاقاً وظلاماً. ثم فقد خفة دمه التي كان يُعرف بها. وتأكد سوتير بكل كبريائه الجريح أن الحياة بدون قائد أو سيد مستحيلة. وقف أمام لازاريتش متهيجاً ينفث بخاراً كثيفاً ممزوجاً بدخان السجائر واللعاب. أخذه لازاريتش كغوريلا، ووعده برأس دونوشا.

حينما تأكد مارك أنهم ليسوا أكثر من أربعة، وأنهم سكارى هائجون مشغولون باقتحام الباب الأقرب إلى النافورة، تدلى على المزراب. وكانت الأمطار سياطاً تربط الأرض بالسماء، مما جعل إمكانية رؤيتهم له صعبة حتى لو كان أقرب. وكان يعرف أنهم لا بد سيمرون بجانبه، فوقف هادئاً وراء الزاوية ينتظرهم.

وكما كانوا يهجمون كان يجندلهم. كانت نار مسدس العوزي آخر ما أضاء أجساد الغوريلات.

أصيب يابلان في صدره وكبده، في اللحظة التي تفوه بها أنه سيشرب من دم مارك. وأصيب بابايا، ذلك البطل المرهق من جيبوتي في جبينه ورقبته ثم في فمه. أما سوتير الأكثر فطنة من الجميع فقد أصابه في مخالبه الممتدة أولاً حتى لا يضطر لسحبه من السكين أو اقتلاع المسدس من يده، ثم أصابه وراء أذنه في مؤخرة رأسه.. وكان هو وحده ذا الدماغين في رأسه بعد دونوشا. أما كوفاج فقد خصص له خزاناً كاملاً. أولاً عدة رصاصات في جبينه حتى خر صريعاً فوق الغوريليات الثلاثة، ثم وهو يقول: «وهذا لك يا حقير لأنك نبحت بأنني لن أجمع شمل عائلتي أبداً!» ثم ثقب رقبته بما تبقى من الرصاص. «والآن يا كوفاج لم يبق في جسدك مكان لم يوشم!». تذكر مارك لازاريتش عندما رش تومباس بهدوء المقامرين، فاقشعر بدنه.

كانت رائحة بحر بريمن تفوح في القنال. أسرع مارك ليركب سيارة الفولكس فاكن ذات اللوحات المسروقة من الشهر الماضي في آخن. أصبحت فيلاً لازاريتش وراءه تذكره بالقبر الذي تجلدت فيه حبال المطر.

أشعل المحرك، وانطلق. بدت له الحياة ممكنة ومعقولة مرة أخرى. وتراءت له كلمات العقيدة والانتقام والحب التي كان يسخر منها، مليئة

وقوية ومؤكدة. فكر بكبريائه المطعون، وشرف الآخرين المساكين، المُداسين، غير القادرين، الذين يجب أن يدافع عنهم. وهكذا وصل بتفكيره لـ (بو) الذي كان يعتصره الآن شهيق الموت مثل أداموفيتش. وحتى لا يبكي ضغط مارك فكيه متصوراً (بو) بجانبه. قال له: «مسكين (يا بو). ابق حياً يا حبيبي! اكتسب الصحة ثم اهرب! ولا تسمح لهم بعد اليوم أن يشتروك أو يبيعوك أو يتاجروا بك! اهرب إلى البيت الذي فقدته مثلي يا عزيزي بو!».

كان مارك على الأوتوستراد. وشعر لأول مرة مذ أمتهن القتل أو كان يرى كيف يفعل الآخرون ذلك، أنه أصبح إنساناً ممهوراً بالموت، وأن ذلك رغم فظاعته كان له مغزى ومعنى. بدا له الموت حفلة دموية كبيرة، لم يبدأها هو أولاً، وخرج منها دائماً بدون قيود، محتفلاً، ومنتصراً.

كان يسوق بهدوء، ومسدس العوزي على الكرسي بجانبه. لم يكن يخفيه عن أحد. ولم يقرأ شاخصات الطرق. كان متأكداً بصورة غريزية أنه انطلق أخيراً تجاه وطنه الشرقي السينائي.

«تفجر أيها الصباح بعد اتساع ذلك الليل! لأمدَّ لك يديّ أغسلهما من دم الخنازير!».



الفصل الحادي عشر

كونجرس فقراء شرق أوروبا المنعقد على مزبلة كروس لابن في منتصف الليل بالضبط. مملكة شعبان الثاني. كيف ذهب المجري. متى ستنشر جريدة أبدن تسايتونغ بيان اللاجئين السياسيين والهاربين؟ الموت الروسي.

قفزت جوزفينا كالفقمة[1] في نهر إيسار. طفل وليد حي في قطار يوغسلافي. الخاتمة.

- ١ -

أصبح مارك بعد افتراقه عن لازاريتش بحوالي شهر، الغوريلا الأول للأكرايني يرمولاي تيموفيتش كوزيناكوف. في تلك الليلة انتعل يرمولاي جزمة من جلد الفقمة، وقميصاً مطرزاً مثل أثواب الراهبات من الدون الأعلى، ومعطف كاب من جلد الثعلب، وقبعة غطست حتى أذنيه وحاجبيه. كانت ثياباً يرتديها كلما ذهب إلى احتفال ديني في يوم ماطر أو خلال فصل الشتاء.

تهالك العجوز - الذي لم ينم ليلته جيداً - على المقعد الخلفي لسيارة المرسيدس ذات اللوحات البلجيكية بجانب مارك. كان السائق شاباً بشعر أشقر خفيف، ونظرة دافئة حنون، وكلابات قوية تمسك المقود، اسمه آنجل

---

1 - عجل البحر.

أبوستولسكي توتال. وكـان توتـال يؤكـد دائـماً أنـه جـاء مـن مكـدونيا - يوغسلافيا مباشرة إلى بروكسل - بلجيكا، متناسياً ذكر السجون التي مر بها في طريقه. وقد عمل توتال لمـدة طويلـة عـلى رأس عـصابة ثلاثيـة للـسرقة والاختطاف صاحبها مكدوني آخـر، اسـمه أفـرام الملقـب بهـاري المجنـون اليوناني. ومن حينها رغب يرمولاي أن يضم توتال إليه. لكن أفرام اليونـاني لم يرغب حتى بالحديث حول ذلك، مما سبب وجـوده مقتـولاً ومرميـاً عـلى مزبلة أنتويربنكسون، بعد تقطيعه إلى قطع ثم لفه بغطاء طاولة مقهى كتـب عليه تحذير بعدم الاعتراض على أوامـر الكبـار والأذكيـاء. فـشاع الهـرج في صفوف أفرام وعمت الفوضى، وهرب ثلاثة مـن رجالـه، وبـذلك أصـبح توتال الغوريلا رقـم (٢) للروسي دون أي تعويض بالدولار كان قد عـرض سابقاً على أفرام. كان توتال يحرس بيوت يرمولاي البلجيكية، ويعطي جـل انتباهه للمرسيدس، ويتلقى الهاربين السياسيين والفارين المرسلين إليـه مـن حدود أوروبا الشرقية بطولها. وكان توتال يعمل ويسرق ويختطف وينهـب ويبتز لحسابه الخاص أحياناً.

وقد أكد رمولاي مراراً أن الشخص المسمى آنجل أبوستولسكي توتـال لم يكن إنساناً عديم الفهم أو رقيق الروح.

كانوا على مزبلـة كـروس لابـن. وكانـت أكـوام القمامـة تُحـرق في كـل الجهات، وأصوات هرج واحتجاج تنطلق معلّقـة عـلى وصـول الـسيارات العتيقة من مخلفات ميونخ وفرانكفورت، التي تهادت إلى موعد مـضروب. وكانت الريح والمطر تنشران روائح بشعة لعظام محروقة وبلاستيك ونفايات تبخرت وتصلبت. اختفى البعض وراء جبال القمامة، وانحرف البعض عن

الطريق يبحثون وينقبون في أكوام النفايات. كانت السيارات القديمة تهدر. أطفؤوا مصابيح سياراتهم، وبدا أنهم ينتظرون أحداً. ومنذ أن نزل مارك من الجبل، ومنذ أن قال للازاريتش وداعاً، لم يرَ جمعاً كبيراً كهذا من تعساء شرق أوروبا..

- ٢ -

تمعن مارك لمدة دقيقة كاملة بشعبان الثاني، ملك مزابل كروس لابن. ففي وقت مضى كتبت كل صحف ألمانيا عن شعبان الثاني، الغجري اليوغسلافي الشجاع، ومالك أكبر مدجنة طبيعية للفئران في الغرب. أما صحيفة ميونخ أبندتسا يتونغ فقد نشرت صورته واقفاً بجوار النار والزجاجة في يده وضحكة مريضة على شفتيه. وبما أن شعبان الثاني كان مضيفاً جيداً ومقتدراً فقد حاول أن تكون كل أيدي وأرجل الضيوف منارة ومدفأة باللهب. كان معروفاً بيأسه وقوته. حتى قيل إن باستطاعته في أي وقت من الأوقات، ليلاً أو نهاراً، الهجوم على رجلين مسلحين معاً وهو أعزل. أما عبارات اللاجئين السياسيين والهاربين، أو العمال الأجانب، أو محضري الأرواح والقنابل والعنف السياسي الممهور بالرقم (١١)، فلم تكن كلها تهمه أو تثيره. كان الوحيد الذي لا يخاف الانتقام بين كل الموجودين. على كل حال لم يقتل شعبان الثاني أحداً ما عدا أباه شعبان الأول. وقد عرفت أسباب تلك العركة في دوائر اللاجئين السياسيين والهاربين المطلعة. كان السبب الأول يتعلق بحياة عائلة شعبانوفيتش السابقة، والثاني يتعلق بالجرذان. كان شعبان الأول غجرياً من الرّحل والمتسكعين، من مدرسة

الرّحل البلقانية القديمة. ورغم ما كان يشاع ويحكى عن الجرذان فإن شعبان الأول كان يحصل عليهم بشق النفس. وكان يعود من صيد الجرذان فارغ الوفاض غالباً. لم يُعجب شعبان الثاني هذا الوضع. لذا حاول أن يشرح لشعبان الأول أن نسبة الربح المئوية تتراجع باستمرار، بينما يقل الإنتاج وتكبر تكاليفه ويكاد يتوقف، وتشح نسبة التخزين والنمو. والدليل أن شركة شعبان الاول كانت تقوم بأود أفرادها بصعوبة، مما اضطر الشعبانيين للتسول غالباً في ضواحي ميونخ، بدل أن يناموا على الحرير والذهب، كما قال شعبان الثاني لأبيه. ولم يستوعب رأس شعبان الأول الهرم فكرة التوقف والإقامة والبدء باقتصاد جديد ومتطور. كان شعبان الأول يفضل الحركة الدائمة، والرحيل المتنقل. لكنهم في لحظة ما توقفوا وفردوا خيامهم في كروس لابن. تلك الليلة - إذا استطعنا تصديق صحيفة المستقبل التي يصدرها للاجئون السياسيون والهاربون - بصق شعبان الثاني في شاربي شعبان الأول، «لن نتحرك من هنا خطوة!». كان الأب مهتماً بالتسكع والتعرف على عواصم الغرب الأوروبي أكثر من الغنى. بكى شعبان الثاني أيضاً، لكن من القهر. عندها استل شعبان الأول من أسماله سكيناً أشهرها بوجه شعبان الثاني، فاستل شعبان الثاني سكيناً أكبر وطعن بها أباه تحت لوح الكتف، والرقبة، ثم في بطنه. وهمس شعبان الأول أن على الشعبانيين الوصول بأي ثمن إلى أمريكا على شواطئ الشمس أمام المحيط الباسيفيكي. وذكر أنه يريد العودة لمسقط رأسه في البوسنا، ثم غرّب عينيه. سحبت عائلة الشعبانيين جسم شعبان الأول مسافة خمسين قدماً بعد الخيمة التي كان شعبان الثاني قد فكر وخطط أن يقيم مدجنة الفئران والجرذان الطبيعية قربها. وهكذا أصبح شعبان الأول طعاماً لأولى الجرذان المُنتجة على

مزبلة كروس لابن، ووضع حجر الأساس. وبهذه المناسبة غنى شعبان الثاني بملء صوته. كان شعبان الثاني صاحب إيديولوجيا البقاء والراحة. وكانت تصدح في كل أرجاء المزبلة أصداء غنائه الرجولي البوسناوي. وكانت قوانين الطبيعة والتطور في خدمته - هذا ما قالته كل مدينة ميونخ، وجزء كبير من جنوب بافاريا، وبعض المنظمات الأخرى، والمكاتب التابعة لجيش أمريكا السابع هنا - وكانت جرذان شعبان الثاني تتغذى بأفضل طعام يمكن أن يحلم به في هذا الجزء من العالم. فقد كان للأمريكيين مستودعات عديدة وسط وحول مزبلة كروس لابن، يضعون بها علب الكونسروة، وإطارات السيارات المستعملة، والأدوية القديمة، والأحذية والثياب المستعملة، وخرائط الأركان والسيارات العتيقة. وكان «بودي وود»، رقيب الجيش الأمريكي، ومهرج، وغشاش، وعازف طبلة، ومقلد أصوات في الإذاعة، أول من تصور مع شعبان الثاني على صور ملونة انتجها الجيش كبطاقة بريدية وبطاقة أعياد كتب عليها: هذا شعبان الثاني رأس أشجع قبيلة هندية في وسط أوروبا، يوافق على كل ما يفعله فتيان الجيش الأمريكي، متفهماً شوقهم إلى بلادهم، واجداً لهم العذر في كل ما يفعلونه في بافاريا. وقد غذى شعبان الثاني جرذانه بمواد الإغاثة. وحينما لم يكن يغني كان يكرر: «ستأكل جرذاني إذا اضطر الأمر... ميونخ كلها!». وليس مؤكداً، ولم يسجل في أي مكان، أن شعبان الثاني كان على معرفة وثيقة بريتشارد قلب الخنزير.

تكيف شعبان الثاني مع البرنامج الأوروبي للأمن النظافي والغذائي. وكانت أوروبا الغربية تدفع ماركاً ألمانياً واحداً لكل ذنب جرذ، معتبرة أن الذنب المقطوع يمثل جرذاً مقتولاً. كان شعبان الأول بذيئاً وقاتلاً للجرذان

بدون رحمة كي يحصل على أذنابها، بينما كان شعبان الثاني مجدداً، مخترعاً لتكنولوجيا إنتاج الأذناب بدون قتل «لماذا تقتل البقرة لتحصل على قرونها!؟» تساءل شعبان الثاني متعجباً أمام أحد الصحفيين من ميونخ، وفسّر تطلعاته ومفاهيمه للحياة. وقد كتبت صحيفة أبند تساويتونغ فيما بعد أن ملايين الجرذان تسيح بدون أذناب في أوروبا، تلك الجرذان التي دُفع لكل منها مارك ألماني. وقد اعتبرت الدوائر التجارية هذا الأمر وقاحة أو خدعة ظريفة لهذا المغترب اليوغسلافي. ولم يكن بمقدورالحكومات في أوروبا الغربية تجاوز الأزمة والحالة التي وضعها شعبان الثاني فيها. كان شعبان الثاني يعرف أن الأمور لا يمكن أن تسير بدونه، فالمصالح الكبيرة اضطرت اتحاد الغذائيين والإعاشيين في وسط أوروبا لتأكيد المساعدة والدعم التام والتسامح المطلق تجاه هذا الفيلسوف الأسود البوسناوي، الذي كان في الوقت نفسه مخالفاً للقانون وأكبر المستفيدين منه. كان شعبان الثاني معفى من الضريبة، ككل العاملين في برنامج الأمن النظافي والغذائي، مع اختلاف واحد أنه كان معفى أيضاً من تأنيب الضمير.

لم يكن شعبان الثاني يبيع أذناب الجرذان لسكرتير محافظ ميونخ شخصياً فقط، الذي تصور معه، بل للآخرين أيضاً في كل ألمانيا. وقد أُرسلت عينات من البضائع إلى أمستردام، هناك حيث كان سعر دزينة واحدة من أذناب الجرذان كبيراً بحيث يغطي تكاليف الشحن. وكان لدى شعبان الثاني رغبة قوية للاتجار مع ملوك أوروبا الباقين، ليس من أجل النسبة والربح بقدر ما هو من أجل السمعة والشهرة أيضاً. في البداية سارت الأمور كما يجب مع بلجيكا والدانمارك، وخصوصاً مع السويد، ومن هناك جاءته دعوة. أما التقارير الواردة من بورصة فينا لأذناب الجرذان فكانت

أكثر من مشجعة. فدلّك شعبان الثاني يديه المليئتين بالعقد، المدهونة بالـدم، ذات المخالبْ كالقوارض.

كانت شركة شعبان الثاني شركة خاصة مغلقة بشدة، مـن أي مـساهمين ولا رأسمال أجنبي. يقـوم أفـراد العائلـة بكـل أعمالهـا. إنهـن ثـلاث نـساء غجريات يلبسن السراويل الغجرية الطويلة ومن حولهن أعداد غفـيرة مـن الأولاد، وامـرأة بيـضاء مـصروعة جـاءت مـن تكـسلا في جزيـرة الطيـور الهولندية. ولم يوظف شعبان الثـاني في شركتـه أيـاً مـن العـمال الأجانـب أو السكان الأصليين. وكان يطلق على نفسه مازحاً اسم أنجـح مهـاجر سـافر من يوغسلافيا على مر العصور. وتعتقد مطابخ السياسة في ميـونخ أنـه منـذ القضاء على شعبان الأول عام ١٩٥٥ وحتـى الآن، اسـتطاع شـعبان الثـاني تطوير الإنتاج على خط صناعي، بحيث أمكنه إنتاج وبيع أكثـر مـن مليـون ذنب جرذ. وكان باستطاعة شعبان الثاني القـول بكـل حريـة إن المنافـسة لا تهمه، وإنها ليست بمستوى ركبته. وذات يـوم ظهـر عـلى مزرعـة الجـرذان فانجو البلغاري ومعـه آلـة طولهـا ثلاثـة أمتـار مخصـصة لقتـل القـوارض. فاستقبله شعبان الثاني. ضمّه وقبله بشوق في فمه. كان ذلك في السنة نفـسها التي ولدت فيها الهولندية ثالث غجري أشقر لـشعبان الثـاني. كـان فـانجو دائم السعال، «من تلـك القبلـة في الفـم!» كـما كـان يقـول لنفـسه ولأحـد أصدقائه الأعزاء. وكـان فـانجو تـودوروف إنـساناً رقيقـاً ذا شـكلٍ مـسالم ووديع، أذناه شفافتان، فتحتا أنفه صـغيرتان، وعينـاه حالمتـان. «غنّـي.. يـا لربك البلغاري!» كان شعبان الثاني يرعد بوجهه، وهـو يريـه كيـف تقـص أذناب الجرذان. «غنّي حتى لا تختنـق!». في أحـد الأيـام لم يعـد فـانجو مـن

الصيد. انتظره شعبان الثاني حتى منتصف الليل وفوق صدره زجاجة كحول ممزوجة من مشاريب عديدة. ولم يكن للبلغاري أثر ولا صوت. عندها قبّل شعبان الثاني هولنديته من فمها.

كان هوفي السلوفاكي أفضل صياد. كان صياداً دقيقاً ومحظوظاً. وكان يحب العرق مع البيرة مع القهامة، ويغني. وقد تهيأ لشعبان الثاني اليوم وهما متعانقان بأنهما سيتمشيان ويسيحان في كروس لابن كيوم لقائهما الأول. وكان من عادة هوفي حينما يسكر أن يبدأ الحديث عن السكين، عن دم تشيكي، عن انتقام لن ينجو منه أحد. احتضنه شعبان الثاني إلى خصره وهو يمتصه ويعصره. وكان هوفي يمسك للحظة رأسه وللحظة مؤخرته. وكان يشكو بأنه قد اكتفى من كل شيء، من الغرب واليأس واللا أمل ووحدة الهاربين واللاجئين السياسيين. وبما أن شعبان الثاني كان بروحه فاشياً وعنصرياً فقد فهم السلوفاكي أفضل من أي إنسان آخر. لذا عرض عليه أن يزوجه من أكبر غجرياته. ووجد شعبان الثاني أمام باب خيمته في أحد الصباحات آلة البلغاري، المكونة من نابض وخيط قنب وخشبات مدماة. ثم اختفى هوفي، فتنهد شعبان الثاني.

أما لودفيك هو لزمان، الألماني الشرقي الأشيب بنظارتين سميكتين، فقد بقي في كروس لابن أكثر من الجميع. ناداه شعبان الثاني منذ أول لقاء بينهما: يا أخي، يا صديقي، يا دكتور. ولم يستطع هولزمان أن يفهم كيف يمكن للإنسان أن يحب منافسه. أضافه شعبان الثاني، بعد أن أسكره بشدة أولاً. ورغم احتقار الألماني الشرقي لآلة البلغاري إلا أنه لم يرغب بامتلاك آلة خاصة به. كان هولزمان يصيد الجرذان بيد واحدة كالساطور، بينما يمسك

بالأخرى، ليلاً ونهاراً، كُتيباً رُسم على غلافه صورة المعلـم مـن لايبزيـغ[1]. وكانت كل الدلائل تشير إلى أن الألماني الـشرقي كاتـب وصـحفي، أو عـلى الأقل شاعر الجرذان. كان هولزمان يائـساً يحـنُّ لوطنـه. ولم يكـن يـستطيع تناول طعامه بيد واحدة. كان يأكل وينام ويسكر عنـد الـشعبانيين في غرفـة المؤونة. وكان الشعبانيون يـضمدون ويـدهنون جراحـه. وكـان كلـما فـتح الكتاب يبدأ حـول البـضاعة والعمـل وزيـادة القيمـة. لكـن الـشعبانيين لم يتعلموا القراءة والاستماع والتفكير. كانوا يقفزون ويـصطادون ويحزنـون، وكان هولزمان يعطي جل اهتمامه للكتاب والتفكير بالمستقبل بـدون مزابـل ولا نسبة مئوية ولا رأس مال. كان الـشعبانيون يعلمونـه الغنـاء والـسعال وكيفية العهر في العملية الجنسية. كانوا يعرضـون أنفـسهم عليـه، فيكتفـي هولزمان بالإشارة بإصبعه إلى الرجـل الملتحـي عـلى غـلاف كتابـه ملوحـاً برأسه. وهذا ما كلفه رأسه. لقد اسـتمرت عمليـة خنقـه ليلـة كاملـة أمـام الدخان واللهب.

أما الكتابُ والعينان والأعضاء الطرية الأخرى فقد هاجمتها الجرذان قبل أن يسلم روحه. وإذا صدقنا نشرة يـسارية يـصدرها المجرمـون، فـإن آخـر كلمات هولزمان كانت موجهة إلى نتن الرأسمالية ونظام تعدد الأحـزاب. وفي مقالات عديدة وبلغات أوروبية شرقية مختلفـة، أكـدت صـحيفة المـستقبل للاجئين السياسيين والهاربين أن وراء اسم هولزمان المجـدور يختبـئ رجـل مخابرات ألماني شرقي خطير، وأن محطة راديو خاصة به كانت مخبأة في مكـان ما من مزبلة كروس لابن، وأنها لا تزال تـستقبل وترسـل الـشيفرة لجهـات

1 - كارل ماركس. - المترجم -

متعددة. أما صحيفة أبندتسايتونغ فقد صمتت بحكمة احتراماً لشعبان الثاني.

لم يكن شعبان الثاني بحاجة إلى النقود، حتى بات لا يعرف ما يفعله بكل هذه الماركات التي تتكوم. لهذا كان يجمع أفراد عائلته ويريهم كيف يغذي الجرذان بأوراق النقد من فئة مئة مارك. ولم يكن الشعبانيون استهلاكيين بالمعنى المعروف. وكان لديهم في كروس لابن أكثر مما يريدونه من الطعام والأدوية والثياب والأحذية وألعاب الأطفال، أي كل ما يلزم إنسان اليوم. كان شعبان الثاني الرجل الوحيد غير المستهلك في كل ألمانيا الإتحادية. لهذا لم يمسك في حياته صحيفة أبندتسايتونغ التي تكتب دائماً عن حرب الإخوة والذبح والفظائع بين فقراء شرق أوروبا...

- ٣ -

كرر يرمولاي لمارك بأن قدميه تؤلمانه، وأن الغثيان لا يفارقه، وأنه ليس متأكداً من قدرته على البقاء حتى نهاية الاحتفال. أسنده مارك، بينما جلس توتال خلف المقود وهو يلاحظ بعض الحثالة المغامرين، المموهين كممثلين، وهم يحومون حول المضيف شعبان الثاني الذي لم يرغب أحد بالشرب من زجاجته.

كان مارك يعرف أن سيموماتا روكا «بيتون» يحوم في بافاريا بسيارته الإيطالية ذات المقعدين، بلوحات مسجلة في مدينة بون. لكنه لم يستطع الافتراض بأن بيتون قد التف حول كومة من القمامة محنياً كشبح من الأرواح. كان بيتون هذه الليلة بقفازين أبيضين، وقبعة ذات حرف عريض

غطت جبينه الواطئ مثل قرد وعينه الشريرة، وبعض الندبات الجدد. ولم يكن مارك قد رآه منذ تلك المعركة مع كولار. وقيل إن بيتون قد أصبح من أكبر الكبار منذ أن استسلم له ورضخ للعمل تحت إمرته كل المجرمين في شتوتغارت وضواحيها، وكل سارقيها ومبتزيها ومختطفيها، كل الذين جاؤوا من حدود يوغسلافيا - اليونان. وقيل إن مهربي الحشيش والهيروين في بريمن وكل تجار الأسلحة الخفيفة الأوتوماتيكية قد اقتربوا منه وأقسموا أمامه على الوفاء إلى الأبد. وقيل أيضاً إن البولنديين والبوسناويين قد ركعوا على ركبهم أمامه، أولئك الذين كانوا يتزعمون بعض الأماكن في تريستا وميلانوا وجينوفا - إيطاليا قبل استسلامهم له. وكان بيتون يريد أن يتخطى كولار بأي شكل. وكان أشبال بيتون، كما يحلو له أن يسمي ذلك الجيش الذي أعماه بالخوف والذهب، يشرّحون في الزاس بسويسرا والنمسا، ووصل بعضهم إلى المحيط الأطلسي، وهناك قتلوا. وكان بيتون يسيطر على بون وبادن بادن، بعد أن خطط لذلك، منذ أن اصطدم مع كولار وراح يحضر عجائزه من الجنسين. كان يغامر، ويبحث عن كرسي فيودوروف. وكان تعيساً لأنه يربح دائماً، حتى أصبح لا يعرف ما هو فاعل بآلاف الدولارات والفرنكات والغولدنات، كما قال مرة لأحد اللاجئين السياسيين والهاربين الذي أصبح منذ فترة وجيزة آكل لحم بشري ومراسلاً صحفياً لجريدة المستقبل. لكن بيتون أتى إلى ميونخ هذه الليلة ليذبح أحدهم من أجل مارك ألماني واحد فقط، ومن أجل الثأر.

كان بيتون يبحث بعينه الصحيحة عن ضحيته. في إحدى يديه حقيبة دبلوماسية مليئة بالألماس والحروف وبعض الشعارات. وفي يده الثانية ساطور جزار ومنديلاً من قماش البشكير.

- ٤ -

ببزة مهلهلة وعريضة، وقف فرومكين مبللاً وذليلاً جانب بيتون وهو يرتجف. كان عاري الرأس، سكران، غير مستقر على قدميه، ولا تكاد تفهم كلماته. وكان يريد من الجميع أن يفهموا أنه المعذب من أوديسا، الأسير الألماني رقم كذا وكذا، والآن المتسكع والشحاذ، قد أوصى على هذه المذبحة التي كان الجميع ينتظرها، وأنه دفع أجورها مقدماً، ماركاً ألمانياً واحداً للسيد بيتون.

كان فرومكين يضم إلى صدره دفتراً أشبه بدفاتر أمناء المستودعات، وكان مستعداً لتسجيل كل ما يحدث. كانت أسنانه المهترئة تهتز، وهو يشرح كيف استبدل دمه حينما كان في الجبل عند ريتشارد. وبهذا كان يفسر تلك الآلام الفظيعة التي يحسها تحت أضلاعه وبطنه، والقلق الذي كانت تملؤه الخفافيش وفراشات الليل بأجنحة فضية، والبكاء الذي يتحول إلى خوار. لقد بقيت أصابع هذا اليهودي وعيناه الاثنتان عليه، ولم يقطعوا سوى أذنيه فقط.

- ٥ -

وشاهد مارك فاسكولوبييسكو الروماني، وأوتكار هوديك التشيكي، وهما يسحبان من سيارة الصالون شيئاً ثقيلاً بهيئة إنسان مربوط بخيط من القنب. لقد أكد لوبيسكو الذي كان كل شارع شيلر يدعوه مشفقاً: «قطار الخبث للهاربين الجدد» إنه أقدم لاجئ سياسي في الخدمة من دول شرق

أوروبا في ميونخ ـ وطالب أن يعترف له بهذا الحق. لكن شارع شيلر اعتبره اللاجئ السياسي المخضرم فقط.

تقدم لوبيسكو في عام ١٩٤١ من أحد الألوية الألمانية وانضم إليه. وقال إنه يرغب بالهجوم معهم على روسيا. لم يأخذه الألمان. لكنه كان عنيداً ومصراً، فألبسوه ونعلوه وأخذوه معهم. وظل يقشر البطاطا حتى موسكو، يفرم الجزر، ويهرح لصف الضباط. ثم فقد وعيه أمام موسكو، من البرد كما قال فيما بعد، ولم يعد إلى وعيه إلا في بوخارست. كان الوقت صيفاً والحرب لم تكتسب بعد. وكان الخوف والصقيع قد عششا في عظامه منذ أيام روسيا، لهذا لم يتوقف عن الرجفان. في ذلك الصيف ابتدأ يقتني كل ما هو مصنوع من الصوف ليتدثر به. ورغم ذلك ظل يرتجف خائفاً. وكانت المرة الثانية التي أضاع فيها لوبيسكو عقله ووعيه عام ١٩٤٥، حينما وقع الألمان صك الاستسلام. كان وقتها في ميونخ ووقع من طوله كالمقصوص. وأتى الصيف ثانية، ليقتنع أنه قد خسر الحرب فعلاً، وأنه كان يرتجف كالمصاب بالملاريا. ولا زال الناس في شارع شيلر حتى الآن يكررون أفكاره قبل الحرب «المعطف. أهم شيء هو المعطف! يجب أن يحتويك المعطف من رأسك حتى قدميك. حينما يراك الناس ملتفاً بالمعطف لن يخطر ببالهم أن يسألوك لماذا أنت بدون سروال داخلي!» وكل المعاطف التي يحصل عليها كانت طويلة عليه، وهذا كاف لتفهم كم هو طويل!. ومنذ أن عرفه الناس حتى هذه الليلة كان بوبيسكو يضع مسماراً في تلك الزاوية من فمه. لهذا ظل الناس في شارع شيلر يتساءلون عما كانه قبل انطلاقه للجبهة الشرقية، أكان ضابطاً ممتازاً ملكياً، أم نجاراً؟!.

- ٦ -

ساعد لوبيسكو الروماني التشيكي الأحدب المتعظم هوديك. ولم يكن هوديك يعرف من أي الجهات يمسك ذلك المخلوق داخل كيس القنب وهو يختنق وينتفض. وكان هوديك كلاجئ سياسي هارب يدور منذ مجيئه إلى ألمانيا حتى الآن حول المحطة بدون أي معطف، وهذا ما أثار الفزع عند لوبيسكو الذي لم يستطع أن يغفر لهم، كما غفر الروماني، رفضهم لمحاكمته في نيرنبرغ[1] مثل الآخرين. لهذا كان دائم الصلاة لله. وكانت الصلوات تدفئه. وكان هوديك يبيع التقاويم وصور القديسين وأدعية الكنائس، ويضع كل ما يحصل عليه بانتظام في ميزانية تدفع للمحاربين لتحرير تشيكوسلوفاكيا. وكان يقول إن العالم يملكه الشيوعيون، السلوفينيون والمجريون وأمة لا يعرفها أعتى اللاجئين السياسيين والهاربين من شارع شيلر. ولم يكن هوديك يعمل من الشمع شموعاً وصلباناً فقط، بل وسكاكين كبيرة ومشانق. وادعى إنه واحد من جيش المرتزقة للكاهن أرانجل، الذي كما أكد، كان يضرب بقنابل الشمع على الطاولة، معتبراً نفسه المحارب الوحيد بنجاح ضد الشيطان وأتباعه وأعوانه على طول السماء والأرض وعرضهما. وكان شارع شيلر يصدقه.

في وقت من الأوقات اعتبر بيوترا أمل اللاجئين السياسيين والهاربين السلوفينيين، حتى نسجت الحكايات حول براعته وشدة بأسه، واعتبر أول رجل سيُكتب له تزعم مارش المنتصرين في وارسو وبراغ وموسكو. وكان

---

1 – مدينة جرت بها محاكمات الفاشيين الهتلريين. – المترجم –

يتمرن بجانب بحيرة بودنسكا مع كل إرهابيي شرق أوروبا والقتلة والمرتزقة على الإطلاق. وكان مليئاً بالنقود والشوكولا والسجائر. وكان من الصعب أن تكلمه. لقد احتفل الأكرانيون طويلاً بمناسبة قفزته الألف بالمظلة في إحدى ساحات بافاريا على الطريق إلى بادتولز. أما الخطاب الرسمي في ذلك الاحتفال فقد كان من نصيب بوندارنكو. لكن بيوترا سرعان ما أدمن السكر. وعندما تقرر زرع الألغام في قنصلية يوغسلافيا في ميونخ وفي شركات الطيران والمكاتب التجارية، تراجع راكعاً، وبكى كأنه يبكي أمام أهله، وصاح: «إخوتي!» ثم هرب. وقد تحدث الآخرون في كل المدن حتى شتوتغارت عن جبنه هذا. ورغب من العار أن يقصر عمر نفسه وعذاباته، لكنه لم يعرف كيف. صار يتسكع حزيناً بالقطارات ومحطات السكك الحديدية، ولم تشأ أي من المنظمات الإرهابية أن تحتويه، فعرض نفسه على الألبانيين والأكراد والبلغار، حتى بدون تعويض. وقد دفعه بيتون بقوة حتى رماه أرضاً أمام عشرة من جيشه المرتزقة وهو يقول: «أيها البولندي، يجب أن تنتحر!».

نقل بيوترا على إثرها لمزرعة ريتشارد في الجبل، حيث كان البعض يتدربون على هجوم على قنصلية يوغسلافيا في شتوتغارت. وفي ليلة باردة ضبط ريتشارد بيوترا وأحد السلوفاكيين واسمه ميروسلاف فوق كتابه الأسود. فرمى ميروسلاف أمام جوزفينا لتقطعه أشلاء، وقصَّ لبيوترا إبهامه الأيمن فقط. وعندما شفي أحرق عدة براكات كان يعيش فيها العمال الأجانب اليوغسلاف، وهكذا حل عقدة الجبل والأسر. ومن وقتها أصبح اسمه في المقاهي حول ميونخ ومحطة السكة الحديدية: اللاجىء السياسي البولندي العدم، الحشرة.

- ٨ -

وقف مارك وراء يرمولاي متجمداً. وكان يرمولاي يستفيق. وشاهد مارك لويبيسكو وبيوترا وهما يسحبان من كيس القنب جسداً آدمياً عارياً. صلب هوديك وهو يخرجه. وتنبأ الواقفون في الظلام وسعلوا. إنه شاندور كولار!! منتفخ الوجه، دامي الجسد، أخضر اللون، موثق اليدين والرجلين. وكان ينظر حواليه مأخوذاً. وخيل إلى مارك أن كولار لا يرى أحداً، حتى ولا شعبان الثاني، الذي وقف يعرض عليه زجاجة عرق من كروس لابن. ارتسم على صدر كولار وشم نهر الدانوب. لمعت سكين بيتون أمام القنديل المعلق على بعد خطوات من هذا العرض المسرحي المهيأ ببراعة. وأحس مارك بالدمع يتدفق سخياً من عينيه حزناً على كولار، ولم يلاحظ البادئ أولاً بالأسئلة والشتائم...

هوديك: «أيها المجري، هل استطعت أن ترفع حائطك الأسود أخيراً؟».

كولار: «ليس بعد، أيها الغبي التشيكي المكور!».

هوديك: «ولمن تبني ذلك النصب التذكاري؟».

كولار: «لنا جميعاً. نحن اللاجئين السياسيين والفارين!».

هوديك: «ومتى سينتهي بناء هذا النصب التذكاري؟».

كولار: «لن ينتهي!».

هوديك: «كيف؟».

كولار: «يهرب الناس من الشرق منذ نشوء الخليقة، والهروب الأكبر سيبدأ لاحقاً!».

هوديك: «وما الذي سيحدث للنصب التذكاري بعد موتك؟».

كولار: «ستعلو جدرانه!».

هوديك: «ولماذا أحجاره سوداء؟».

كولار: «أوصيت عليها ودفعت. هكذا أردت!».

فرومكين والكتاب السميك على صدره، بصوت متقطع: «كولار، حينما اختطفتني تلك الليلة وبعتني لأولئك على الجبل، هل فكرت أن عقاباً كهذا سيحل بك؟».

كولار: «أيها اليهودي، يا منظم دفاتر الموت، عملتُ كل شيء ليصلني العقاب أسرع!».

فرومكين: «وكم أخذت ثمناً لي؟».

كولار: «أكثر مما أخذته أنت ثمناً لي يا فومكا!».

فرومكين: «كولار، ما يهمني هو الثأر فقط».

كولار: «وأنا أيضاً أيها اليهودي!».

فرومكين: «وممن تنتقم الآن؟».

كولار: «يا منظم دفاتر الموت، امسح دموعك وانشق مخاطك أولاً!».

فرومكين: «أصحيح أنك جمعت مليون مارك؟».

كولار: «سأعطي كل واحد منكم أنتم السبعة مليوناً، مليونين. حرروني فقط».

فرومكين: «كولار، الثأر هو الثأر!».

قال لوبيسكو بصوت واضح مرتفع ليسمعه الجميع، وهو يحتل مكان اليهودي وكتابه: «كولار، سمعنا أنك كتبت مذكراتك شعراً. أسمعنا».

كولار: «بل درامياً أيها الأمير!».

لوبيسكو: «وأين هي؟».

كولار: «مطمورة على رأس جبل فيزوف[1]!».

لوبيسكو: «ولماذا هناك؟».

كولار: «لقد خلقت تلك القمة لليل والنهار. شاهدي هو رجلي البسناوي الفونسو. درامتي تحت الرماد!».

لوبيسكو: «كأنك تريد اعتبارنا درامتك، حينما يذبح السبع وتتكاثر السكاكين أليس كذلك؟».

كولار: «أنتم الآن مقبورون...».

يرمولاي وقد خلا صوته من الانتقام:

«فنكر، أيها الملعون فنكر، بقيت مديناً لي بعشرة رؤوس رومانية وخمسة أستونيين أوليتش لا أعرف، ثم سبعة رؤوس بولندية. ولن نتحاسب عن الخمسة عشر رأساً قرباطياً وفلاخياً وكاجوبياً!».

كولار: «باشوشكا، وأنت أيضاً لم توفني العشرين رأساً بلغارياً. كنت قد أعطيتك إياهم ديناً وليس هبة!».

يرمولاي: «فنكر، هذه الليلة يجب أن نصفي حسابنا».

---

1 - جبل في إيطاليا مشهور ببركانه. - المترجم -

كولار: «أحيسبوا! لهذا أنتم هنا!».

يرمولاي: «وأين دفتر الحساب؟».

كولار: «باشوشكا، ستموت أنت أيضاً، وسترى كيف تشعر حينما يسألونك عن الحساب».

يرمولاي: «لن نذهب من هنا حتى نعرف أين دفتر الحساب!».

كولار: «في أحشائي، في بطني، في مكان ما هناك ابحثوا!».

يرمولاي: «حسب إحدى نظرياتك، المجري كائن بدون قلب ولا كلى ولا بنكرياس...».

كولار: «باشوشكا، هذه ليست نظرية. هذه ح - ق - ي - ق - ة!. في الزمن الغابر كان للمجري قلب. خنقوه له، ضايقهم! كانت له روح. خلصوه منها هي الأخرى، كانوا محتاجين لروح مثل روحه! استلوا من المجري عضواً إثر عضو، ضلعاً بعد ضلع ولم يبق له إلا الزعانف، والثقوب، والذنب!».

يرمولاي: «أينطبق هذا عليك؟».

كولار: «باشوشكا، فارغ أنا...».

شعبان الثاني، غاضب لأن المجري يرفض مشروبه:

«إذاً غَنِّ يالآلهتك المجرية!».

يرنم كولار بالمجرية وبحرارة، مقاطعاً وحروفاً:

«مالك الحزين يطير في السماء

يطير تجاه وطنه وبيته

وشاب فقير متكئ على عصا يتوقف..

طيري أيتها الطيرة! إن كان بوسعك،

خذي رسالتي

وقولي لطيرتي

ألا تذرف الدمع من أجلي...

لتنسَني وتَسْلُني..»

يرمولاي: «فنكر، عتبت على كل أمتنا الهاربة اللاجئة السياسية، نحن الأحياء وأولئك الذين تتفسخ عظامهم في الغربة الباردة».

كولار وهو يزيل دمعه بنفض رأسه: «ليفجر الكلب بأمهاتكم كلكم! لو كنتم كما يجب لمتم في أوطانكم كالبشر. ولم تكونوا لتحملوا في الغرب صلبانكم لتؤسسوا مقابر الغرباء! يا مرضى السفلس!».

بيتون: «أيها السادة السناتورات. لا تعجبني هذه الأحاديث. أنتم تتشاءمون. لا أفهم شيئاً من فلسفة الهنود ورياضة اليوغا التي يمارسها اللاجئون السياسيون والهاربون، ولا أعداد ايسيدور كوزمينسكي، ولن أعرف. وللفارق عنكم أيها الأباطرة، ليس لدي و - ق - ت!».

يرمولاي: «اذبحه يا سيد بيتون!».

كولار: «باشوشكا، لا تنسى أن كل ديون فيودور ميخايلوفيتش دوستويفسكي التي كونها في بادن بادن ومنخفضات الراين قد دفعت مضاعفة مئة مرة!».

يرمولاي: «فنكر، أهذا هو المهم بالنسبة لك؟».

كولار: «بل الأهم! وأريد أن تخبروا بذلك سوبوتيتسا[1]!».

يرمولاي: «من نخبر فيه؟».

كولار: «سوبوتيتسا اسم مؤنث!».

يرمولاي: «فنكر، لا تحمل أي هم».

كولار متوجهاً لبيتون الذي يشمر عن ساعديه ويسعل: «أيها القرد البوسناوي، لا تزال تفوح روائح عضوك المسحوب من مصارين الماركيز! أيها الحشرة النتنة...».

وحتى اللحظة التي لوح بها بيتون بيده، كان مارك يظن أن هذه السجالات الليلية للاجئين السياسيين والهاربين ستنتهي ككل مرة بالشتائم والإتهامات، وأخيراً باقتسام النقود والغنائم الأخرى. لهذا لم يتلفظ مارك بأية كلمة، رغم أن الكلمات كانت تختنق في حلقه: «لا تذبحوا أخي الكبير!» فكر مارك أن يهمس متشنجاً. كان يبكي بصمت مثل يرمولاي الذي وضع مخالبه على كتفه.

انتفض كولار بعد طعنه تحت ثديه الأيسر، هناك حيث كان وشم نهر الدانوب أكثر صخباً وضراوة، تشنج مصراً على أسنانه، ثم ارتمى. وقف بيتون فوقه كممثل مسرحي يتمتم: «أيها المجري، كم مرة أرسلت لك رسائلي من منخفض الراين أعرض عليك أن نقتسم فلم ترغب. الآن كل منخفضات ألمانيا ملكي».

كان جسد كولار هادئاً. دون أدنى انتقام في عينيه المفتوحتين المنغوليتين. ينير اللهب الذي يخفت وجنتيه المتطاولتين، ويهطل المطر رذاذاً.

---

1 - مسقط رأس كولار في يوغسلافيا. - المترجم -

- ٩ -

لكان مارك نسي السكين التي هدأت في صدرالمجري لدقائق، لو لم يحدث ما بعد ذلك. لقد طلب هوديك باسم القديس ميخايلو وجيشه وممثليه على الأرض أن يقطع ويرمي بعيداً ذلك العضو الخّطاء، فازس والخصيتين. ثم وقف يراقب المنظر كأنه يلتذ. أما فرومكين فكان يسجل كل شيء في كتابه.

كان لوبيسكو، إضافة ليرمولاي، الوحيد المتدفئ وهو أشبه بغراب دون منقار. طلب أن يحصل على يد كولار اليمنى من الكتف، تلك التي - كما همس - كان يعد بها ملايين الماركات، والتي كانت الأقوى والأشقى والأكثر ترويعاً. لوح بيتون بالبلطة، وكان لوبيسكو ينتظر أن يجتثها وهو ممسك بها.

كان بيوترا يبكي وهو يعانق ما تبقى من جثة أسرع رجل في ألمانيا والنمسا والسويد، وهمس أنه قد تخيل عقاب الأكبر والأمهر بصورة أخرى. وقف رجل يرتجف وراء البولندي، لم يجرؤ على إظهار وجهه، طلب هو الآخر قطعة من جسد المجري، قطعة كانوا قد أعطوها لواحد غيره عندما ابتدؤوا التقسيم.

كان فرومكين يوزع الأعضاء والقطع حسب نوعها، ويسجل بكل لغات شرق أوروبا، بالإضافة إلى لغته اليهودية، وكان شعبان الثاني يغني.

همر يرمولاي صائحاً ليفتحوا بطن كولار، من البطن حتى الرغامى، ليبحثوا عن الكتاب وعناوين ليسابون والملايين. فابتدأ بيتون يفتح بسكينه

عاملاً بالبلطة دوائر تفرق العظام والغضاريف بعضها عن بعض. مدّ يده وابتدأ يبحث في أحشاء كولار. بدا الروسي مقشعراً متوتراً وهو يخبرهم، مشرئباً فوق كتف بيتون، عن عدم وجود أية أوراق في الداخل. تأتأ يرمولاي أن البحث يجب أن يستمر حتى النهاية.

«باشوشكا، هذا المجري الملعون لا يمكن اجتثاث قلبه!» قال بيتون جاعراً.

«يا سيد بيتون، هل ضمر رغم صغره؟».

«باشوشكا في حفرة صدره.. لا يوجد شيء إلا القلب! كله قلب.. قلب واحد.. مجري».

«إخوتي!» قال يرمولاي لآكلي لحوم البشر المذعورين: «الآن أصبح واضحاً لكم كيف كان كولار يتنفس ويعمل كل شيء آخر!».

«أنا نادم!» مأمأ فرومكين، وهو يسجل بأن أكبر قلب بين قلوب اللاجئين السياسيين والهاربين بقي في كروس لابن.

«يا سيد بيتون اكسر قرعته، جمجمته!» أمر يرمولاي باشمئزاز وهياج مكتوم «لنرَ ما الذي يمكن أن تحتويه أجمل قرعة هنغارية!».

«تسع سنوات بجواز سفر يوغسلافي مُلغى!» قال بيتون بصوت مرتعد، وهو يريهم المكان الذي نامت به وثيقة السفر الحمراء ذات الشعار الذهبي على غلافها داخل الجمجمة المسطحة «حقيقة كان اسمه شاندور كولار! وكان فعلاً من سوبوتيتسا!».

«لم يبق إلا أن نسجل أن الحفلة أقيمت يوم ٣١ كانون الأول ١٩٧٢ قبل الفجر» قال فرومكين المرتعد وهو ينظر كيف يتفرق الممثلون ويتركونه وحيداً مع كتابه.

وضع بيتون البلطة في الحقيبة الدبلوماسية، ثم جلس وراء مقود سيارته ذات المقعدين دون أن يحيي أحداً. عرض شعبان الثاني عليه العرق، لكن بيتون خطى بعجلاته فوق النار الهامدة ثم اختفى.

تفرق الآخرون، البعض في سيارات عتيقة دون إشعال أضوائها، والبعض سيراً، في تلك الشوارع التي كان شعبان الثاني قد زفتها مع أفراد عائلته خصيصاً للحفلات.

- ١٠ -

كانت اللوحة على باب بيت يرمولاي في ميونخ باسم وكنية ألمانيين. كان البيت مؤلفاً من بهو به (كمين) للتدفئة، وعدة غرف مليئة بأحدث أنواع الأسلحة، وبزات جنود من كل جيوش أوروبا وألبسة الشرطة والدرك. وقد تدلت التذكاريات على الجدران ومعظمها خوذات معدنية مثقوبة وصدئة، وأيقونات روسية ويونانية وصربية. وكان أكثر ما يعجبه عليها الشحار ومخلفات الجمر والدخان.

«نحن بريئون» قال يرمولاي خائفاً بصوت خافت، بينما كان مارك ينزع عنه جزمته ويدهن قدميه بدهن الكورتيزون. «شخص آخر هو المذنب لهذه الجريمة التي ارتكبناها. كل ما فعلناه حتى الآن، وكل ما سوف نفعله، هو دليل على ذنب وخطأ الآخرين. نحن ضعفاء بدون أية حماية. لهذا نقتل! كيف نفسر بأننا سنظل نسفح الدماء حتى تفهموا أن حياتنا نحن اللاجئين السياسيين والهاربين هي عقاب، وأن كل ذنوبنا صك اتهام ضدكم؟ من سيكفر عن أخطائنا وذنوبنا وكيف؟؟». كانت مجموعة الصلبان من كل

الدول الأرثوذوكسية وكل شعوبها تزين الحائط الفاصل بين البهو الكبير وغرفة نوم يرمولاي والجناح الذي يناوب فيه مارك دون أن يشلح ثيابه والرشاش على صدره. كان الجدار عبارة عن مخبأ سري، لم ينفتح حتى الآن أمام أحد. وكان باب المستودع الأكثر سرية عريضاً بحجم مترين، يضيء أمامه قنديل ناعس دائماً. وكان يرمولاي يجلس هناك غالباً بعد صفقة رابحة، أو قبل ذهابه للرقاد بدون نوم، بعد أن يصلي أمامه. إنه المكان الوحيد الذي لا يسمح أن يشرب به الخمر أو أن يُعهر.

«أنزل في مجرى الصرف الصحي أيها الناس، من فوق الأرض!» تابع يرمولاي ذو العينين البللورتين المجنونتين وهو يسخن زجاجة النبيذ: «فإذا ما نزلتم إلينا لحظة، فسترون عظاماً مختلفة تلتمع وتتفسخ، وعيوناً تحترق وتتهم. سترون عندنا في عالم الجريمة تحت الأرض مكاناً تحققت فيه كل الأهداف الثورية، كلنا نملك الحقوق والواجبات نفسها، أقصد العقاب. نحن الذين قضينا على الفوارق بين الناس وليس أنتم، وبين أديانهم أيضاً. يعيش الشعب اللاجئ السياسي نفسه تحت شيكاغو وهونغ كونغ وميونخ. حطمنا كل سلطة، كل حكومة. ونستطيع أن نقول بكل فخر لكم إننا حققنا لأول مرة في التاريخ الأخوة الحقيقية والمساواة والمثالية. فوق الأرض عدد هائل من الطرقات، وتحتها واحد فقط، طريقنا المشترك، بدون مفترقات ولا شاخصات، طريق العذاب والعقاب، الدم والموت!».

لم يخفِ يرمولاي عن أحد تلك الحقائب الكبيرة التي لا زالت عليها عناوين فنادق بتروغراد وبوخارست وفينا. كان يفتخر بها. فتحها مارك، كانت مليئة ببزات أثرية، أحذية قديمة، ملفوفة منذ خمسين سنة وأكثر، ألبسة مصفرّة اللون، نابض للشد، أثقال من كل الأحجام والأشكال،

أقنعة، قبضات نحاسية من سنة ١٩١٩، كرابيج، قطع نقدية قديمة من ذات ألف الروبل، سندات، لباس كراتيه، بطاقات أعياد، خيوط قنب، سكاكين، وبطاقات دخول لمسرح البولشوي.

وكان يرمولاي يطلب، وهو سكران أو صاحٍ، أن يُحضروا له من روسيا قبراً كبيراً ونظيفاً. ولم يستطع أحد تلبية الطلب الذي كان يسميه الطلب الأخير. لهذا أحضر كل من سافر إلى روسيا خفية كمية تراب من هناك، كيلو غراماً بعد كيلو غرام، يضعونها في كيس قنب تحت القنديل وأمام باب المستودع الأكثر سرية. لكن التراب كان قليلاً دائماً بالنسبة ليرمولاي. والآن، حينما جلس كي يدهن مارك قشور رجليه الخضراء بالمراهم قال: «حينما تنهار الشيوعية والشرك سأكون أول النازحين عن الغرب الذي لم أستطع أبداً أن أفهمه وأستوعبه». كان يريد أن ينام نومته الأبدية في الأرض الروسية المقدسة، هناك جانب نهر الدون. وكانت تلك الحقائب مهيأة منذ الآن لتُحشر في قطار الشرق...

بعد مقتل كولار لم يخرج يرمولاي ومارك من المنزل في شارع جيورجن لأيام طويلة. وكرر يرمولاي إنها المرة الأولى منذ أن ابتدأ يصفي حساباته مع الناس التي يُقتل فيها من هو أفضل منه نفسه. ولاحظ مارك أن يرمولاي كلما رمش بجفنيه إنما كان يصلي لسلام البريئين، ويهمس «حتى المجريين منهم، وروح كولار بينهم».

كان بيتون يحضر لهما الطعام والكحول والمجلات، ولم تذكر صحيفة ابندتسايتونغ أي شيء حول الثأر على مزبلة كروس لابن. وبقدر ما كان يرمولاي شاكراً لذلك بقدر ما كان مهتاجاً أيضاً. كان يصيح من النافذة

راعداً على عالم فوق الأرض، ناعتاً إياه بالعالم فاقد الروح، عالم مرضى السفلس، والمخطئ الوحيد لسفح دم الشاب من سوبوتيتسا ذي الشعر الأبيض الذي عاش بدون أبوين ولا حام يحميه.

استلقى يرمولاي والزجاجة على صدره، كأنه يخاطب جمهوراً متخيلاً عن عذاباته ويأسه، عن حزنه على كولار. كانت عيناه بللوريتين، وكان يذكر للحظة دوستويفسكي وللحظة بوندارنكو وللحظة اللاجئين السياسيين والهاربين الروس المتضامنين الذين لم يستطع التفاهم معهم بأي شكل من الأشكال، خصوصاً صحفيي وكتاب اليوم الذين لا يعرفون كتابة ما يجب عن الناس الحقيقيين والمواضيع الحقيقية. وأنهى (تيراديه) حديثه بالملاحظة التالية: «من سنين طويلة، من وقت التراجيديا الفريدة على كروس لابن تحديداً، يلاحقني الشعور بالموت، بالنهاية المفجعة الفقيرة التي لن تذكر جريدة ابندتسايتونغ حولها ولوِ حرفاً واحداً...».

- ١١ -

تموه مارك بثياب شحاذ، ولم يكن في حياته أكثر حرصاً من الآن وهو ينعطف في شارع شيلر. أراد سماع ما يقوله اللاجئون السياسيون والهاربون وآكلو لحوم البشر الآخرون، الحائمون حول المحطة عن أحداث مزبلة كروس لابن. تفاجأ بأن أحداً لا يعرف شيئاً.

صادف فرومكين على مدخل مقهى شيلر. كان أشبه بالحمالين الذين يسحبون وينتعون فوق الأرصفة وهم يتفسخون أحياء، أولئك المنتظرون الموعون لقطار البلقان السريع، وقد احتضن على صدره كتابه الشبيه بدفاتر

أمناء المستودعات. كان يُري الجميع أوراقه وزواياه التي سجل عليها بالاسم والعدد كل أعضاء المجري.

لم يصدق أحد فرومكين، كما لم يصدقوا أنه كان يملك أوديسا، ولا أنه اختُطف من داخل ذلك البار النتن وحُمل إلى الجبل لعند ريتشارد، وعاد منه مسروقاً، مقصوص الأذنين، وقد استبدل دمه بدم خنزير. ابتدأ فرومكين يستشعر الموت البشع مقتولاً ومغتصباً. وضحك الجميع من قصته عن شعبان الثاني وملايين الجرذان لديه، حتى أولئك السكارى والمشوهين.

قاده مارك على طول شارع غوته. واختبأا من الأتراك السائرين كمجموعات هائجة تفوح منها روائح الدهن من آسيا الصغرى، ورائحة الأجواء غير المهواة والكلس الألماني. وامتلأت روح العجوز بإلهام ما بعد منتصف الليل، وهما يسيران باتجاه شارع بايرن والمحطة، حتى بدا كأنه يسير زاحفاً على الرصيف:

«مارك، يا صديقي. إذا أردت أن تساعدني فاقبرني على طريقتنا وعاداتنا الشرقية. إنها الطريقة الوحيدة التي تمكنني في ذلك العالم لأكون مع الفقيرة اليهودية أوديسا هيرسونا. لا تصلّب لي يدي، بل ضع لي في كل يد شوكة، الأشواك تنمو في ذلك العالم وتصبح بحجم العكازات. بدون تلك العكازات لن أستطيع يوم الحساب أن أمشي ولا خطوة. ضع قطعة بورسلان على جفني أو أي شيء بارد ونظيف. نحن اليهود أكثر ما نحزن على العينين. وليفسخ الدود البافاري كل قلبي وعقلي قبل عيني...».

ترك مارك فرومكين وراء برميلٍ للقمامة ليتقي المطر ويستلقي. وحينما عاد للمحطة رأى عند أحد المنعطفات: أنور باباك.

كان على جمجمته خوذة عمال بلاستيكية، وقد تدثر بشيء يشبه الكاب. وكم رغب أنور أن يعانق مارك، لكن رغبته كانت مستحيلة. كان مبتور اليدين من الكتفين. وقف مارك مشدوهاً ينظر إليه بوجهه النحيف جداً، المتغير المعالم، المليء بالتجاعيد.

«أنور، أخي، احكِ لي!».

«حينما لم أرغب بقتل قنصل يوغسلافيا في ميونخ، قادوني - كعقاب - ثانية إلى الجبل وحظيرة الخنازير» ابتدأ أنور بصوت ليس فيه كراهية، ولا ثأر «استمر بتر يدي اليمنى أكثر من ساعة، حتى تعب الغول من شدة البكاء والاستنجاد بالأرواح. تلك الليلية لم يستطع الغول خلع يدي من أول مرة. عفسها، ضربها، بصقها، ولو لم يسعفه المرتدون لأثواب فرانيفيش، لما استطاع تحرير يمناي ولا بالضربة العاشرة!. رأيت كيف تأكل جوزفينا أصابعي، وكيف يعزف الشيطان فوقي. شفيت، وحفظت عن ظهر قلب بعضاً من تقاويمه. وكان على سجل الموت قنصلنا في شتوتغارت. وانطلقنا. كانوا يحملون كيساً مليئاً بالحشرات، وخنزيراً أسود، وأنا أحمل القنابل. وكان يجب أن نفعل ذلك بالطريقة نفسها التي قتلوا بها سابقاً رولوفيتش، سفيرنا في السويد. وافقت، وأنا أدور حول القنصلية. وبدل أن أقذف القنبلة على القنصلية. رميتها على سيارة الصالون التي نزلنا بها من الجبل. وتصور، خانت ابنة الكلب ولم تنفجر!. عدنا إلى الجبل بدون الخنزير وكيس الحشرات والقنابل. قص ديمتر الأكرايني يدي اليسرى وهو يقول إن الطوفان بات قريباً. كان الغول يعزف. وابتدأت من كل الجهات أصوات.. روك.. روك.. روك.

كانت جوزفينا تحرك شاربيها، والخفاش يطير، وفراشات الليل ذات الأجنحة الفضية. وكما حدث تلك المرة، قادوني قبل أن تندمل جروحي. سحبوني وسلموني لأحدهم هنا، في المكان الذي تراني أتسول فيه من هنا إلى المحطة. وأرجو الله أن يأخذ روحي...».

- ١٢ -

كان بيت يرمولاي في ليسابون[1] أكبر من بيته في موينخ. ولم تكن جدرانه مزينة بالأيقونات أو الرسوم أو الصحون المنقوشة من طينة روسية مشوية، ولا هُيأت الحقائب للشحن في قطار الشرق. كان ضوء القنديل ينير كيساً مليئاً بالكونسروة والأدوية، وصناديق ذخيرة ومتفجرات، وتلالاً من الأسلحة الأوتوماتيكية.

طيلة ذلك الشتاء، جلس يرمولاي ومارك في ليسابون يتذكران ميونخ واللاجئين السياسيين والهاربين الفقراء المرضى بالأنفلونزا. كانت القوة تعود إلى جسد يرمولاي. وكان يسكر بشدة، ويكتب لجريدة ابندتسايتونغ. وكان مارك مضطراً، يعلم الله لأي مرة، أن يحكي له كيف دُفعت كل ديون دستويفسكي في بادن بادن.

ابتدأ يرمولاي أغنية كولار:

«لا تعاتبوني بعد اليوم.

ما دمت لا أعلم ما الذي سيحصل.

---

1 - عاصمة البرتغال. - المترجم -

ولا أستحق العقاب...».

عانق يرمولاي الزجاجة وبكى.

تابع مارك وهو يدهن رجلي سيده بدهن الكورتيزون:

«من يشرب النبيذ في الفجر.

من يؤلمه قلبه المطعون.

ليس له أي أمل...».

بكى مارك أيضاً من شدة السكر والفرحة. لقد أصبح اسمه في جواز سفره البرتغالي الجديد، الذي حصل عليه من الروسي قبل مغادرتهما ميونخ بيوم واحد: اسكندر يرمولايفيتش كوزنيكوف.

كان يرمولاي كوزنيكوف الأب واسكندر كوزنيكوف الابن[1] يذهبان ليلاً إلى ضفاف نهر تيو الواقع بجانب مدينة صغيرة اسمها فيلا فرانس. وكانا يزوران مجموعاتها المؤلفة من اللاجئين السياسيين والهاربين. وكان يرمولاي يملك إضافة للسلوفاكيين والمجريين والرومانيين الكثيرين من الألمان الشرقيين والأستونيين واللتوانيين. وكان تجار اللحم البشري الأوروبي الشرقي الرخيص يأتون بسيارات الجيب وسيارات أمريكية، وأحياناً باليخوت. وكان أصحاب المزارع البرازيليين الإقطاعيين وأصحاب الأراضي الواسعة يفضلون ويدفعون نقداً ثمن الرجال المجريين والأكرانيين. أما صيادو التماسيح والثعابين وأصحاب أساطيل السفن، فلم يكونوا ينتقون. كان يرمولاي يكدس لهم أولئك الذين يرتجفون خوفاً

1 – مارك.

وصقيعاً عندما يحشرونهم في السفن. وكانت النسبة الغالبة في تلك الحثالة بلغاراً ورومانيين وروساً. أما الضباط البرتغاليون ومنظمو الحروب فقد كانوا يأخذون لأنغولا وموزامبيق وغينيا كل الذين كانوا يحبون في أوطانهم السابقة السرقة والاغتصاب والذبح كما قالوا. أما لروديسيا ومملكة لوسوتو واتحاد جنوب إفريقيا فكان يذهب التشيكيون والأستونيون والبولنديون، حتى أصبحوا هناك بالآلاف. أما الضباط الإفريقيون ورؤساء القبائل الذين يسمون أنفسهم بالأمراء والملوك، فكانوا يأخذون لحاشياتهم كغوريلات وجلادين أكثر اللاجئين حباً للدم، اليوغسلاف والألمان الشرقيين والمجريين. وقد اقترب أحد زعماء القبائل من يرمولاي ممتطياً رجلاً ألبانياً وهو يمأمئ، وعظمة فيل تتدلى من أنفه قائلاً: «في القريب العاجل لن تستطيع أن ترى رجلاً أسود لا يركب رجلاً أبيض تحته». وافقه يرمولاي بهزة من ذقنه وهو يحشر النقود في الخزنة الحديدية. ثم حدثه عن التجارة الجديدة المرتقبة للتعساء السود - أوروبيين...

- ١٣ -

عاد يرمولاي كوزنيكوف الأب واسكندر كوزينكوف الابن إلى ألمانيا عن طريق صقيلية وكورسيكا. كان بانتظارهما أمام بيتهما في ميونخ على الرصيف، بوندارنكو. استلا مسدسيهما واحتلا مواقع مناسبة. عندها لاحظا أن بوندارنكو يرتجف ويسعل.

«هوهول، أأنت!؟» هدر يرمولاي.

«باشوشكا يرمولاي. أنا انتهيت» قال بوندارنكو بصوت مريض وهو يركع.

«انتصب يا بوندارنكو!».

«كيف أقف ولا قوة لي، لا كبرياء ولا شرف...».

«أين شارباك؟».

«باشوشكا. لقد حرقهما الفلاشيون والتشيكيون والكاجوبيون. ولن ينبتا ثانية. طري الجلد ولم يعد يندمل، يجرحه الالتهاب، حتى إنني لم أعد أستطيع البكاء كإنسان. تحرقني الدموع وتقرص جراحي...».

«وأين جيشك، جيش المرتزقة المعذبين؟».

«حيواناتي الكاسرة؟ حثالتي؟... لقد شوهوني وهربوا، تفرقوا في ألمانيا!».

«سأهديك رتلاً إذا شئت!».

«يرمولاي، أنت تعرف أن القيادة بدون شاربين غير ممكنة!».

«هوهول، ومم ستعتاش؟».

«من عمري لم تهمني حياة العالم الأرضي».

«منذ متى وأنت راكع هنا؟».

«ثلاثة أيام وثلاث ليال».

«ومن تنتظر؟».

«يرمولاي، حددت أمام بابك الموعد العشرين مع الإله. مع إلهنا! لنتحدث حول اللجوء السياسي والهروب عامة، وحول الإشراك، ويأس

البشرية العام وفقر الأرواح، حولنا نحن السلوفينيين، الذين نتنفس برئة واحدة في هذا الغرب. وبما أنه الموعد الأخير الذي أحدده له، فسوف أهجم عليه، وأقول له كل شيء يثقل على روحي المتعبة في آخر وأطول ثلاثين سنة عشتها..».

«أراك تتعذب فعلاً يا هوهول» قال يرمولاي بصوت خفيض، وهو يداعب بوندارنكو بشعره الكثيف الأجعد. «يا صغيري الفقير!».

«يرمولاي. اعذرني لأنني رغبت بقتلك مرات كثيرة! واسمح لي من هذه الليلة أن أثق بك. لا يمكنني أن أعيش بدون أمل، بدون خوف من إله. سأذرف أمامك بعدما تشفى حروقي الدمع سخياً.. من أجل نيراننا التي انطفأت..».

«بوندارنكو، لنرفعك أولاً وندفئك».

أسرف كوزنيكوف الأب وكوزنيكوف الابن بعهرهما في البيت مع فتيات المحطة. طلب منهما بوندانكو أن يطفئا المصابيح وأن يشعلا حوله مئة شمعة. نفذا رغبته. كان يرمولاي يطّق الكرباج في الهواء مصدراً أصواتاً كالطلقات، حتى صرخت الفتيات مستغيثات. صلب بوندارنكو أمام أكياس يرمولاي الترابية، وانتصب في فجر اليوم الرابع واختفى مع أكبر وأعتق صليب ليرمولاي، بعد أن ترك عند الفتيات ورقة سجل عليها عدة جمل بخط سيء: «باشوشكا، اعذرني لأخطائي المتكررة التي ما قمت بها إلا عن جهل. أنا أكرايني مثلك. وسوف استخدم منذ الآن أسلوب نظافتك. ساعدني، وبصحبتي الصليب الدوني، لاختطف مدينة كييف من الشيوعيين، أو اقتلني، يا أخي في الصليب وأخي في عذابات اللاجئين السياسيين والهاربين!».

نسي يرمولاي بوندارنكو كما نسي كولار قبله. وبقي لأيام طويلة يجرع الجين وهو يعدُّ بيان اللاجئين السياسيين والهاربين، جالساً بين الشموع، التي كانت تُشعل بدون انقطاع منذ اختفاء بوندارنكو. وكان يرمولاي يرتب الأفكار والهجوم والابتزاز. ذكر في معرض حديثه الرصاص وقنابل التري نيترول[1] وجريدة ابندتسايتونغ، التي يجب أن تُمحى هي ومحرروها من وجه الأرض إذا لم تنشر هذا البيان المعدَّ والمرسل إليها للمرة الخمسين.

كان مارك يكتب. وحتى يعلم يرمولاي متى وكيف ستُحتل كييف، كان يسمع دائماً راديو صوت أمريكا ومحطة ليبرتي وأنقرة. وكان يعود عابساً لشموعه ودخانه وشرح شروطه لجريدة ابندتسايتونغ.

- ١٤ -

كانت حدقتا أنور واسعتين مشلولتين، ينتشر فيهما جنون هادئ. كان دائم التلفت، خفيض الصوت لدرجة مدهشة. ولم يعد يذكر أولاده الصغار الجائعين. حتى تهيأ لمارك أنه لم يكن يعرف عنهم أي شيء منذ زمن.

تحدث أنور عن الخنزير الأسود. وحسب روايات البعض، هربت جوزفينا المجنونة بالموسيقا واستغاثة المختطفين والمشوهين من قصر ريتشارد. بينما قالت روايات أخرى إن عازف الكمان أطلقها عمداً وهو يعزف لها عن البعد ويوجهها.

1 - مادة شديدة الانفجار. - المترجم -

كانت جوزفينا تسيح كجرم سماوي أسود في جبال الألب طولاً وعرضاً. كانت في براناو – م.ن، وفي نهر لينز. اغتسلت هناك وتدللت. عضت خنازيرهم، وقرصت خيول النمساويين وأبقارهم. مزقت أجساد الأطفال كأنهم سلوفينيون. واكتسب سائقو التراكتورات وسعاة البريد والجنود من عضتها التهاب السحايا. وكان خوارها يذكر البافاريين بهدير العاصفة. لوثت المواسم والحقول بغائطها المدمى، حتى لم يجرؤ أقوى كلاب الرعاة على الاقتراب منها. أشعل البافاريون النار حول الحظائر والبساتين، وغنوا من الخوف أغان حماسية قديمة.

وقد اعتقد أنور أن ما فعلته جوزفينا كان حكيماً. فقد دخلت ميونخ من جنوب الشرق، من طرف سترانبرغ بوشن دورف بدلاً من الطرف الشرقي حيثما كان الهجوم متوقعاً. في ميونخ هاجمت بعض الحانات والمتاحف ومخازن بيع أحذية (سالا ماندر). وكان السكان مذعورين. أما الكثرة الآخرون فقد قادهم ذلك الهرج والعبطة للضحك.

وقد سمع أنور، ولم يرَ، كيف كانت جوزفينا تقفز كحصان جامح أمام رجال الإطفاء والشرطة على طول شارع ليوبولد. وإن أكبر معركة جرت معها كانت في حديقة أنكليشر وبوكن هاوس ودانينكو، هناك حيث كان أنور يتسول غالباً. وكانت بقفزها داخل البيوت والكراجات، واختبائها في الحدائق والمسابح، تضيع الأثر. وأعاقت بحلول الغيوم الكثيفة والهروب تجاه الدانمارك وسويسرا، الدوريات خلفها.

وقد تأكد أنور أن جوزفينا هاجمت قنصلية يوغسلافيا إحدى عشرة مرة وهي تجعر. وتركت في كل مرة، أمام الباب الرئيسي، شيئاً يشبه الخازوق المدمى، وكأن الرصاص لم يرغب بها، واتجهت بذنبها المعقوف وأثدائها

الضخمة إلى مكاتب شركة الطيران اليوغسلافية، ثم على الألمان المتواجدين في دار للسينما بشارع سونن وهم يشاهدون فيلماً يوغسلافياً حربياً بالألوان.

ولم يعرف أنور كيف وصلت جوزفينا إلى منطقة المحطة. حيث شوهدت عن كثب كما أكد شهود العيان. كان فكاها مفتوحين، وشارباها مغسولين بالدم، ملتصقين حول فمها، وقد سُرح شعرها بفرق في المنتصف. هناك مزقت بمخالبها وأنيابها شخصاً يونانياً في شارع شيلر، وفي شارع غوته تركياً يحمل ترانزستور. ثم اخترقت الجموع متوجهة إلى شارع باير، حيث كان عمال المحطة والمسافرون الذين لم يستطيعوا التقدم إلى الأمام والمطاردون لجوزفينا، ينتظرون مع مكبرات الصوت. انعطفت لليسار، وسارت موازية للحافلة، وهي تجعر بصوت مخيف. «أعرفها أيها الناس. أكلتني حينما كنت في الجبل». صاح أنور، وانطلق خلف المطاردين.

وإذا لم نحسب التركي مع ترانزستوره، واليوناني، والطفل في عربته، فقد كان اليهودي أول ضحية لجوزفينا في ميونخ، لقد وجدت جوزفينا فرومكين تحت دونر بروك. لم يقاومها. وقد تهيأ لأنور أن فرومكين كان يختلج وينتفض، وهو يذكر أوديسا وأشمداي ودراكولا.

ولم يستطع أنور أن يرى كيف قطعت جوزفينا شوارع نيوهاوزن وميلبروفريمن، حاملة فرومكين بين أسنانها. لكنه كان متأكداً من ذلك لسماعه عن البعد استغاثة فرومكين بكل لغات شرق أوروبا، وآخر حقاراته باللغة العبرية. وظهرت جوزفينا على مزبلة غروس لابن والصيد بين أسنانها، لتحطم طرقات وآثار شعبان الثاني. حتى اعتبرت الضيف الوحيد الذي لم يُسرّ الشعبانيون لمجيئه. استل شعبان الثاني رشاشاً أمريكياً

ضخماً. لكنه بعد أن تعرف على فرومكين من دفتره وأشفق عليه، دسَّ فوهة الرشاش في جبل القمامة.

قفزت جوزفينا كفقمة من الشاطئ في نهر إيسار، فقفـز خلفهـا جـرذان شعبان الثاني القصار، حتى اسودت مياه النهـر. ولم يـستطع المطـاردون مـع كلابهم، ولا رجال المطافئ وعمال السكة الحديدية الذهاب إلى مكان أبعـد. رمـوا مكـبرات الـصوت في نهـر إيـسار، وقـذفوا الخـوذات البلاسـتيكية والأفخاخ المصنوعة من الأسياخ أرضاً، بينما كانت جوزفينا تستمر مع تيـار الماء باتجاه الشرق، تجاه جبل ريتشارد.

وقد تأكد أنور فيما بعد أن جوزفينا لم تخترق ميونخ لتختطـف فـرومكين اليهودي منتقمة بذلك لكولار المجري، بقدر مـا أرادت أن تلفـت الأنظـار إليها وإلى حركتها، أنظار الـصحفيين المـرتبكين العـاملين في راديـو بافاريـا وجريدة ابندتسايتونغ.

ودع مارك أنور أمام دونس برك بروك، مكان استسلام فرومكين لخنزيرة حياته..

- ١٥ -

استلقى يرمولاي على الأرض محنياً داخـل غرفتـه. كـان يمـوت، وهـو يلامس بإحدى يديه صدره حول القلب، ويضرب بـالأخرى أبـواب مخبئـه السري الواطئ، الذي لم يطلع على أسراره أحداً ولا ابنة المتبنى. وقف مـارك فوقه يرتعد.

كان يرمولاي قد ارتدى ثوبه الاحتفالي، كتلك الليلة حينما ذبحوا كولار، وهو يحملق في كل شيء، راغباً في فهم وحفظ خريطة الإمبراطورية المفرودة على الحائط بين الخوذات العتيقة وبنادق البارود والأعلام المؤطرة بالذهب المثقوبة برصاص البولشفيك، والتحف الدونية والقنديل المصنوع من فضة يونانية عتيقة، ومئات الشموع التي كانت تشعل دون انقطاع منذ اختفاء بوندارنكو، كل عالمه الكبير المليء بالدخان. وكان مارك الراكع بجانبه، يرجوه ألا يرحل. وكان يرمولاي حينما يتوقف لحظة عن الاختناق، يشير بيده إلى المخبأ السري، والكيس المليء بالتراب والأيقونات الأرثوذوكسية. حتى لم يعد مارك يعرف ما يفعل.. وراح يتذكر:

جلس يرمولاي ومارك تحت خيمة كبيرة. حيث كان يستضاف «سيرك» من موسكو. شاهدا تلك الأجساد الطرية الناعمة للفتيات وهن يقمن بالتمارين الصعبة على المتوازي المعلق. حيث يطرن حتى سقف الخيمة، ثم يعدن إلى الأرض راكبات على خيول يجهزها ويحشرها تحتهن شخص يقف بجانب السور. وكان النمر يقفز خلال دائرة مشتعلة، وعلى صيحة «خاراشو»[1] كان الفيل يركع على ركبتيه، والقردة تسوق العجلات، وتصطدم ببعضها البعض. بينما يقف أثقل الدببة على رأسه مجتذباً الضحك. وحينما ظهر الأطفال بلباس الدون الأعلى، أدخل يرمولاي يده لأول مرة في صدره وقال لمارك إنه لا يصدق أن تتحمل أعصابه هذه الفقرة لآخرها وهو في كامل وعيه.

رقص الأطفال وغنوا: «كالينكا يا صغيرتي» كان يرمولاي يضعف بشدة، ثم رعد يطالبهم ليستمروا بأغنية مطلعها: «في الغابة ولدت ظبية» فانفردت إحدى الفتيات عن المجموعة لتأخذ مكانها على الطرف الأيسر

---

1 - جيد، صحيح بالروسية. - المؤلف -

للمسرح، وانفرد طفل حمل على صدره أوكورديون ليقف قبالتها. وبصوته الناعم الرقيق، وتعابير الكبار على محياه، غنى:

كم من السنوات تعذبت

وسأتعذب أكثر..

لولا نظرتك الحنونة..

آه يا عزيزتي، حنّي علي

أنا تحت نافذتك ارتجف..

سمعت أصوات صراخ واستغاثة، كان صراخاً من الأحشاء. حتى وقف البعض، مثل يرمولاي، يندبون.

وحينما استدار الروسي تجاه الأرض التركيبية تحته، ثم ناظراً إلى الطفل وهو يشد آلة العزف إلى الأمام ويغني:

«أين تقودني يا طريقي الضيق.

أين تقودني، وتناديني..».

وحينما ابتدأت الطفلة تعبث بضفائرها الصفراء بلون الذهب، وهي تقول:

من انتظرتُ..

من أحببتُ؟!..

ارتمى العجوز في حضن مارك بدون حراك، كأنه أصيب بنجمة من السيرك. «أيها البلشفيون الملعونون!» همس يرمولاي، وهما يخترقان الزحام تجاه شارع جورج، «أنا أهجم عليهم منذ خمسين سنة بالديناميت والألغام

والتري نترول، وهم علي بأصوات الأطفال» وأضاف بينما كان مارك يدخله إلى البيت: «أنا بالوسخ، وهم علي بالجمال! بالأكرديون، بالأغاني!» وقال حينما وقع من كرسيه على الأرض وأخذ وضعية لا زال عليها «يا بني في كل مكان يقولون: لا تهجم على الروس بالنار والرصاص... بل بالأطفال، كما يفعلون الآن معي. افتح مخبئي السري!».

أطاعه مارك، واقتلع الخشبة. هاجمته روائح نتنة وعفنة. استطاع بعدها أن يرى الهيكل العظمي المسجى على المخمل الأزرق. كان كل ضلع، كل فقرة ومفصل في مكانه. كان كله من الجمجمة حتى عظم الحوض ممدداً ومفروداً. امرأة بلون القطن المغسول. كانت إحدى يديها ممدودة. بجانبها بطاقات مبعثرة. وعلى أغلفة أحد الكتب عنوان: روسيا في اللهب. وعلى الثاني التقمص وبعث الموتى. لمؤلفها نيقولاي فيودوروف.

وتهيأ لمارك أن يرمولاي يتنفس العفن في مخبئه السري هذا، حيث تشابكت خيوط العنكبوت، وتحركت مفاصل الردفين بجانب الجمجمة، وانفصل الشعر عن العظم. توجع يرمولاي ثم اصطدم رأسه بالأرض.

«باشوشكا. هذا قبر روسي لك!» بكى مارك، وهو يسفح فوق الجسد المسجى كيس التراب المجموع منذ خمسين سنة.

«أبتي، ماذا سأفعل بدونك الآن؟».

وقف مارك عند العتبة. كان لهب الشموع الكثيرة ينير الأيقونات والخوذات الدخانية والأعلام. نظر لكل شيء من خلال الدمع، فبدت هضبة قبر يرمولاي أكبر. صلب مارك بخشوع، وصلى لتهدأ روح الروسي، وفكر للحظة كيف تنبت من ذلك التراب وتتماوج أعواد القمح..

أحس مارك أن أجراس كنائس ميونخ قد تجمدت. استل مسدس الفالتر من خصره وهيأه مع كاتم الصوت. خبأ الخزان والسكين ذات النابض تحت معطفه المطري. وأغلق وراءه كل الأبواب، ثم هبط الدرج.

وحتى لا ينعطف يميناً تجاه شارع ليوبولد، اتجه شمالاً ليصطدم بتوتال، وهو يقود عشرة لاجئين سياسيين هاربين جداً، بدا من أشكالهم ولهجتهم أنهم تشيكيون. وكان توتال يشتمهم بالألمانية وهم يرتجفون. أسرع مارك تجاه التكسي الذي توقف ليقله.

- ١٦ -

كنا في صالة المحطة في ميونخ، وأنا أحمل أنور على كتفي. لا بد أنه كان يذكر الناس بديناصور حي، ما داموا ينظرون إليه هكذا. بكى أنور واسترحمني طويلاً لأقذفه في أي برميل للقمامة. ولم أستطع أن أقول له إننا نهرب حقيقة إلى الوطن.

لمحت محطم الخزائن الألماني الأشقر الممشوق كوفنر. كنت قد تعرفت إليه سابقاً قبل أن أقابل كولار. عملنا معاً، وسرقنا من قطارات الليل والمتاحف. كان عند باب المحطة وهو يقود يانوشا حبيبتي التشيكية. كانت مغطاة بشالات ومعطف سميك. حبلى، يهتز بطنها أمامها للجهتين. كانت تمشي بصعوبة، مما اضطر كوفنر لسحبها تقريباً. كانت تحمل خرق الطفل المهلهلة وأدوية وأشياء أخرى للولادة. غالبها الطلق عدة مرات وأنا أبحث عن الرصيف الذي يقف عليه قطار يوغسلافيا.

«مارك، الطلق يأتيني..».

«يا تشيكيتي الحبيبة، لا تلدي فوق الإسمنت!» قلت لها، وأنا أخترق الزحام بين المسافرين.

«أخاف أن ألده مشوهاً، ميتاً...».

«عضي لسانك يا تشيكية. لا تتفاءلي سوءاً!».

«سبعة سنوات مضت يا مارك منذ أن أمرتني بعدم الولادة» بكت وهي تمسك ثقلها وتمشي بصعوبة.

«احتملي للحظات فقط!» كنت أتعرق حاملاً أنور: «لنصل إلى منطقتنا الحرة فقط هناك يوجد تبن!».

لم تفهمني يانوشا.

مشينا من رصيف إلى رصيف. كنا نتزاحم. حام حولنا بعض المنحطين السكارى. وحتى نضيع الأثر، سرنا فوق الخطوط الحديدية. عبرنا خلال القطارات المليئة بالركاب. كنا نمثل دور الذاهب إلى الشمال. كان السكارى المغفلون يتبعوننا، لاجئون سياسيون وهاربون مع صحفهم ونشراتهم، بائعو ومقتنو قوة العمل الرخيصة الواصلة من الشرق، عالم متكامل عكر، مريض، مواز، كان يتبعنا.

«كوفنر، ألا تزال اللغة الألمانية هي السائدة في ميونخ؟».

«هذا مؤقتاً يا مارك!».

«ما هو المؤقت؟».

«الألمانية لغة مؤقتة». ضحك. وهو يمسك تشيكيتي من كتفها.

«كوفنر، في حياتي لم أرَ لغتك أجمل مما هي الآن، قبل الهروب!».

«أراها تشبه البوسناوية!» كان يمزح، وهو يغمز أنور المذعور: «يجوز لأنني باقٍ هنا!».

«كوفنر سنوات عديدة قضيتها في وطنك دون أن أسمع لغته! تذكر كيف كنا نتفاهم مع حراس السجن بالمجرية والتشيكية والبولندية! كم أنا حزين لأنني لا أحمل معي من هنا أغنية ما..».

«لم يعد يُغنّى في ألمانيا!» قال ذلك واجداً لي العذر.

«يُحكى أن بيوت الألمان نظيفة ومفتوحة على مصراعيها لكل من يريد دفئاً إنسانياً، عملاً شريفاً، أو خبزاً».

«شخصياً أدخل تلك البيوت حينما تكون مغلقة فقط!».

«يُحكى أن سهول ألمانيا وبساتينها خضراء حتى شتاء».

«مارك، أراها من القطارات فقط. ليلاً!».

«يُحكى أن حدائق ألمانيا هي الأجمل، وهي مليئة بالورود والنحل».

«لا أعمل في الحدائق».

كنا أمام قافلة القطار الطويلة، قطار البلقان أكسبريس. كان كوفنر يمسك تشيكيتي ويسندها بقوة. بينما أستند أنور على القاطرات التي كنت أفتح أبوابها (بالقلاووظ).

«كوفنر. نحن لا نهرب من ألمانيا أو الألمان. مطاردونا هم أناس آخرون. لقد رأيت...».

«أستطيع أن أخبئكم أيها الأصدقاء».

«كوفنر، لا نستحق مثل هذا الحب».

«لدي بيت على حدود الدانمارك».

«ما يليق بي هو الأسر، وليس البيت!».

«مارك. كأنك تستسلم؟».

«يا صديقي، أنا أعود إلى هناك فقط. إلى المكان الذي هربت منه دون سبب وجيه. سأقول لهم هذا أنا! لديّ ما أعترف به. وليفعلوا بي ما يريدون!».

«ستنام في السجن».

«ومعهم حق يا كوفنر. عزائي الوحيد لو أنهم يجدون لي غرفة سجن منفردة في قطار. متر أو متر ونصف المتر فوق الأرض، لكي أتحرك! حتى لا أتفسخ في مكان واحد! لأصافح بيدي ذات الأصابع الأربع كل العالم، لأعيش في الحرية للأبد! وأن أصبح مثلاً..».

«والتشيكية؟».

«ستعمل في معمل ما!».

«وأنور؟».

«ستكون صوره لبعض الوقت في كل الصحف. وسيضعون حزاماً أسود فوق عينيه. وسوف يقدمون له الميكروفون. ومهما سألوه فلن يتحدث إلا عن الخنزيرة السوداء بوردة بيضاء على جبينها. سينكيف، ويتحول، ويُذكر، ويُقارن. وإذا لم يخنه عقله، فسيعمل في السيرك، ليريهم كيف يمكن لفم الآدمي أن يقوم بكل ما كانت تفعله الأيدي. وسوف يخفي عن أولاده أنه ما زال حياً...».

أصبح أنور ويانوشا في القاطرة. كانت يانوشا تسند بطنها بيديها، وأنور يضرب رأسه بالنافذة، كأنه يعطي إشارة ما. ومن مكان ما سمعنا صوت أغنية.

«مارك، كيف سأنقضّ بدونك على قطارات الليل، وعلى مراكز البريد؟».

«كوفنر، المهم أن تحافظ على يدك اليمنى، أصابعك!».

«أخي. وأنت على عينيك ورجليك!».

«كوفنر. سألوح بيدي من تحت المقصلة، أحييك عن البعد!».

«مارك. وأنا سألوح لك!».

تعانقنا. قبلنا بعضنا كلصين في الجبين. انطلق قطار البلقان السريع، دون أن يبارح كوفنر مكانه. ثم قفز كجرادة داخلاً في قطار هامبورغ، ولوح بيده مودعاً.

لم تكن تشيكيتي ولا أنور يعرفان أنهما موجودان في قسم الموتى من قاطرة يوغسلافيا. ولا رغبت أن أحدثهما عن ذلك قبل الفجر. كانت الصناديق والصلبان المصنوعة من أرخص خشب سويدي وهولندي وألماني مصطفة خلفنا. تعرفت بينها على العديد من الأسماء مع تواريخ الميلاد وتواريخ الموت وعنوان المرسل إليه.

وقفت يانوشا أمامي. أمسكتها من كتفها. ولا أعلم في أية ساعة من الليل اهتز قطارنا، فاتجهت الصناديق والصلبان نحونا. ثم انسحب قطارنا بقوة شديدة. ومن قوة الاهتزاز أمسكت يانوشا بطنها بقوة، ثم ابتدأت

تضغط على نفسها وتهبط باتجاه الأرض. ركع أنور على ركبتيه. كنت أمسك بها من الكتفين. كنت أنتظر معجزة - مشوهاً أو ميتاً!.

«أنور، أخي، ماذا سنفعل الآن؟».

«لا تهتم... أعرف كيف يمكن استقبال الطفل.. الخنزير بقوائم!».

«أنور، أتعلم ما الذي قلته؟!».

«خنزير بقوائم».

عندها ملأ صوت صراخ تشيكيتي حجرة الموت هذه.

«أنور، ما الذي تحتها؟».

«طفل!» مأمأ أنور من داخل القش: «قطعت حبله السري بأسناني!».

«أنور، أصبي هو أم بنت؟».

«ط - ف - ل -! ط - ف - ل - حـي! بـدون زعـانف! بـدون آذان كالشيطان! بدون شعر كلب! بدون ذنب خنزيري أسود وملتف».

كنا في جبال الألب. كان قطارنا يرعد. تهيأ لي أننا كنا نعبر صقيعاً أبـدياً. كانت الهاوية ترجع الصدى، والنهار ينفصل عن الليل، كما تتوالد الأفكـار الصحيحة من المريضة.

هبط نظري من تلـك الأعـالي الـصخرية العملاقـة عـلى الجبـل. رأيـت ريتشارد قلب الخنزير. كان على صهوة جواده. على رأسه خوذة قديمة مزينة بصليب دام، وقد لفع كتفيه بقماش كرباتي شغلت عليه ديوك سوداء.

كان ريتشارد مطعوناً، واضعاً يده الخشبية على رأس الخـازوق البلـوطي المدبب الذي اخترقه من منطقة القلب. يقود الحصان بيده الأخـرى المخبـأة تحت الكاب، المغمورة نصفها بالضباب ونصفها بالدم.

لابد أن ريتشارد قد انطلق للصيد أو عائداً إلى إنجلترا عن طريق السويد والدانمارك. كان ثلاثة ممن كوّنوا أقرب مرافقة له يحملون الرماح ويلبسون دروعاً فاتحة اللون، على خيول لامعة القوائم والأذناب. كانوا يغنون «هالالي» وعلى كتف كل منهم صقر ميت.

لقد قاد ريتشارد بدل كلاب الصيد قطيعاً من خنازيره السوداء، كانت ظهورهم تلتمع، عرفتهم، وقد بدا أنهم يفهمون أوامر سيدهم بتلك اللغات المكونة حديثاً، وأنهم قد تمرنوا على كل أنواع القفز، وحمل بعضهم بين أسنانه لحم أرانب، وبعضهم لم يحمل سوى زبده فقط. وهؤلاء كن جوزفينا.

كانت غوريلات ريتشارد مصطفة بأشكال عديدة. وكان السائرون عن يمينه ويساره قد رفعوا للأعلى أعلاماً مشعبة تشبه الأخاديد التي يخنق فيها الصيد الجريح. أما أولئك الذين كانوا يدوسون أمام حصان ريتشارد وخلفه فكانوا مسلحين بالأسهم والأقواس والبلطات، وكانت أعلامهم بنفسجية. وكان الغوريلا الرئيس عملاقاً، يقطع الطريق في الضباب. على واجهته الأمامية قميص معدني مانع والرقم ١١، ومن الخلف رسم لثعبان إفريقي شديد السمية من النحاس بين كتفيه.

كان مرافقوا ريتشارد وزبانيته مصطفين على حافة الهاوية، هناك حيث تقل كثافة الضباب الدامي. وكان من عادة ريتشارد كلما ذهب في طريق بعيد أو للصيد أن يأمر الحاشية بارتداء ألبسة مزوقة فاقعة الألوان.

لوح المرافقون والزبانية السائرون على حافة الهاوية بأعلام قديمة روسية وأكرانية ورومانية. بينما ارتدى الذين أقاموا دائرة حية على أطراف الغابة

قبعات روسية من جلد بولندي. كانت الريح تعصف بتلك المعاطف المخملية الخضراء والصفراء. وكانت النسبة الغالبة من المجريين والتشيكيين. وكان السلوفينيون واللوجيون الصربيون ينفخون في أبواق كالقرون. وبلغة منقرضة منذ زمن بعيد لقبائل البلطيق، كانوا يخبرون ريتشارد بأن الحيوانات قد هُيجت، وأن المطاردة الرئيسية الكبرى يمكن أن تبدأ.

كان المرافقون والزبانية الراكضون إلى الخلف أمام ريتشارد سلوفينيين جنوبيين أو فلاسي وكاوجوبي. وكان البلقانيون قد تفردوا بين كل اللاجئين السياسيين والهاربين بوضع الشعارات الكابالستية على أعلامهم وقبعاتهم المصنوعة من جلود الدببة. كانت شفاههم زرقاء تماماً. تهالكوا. وانتظروا بخوف فظيع في عيونهم ما الذي سيقوله ريتشارد؟ لكن البارون العجوز كان مشغولاً بالغرفة التي تتحطم متفجرة بقدورها، وزرائب خنازيرها، وبلطاتها النمساوية الضخمة، وهكذا تبقى خراباً، كان يحوم بنظرة عاهرة على هذا المخزن المموه والمغطى بأشكال مختلفة وملونة.

سمعت أصوات صراخ وضربات وصوت تحطم الصفيح. كانت الخنازير تقفز مثل الثعالب. ابتدأ الصيد.

كنت أقف عند النافذة، أسمع هدير قطارنا. كانت المياه تحتنا تبيّض، تفور وتزبد. وقد انتصبت الأخشاب على طرفي السكة الحديدية، في مكان شديد الهبوط. وشق قطارنا طريقه في مساحة ضيقة مؤشرة، بين السماء التي كانت من حجارة وآجر، والأرض التي لم تبدُ في حياتها حقيقية. وكان القطار ينهب المسافات بواد يتجه صوب ظهر الجبل، حتى بدا كلوحة قديمة مشغولة بالخيطان. رأيتُ الغول على حصانه وارتجفت.

بدت وجنتا ريتشارد مهجورتين، مغسولتين بالمطر، مجففتين بالريح. ونُسجت فوق جلده العتيق خيوط عنكبوت رقيقة، مما أكسب وجهه مرضاً أشد قساوة. كانت عيناه القديمتان تعبران عن مرارة. وقد أعاقه الخازوق المغروس بقلبه عن التنفس الطبيعي، كان يجعر بفترات استراحة قصيرة وهو يستنشق الضباب.

«سامحتك بكل شيء، أيها الإنسان المسكين، والمحكوم عليك أن تصبح خلال السنين فكرة سوداء، تعاسة وروحاً شريرة! ولكنت حزنت عليك أكثر وأعمق لو أنك لم تستبدل دمي الآدمي بدم خنزير تلك الليلة المشؤومة في القصر، حتى جعلتني من وقتها أرى الأشياء بصورة مختلفة!».

كانت تشيكيتي وأنور يرقدان فوق الصلبان، داخل القش. بينهما كان طفلي يرتجف. بكيت من السعادة لأنه كان حياً.

أوستربرغ، سفوح جبال الألب اليوغسلافية

أيار - ١٩٧٥

أعمال الكاتب

- الشياطين قادمون	قصص قصيرة
- الذئب والجرس	قصص مسلسلة
- الديك الأحمر يطير باتجاه السماء	رواية
- بطل على حمار	رواية
- مجيء كودو	دراما
- الأصبع الخامس	رواية
- الحرب كانت أفضل	رواية
- جولو.. جولو	رواية

وأعمال أخرى

- هي رواية الشخصيات التي أضاعت اتجاهها وانتمائها، وانحرفت في اصطفافات خاطئة، بأفكارها الغريبة المريضة. رواية ذات محتوى معقد، غني، ومثير.

«مجلة بوليتكا»

- إن مهنة القتل المريعة، والذبح، بنفسيتها البلقانية، ومعتقداتها الدينية، تكتسب في هذه الرواية نقداً إنسانياً وأخلاقياً لا هوادة فيه.

«بولتيكا اكسبرس»

- هذا الكتاب بتفاصيله الدقيقة يتحفنا بأفضل المعايير الفنية، غنى وحرفية لا مثيل لهما بحقيقة الشر في أطر عالمية تجعله رمزاً عاماً ومؤكداً.

«مجلة الشباب»

- عمل رومانسي بامتياز. متاهة اللجوء وفظاعته، في مقطع عام مذهل كرسوم غروسان ورويكل. «من تقرير لجنة التحكيم حين إعلان حصوله على جائزة نين كرواية العام».

- وقوع الملائكة في الجحيم.

«نوفوستي المسائية».

- أجد نفسي كمؤرخ مضطراً للانحناء أمام هذا الكتاب. وأعترف للمرة الألف ربما باستطاعة الأدب التغلغل عميقاً لينير بشمولية أحداث التاريخ. وأمام المحكمة التي ستحاكم الفاشية الجديدة فإن كتاب بولاتوفيتش هذا يمكنه أن يكون صك الاتهام الرئيس.

«فلاديمير دي دير- مؤرخ الثورة وحياة الرئيس تيتو».

- بولاتوفيتش هو رابيل عالم تحت الأرض، وهو هيرونيموس روش الأدب. ولم يكن عبثاً اعتبار روايته هذه أحداث أوروبا السوداء. «نيو زوريخ تسايتونغ»

- بقوة سحرية خارقة في كلماته يقود الكاتب قارئه مباشرة إلى مطبخ الشيطان. إنها الترجمة الأفضل للتاريخ العالمي.

«هانوفر الكيماين تسيتونغ».



تصميم الغلاف: ناي دزاين - (ستار نعمة)